سلسلة تفسير القرآن
17

أبو القاسم الزّمخشري

# الكشّاف عن حقائق غوامض التّنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التّأويل

الجزء الخامس عشر


تدقيق
أسعد جمعة



دار كيرانيس للطّباعة والنّشر والتّوزيع
2024

النّاشر: شركة كيرانيس للطّباعة والنّشر والتّوزيع
العنوان: إقامة الزّيتونة – III/2 – المنار 2 – تونس – الجمهوريّة التّونسيّة
الهاتف: 71886914 216+
الفاكس: 71886872 216+
العنوان الالكتروني: JomaaAssaad@yahoo.fr
معرّف النّاشر: 02-9938
عدد الطّبعة: الأولى
ت د م ك: 978-9938-02-070-6

© جميع الحقوق محفوظة لشركة كيرانيس للطّباعة والنّشر والتّوزيع

أبو القاسم الزّمخشري

# الكشّاف عن حقائق غوامض التّنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التّأويل

## الجزء الخامس عشر

# سُورَةُ الصَّافَّاتِ

# سُورَةُ الصَّافَّاتِ

## مَكِّيَّةٌ، وَهِيَ مِائَةٌ وَإِحْدَى وَثَمَانُونَ آيَةً،

## وَقِيلَ: وَاثْنَتَانِ وَثَمَانُونَ [نَزَلَتْ بَعْدَ الْأَنْعَامِ]

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالصَّافَّاتِ صَفًّا فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ﴾[1]

أَقْسَمَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ بِطَوَائِفِ الْمَلَائِكَةِ أَوْ بِنُفُوسِهِمُ الصَّافَّاتِ أَقْدَامَهَا فِي الصَّلَاةِ، مِنْ قَوْلِهِ –تَعَالَى–: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ﴾[2] أَوْ أَجْنِحَتَهَا فِي الْهَوَاءِ وَاقِفَةً مُنْتَظِرَةً لِأَمْرِ اللَّهِ، ﴿فَالزَّاجِرَاتِ﴾[3]: السَّحَابَ سَوْقًا، ﴿فَالتَّالِيَاتِ﴾[4] لِكَلَامِ اللَّهِ مِنَ الْكُتُبِ الْمُنَزَّلَةِ وَغَيْرِهَا. وَقِيلَ: "الصَّافَّاتُ": الطَّيْرُ، مِنْ قَوْلِهِ –تَعَالَى–: ﴿وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ﴾[5] وَالزَّاجِرَاتُ: كُلُّ مَا زُجِرَ عَنْ مَعَاصِي اللَّهِ.

---

[1] سُورَةُ الصَّافَّاتِ، الآية .

[2] سُورَةُ الصَّافَّاتِ، الآية 165.

[3] سُورَةُ الصَّافَّاتِ، الآية .

[4] سُورَةُ الصَّافَّاتِ، الآية .

[5] سورة النُّورَ، الآية 41.

وَالتَّالِيَاتُ: كُلُّ مَنْ تَلَا كِتَابَ اللَّهِ، وَيَجُوزُ أَنْ يُقْسِمَ بِنُفُوسِ الْعُلَمَاءِ الْعُمَّالِ الصَّافَّاتِ أَقْدَامَهَا فِي التَّهَجُّدِ وَسَائِرِ الصَّلَوَاتِ وَصُفُوفُ الْجَمَاعَاتِ، فَالزَّاجِرَاتِ بِالْمَوَاعِظِ وَالنَّصَائِحِ، فَالتَّالِيَاتِ آيَاتِ اللَّهِ وَالدِّرَاسَاتِ شَرَائِعَهُ أَوْ بِنُفُوسِ قُوَّادِ الْغُزَاةِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّتِي تَصُفُّ الصُّفُوفَ وَتَزْجُرُ الْخَيْلَ لِلْجِهَادِ، وَتَتْلُو الذِّكْرَ مَعَ ذَلِكَ لَا تَشْغَلُهَا عَنْهُ تِلْكَ الشَّوَاغِلُ، كَمَا يُحْكَى عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ –رَضِيَ اللهُ عَنْهُ–.

فَإِنْ قُلْتَ: مَا حُكْمُ الْفَاءِ إِذَا جَاءَتْ عَاطِفَةً فِي الصِّفَاتِ؟

قُلْتُ: إِمَّا أَنْ تَدُلَّ عَلَى تَرَتُّبِ مَعَانِيهَا فِي الْوُجُودِ، كَقَوْلِهِ:

يَا لَهْفَ زَيَّابَةَ لِلْحَرْثِ الصَّابِحِ فَالْغَانِمِ فَالْآيِبِ

كَأَنَّهُ قِيلَ: الَّذِي صَبَّحَ فَغَنِمَ فَآبَ. وَإِمَّا عَلَى تَرَتُّبِهَا فِي التَّفَاوُتِ مِنْ بَعْضِ الْوُجُوهِ، كَقَوْلِكَ: خُذِ الْأَفْضَلَ فَالْأَكْمَلَ، وَاعْمَلِ الْأَحْسَنَ فَالْأَجْمَلَ. وَإِمَّا عَلَى تَرْتِيبِ مَوْصُوفَاتِهَا فِي ذَلِكَ، كَقَوْلِهِ: رَحِمَ اللَّهُ الْمُحَلِّقِينَ فَالْمُقَصِّرِينَ، فَعَلَى هَذِهِ الْقَوَانِينِ الثَّلَاثَةِ يَنْسَاقُ أَمْرُ الْفَاءِ الْعَاطِفَةِ فِي الصِّفَاتِ.

فَإِنْ قُلْتَ: فَعَلَى أَيِّ هَذِهِ الْقَوَانِينِ هِيَ فِيمَا أَنْتَ بِصَدَدِهِ؟

قُلْتُ: إِنْ وَحَّدْتَ الْمَوْصُوفَ، كَانَتْ لِلدَّلَالَةِ عَلَى أَنَّ تَرَتُّبَ الصِّفَاتِ فِي التَّفَاضُلِ، وَإِنْ ثَلَّثْتَهُ، فَهِيَ لِلدَّلَالَةِ عَلَى تَرَتُّبِ الْمَوْصُوفَاتِ فِيهِ، بَيَانُ ذَلِكَ: إِنَّكَ إِذَا أَجْرَيْتَ هَذِهِ الْأَوْصَافَ عَلَى الْمَلَائِكَةِ وَجَعَلْتَهُمْ جَامِعِينَ لَهَا، وَإِمَّا عَلَى الْعَكْسِ، وَكَذَلِكَ إِنْ أَرَدْتَ الْعُلَمَاءَ وَقُوَّادَ الْغُزَاةِ. وَإِنْ أَجْرَيْتَ الصِّفَةَ الْأُولَى عَلَى طَوَائِفَ وَالثَّانِيَةَ وَالثَّالِثَةَ عَلَى أُخَرَ، فَقَدْ أَفَادَتْ تَرَتُّبَ الْمَوْصُوفَاتِ فِي الْفَضْلِ، أَعْنِي: أَنَّ الطَّوَائِفَ الصَّافَّاتِ ذَوَاتُ فَضْلٍ، وَالزَّاجِرَاتُ أَفْضَلُ، وَالتَّالِيَاتُ أَبْهَرُ فَضْلًا، أَوْ عَلَى الْعَكْسِ، وَكَذَلِكَ إِذَا أَرَدْتَ بِالصَّافَّاتِ: الطَّيْرُ، وَبِالزَّاجِرَاتِ: كُلُّ مَا يُزْجَرُ عَنْ مَعْصِيَةٍ، وَبِالتَّالِيَاتِ: كُلُّ نَفْسٍ تَتْلُو الذِّكْرَ. فَإِنَّ الْمَوْصُوفَاتِ مُخْتَلِفَةٌ. وَقُرِئَ: بِإِدْغَامِ التَّاءِ فِي الصَّادِ وَالزَّايِ وَالذَّالِ.

﴿رَبُّ السَّمَاوَاتِ﴾[1] خَبَرٌ بَعْدَ خَبَرٍ، أَوْ خَبَرُ مُبْتَدَأٍ مَحْذُوفٍ.

وَ"الْمَشَارِقُ" ثَلَثُمِائَةٍ وَسِتُّونَ مَشْرِقًا، وَكَذَلِكَ الْمَغَارِبُ، تُشْرِقُ الشَّمْسُ كُلَّ يَوْمٍ فِي مَشْرِقٍ وَتَغْرُبُ فِي مَغْرِبٍ، وَلَا تَطْلُعُ وَلَا تَغْرُبُ فِي وَاحِدٍ يَوْمَيْنِ.

فَإِنْ قُلْتَ: فَمَاذَا أَرَادَ بِقَوْلِهِ: ﴿رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ﴾[2]؟

---

[1] سُورَةُ الصَّافَّاتِ، الآية .

[2] سورة الرَّحْمَنِ، الآية 17.

قُلْتُ: أَرَادَ مَشْرِقَيِ الصَّيْفِ وَالشِّتَاءِ وَمَغْرِبَيْهِمَا.

## ﴿إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ وَحِفْظًا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ﴾[1]

﴿الدُّنْيَا﴾[2] الْقُرْبَى مِنْكُمْ. وَالزِّينَةُ: مَصْدَرٌ كَالنِّسْبَةِ، وَاسْمٌ لِمَا يُزَانُ بِهِ الشَّيْءُ، كَاللِّيقَةِ اسْمٌ لِمَا تُلَاقُ بِهِ الدَّوَاةُ، وَيَحْتَمِلُهُمَا قَوْلُهُ: ﴿بِزِينَةِ الْكَوَاكِبِ﴾[3].

فَإِنْ أَرَدْتَ الْمَصْدَرَ، فَعَلَى إِضَافَتِهِ إِلَى الْفَاعِلِ، أَيْ: بِأَنْ زَانَتْهَا الْكَوَاكِبُ، وَأَصْلُهُ: بِزِينَةِ الْكَوَاكِبِ، أَوْ عَلَى إِضَافَتِهِ إِلَى الْمَفْعُولِ، أَيْ: بِأَنْ زَانَ اللَّهُ الْكَوَاكِبَ وَحَسَّنَهَا، لِأَنَّهَا إِنَّمَا زَيَّنَتِ السَّمَاءَ لِحُسْنِهَا فِي أَنْفُسِهَا، وَأَصْلُهُ ﴿بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ﴾[4]، وَهِيَ قِرَاءَةُ أَبِي بَكْرٍ وَالْأَعْمَشِ وَابْنِ وَثَّابٍ .

وَإِنْ أَرَدْتَ الِاسْمَ، فَلِلْإِضَافَةِ وَجْهَانِ: أَنْ تَقَعَ الْكَوَاكِبُ بَيَانًا لِلزِّينَةِ، لِأَنَّ الزِّينَةَ مُبْهَمَةٌ فِي الْكَوَاكِبِ وَغَيْرِهَا مِمَّا يُزَانُ بِهِ، وَأَنْ يُرَادَ مَا زُيِّنَتْ بِهِ الْكَوَاكِبُ.

وَجَاءَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ –رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا–: بِزِينَةِ الْكَوَاكِبِ: بِضَوْءِ الْكَوَاكِبِ، وَيَجُوزُ أَنْ يُرَادَ أَشْكَالُهَا الْمُخْتَلِفَةُ، كَشَكْلِ الثُّرَيَّا وَبَنَاتِ نَعْشٍ وَالْجَوْزَاءِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ، وَمَطَالِعُهَا وَمَسَايِرُهَا.

وَقُرِئَ عَلَى هَذَا الْمَعْنَى: (بِزِينَةِ الْكَوَاكِبِ) بِتَنْوِينِ زِينَةٍ، وَجَرِّ الْكَوَاكِبِ عَلَى الْإِبْدَالِ، وَيَجُوزُ فِي نَصْبِ الْكَوَاكِبِ أَنْ يَكُونَ بَدَلًا مِنْ مَحَلِّ بِزِينَةٍ.

﴿وَحِفْظًا﴾[5] مِمَّا حُمِلَ عَلَى الْمَعْنَى، لِأَنَّ الْمَعْنَى: إِنَّا خَلَقْنَا الْكَوَاكِبَ زِينَةً لِلسَّمَاءِ وَحِفْظًا مِنَ الشَّيَاطِينِ، كَمَا قَالَ –تَعَالَى–:﴿ وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ﴾[6]، وَيَجُوزُ أَنْ يُقَدَّرَ الْفِعْلُ الْمُعَلَّلُ، كَأَنَّهُ قِيلَ: وَحِفْظًا ﴿مِنْ كُلِّ

---

[1] سُورَةُ الصَّافَّاتِ، الآية .

[2] سُورَةُ الصَّافَّاتِ، الآية .

[3] سُورَةُ الصَّافَّاتِ، الآية .

[4] سُورَةُ الصَّافَّاتِ، الآية .

[5] سُورَةُ الصَّافَّاتِ، الآية .

[6] سورة الْمُلْكِ، الآية 5.

شَيْطَانٍ﴾[1] زَيَّنَاهَا بِالْكَوَاكِبِ، وَقِيلَ: وَحَفِظْنَاهَا حِفْظًا. وَالْمَارِدُ: الْخَارِجُ مِنَ الطَّاعَةِ الْمُتَلَمِّسُ مِنْهَا.

﴿لَا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلإِ الأَعْلَى وَيُقْذَفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾[2]

الضَّمِيرُ في ﴿لَا يَسَّمَّعُونَ﴾[3] لِكُلِّ شَيْطَانٍ، لِأَنَّهُ في مَعْنَى الشَّيَاطِينِ. وَقُرِئَ بِالتَّخْفِيفِ وَالتَّشْدِيدِ، وَأَصْلُهُ: يَتَسَمَّعُونَ. وَالتَّسْمِيعُ: تَطَلُّبُ السَّمَاعِ. يُقَالُ: تَسَمَّعَ فَسَمِعَ، أَوْ فَلَمْ يَسْمَعْ.

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ –رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا–: هُمْ يَتَسَمَّعُونَ وَلَا يَسْمَعُونَ، وَبِهَذَا يُنْصَرُ التَّخْفِيفُ عَلَى التَّشْدِيدِ.

فَإِنْ قُلْتَ: لَا يَسَّمَّعُونَ كَيْفَ اتَّصَلَ بِمَا قَبْلَهُ؟

قُلْتُ: لَا يَخْلُو مِنْ أَنْ يَتَّصِلَ بِمَا قَبْلَهُ عَلَى أَنْ يَكُونَ صِفَةً لِكُلِّ شَيْطَانٍ، أَوِ اسْتِئْنَافًا فَلَا تَصِحُّ الصِّفَةُ، لِأَنَّ الْحِفْظَ مِنْ شَيَاطِينَ لَا يَسَّمَّعُونَ وَلَا يَتَسَمَّعُونَ لَا مَعْنَى لَهُ، وَكَذَلِكَ الِاسْتِئْنَافُ، لِأَنَّ سَائِلًا لَوْ سَأَلَ: لِمَ تُحْفَظُ مِنَ الشَّيَاطِينِ؟ فَأُجِيبَ بِأَنَّهُمْ لَا يَسَّمَّعُونَ: لَمْ يَسْتَقِمْ، فَبَقِيَ أَنْ يَكُونَ كَلَامًا مُنْقَطِعًا مُبْتَدَأً اقْتِصَاصًا، لِمَا عَلَيْهِ حَالُ الْمُسْتَرِقَةِ لِلسَّمْعِ، وَأَنَّهُمْ لَا يَقْدِرُونَ أَنْ يَسْمَعُوا إِلَى كَلَامِ الْمَلَائِكَةِ، أَوْ يَتَسَمَّعُوا وَهُمْ مَقْذُوفُونَ بِالشُّهُبِ مَدْحُورُونَ عَنْ ذَلِكَ، إِلَّا مَنْ أُمْهِلَ حَتَّى خَطَفَ خَطْفَةً وَاسْتَرَقَ اسْتِرَاقَةً، فَعِنْدَهَا تُعَاجِلُهُ الْهَلَكَةُ بِإِتْبَاعِ الشِّهَابِ الثَّاقِبِ.

فَإِنْ قُلْتَ: هَلْ يَصِحُّ قَوْلُ مَنْ زَعَمَ أَنَّ أَصْلَهُ: لِئَلَّا يَسَّمَّعُوا فَحُذِفَتِ اللَّامُ، كَمَا حُذِفَتْ في قَوْلِكَ: جِئْتُكَ أَنْ تُكْرِمَنِي، فَبَقِيَ أَنْ لَا يَسَّمَّعُوا فَحُذِفَتْ أَنْ وَأُهْدِرَ عَمَلُهَا، كَمَا في قَوْلِ الْقَائِلِ:

أَلَا أَيُّهَا ذَا الزَّاجِرِي أَحْضِرِ الْوَغَى

---

[1] سُورَةُ الصَّافَّاتِ، الآية .

[2] سُورَةُ الصَّافَّاتِ، الآية .

[3] سُورَةُ الصَّافَّاتِ، الآية .

قُلْتُ: كُلُّ وَاحِدٍ مِنْ هَذَيْنِ الْحَذْفينِ غَيْرُ مَرْدُودٍ عَلَى انْفِرَادِهِ، فَأَمَّا اجْتِمَاعُهُمَا فَمُنْكَرٌ مِنَ الْمُنْكَرَاتِ، عَلَى أَنَّ صَوْنَ الْقُرْآنِ عَنْ مِثْلِ هَذَا التَّعَسُّفِ وَاجِبٌ.

فَإِنْ قُلْتَ: أَيُّ فَرْقٍ بَيْنَ سَمِعْتُ فُلَانًا يَتَحَدَّثُ، وَسَمِعْتُ إِلَيْهِ يَتَحَدَّثُ، وَسَمِعْتُ حَدِيثَهُ، وَإِلَى حَدِيثِهِ؟

قُلْتُ: الْمَعَدَّى بِنَفْسِهِ يُفيدُ الْإِدْرَاكَ، وَالْمَعَدَّى بِإِلَى يُفيدُ الْإِصْغَاءَ مَعَ الْإِدْرَاكِ.

وَ﴿الْمَلَأُ الْأَعْلَى﴾[1]: الْمَلَائِكَةُ، لِأَنَّهُمْ يَسْكُنُونَ السَّمَاوَاتِ، وَالْإِنْسُ وَالْجِنُّ: هُمُ الْمَلَأُ الْأَسْفَلُ، لِأَنَّهُمْ سُكَّانُ الْأَرْضِ.

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ –رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا–: هُمُ الْكَتَبَةُ مِنَ الْمَلَائِكَةِ. وَعَنْهُ: أَشْرَافُ الْمَلَائِكَةِ ﴿مِنْ كُلِّ جَانِبٍ﴾[2] مِنْ جَمِيعِ جَوَانِبِ السَّمَاءِ مِنْ أَيِّ جِهَةٍ صَعِدُوا لِلِاسْتِرَاقِ.

﴿دُحُورًا﴾[3] مَفْعُولٌ لَهُ، أَيْ: وَيُقْذَفُونَ لِلدُّحُورِ، وَهُوَ الطَّرْدُ، أَوْ مَدْحُورِينَ عَلَى الْحَالِ، أَوْ لِأَنَّ الْقَذْفَ وَالطَّرْدَ مُتَقَارِبَانِ فِي الْمَعْنَى، فَكَأَنَّهُ قِيلَ: يُدْحَرُونَ أَوْ قَذْفًا.

وَقَرَأَ أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ السُّلَمِيُّ بِفَتْحِ الدَّالِ عَلَى: قَذْفًا دُحُورًا طُرُودًا، أَوْ عَلَى أَنَّهُ قَدْ جَاءَ مَجِيءَ الْقَبُولِ وَالْوَلُوعِ.

وَالْوَاصِبُ: الدَّائِمُ، وَصَبَ الْأَمْرُ وُصُوبًا، يَعْنِي أَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا مَرْجُومُونَ بِالشُّهُبِ، وَقَدْ أُعِدَّ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ نَوْعٌ مِنَ الْعَذَابِ دَائِمٌ غَيْرُ مُنْقَطِعٍ ﴿مَنْ﴾[4] فِي مَحَلِّ الرَّفْعِ بَدَلٌ مِنَ الْوَاوِ فِي ﴿لَا يَسَّمَّعُونَ﴾[5]، أَيْ: لَا يَسْمَعُ الشَّيَاطِينُ إِلَّا الشَّيْطَانُ الَّذِي ﴿خَطِفَ الْخَطْفَةَ﴾[6]، وَقُرِئَ: (خِطِّفَ) بِكَسْرِ الْخَاءِ وَالطَّاءِ وَتَشْدِيدِهَا، وَخَطِّفَ بِفَتْحِ الْخَاءِ وَكَسْرِ الطَّاءِ وَتَشْدِيدِهَا، وَأَصْلُهَا: اخْتَطَفَ. وَقُرِئَ: (فَأَتْبَعَهُ) وَ (فَاتَّبَعَهُ) .

﴿فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ مَنْ خَلَقْنَا
إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ﴾[7]

---

[1] سُورَةُ الصَّافَّاتِ، الآية .
[2] سُورَةُ الصَّافَّاتِ، الآية .
[3] سُورَةُ الصَّافَّاتِ، الآية .
[4] سُورَةُ الصَّافَّاتِ، الآية .
[5] سُورَةُ الصَّافَّاتِ، الآية .
[6] سُورَةُ الصَّافَّاتِ، الآية .
[7] سُورَةُ الصَّافَّاتِ، الآية .

الْهَمْزَةُ وَإِنْ خَرَجَتْ إِلَى مَعْنَى التَّقْرِيرِ، فَهِيَ بِمَعْنَى الِاسْتِفْهَامِ فِي أَصْلِهَا، فَلِذَلِكَ قِيلَ: ﴿فَاسْتَفْتِهِمْ﴾،[1] أَيِ: اسْتَخْبِرْهُمْ ﴿أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا﴾[2]، وَلَمْ يَقُلْ: فَقَرِّرْهُمْ، وَالضَّمِيرُ لِمُشْرِكِي مَكَّةَ. قِيلَ: نَزَلَتْ فِي أَبِي الْأَشَدِّ بْنِ كَلْدَةَ، وَكُنِّيَ بِذَلِكَ لِشِدَّةِ بَطْشِهِ وَقُوَّتِهِ.

﴿أَمْ مَنْ خَلَقْنَا﴾[3] يُرِيدُ: مَا ذُكِرَ مِنْ خَلَائِقِهِ: مِنَ الْمَلَائِكَةِ، وَالسَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَالْمَشَارِقِ، وَالْكَوَاكِبِ، وَالشُّهُبِ الثَّوَاقِبِ، وَالشَّيَاطِينِ الْمَرَدَةِ، وَغَلَّبَ أُولِي الْعَقْلِ عَلَى غَيْرِهِمْ، فَقَالَ: ﴿مَنْ خَلَقْنَا﴾[4]، وَالدَّلِيلُ عَلَيْهِ قَوْلُهُ بَعْدَ عَدِّ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ: ﴿فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ مَنْ خَلَقْنَا﴾[5] بِالْفَاءِ الْمُعَقِّبَةِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿أَمْ مَنْ خَلَقْنَا﴾[6] مُطْلَقًا مِنْ غَيْرِ تَقْيِيدٍ بِالْبَيَانِ، اكْتِفَاءً بِبَيَانِ مَا تَقَدَّمَهُ، كَأَنَّهُ قَالَ: خَلَقْنَا كَذَا وَكَذَا مِنْ عَجَائِبِ الْخَلْقِ وَبَدَائِعِهِ، فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ الَّذِي خَلَقْنَاهُ مِنْ ذَلِكَ، وَيَقْطَعُ بِهِ قِرَاءَةُ مَنْ قَرَأَ: (أَمْ مَنْ عَدَدْنَا) بِالتَّخْفِيفِ وَالتَّشْدِيدِ.

وَ﴿أَشَدُّ خَلْقًا﴾[7]: يَحْتَمِلُ أَقْوَى خَلْقًا مِنْ قَوْلِهِمْ: شَدِيدُ الْخَلْقِ، وَفِي خَلْقِهِ شِدَّةٌ، وَأَصْعَبُ خَلْقًا وَأَشَقُّهُ، عَلَى مَعْنَى الرَّدِّ لِإِنْكَارِهِمُ الْبَعْثَ وَالنَّشْأَةَ الْأُخْرَى، وَأَنَّ مَنْ هَانَ عَلَيْهِ خَلْقُ هَذِهِ الْخَلَائِقِ الْعَظِيمَةِ وَلَمْ يَصْعُبْ عَلَيْهِ اخْتِرَاعُهَا كَانَ خَلْقُ الْبَشَرِ عَلَيْهِ أَهْوَنَ.

وَخَلَقَهُمْ ﴿مِنْ طِينٍ لازِبٍ﴾[8] إِمَّا شَهَادَةٌ عَلَيْهِمْ بِالضَّعْفِ وَالرَّخَاوَةِ، لِأَنَّ مَا يُصْنَعُ مِنَ الطِّينِ غَيْرُ مَوْصُوفٍ بِالصَّلَابَةِ وَالْقُوَّةِ، أَوِ احْتِجَاجٌ عَلَيْهِمْ بِأَنَّ الطِّينَ اللَّازِبَ الَّذِي خُلِقُوا مِنْهُ تُرَابٌ، فَمِنْ أَيْنَ اسْتَنْكَرُوا أَنْ يُخْلَقُوا مِنْ تُرَابٍ مِثْلِهِ، حَيْثُ قَالُوا: ﴿أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا﴾[9].

وَهَذَا الْمَعْنَى يُعَضِّدُهُ مَا يَتْلُوهُ مِنْ ذِكْرِ إِنْكَارِهِمُ الْبَعْثَ. وَقِيلَ: مَنْ خَلَقْنَا مِنَ الْأُمَمِ الْمَاضِيَةِ، وَلَيْسَ هَذَا الْقَوْلُ بِمُلَائِمٍ.

---

[1] سُورَةُ الصَّافَّاتِ، الآية .

[2] سُورَةُ الصَّافَّاتِ، الآية .

[3] سُورَةُ الصَّافَّاتِ، الآية .

[4] سُورَةُ الصَّافَّاتِ، الآية .

[5] سُورَةُ الصَّافَّاتِ، الآية .

[6] سُورَةُ الصَّافَّاتِ، الآية .

[7] سُورَةُ الصَّافَّاتِ، الآية .

[8] سُورَةُ الصَّافَّاتِ، الآية .

[9] سورة الرَّعْدِ، الآية 55.

وَقُرِئَ: (لَازِبٍ) وَ (لَاتِبٍ) وَالْمَعْنَى وَاحِدٌ.

وَالثَّاقِبُ: الشَّدِيدُ الْإِضَاءَةِ.

## ﴿بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ﴾[1]

﴿بَلْ عَجِبْتَ﴾[2] مِنْ قُدْرَةِ اللَّهِ عَلَى هَذِهِ الْخَلَائِقِ الْعَظِيمَةِ ﴿وَ﴾[3] هُمْ ﴿يَسْخَرُونَ﴾[4] مِنْكَ وَمِنْ تَعَجُّبِكَ وَمَا تُرِيهِمْ مِنْ آثَارِ قُدْرَةِ اللَّهِ، أَوْ مِنْ إِنْكَارِهِمُ الْبَعْثَ، وَهُمْ يَسْخَرُونَ مِنْ أَمْرِ الْبَعْثِ.

وَقُرِئَ بِضَمِّ التَّاءِ، أَيْ: بَلَغَ مِنْ عِظَمِ آيَاتِي وَكَثْرَةِ خَلَائِقِي أَنِّي عَجِبْتُ مِنْهَا، فَكَيْفَ بِعِبَادِي وَهَؤُلَاءِ بِجَهْلِهِمْ وَعِنَادِهِمْ يَسْخَرُونَ مِنْ آيَاتِي، أَوْ عَجِبْتُ مِنْ أَنْ يُنْكِرُوا الْبَعْثَ مِمَّنْ هَذِهِ أَفْعَالُهُ، وَهُمْ يَسْخَرُونَ مِمَّنْ يَصِفُ اللَّهَ بِالْقُدْرَةِ عَلَيْهِ؟

فَإِنْ قُلْتَ: كَيْفَ يَجُوزُ الْعَجَبُ عَلَى اللَّهِ –تَعَالَى–، وَإِنَّمَا هُوَ رَوْعَةٌ تَعْتَرِي الْإِنْسَانَ عِنْدَ اسْتِعْظَامِهِ الشَّيْءَ، وَاللَّهُ –تَعَالَى– لَا يَجُوزُ عَلَيْهِ الرَّوْعَةُ؟

قُلْتُ: فِيهِ وَجْهَانِ:

أَحَدُهُمَا: أَنْ يُجَرَّدَ الْعَجَبُ لِمَعْنَى الِاسْتِعْظَامِ،

وَالثَّانِي: أَنْ يُتَخَيَّلَ الْعَجَبُ وَيُفْرَضَ. وَقَدْ جَاءَ فِي الْحَدِيثِ: "عَجِبَ رَبُّكُمْ مِنْ أَلَكُمْ وَقُنُوطِكُمْ وَسُرْعَةِ إِجَابَتِهِ إِيَّاكُمْ".

وَكَانَ شُرَيْحٌ يَقْرَأُ بِالْفَتْحِ، وَيَقُولُ: إِنَّ اللَّهَ لَا يَعْجَبُ مِنْ شَيْءٍ، وَإِنَّمَا يَعْجَبُ مَنْ لَا يَعْلَمُ، فَقَالَ إِبْرَاهِيمُ النَّخَعِيُّ: إِنَّ شُرَيْحًا كَانَ يُعْجِبُهُ عِلْمُهُ وَعَبْدُ اللَّهِ أَعْلَمُ، يُرِيدُ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ مَسْعُودٍ، وَكَانَ يَقْرَأُ بِالضَّمِّ.

وَقِيلَ: مَعْنَاهُ: قُلْ يَا مُحَمَّدُ بَلْ عَجِبْتَ.

---

[1] سُورَةُ الصَّافَّاتِ، الآية .

[2] سُورَةُ الصَّافَّاتِ، الآية .

[3] سُورَةُ الصَّافَّاتِ، الآية .

[4] سُورَةُ الصَّافَّاتِ، الآية .

﴿وَإِذَا ذُكِّرُوا﴾[1]: وَدَأَبُهُمْ أَنَّهُمْ إِذَا وُعِظُوا بِشَيْءٍ لَا يَتَّعِظُونَ بِهِ.

﴿وَإِذَا رَأَوْا آيَةً﴾[2] مِنْ آيَاتِ اللَّهِ الْبَيِّنَةِ كَانْشِقَاقِ الْقَمَرِ، وَنَحْوِهِ: ﴿يَسْتَسْخِرُونَ﴾[3] يُبَالِغُونَ فِي السُّخْرِيَةِ، أَوْ يَسْتَدْعِي بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ أَنْ يَسْخَرَ مِنْهَا.

﴿وَقَالُوا إِنْ هَذَا إِلا سِحْرٌ مُبِينٌ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ أَوَآبَاؤُنَا الأَوَّلُونَ قُلْ نَعَمْ وَأَنْتُمْ دَاخِرُونَ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنْظُرُونَ﴾[4]

﴿أَوَآبَاؤُنَا﴾[5] مَعْطُوفٌ عَلَى مَحَلِّ "إِنَّ" وَاسْمِهَا، أَوْ عَلَى الضَّمِيرِ فِي "مَبْعُوثُونَ"، وَالَّذِي جَوَّزَ الْعَطْفَ عَلَيْهِ الْفَصْلُ بِهَمْزَةِ الِاسْتِفْهَامِ. وَالْمَعْنَى: أَيُبْعَثُ أَيْضًا آبَاؤُنَا عَلَى زِيَادَةِ الِاسْتِبْعَادِ، يَعْنُونَ أَنَّهُمْ أَقْدَمُ، فَبَعْثُهُمْ أَبْعَدُ وَأَبْطَلُ. وَقُرِئَ: (أَوْ آبَاؤُنَا) .

﴿قُلْ نَعَمْ﴾[6]، وَقُرِئَ: (نَعِمْ) بِكَسْرِ الْعَيْنِ وَهُمَا لُغَتَانِ. وَقُرِئَ: (قَالَ نَعَمْ)، أَيِ: اللَّهُ -تَعَالَى- أَوِ الرَّسُولُ -صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-. وَالْمَعْنَى: نَعَمْ تُبْعَثُونَ.

﴿وَأَنْتُمْ دَاخِرُونَ﴾[7]: صَاغِرُونَ.

﴿فَإِنَّمَا﴾[8] جَوَابُ شَرْطٍ مُقَدَّرٍ تَقْدِيرُهُ: إِذَا كَانَ ذَلِكَ فَمَا ﴿هِيَ﴾[9] إِلَّا ﴿زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ﴾[10]، وَهِيَ لَا تَرْجِعُ إِلَى شَيْءٍ، إِنَّمَا هِيَ مُبْهَمَةٌ مُوَضِّحُهَا خَبَرُهَا.

وَيَجُوزُ: فَإِنَّمَا الْبَعْثَةُ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ وَهِيَ النَّفْخَةُ الثَّانِيَةُ.

---

1 سُورَةُ الصَّافَّاتِ، الآية .
2 سُورَةُ الصَّافَّاتِ، الآية .
3 سُورَةُ الصَّافَّاتِ، الآية .
4 سُورَةُ الصَّافَّاتِ، الآية .
5 سُورَةُ الصَّافَّاتِ، الآية .
6 سُورَةُ الصَّافَّاتِ، الآية .
7 سُورَةُ الصَّافَّاتِ، الآية .
8 سُورَةُ الصَّافَّاتِ، الآية .
9 سُورَةُ الصَّافَّاتِ، الآية .
10 سُورَةُ الصَّافَّاتِ، الآية .

وَالزَّجْرَةُ: الصَّيْحَةُ، مِنْ قَوْلِكَ: زَجَرَ الرَّاعِي الْإِبِلَ أَوِ الْغَنَمَ: إِذَا صَاحَ عَلَيْهَا فَرِيعَتْ لِصَوْتِهِ. وَمِنْهُ قَوْلُهُ:

زَجْرَ أَبِي عُرْوَةَ السِّبَاعَ إِذَا أَشْفَقَ أَنْ يَخْتَلِطْنَ بِالْغَنَمِ

يُرِيدُ تَصْوِيتَهُ بِهَا "فَإِذَا هُمْ" أَحْيَاءُ بُصَرَاءُ "يَنْظُرُونَ".

﴿وَقَالُوا يَا وَيْلَنَا هَذَا يَوْمُ الدِّينِ هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾[1]

يُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ ﴿هَذَا يَوْمُ الدِّينِ﴾[2] إِلَى قَوْلِهِ: ﴿احْشُرُوا﴾[3] مِنْ كَلَامِ الْكَفَرَةِ بَعْضُهُمْ مَعَ بَعْضٍ، وَأَنْ يَكُونَ مِنْ كَلَامِ الْمَلَائِكَةِ لَهُمْ، وَأَنْ يَكُونَ ﴿يَا وَيْلَنَا هَذَا يَوْمُ الدِّينِ﴾[4] كَلَامَ الْكَفَرَةِ.

وَ﴿هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ﴾[5] مِنْ كَلَامِ الْمَلَائِكَةِ جَوَابًا لَهُمْ.

وَيَوْمُ الدِّينِ: الْيَوْمُ الَّذِي نُدَانُ فِيهِ، أَيْ: نُجَازَى بِأَعْمَالِنَا.

وَيَوْمُ الْفَصْلِ: يَوْمُ الْقَضَاءِ، وَالْفَرْقُ بَيْنَ فِرَقِ الْهُدَى وَالضَّلَالَةِ.

﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْؤُولُونَ مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ﴾[6]

"احْشُرُوا" خِطَابُ اللَّهِ لِلْمَلَائِكَةِ، أَوْ خِطَابُ بَعْضِهِمْ مَعَ بَعْضٍ "وَأَزْوَاجَهُمْ" وَضُرَبَاءَهُمْ عَنِ النَّبِيِّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، وَهُمْ نُظَرَاؤُهُمْ وَأَشْبَاهُهُمْ مِنَ الْعُصَاةِ: أَهْلُ الزِّنَا مَعَ أَهْلِ الزِّنَا، وَأَهْلُ السَّرِقَةِ مِنْ أَهْلِ السَّرِقَةِ.

---

[1] سُورَةُ الصَّافَّاتِ، الآية .

[2] سُورَةُ الصَّافَّاتِ، الآية .

[3] سُورَةُ الصَّافَّاتِ، الآية .

[4] سُورَةُ الصَّافَّاتِ، الآية .

[5] سُورَةُ الصَّافَّاتِ، الآية .

[6] سُورَةُ الصَّافَّاتِ، الآية .

وَقِيلَ: قُرَنَاؤُهُمْ مِنَ الشَّيَاطِينِ.

وَقِيلَ: نِسَاؤُهُمُ اللَّاتِي عَلَى دِينِهِمْ ﴿فَاهْدُوهُمْ﴾[1]: فَعَرِّفُوهُمْ طَرِيقَ النَّارِ حَتَّى يَسْلُكُوهَا، هَذَا تَهَكُّمٌ بِهِمْ وَتَوْبِيخٌ لَهُمْ بِالْعَجْزِ عَنِ التَّنَاصُرِ بَعْدَ مَا كَانُوا عَلَى خِلَافِ ذَلِكَ فِي الدُّنْيَا مُتَعَاضِدِينَ مُتَنَاصِرِينَ.

﴿بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ﴾[2] قَدْ أَسْلَمَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا وَخَذَلَهُ عَنْ عَجْزٍ، فَكُلُّهُمْ مُسْتَسْلِمٌ غَيْرُ مُنْتَصِرٍ. وَقُرِئَ: (لَا تَنَاصَرُونَ) وَ (لَا تَنَاصَرُونَ)، بِالْإِدْغَامِ.

﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ قَالُوا إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ قَالُوا بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بَلْ كُنْتُمْ قَوْمًا طَاغِينَ فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ إِنَّا كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾[3]

الْيَمِينُ لَمَّا كَانَتْ أَشْرَفَ الْعُضْوَيْنِ وَأَمْتَنَهُمَا، وَكَانُوا يَتَيَمَّنُونَ بِهَا، فيها يُصَافِحُونَ وَيُمَاسِحُونَ وَيُنَاوِلُونَ وَيَتَنَاوَلُونَ، وَيُزَاوِلُونَ أَكْثَرَ الْأُمُورِ، وَيَتَشَاءَمُونَ بِالشِّمَالِ، وَلِذَلِكَ سَمَّوْهَا: الشُّؤْمَى، كَمَا سَمَّوْا أُخْتَهَا الْيُمْنَى، وَتَيَمَّنُوا بِالسَّانِحِ، وَتَطَيَّرُوا بِالْبَارِحِ، وَكَانَ الْأَعْسَرُ مَعِيبًا عِنْدَهُمْ، وَعَضَّدَتِ الشَّرِيعَةُ ذَلِكَ، فَأَمَرَتْ بِمُبَاشَرَةِ أَفَاضِلِ الْأُمُورِ بِالْيَمِينِ، وَأَرَاذِلِهَا بِالشِّمَالِ، وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ –صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– يُحِبُّ التَّيَامُنَ فِي كُلِّ شَيْءٍ.

وَجُعِلَتِ الْيَمِينُ لِكَاتِبِ الْحَسَنَاتِ، وَالشِّمَالُ لِكَاتِبِ السَّيِّئَاتِ، وَوُعِدَ الْمُحْسِنُ أَنْ يُؤْتَى كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ، وَالْمُسِيءُ أَنْ يُؤْتَاهُ بِشِمَالِهِ، اسْتُعِيرَتْ لِجِهَةِ الْخَيْرِ وَجَانِبِهِ، فَقِيلَ: أَتَاهُ عَنِ الْيَمِينِ، أَيْ: مِنْ قِبَلِ الْخَيْرِ وَنَاحِيَتِهِ، فَصَدَّهُ عَنْهُ وَأَضَلَّهُ.

وَجَاءَ فِي بَعْضِ التَّفَاسِيرِ: "مَنْ أَتَاهُ الشَّيْطَانُ مِنْ جِهَةِ الْيَمِينِ، أَتَاهُ مِنْ قِبَلِ الدِّينِ فَلَبَّسَ عَلَيْهِ الْحَقَّ، وَمَنْ أَتَاهُ مِنْ جِهَةِ الشِّمَالِ، أَتَاهُ مِنْ قِبَلِ الشَّهَوَاتِ، وَمَنْ أَتَاهُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ، أَتَاهُ مِنْ قِبَلِ التَّكْذِيبِ بِالْقِيَامَةِ وَبِالثَّوَابِ وَالْعِقَابِ، وَمَنْ أَتَاهُ مِنْ خَلْفِهِ، خَوَّفَهُ الْفَقْرَ عَلَى نَفْسِهِ وَعَلَى مَنْ يَخْلُفُ بَعْدَهُ، فَلَمْ يَصِلْ رَحِمًا وَلَمْ يُؤَدِّ زَكَاةً".

---

[1] سُورَةُ الصَّافَّاتِ، الآية .

[2] سُورَةُ الصَّافَّاتِ، الآية .

[3] سُورَةُ الصَّافَّاتِ، الآية .

فَإِنْ قُلْتَ: قَوْلُهُمْ: أَتَاهُ مِنْ جِهَةِ الْخَيْرِ وَنَاحِيَتِهِ، مَجَازٌ فِي نَفْسِهِ، فَكَيْفَ جَعَلْتَ الْيَمِينَ مَجَازًا عَنِ الْمَجَازِ؟

قُلْتُ: مِنَ الْمَجَازِ مَا غَلَبَ فِي الِاسْتِعْمَالِ حَتَّى أُلْحِقَ بِالْحَقَائِقِ، وَهَذَا مِنْ ذَاكَ، وَلَكَ أَنْ تَجْعَلَهَا مُسْتَعَارَةً لِلْقُوَّةِ وَالْقَهْرِ، لِأَنَّ الْيَمِينَ مَوْصُوفَةٌ بِالْقُوَّةِ، وَبِهَا يَقَعُ الْبَطْشُ.

وَالْمَعْنَى: أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْقُوَّةِ وَالْقَهْرِ، وَتَقْصِدُونَنَا عَنِ السُّلْطَانِ وَالْغَلَبَةِ حَتَّى تَحْمِلُونَا عَلَى الضَّلَالِ وَتَقْسِرُونَا عَلَيْهِ، وَهَذَا مِنْ خِطَابِ الْأَتْبَاعِ لِرُؤَسَائِهِمْ، وَالْغُوَاةِ لِشَيَاطِينِهِمْ.

﴿بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾[1]: بَلْ أَبَيْتُمْ أَنْتُمُ الْإِيمَانَ وَأَعْرَضْتُمْ عَنْهُ، مَعَ تَمَكُّنِكُمْ مِنْهُ مُخْتَارِينَ لَهُ عَلَى الْكُفْرِ، غَيْرَ مُلْجَئِينَ إِلَيْهِ.

﴿وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُمْ﴾[2] مِنْ تَسَلُّطٍ نَسْلُبُكُمْ بِهِ تَمَكُّنَكُمْ وَاخْتِيَارَكُمْ، ﴿بَلْ كُنْتُمْ قَوْمًا﴾[3] مُخْتَارِينَ الطُّغْيَانَ، ﴿فَحَقَّ عَلَيْنَا﴾: فَلَزِمْنَا ﴿قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ﴾[4]، يَعْنِي: وَعِيدَ اللَّهِ بِأَنَّا ذَائِقُونَ لِعَذَابِهِ لَا مَحَالَةَ، لِعِلْمِهِ بِحَالِنَا وَاسْتِحْقَاقِنَا بِهَا الْعُقُوبَةَ، وَلَوْ حَكَى الْوَعِيدَ كَمَا هُوَ، أَلَا لَقَالَ: إِنَّكُمْ لَذَائِقُونَ، لَكِنَّهُ عَدَلَ بِهِ إِلَى لَفْظِ الْمُتَكَلِّمِ، لِأَنَّهُمْ مُتَكَلِّمُونَ بِذَلِكَ عَنْ أَنْفُسِهِمْ.

وَنَحْوُهُ قَوْلُ الْقَائِلِ:

أَلَا زَعَمَتْ هَوَازِنُ قَلَّ مَالِي وَلَوْ حَكَى قَوْلَهَا لَقَالَ: قَلَّ مَالُكَ

وَمِنْهُ قَوْلُ الْمُحَلِّفِ لِلْحَالِفِ: احْلِفْ لَأَخْرُجَنَّ، وَلَتَخْرُجَنَّ، الْهَمْزَةُ لِحِكَايَةِ لَفْظِ الْحَالِفِ، وَالتَّاءُ لِإِقْبَالِ الْمُحَلِّفِ عَلَى الْمُحَلَّفِ.

﴿فَأَغْوَيْنَاكُمْ﴾[5]: فَدَعَوْنَا إِلَى الْغَيِّ دَعْوَةً مُحَصِّلَةً لِلْبُغْيَةِ، لِقَبُولِكُمْ لَهَا وَاسْتِجَابَتِكُمُ الْغَيَّ عَلَى الرُّشْدِ.

﴿إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ﴾[6] فَأَرَدْنَا إِغْوَاءَكُمْ لِتَكُونُوا أَمْثَالَنَا.

---

[1] سُورَةُ الصَّافَّاتِ، الآية .

[2] سُورَةُ الصَّافَّاتِ، الآية .

[3] سُورَةُ الصَّافَّاتِ، الآية .

[4] سُورَةُ الصَّافَّاتِ، الآية .

[5] سُورَةُ الصَّافَّاتِ، الآية .

[6] سُورَةُ الصَّافَّاتِ، الآية .

﴿فَإِنَّهُمْ﴾[1] فَإِنَّ الْأَتْبَاعَ وَالْمَتْبُوعِينَ جَمِيعًا ﴿يَوْمَئِذٍ﴾[2] يَوْمَ الْقِيَامَةِ مُشْتَرِكُونَ فِي الْعَذَابِ، كَمَا كَانُوا مُشْتَرِكِينَ فِي الْغَوَايَةِ.

﴿إِنَّا﴾[3] مِثْلُ ذَلِكَ الْفِعْلِ ﴿نَفْعَلُ﴾[4] بِكُلِّ مُجْرِمٍ، يَعْنِي أَنَّ سَبَبَ الْعُقُوبَةِ هُوَ الْإِجْرَامُ، فَمَنِ ارْتَكَبَهُ اسْتَوْجَبَهَا.

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا﴾[5] سَمِعُوا بِكَلِمَةِ التَّوْحِيدِ، نَفَرُوا أَوِ اسْتَكْبَرُوا عَنْهَا وَأَبَوْا إِلَّا الشِّرْكَ.

﴿وَيَقُولُونَ أَإِنَّا لَتَارِكُو آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ إِنَّكُمْ لَذَائِقُو الْعَذَابِ الْأَلِيمِ وَمَا تُجْزَوْنَ إِلا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[6]

﴿لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ﴾[7]: يَعْنُونَ مُحَمَّدًا -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، ﴿بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ﴾[8] رَدٌّ عَلَى الْمُشْرِكِينَ ﴿وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ﴾[9]، كَقَوْلِهِ: ﴿مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾[10].

وَقُرِئَ: (ذَائِقُوا الْعَذَابَ)، بِالنَّصْبِ عَلَى تَقْدِيرِ النُّونِ، كَقَوْلِهِ[11]:

وَلَا ذَاكِرَا اللَّهَ إِلَّا قَلِيـــــــلًا

بِتَقْدِيرِ التَّنْوِينِ.

وَقُرِئَ: عَلَى الْأَصْلِ (لَذَائِقُونَ الْعَذَابَ).

---

[1] سُورَةُ الصَّافَّاتِ، الآية .

[2] سُورَةُ الصَّافَّاتِ، الآية .

[3] سُورَةُ الصَّافَّاتِ، الآية .

[4] سُورَةُ الصَّافَّاتِ، الآية .

[5] سُورَةُ الصَّافَّاتِ، الآية .

[6] سُورَةُ الصَّافَّاتِ، الآية .

[7] سُورَةُ الصَّافَّاتِ، الآية .

[8] سُورَةُ الصَّافَّاتِ، الآية .

[9] سُورَةُ الصَّافَّاتِ، الآية .

[10] سورة الْبَقَرَةِ، الآية 97.

[11] مِن بَحْرِ الْمُتَقَارِبِ

﴿إِلا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[1]: إِلَّا مِثْلَ مَا عَمِلْتُمْ جَزَاءً سَيِّئًا بِعَمَلٍ سَيِّئٍ.

﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ أُولَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ فَوَاكِهُ وَهُمْ مُكْرَمُونَ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ﴾[2]

﴿إِلاّ عِبَادَ اللَّهِ﴾[3]، وَلَكِنَّ عِبَادَ اللَّهِ، عَلَى الِاسْتِثْنَاءِ الْمُنْقَطِعِ. فُسِّرَ الرِّزْقُ الْمَعْلُومُ بِالْفَوَاكِهِ، وَهِيَ كُلُّ مَا يُتَلَذَّذُ بِهِ وَلَا يُتَقَوَّتُ لِحِفْظِ الصِّحَّةِ، يَعْنِي أَنَّ رِزْقَهُمْ كُلَّهُ فَوَاكِهُ، لِأَنَّهُمْ مُسْتَغْنُونَ عَنْ حِفْظِ الصِّحَّةِ بِالْأَقْوَاتِ، بِأَنَّهُمْ أَجْسَامٌ مُحْكَمَةٌ مَخْلُوقَةٌ لِلْأَبَدِ، فَكُلُّ مَا يَأْكُلُونَهُ يَأْكُلُونَهُ عَلَى سَبِيلِ التَّلَذُّذِ.

وَيَجُوزُ أَنْ يُرَادَ: رِزْقٌ مَعْلُومٌ مَنْعُوتٌ بِخَصَائِصَ خُلِقَ عَلَيْهَا: مِنْ طِيبِ طَعْمٍ، وَرَائِحَةٍ، وَلَذَّةٍ، وَحُسْنِ مَنْظَرٍ. وَقِيلَ: مَعْلُومُ الْوَقْتِ، كَقَوْلِهِ: ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾[4].

وَعَنْ قَتَادَةَ: الرِّزْقُ الْمَعْلُومُ الْجَنَّةُ.

وَقَوْلُهُ: ﴿فِي جَنَّاتِ﴾[5] يَأْبَاهُ، وَقَوْلُهُ: ﴿وَهُمْ مُكْرَمُونَ﴾[6] هُوَ الَّذِي يَقُولُهُ وَعَنِ الْعُلَمَاءِ فِي حَدِّ الثَّوَابِ عَلَى سَبِيلِ الْمَدْحِ وَالتَّعْظِيمِ، وَهُوَ مِنْ أَعْظَمِ مَا يَجِبُ أَنْ تَتُوقَ إِلَيْهِ نُفُوسُ ذَوِي الْهِمَمِ، كَمَا أَنَّ مِنْ أَعْظَمِ مَا يَجِبُ أَنْ تَنْفِرَ عَنْهُ نُفُوسُهُمْ هَوَانُ أَهْلِ النَّارِ وَصَغَارُهُمْ.

التَّقَابُلُ: أَتَمُّ لِلسُّرُورِ وَآنَسُ. وَقِيلَ: لَا يَنْظُرُ بَعْضُهُمْ إِلَى قَفَا بَعْضٍ.

وَيُقَالُ لِلزُّجَاجَةِ فِيهَا الْخَمْرُ: كَأْسٌ، وَتُسَمَّى الْخَمْرُ نَفْسُهَا كَأْسًا، قَالَ:

وَكَأْسٍ شَرِبْتُ عَلَى لَذَّةٍ

---

[1] سُورَةُ الصَّافَّاتِ، الآية .

[2] سُورَةُ الصَّافَّاتِ، الآية .

[3] سُورَةُ الصَّافَّاتِ، الآية .

[4] سورة مَرْيَم، الآية 62.

[5] سُورَةُ الصَّافَّاتِ، الآية .

[6] سُورَةُ الصَّافَّاتِ، الآية .

وَعَنِ الْأَخْفَشِ: كُلُّ كَأْسٍ فِي الْقُرْآنِ فَهِيَ الْخَمْرُ، وَكَذَا فِي تَفْسِيرِ ابْنِ عَبَّاسٍ.

﴿مِنْ مَعِينٍ﴾[1] مِنْ شَرَابٍ مَعِينٍ، أَوْ مِنْ نَهْرٍ مَعِينٍ، وَهُوَ الْجَارِي عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ، الظَّاهِرُ لِلْعُيُونِ، وُصِفَ بِمَا يُوصَفُ بِهِ الْمَاءُ، لِأَنَّهُ يَجْرِي فِي الْجَنَّةِ فِي أَنْهَارٍ كَمَا يَجْرِي الْمَاءُ، قَالَ اللَّهُ –تَعَالَى–: ﴿وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ﴾[2].

﴿بَيْضَاءَ﴾[3] صِفَةٌ لِلْكَأْسِ "لَذَّةٍ " إِمَّا أَنْ تُوصَفَ بِاللَّذَّةِ كَأَنَّهَا نَفْسُ اللَّذَّةِ وَعَيْنُهَا، أَوْ هِيَ تَأْنِيثُ اللَّذَّةِ، يُقَالُ: لَذَّ الشَّيْءُ فَهُوَ لَذٌّ وَلَذِيذٌ. وَوَزْنُهُ: فَعْلٌ، كَقَوْلِكَ: رَجُلٌ طِبٌّ، قَالَ:

وَلَذَّ كَطَعْمِ الصَّرْخَدِيِّ تَرَكْتُهُ  بِأَرْضِ الْعِدَا مِنْ خَشْيَةِ الْحَدَثَانِ

يُرِيدُ النَّوْمَ.

الْغُولُ: لِمَنْ غَالَهُ يَغُولُهُ غُولًا، إِذَا أَهْلَكَهُ وَأَفْسَدَهُ. وَمِنْهُ: الْغُولُ الَّذِي فِي تَكَاذِيبِ الْعَرَبِ. وَفِي أَمْثَالِهِمْ: الْغَضَبُ غُولُ الْحِلْمِ.

وَ﴿يُنْزَفُونَ﴾[4] عَلَى الْبِنَاءِ لِلْمَفْعُولِ، مِنْ نَزَفَ الشَّارِبُ إِذَا ذَهَبَ عَقْلُهُ. وَيُقَالُ لِلسَّكْرَانِ: نَزِيفٌ وَمَنْزُوفٌ. وَيُقَالُ لِلْمَطْعُونِ: نَزَفَ فَمَاتَ إِذَا خَرَجَ دَمُهُ كُلُّهُ، وَنَزَحْتُ الرَّكِيَّةَ حَتَّى نَزَفْتُهَا: إِذَا لَمْ تَتْرُكْ فِيهَا مَاءً، وَفِي أَمْثَالِهِمْ: "أَجْبَنُ مِنَ الْمَنْزُوفِ ضَرْطًا".

وَقُرِئَ: (يَنْزِفُونَ) أَنْزَفَ الشَّارِبُ إِذَا ذَهَبَ عَقْلُهُ أَوْ شَرَابُهُ.

قَالَ :

لَعَمْرِي لَئِنْ أَنْزَفْتُمُو أَوْ صَحَوْتُمُو  لَبِئْسَ النَّدَامَى كُنْتُمُو آلَ أَبْجَرَا

وَمَعْنَاهُ: صَارَ ذَا نَزْفٍ. وَنَظِيرُهُ: أَقْشَعَ السَّحَابُ، وَقَشَعَتْهُ الرِّيحُ، وَأَكَبَّ الرَّجُلُ وَكَبَبْتُهُ، وَحَقِيقَتُهُمَا: دَخَلَا فِي الْقَشْعِ وَالْكَبِّ.

وَفِي قِرَاءَةِ طَلْحَةَ بْنِ مُصَرِّفٍ: وَيَنْزُفُونَ: بِضَمِّ الزَّايِ، مِنْ نَزُفَ يَنْزُفُ كَقَرُبَ يَقْرُبُ، إِذَا سَكِرَ.

وَالْمَعْنَى: لَا فِيهَا فَسَادٌ قَطُّ مِنْ أَنْوَاعِ الْفَسَادِ الَّتِي تَكُونُ فِي شُرْبِ الْخَمْرِ مِنْ مَغَصٍ أَوْ صُدَاعٍ أَوْ خِمَارٍ أَوْ عَرْبَدَةٍ أَوْ لَغْوٍ أَوْ تَأْثِيمٍ أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ، وَلَا هُمْ يَسْكَرُونَ، وَهُوَ أَعْظَمُ مَفَاسِدِهَا، فَأَفْرَزَهُ وَأَفْرَدَهُ بِالذِّكْرِ: ﴿قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ﴾[5] قَصَرْنَ أَبْصَارَهُنَّ عَلَى أَزْوَاجِهِنَّ، لَا

---

[1] سُورَةُ الصَّافَّاتِ، الآية .

[2] سورة مُحَمَّدَ، الآية 15.

[3] سُورَةُ الصَّافَّاتِ، الآية .

[4] سُورَةُ الصَّافَّاتِ، الآية .

[5] سورة الْوَاقِعَةِ، الآية 37.

يَمْدُدْنَ طَرْفًا إِلَى غَيْرِهِمْ، كَقَوْلِهِ -تَعَالَى-: ﴿عُرُبًا﴾[1] وَالْعِينُ: النُّجْلُ الْعُيُونِ شَبَّهَهُنَّ بِبَيْضِ النَّعَامِ الْمَكْنُونِ فِي الْأَدَاحِي، وَبِهَا تُشَبِّهُ الْعَرَبُ النِّسَاءَ وَتُسَمِّيهِنَّ بَيْضَاتِ الْخُدُورِ.

﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ يَقُولُ أَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَدِينُونَ قَالَ هَلْ أَنْتُمْ مُطَّلِعُونَ فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ قَالَ تَاللَّهِ إِنْ كِدْتَ لَتُرْدِينِ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾[2]

فَإِنْ قُلْتَ: عَلَامَ عُطِفَ قَوْلُهُ: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾[3]؟

قُلْتُ: عَلَى يُطَافُ عَلَيْهِمْ. وَالْمَعْنَى: يَشْرَبُونَ فيتَحَادَثُونَ عَلَى الشَّرَابِ كَعَادَةِ الشُّرْبِ قَالَ:

وَمَا بَقِيَتْ مِنَ اللَّذَّاتِ إِلَّا أَحَادِيثُ الْكِرَامِ عَلَى الْمُدَامِ

فيقْبِلُ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ ﴿يَتَسَاءَلُونَ﴾[4] عَمَّا جَرَى لَهُمْ وَعَلَيْهِمْ فِي الدُّنْيَا، إِلَّا أَنَّهُ جِيءَ بِهِ مَاضِيًا عَلَى عَادَةِ اللَّهِ فِي أَخْبَارِهِ.

وَقُرِئَ: (مِنَ الْمُصَدِّقِينَ) مِنَ التَّصْدِيقِ. وَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ مُشَدَّدَ الصَّادِ، مِنَ التَّصَدُّقِ.

وَقِيلَ: نَزَلَتْ فِي رَجُلٍ تَصَدَّقَ بِمَالِهِ لِوَجْهِ اللَّهِ، فَاحْتَاجَ فَاسْتَجْدَى بَعْضَ إِخْوَانِهِ، فَقَالَ: وَأَيْنَ مَالُكَ؟ قَالَ: تَصَدَّقْتُ بِهِ لِيُعَوِّضَنِي اللَّهُ بِهِ فِي الْآخِرَةِ خَيْرًا مِنْهُ، فَقَالَ: أَنَّكَ لِمِنَ الْمُصَدِّقِينَ بِيَوْمِ الدِّينِ. أَوْ مِنَ الْمُتَصَدِّقِينَ لِطَلَبِ الثَّوَابِ. وَاللَّهِ لَا أُعْطِيكَ شَيْئًا.

﴿لَمَدِينُونَ﴾[5] لَمَجْزِيُّونَ، مِنَ الدَّيْنِ وَهُوَ الْجَزَاءُ. أَوْ لَمَسُوسُونَ مَرْبُوبُونَ. يُقَالُ: دَانَهُ سَاسَهُ.

وَمِنْهُ الْحَدِيثُ: "الْعَاقِلُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ".

---

[1] سُورَةُ الصَّافَّاتِ، الآية .

[2] سُورَةُ الصَّافَّاتِ، الآية .

[3] سُورَةُ الصَّافَّاتِ، الآية .

[4] سُورَةُ الصَّافَّاتِ، الآية .

[5] سُورَةُ الصَّافَّاتِ، الآية .

﴿قَالَ﴾[1] يَعْنِي ذَلِكَ الْقَائِلُ: ﴿هَلْ أَنْتُمْ مُطَّلِعُونَ﴾[2] إِلَى النَّارِ لِأُرِيَكُمْ ذَلِكَ الْقَرِينَ.

قِيلَ: إِنَّ فِي الْجَنَّةِ كُوَى يَنْظُرُ أَهْلُهَا مِنْهَا إِلَى أَهْلِ النَّارِ.

وَقِيلَ: الْقَائِلُ هُوَ اللَّهُ -عَزَّ وَجَلَّ-.

وَقِيلَ: بَعْضُ الْمَلَائِكَةِ يَقُولُ لِأَهْلِ الْجَنَّةِ: هَلْ تُحِبُّونَ أَنْ تَطَّلِعُوا فَتَعْلَمُوا أَيْنَ مَنْزِلَتُكُمْ مِنْ مَنْزِلَةِ أَهْلِ النَّارِ.

وَقُرِئَ: (مُطَّلِعُونَ) فَاطَّلَعَ. وَفَأَطَّلِعَ بِالتَّشْدِيدِ، عَلَى لَفْظِ الْمَاضِي وَالْمُضَارِعِ الْمَنْصُوبِ، وَمُطْلَعُونَ فَاطَّلَعَ وَفَأُطْلَعَ بِالتَّخْفِيفِ عَلَى لَفْظِ الْمَاضِي وَالْمُضَارِعِ وَالْمَنْصُوبِ يُقَالُ: طَلَعَ عَلَيْنَا فُلَانٌ، وَاطَّلَعَ وَأَطَّلِعُ بِمَعْنَى وَاحِدٍ، وَالْمَعْنَى: هَلْ أَنْتُمْ مُطَّلِعُونَ إِلَى الْقَرِينِ فَأَطَّلِعَ أَنَا أَيْضًا. أَوْ عُرِضَ عَلَيْهِمُ الِاطِّلَاعُ فَاعْتَرَضُوهُ، فَاطَّلَعَ هُوَ بَعْدَ ذَلِكَ.

وَإِنْ جَعَلْتَ الْإِطْلَاعَ مِنْ أَطْلَعَهُ غَيْرُهُ، فَالْمَعْنَى: أَنَّهُ لَمَّا شَرَطَ فِي اطِّلَاعِهِ اطِّلَاعَهُمْ، وَهُوَ مِنْ آدَابِ الْمُجَالَسَةِ. أَنْ لَا يَسْتَبِدَّ بِشَيْءٍ دُونَ جُلَسَائِهِ، فَكَأَنَّهُمْ مُطْلِعُوهُ. وَقِيلَ: الْخِطَابُ عَلَى هَذَا لِلْمَلَائِكَةِ. وَقُرِئَ: (مُطْلِعُونِ) بِكَسْرِ النُّونِ، أَرَادَ: مُطْلِعُونِ إِيَّايَ، فَوُضِعَ الْمُتَّصِلُ مَوْضِعَ الْمُنْفَصِلِ، كَقَوْلِهِ:

هُمُ الْفَاعِلُونَ الْخَيْرَ وَالْآمِرُونَهُ

أَوْ شُبِّهَ اسْمُ الْفَاعِلِ فِي ذَلِكَ بِالْمُضَارِعِ لِتَآخٍ بَيْنَهُمَا، كَأَنَّهُ قَالَ: تَطَّلِعُونَ، وَهُوَ ضَعِيفٌ لَا يَقَعُ إِلَّا فِي الشِّعْرِ ﴿فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ﴾[3] فِي وَسَطِهَا، يُقَالُ: تَعِبْتُ حَتَّى انْقَطَعَ سِوَائِي.

وَعَنْ أَبِي عُبَيْدَةَ: قَالَ لِي عِيسَى بْنُ عُمَرَ: كُنْتُ أَكْتُبُ يَا أَبَا عُبَيْدَةَ حَتَّى يَنْقَطِعَ سِوَائِي "إِنْ" مُخَفَّفَةٌ مِنَ الثَّقِيلَةِ، وَهِيَ تَدْخُلُ عَلَى "كَادَ" كَمَا تَدْخُلُ عَلَى "كَانَ" وَنَحْوُهُ: ﴿إِنْ كَادَ لَيُضِلُّنَا﴾[4]، وَاللَّامُ هِيَ الْفَارِقَةُ بَيْنَهَا وَبَيْنَ النَّافِيَةِ، وَالْإِرْدَاءُ: الْإِهْلَاكُ.

وَفِي قِرَاءَةِ عَبْدِ اللَّهِ: (لَتُغْوِينِ) ﴿نِعْمَةُ رَبِّي﴾[5] هِيَ الْعِصْمَةُ وَالتَّوْفِيقُ فِي الِاسْتِمْسَاكِ بِعُرْوَةِ الْإِسْلَامِ، وَالْبَرَاءَةُ مِنْ قَرِينِ السُّوءِ. أَوْ إِنْعَامُ اللَّهِ بِالثَّوَابِ وَكَوْنُهُ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ.

---

[1] سُورَةُ الصَّافَّاتِ، الآية .

[2] سُورَةُ الصَّافَّاتِ، الآية .

[3] سُورَةُ الصَّافَّاتِ، الآية .

[4] سورة الْفُرْقَانَ، الآية 42.

[5] سُورَةُ الصَّافَّاتِ، الآية .

﴿مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾[1]: مِنَ الَّذِينَ أُحْضِرُوا الْعَذَابَ كَمَا أُحْضِرْتَهُ أَنْتَ وَأَمْثَالُكَ.

﴿أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَى
وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾[2]

الَّذِي عَطَفَتْ عَلَيْهِ الْفَاءُ مَحْذُوفٌ، مَعْنَاهُ: أَنَحْنُ مُخَلَّدُونَ مُنَعَّمُونَ، فَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ لَا مُعَذَّبِينَ.

وَقُرِئَ: (بِمَائِتِينَ). وَالْمَعْنَى أَنَّ هَذِهِ حَالُ الْمُؤْمِنِينَ وَصِفَتُهُمْ وَمَا قَضَى اللَّهُ بِهِ لَهُمْ لِلْعِلْمِ بِأَعْمَالِهِمْ أَنْ لَا يَذُوقُوا إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى، بِخِلَافِ الْكُفَّارِ، فَإِنَّهُمْ فِيمَا يَتَمَنَّوْنَ فِيهِ الْمَوْتَ كُلَّ سَاعَةٍ.

وَقِيلَ لِبَعْضِ الْحُكَمَاءِ: مَا شَرٌّ مِنَ الْمَوْتِ؟ قَالَ: الَّذِي يَتَمَنَّى فِيهِ الْمَوْتَ.

﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ لِمِثْلِ هَذَا
فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ﴾[3]

يَقُولُهُ الْمُؤْمِنُ تَحَدُّثًا بِنِعْمَةِ اللَّهِ وَاغْتِبَاطًا بِحَالِهِ وَبِمَسْمَعٍ مِنْ قَرِينِهِ، لِيَكُونَ تَوْبِيخًا لَهُ يَزِيدُ بِهِ تَعَذُّبًا، وَلِيَحْكِيَهُ اللَّهُ فَيَكُونُ لَنَا لُطْفًا وَزَاجِرًا.

وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُمْ جَمِيعًا، وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾[4]، أَيْ إِنَّ هَذَا الْأَمْرَ الَّذِي نَحْنُ فِيهِ. وَقِيلَ: هُوَ مِنْ قَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ تَقْرِيرًا لِقَوْلِهِمْ وَتَصْدِيقًا لَهُ. وَقُرِئَ: (لَهُوَ الرِّزْقُ الْعَظِيمُ)، وَهُوَ مَا رُزِقُوهُ مِنَ السَّعَادَةِ.

﴿أَذَلِكَ خَيْرٌ نُزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي
أَصْلِ الْجَحِيمِ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا

---

[1] سُورَةُ الصَّافَّاتِ، الآية .

[2] سُورَةُ الصَّافَّاتِ، الآية .

[3] سُورَةُ الصَّافَّاتِ، الآية .

[4] سُورَةُ الصَّافَّاتِ، الآية .

الْبُطُونَ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِنْ حَمِيمٍ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لإِلَى الْجَحِيمِ إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ فَهُمْ عَلَى آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ﴾[1]

تَمَّتْ قِصَّةُ الْمُؤْمِنِ وَقَرِينِهِ، ثُمَّ رَجَعَ إِلَى ذِكْرِ الرِّزْقِ الْمَعْلُومِ، فَقَالَ: ﴿أَذَلِكَ﴾[2] الرِّزْقُ ﴿خَيْرٌ نُزُلًا﴾[3]، أَيْ خَيْرٌ حَاصِلًا ﴿أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ﴾[4].

وَأَصْلُ النُّزُلِ: الْفَضْلُ وَالرِّيعُ فِي الطَّعَامِ، يُقَالُ: طَعَامٌ كَثِيرُ النُّزُلِ، فَاسْتُعِيرَ لِلْحَاصِلِ مِنَ الشَّيْءِ، وَحَاصِلُ الرِّزْقِ الْمَعْلُومِ: اللَّذَّةُ وَالسُّرُورُ، وَحَاصِلُ شَجَرَةِ الزَّقُّومِ: الْأَلَمُ وَالْغَمُّ، وَانْتِصَابُ نُزُلًا عَلَى التَّمْيِيزِ، وَلَكَ أَنْ تَجْعَلَهُ حَالًا، كَمَا تَقُولُ: أَتَمْرُ النَّخْلَةِ خَيْرٌ بَلَحًا أَمْ رُطَبًا؟ يَعْنِي أَنَّ الرِّزْقَ الْمَعْلُومَ نُزُلُ أَهْلِ الْجَنَّةِ. وَأَهْلُ النَّارِ نُزُلُهُمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ، فَأَيُّهُمَا خَيْرٌ فِي كَوْنِهِ نُزُلًا.

وَالنُّزُلُ: مَا يُقَالُ لِلنَّازِلِ بِالْمَكَانِ مِنَ الرِّزْقِ. وَمِنْهُ إِنْزَالُ الْجُنْدِ لِأَرْزَاقِهِمْ، كَمَا يُقَالُ لِمَا يُقَامُ لِسَاكِنِ الدَّارِ: السَّكَنُ. وَمَعْنَى الْأَوَّلِ: أَنَّ لِلرِّزْقِ الْمَعْلُومِ نُزُلًا، وَلِشَجَرِ الزَّقُّومِ نُزُلًا، فَأَيُّهُمَا خَيْرٌ نُزُلًا.

وَمَعْلُومٌ أَنَّهُ لَا خَيْرَ فِي شَجَرَةِ الزَّقُّومِ، وَلَكِنَّ الْمُؤْمِنِينَ لَمَّا اخْتَارُوا مَا أَدَّى إِلَى الرِّزْقِ الْمَعْلُومِ وَاخْتَارَ الْكَافِرُونَ مَا أَدَّى إِلَى شَجَرَةِ الزَّقُّومِ قِيلَ لَهُمْ ذَلِكَ تَوْبِيخًا عَلَى سُوءِ اخْتِيَارِهِمْ.

﴿فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ﴾[5] مِحْنَةً وَعَذَابًا لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ، أَوِ ابْتِلَاءً لَهُمْ فِي الدُّنْيَا، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ قَالُوا: كَيْفَ يَكُونُ فِي النَّارِ شَجَرَةٌ وَالنَّارُ تَحْرِقُ الشَّجَرَ، فَكَذَّبُوا.

وَقُرِئَ: (نَابِتَةٌ) ﴿فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ﴾[6]، قِيلَ: مَنْبَتُهَا فِي قَعْرِ جَهَنَّمَ، وَأَغْصَانُهَا تَرْتَفِعُ إِلَى دِرْكَاتِهَا: وَالطَّلْعُ لِلنَّخْلَةِ، فَاسْتُعِيرَ لِمَا طَلَعَ مِنْ شَجَرَةِ الزَّقُّومِ مِنْ حَمْلِهَا: إِمَّا اسْتِعَارَةً لَفْظِيَّةً، أَوْ مَعْنَوِيَّةً، وَشُبِّهَ بِرُءُوسِ الشَّيَاطِينِ دَلَالَةً عَلَى تَنَاهِيهِ فِي الْكَرَاهِيَةِ وَقُبْحِ الْمَنْظَرِ، لِأَنَّ الشَّيْطَانَ مَكْرُوهٌ مُسْتَقْبَحٌ فِي طِبَاعِ النَّاسِ، لِاعْتِقَادِهِمْ أَنَّهُ شَرٌّ مَحْضٌ لَا يَخْلِطُهُ خَيْرٌ،

---

[1] سُورَةُ الصَّافَّاتِ، الآية .
[2] سُورَةُ الصَّافَّاتِ، الآية .
[3] سُورَةُ الصَّافَّاتِ، الآية .
[4] سُورَةُ الصَّافَّاتِ، الآية .
[5] سُورَةُ الصَّافَّاتِ، الآية .
[6] سُورَةُ الصَّافَّاتِ، الآية .

فيقُولُونَ فِي الْقَبِيحِ الصُّورَةِ: كَأَنَّهُ وَجْهُ شَيْطَانٍ، كَأَنَّهُ رَأْسُ شَيْطَانٍ، وَإِذَا صَوَّرَهُ الْمُصَوِّرُونَ: جَاءُوا بِصُورَتِهِ عَلَى أَقْبَحِ مَا يُقَدَّرُ وَأَهْوَلِهِ، كَمَا أَنَّهُمُ اعْتَقَدُوا فِي ذَلِكَ أَنَّهُ خَيْرٌ مَحْضٌ لَا شَرَّ فِيهِ، فَشَبَّهُوا بِهِ الصُّورَةَ الْحَسَنَةَ.

قَالَ اللَّهُ –تَعَالَى–: ﴿مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾[1]. وَهَذَا تَشْبِيهٌ تَخْيِيلِيٌّ.

وَقِيلَ: الشَّيْطَانُ حَيَّةٌ عَرْفَاءُ لَهَا صُورَةٌ قَبِيحَةُ الْمَنْظَرِ هَائِلَةٌ جِدًّا.

وَقِيلَ: إِنَّ شَجَرًا يُقَالُ لَهُ الْأَسْتَنُ خَشِنًا مُنْتِنًا مُرًّا مُنْكَرَ الصُّورَةِ، يُسَمَّى ثَمَرُهُ: رُؤُوسُ الشَّيَاطِينِ. وَمَا سَمَّتِ الْعَرَبُ هَذَا الثَّمَرَ رُءُوسَ الشَّيَاطِينِ إِلَّا قَصْدًا إِلَى أَحَدِ التَّشْبِيهَيْنِ، وَلَكِنَّهُ بَعْدَ التَّسْمِيَةِ بِذَلِكَ رَجَعَ أَصْلًا ثَالِثًا يُشَبَّهُ بِهِ. "مِنْهَا " مِنَ الشَّجَرَةِ، أَيْ مِنْ طَلْعِهَا.

﴿فَمَالِئُونَ﴾[2] بُطُونَهُمْ، لِمَا يَغْلِبُهُمْ مِنَ الْجُوعِ الشَّدِيدِ، أَوْ يُقْسَرُونَ عَلَى أَكْلِهَا وَإِنْ كَرِهُوهَا، لِيَكُونَ بَابًا مِنَ الْعَذَابِ، فَإِذَا شَبِعُوا غَلَبَهُمُ الْعَطَشُ، فيسْقَوْنَ شَرَابًا مِنْ غَسَّاقٍ أَوْ صَدِيدٍ، شَوْبُهُ: أَيْ مِزَاجُهُ ﴿مِنْ حَمِيمٍ﴾[3] يَشْوِي وُجُوهَهُمْ وَيُقَطِّعُ أَمْعَاءَهُمْ، كَمَا قَالَ فِي صِفَةِ شَرَابِ أَهْلِ الْجَنَّةِ: ﴿وَمِزَاجُهُ مِنْ تَسْنِيمٍ﴾[4].

وَقُرِئَ: (لَشُوبًا) بِالضَّمِّ، وَهُوَ اسْمُ مَا يُشَابُ بِهِ، وَالْأَوَّلُ تَسْمِيَةٌ بِالْمَصْدَرِ.

فَإِنْ قُلْتَ: مَا مَعْنَى حَرْفِ التَّرَاخِي فِي قَوْلِهِ: ﴿ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا﴾[5]، وَفِي قَوْلِهِ: ﴿ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ﴾[6] ؟

قُلْتُ: فِي الْأَوَّلِ وَجْهَانِ:

أَحَدُهُمَا: أَنَّهُمْ يَمْلَئُونَ الْبُطُونَ مِنْ شَجَرِ الزَّقُّومِ، وَهُوَ حَارٌّ يَحْرُقُ بُطُونَهُمْ وَيُعَطِّشُهُمْ، فَلَا يُسْقَوْنَ إِلَّا بَعْدَ مَا مَلِيَ تَعْذِيبًا بِذَلِكَ الْعَطَشِ، ثُمَّ يُسْقَوْنَ مَا هُوَ أَحَرُّ، وَهُوَ الشَّرَابُ الْمَشُوبُ بِالْحَمِيمِ.

وَالثَّانِي: أَنَّهُ ذَكَرَ الطَّعَامَ بِتِلْكَ الْكَرَاهَةِ وَالْبَشَاعَةِ، ثُمَّ ذَكَرَ الشَّرَابَ بِمَا هُوَ أَكْرَهُ وَأَبْشَعُ، فَجَاءَ بِثُمَّ لِلدَّلَالَةِ عَلَى تَرَاخِي حَالِ الشَّرَابِ عَنْ حَالِ الطَّعَامِ وَمُبَايَنَةِ صِفَتِهِ لِصِفَتِهِ فِي الزِّيَادَةِ عَلَيْهِ.

---

[1] سورة يُوسُف، الآية 31.

[2] سُورَةُ الصَّافَّاتِ، الآية .

[3] سُورَةُ الصَّافَّاتِ، الآية .

[4] سورة الْمُطَفِّفِينِ، الآية 27.

[5] سُورَةُ الصَّافَّاتِ، الآية .

[6] سُورَةُ الصَّافَّاتِ، الآية .

وَمَعْنَى الثَّانِي: أَنَّهُمْ يُذْهَبُ بِهِمْ عَنْ مَقَارِّهِمْ وَمَنَازِلِهِمْ فِي الْجَحِيمِ، وَهِيَ الدَّرَكَاتُ الَّتِي أُسْكِنُوهَا إِلَى شَجَرَةِ الزَّقُّومِ، فيأْكُلُونَ إِلَى أَنْ يَتَمَلَّئُوا، وَيُسْقَوْنَ بَعْدَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَرْجِعُونَ إِلَى دَرَكَاتِهِمْ، وَمَعْنَى التَّرَاجِي فِي ذَلِكَ بَيِّنٌ.

وَقُرِئَ: (ثُمَّ إِنَّ مُنْقَلَبَهُمْ)، (ثُمَّ إِنَّ مَصِيرَهُمْ)، (ثُمَّ إِنَّ مَنْفَذَهُمْ إِلَى الْجَحِيمِ)، عَلَّلَ اسْتِحْقَاقَهُمْ لِلْوُقُوعِ فِي تِلْكَ الشَّدَائِدِ كُلِّهَا بِتَقْلِيدِ الْآبَاءِ فِي الدِّينِ، وَاتِّبَاعِهِمْ إِيَّاهُمْ عَلَى الضَّلَالِ، وَتَرْكِ اتِّبَاعِ الدَّلِيلِ.

وَالْإِهْرَاعُ: الْإِسْرَاعُ الشَّدِيدُ، كَأَنَّهُمْ يُحَثُّونَ حَثًّا. وَقِيلَ: إِسْرَاعٌ فِيهِ شَبَهٌ بِالرِّعْدَةِ.

﴿وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِمْ مُنْذِرِينَ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾[1]

﴿وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ﴾[2] قَبْلَ قَوْمِكَ قُرَيْشٍ." مُنْذِرِينَ " أَنْبِيَاءَ حَذَّرُوهُمُ الْعَوَاقِبَ.

﴿الْمُنْذَرِينَ﴾[3] الَّذِينَ أُنْذِرُوا وَحُذِّرُوا، أَيْ: أُهْلِكُوا جَمِيعًا.

﴿إِلاّ عِبَادَ اللَّهِ﴾[4] الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ أَوْ أَخْلَصَهُمُ اللَّهُ لِدِينِهِ عَلَى الْقِرَاءَتَيْنِ.

﴿وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ سَلامٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ﴾[5]

لَمَّا ذَكَرَ إِرْسَالَ الْمُنْذِرِينَ فِي الْأُمَمِ الْخَالِيَةِ وَسُوءَ عَاقِبَةِ الْمُنْذَرِينَ، أَتْبَعَ ذَلِكَ ذِكْرَ نُوحٍ وَدُعَائِهِ حِينَ آيَسَ مَنْ قَوْمِهِ، وَاللَّامُ الدَّاخِلَةُ عَلَى نِعْمَ جَوَابُ قَسَمٍ

---

[1] سُورَةُ الصَّافَّاتِ، الآية .

[2] سُورَةُ الصَّافَّاتِ، الآية .

[3] سُورَةُ الصَّافَّاتِ، الآية .

[4] سُورَةُ الصَّافَّاتِ، الآية .

[5] سُورَةُ الصَّافَّاتِ، الآية .

مَحْذُوفٍ، وَالْمَخْصُوصُ بِالْمَدْحِ مَحْذُوفٌ تَقْدِيرُهُ: فَوَاللَّهِ لَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ نَحْنُ. وَالْجَمْعُ دَلِيلُ الْعَظَمَةِ وَالْكِبْرِيَاءِ.

وَالْمَعْنَى: إِنَّا أَجَبْنَاهُ أَحْسَنَ الْإِجَابَةِ، وَأَوْصَلَهَا إِلَى مُرَادِهِ وَبُغْيَتِهِ مِنْ نُصْرَتِهِ عَلَى أَعْدَائِهِ وَالِانْتِقَامِ مِنْهُمْ بِأَبْلَغِ مَا يَكُونُ.

﴿هُمُ الْبَاقِينَ﴾[1]: هُمُ الَّذِينَ بَقُوا وَحْدَهُمْ وَقَدْ فَنِيَ غَيْرُهُمْ، فَقَدْ رُوِيَ أَنَّهُ مَاتَ كُلُّ مَنْ كَانَ مَعَهُ فِي السَّفِينَةِ غَيْرَ وَلَدِهِ. أَوْ هُمُ الَّذِينَ بَقُوا مُتَنَاسِلِينَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ.

قَالَ قَتَادَةُ: النَّاسُ كُلُّهُمْ مِنْ ذُرِّيَّةِ نُوحٍ، وَكَانَ لِنُوحٍ –عَلَيْهِ السَّلَامُ– ثَلَاثَةُ أَوْلَادٍ: سَامٌ، وَحَامٌ، وَيَافَثُ. فَسَامٌ أَبُو الْعَرَبِ، وَفَارِسَ، وَالرُّومِ، وَحَامٌ أَبُو السُّودَانِ مِنَ الْمَشْرِقِ إِلَى الْمَغْرِبِ، وَيَافَثُ أَبُو التُّرْكِ وَيَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ.

﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الآخِرِينَ﴾[2] مِنَ الْأُمَمِ هَذِهِ الْكَلِمَةَ، وَهِيَ: ﴿سَلامٌ عَلَى نُوحٍ﴾[3]، يَعْنِي يُسَلِّمُونَ عَلَيْهِ تَسْلِيمًا، وَيَدْعُونَ لَهُ، وَهُوَ مِنَ الْكَلَامِ الْمَحْكِيِّ، كَقَوْلِكَ: قَرَأْتُ: ﴿سُورَةٌ أَنْزَلْنَاهَا﴾[4].

فَإِنْ قُلْتَ: فَمَا مَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿فِي الْعَالَمِينَ﴾[5]؟

قُلْتُ: مَعْنَاهُ الدُّعَاءُ بِثُبُوتِ هَذِهِ التَّحِيَّةِ فِيهِمْ جَمِيعًا، وَأَنْ لَا يَخْلُوَ أَحَدٌ مِنْهُمْ مِنْهَا، كَأَنَّهُ قِيلَ: ثَبَّتَ اللَّهُ التَّسْلِيمَ عَلَى نُوحٍ وَأَدَامَهُ فِي الْمَلَائِكَةِ وَالثَّقَلَيْنِ يُسَلِّمُونَ الْعَالَمِينَ عَلَيْهِ إِلَى آخِرِهِمْ.

عَلَّلَ مُجَازَاةَ نُوحٍ –عَلَيْهِ السَّلَامُ– بِتِلْكَ التَّكْرِمَةِ السَّنِيَّةِ مِنْ تَبْقِيَةِ ذِكْرِهِ، وَتَسْلِيمِ الْعَالَمِينَ عَلَيْهِ إِلَى آخِرِ الدَّهْرِ بِأَنَّهُ كَانَ مُحْسِنًا، ثُمَّ عَلَّلَ كَوْنَهُ مُحْسِنًا بِأَنَّهُ كَانَ عَبْدًا مُؤْمِنًا، لِيُرِيَكَ جَلَالَةَ مَحَلِّ الْإِيمَانِ، وَأَنَّهُ الْقُصَارَى مِنْ صِفَاتِ الْمَدْحِ وَالتَّعْظِيمِ، وَيُرَغِّبَكَ فِي تَحْصِيلِهِ وَالِازْدِيَادِ مِنْهُ.

---

[1] سُورَةُ الصَّافَّاتِ، الآية .

[2] سُورَةُ الصَّافَّاتِ، الآية .

[3] سُورَةُ الصَّافَّاتِ، الآية .

[4] سورة النُّورِ، الآية 1.

[5] سُورَةُ الصَّافَّاتِ، الآية .

﴿وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ أَإِفْكًا آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[1]

﴿مِنْ شِيعَتِهِ﴾[2]: مِمَّنْ شَايَعَهُ عَلَى أُصُولِ الدِّينِ، وَإِنِ اخْتَلَفَتْ شَرَائِعُهُمَا، أَوْ شَايَعَهُ عَلَى التَّصَلُّبِ فِي دِينِ اللَّهِ وَمُصَابَرَةِ الْمُكَذِّبِينَ.

وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ بَيْنَ شَرِيعَتِهِمَا اتِّفَاقٌ فِي أَكْثَرِ الْأَشْيَاءِ. وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ –رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا–: مِنْ أَهْلِ دِينِهِ وَعَلَى سُنَّتِهِ، وَمَا كَانَ بَيْنَ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ إِلَّا نَبِيَّانِ: هُودٌ وَصَالِحٌ، وَكَانَ بَيْنَ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ أَلْفَانِ وَسِتُّمِائَةٍ وَأَرْبَعُونَ سَنَةً.

فَإِنْ قُلْتَ: بِمَ تَعَلَّقَ الظَّرْفُ؟

قُلْتُ: بِمَا فِي الشِّيعَةِ مِنْ مَعْنَى الْمُشَايَعَةِ، يَعْنِي: وَإِنَّ مِمَّنْ شَايَعَهُ عَلَى دِينِهِ وَتَقْوَاهُ حِينَ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ لِإِبْرَاهِيمُ، أَوْ بِمَحْذُوفٍ، وَهُوَ: اذْكُرْ ﴿بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾[3] مِنْ جَمِيعِ آفَاتِ الْقُلُوبِ. وَقِيلَ: مِنَ الشِّرْكِ، وَلَا مَعْنَى لِلتَّخْصِيصِ، لِأَنَّهُ مُطْلَقٌ، فَلَيْسَ بَعْضُ الْآفَاتِ أَوْلَى مِنْ بَعْضٍ فيتَنَاوَلُهَا كُلَّهَا.

فَإِنْ قُلْتَ: مَا مَعْنَى الْمَجِيءِ بِقَلْبِهِ رَبَّهُ؟

قُلْتُ: مَعْنَاهُ أَنَّهُ أَخْلَصَ اللَّهَ قَلْبَهُ، وَعَرَفَ ذَلِكَ مِنْهُ فَضَرَبَ الْمَجِيءَ مَثَلًا لِذَلِكَ ﴿أَإِفْكًا﴾[4] مَفْعُولٌ لَهُ، تَقْدِيرُهُ: أَتُرِيدُونَ آلِهَةً مِنْ دُونِ اللَّهِ إِفْكًا، وَإِنَّمَا قَدَّمَ الْمَفْعُولَ عَلَى الْفِعْلِ لِلْعِنَايَةِ، وَقَدَّمَ الْمَفْعُولَ لَهُ عَلَى الْمَفْعُولِ بِهِ، لِأَنَّهُ كَانَ الْأَهَمَّ عِنْدَهُ أَنْ يُكَافِحَهُمْ بِأَنَّهُمْ عَلَى إِفْكٍ وَبَاطِلٍ فِي شِرْكِهِمْ.

وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ "إِفْكًا" مَفْعُولًا بِهِ، يَعْنِي: أَتُرِيدُونَ بِهِ إِفْكًا، ثُمَّ فَسَّرَ الْإِفْكَ بِقَوْلِهِ: ﴿آلِهَةً دُونَ اللَّهِ﴾[5] عَلَى أَنَّهَا إِفْكٌ فِي أَنْفُسِهَا.

---

[1] سُورَةُ الصَّافَّاتِ، الآية .

[2] سُورَةُ الصَّافَّاتِ، الآية .

[3] سُورَةُ الصَّافَّاتِ، الآية .

[4] سُورَةُ الصَّافَّاتِ، الآية .

[5] سُورَةُ الصَّافَّاتِ، الآية .

وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ حَالًا، بِمَعْنَى: أَتُرِيدُونَ آلِهَةً مِنْ دُونِ اللَّهِ آفِكِينَ ﴿فَمَا ظَنُّكُمْ﴾[1] بِمَنْ هُوَ الْحَقِيقُ بِالْعِبَادَةِ، لِأَنَّ مَنْ كَانَ رَبًّا لِلْعَالَمِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمْ أَنْ يَعْبُدُوهُ، حَتَّى تَرَكْتُمْ عِبَادَتَهُ إِلَى عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ.

وَالْمَعْنَى: أَنَّهُ لَا يَقْدِرُ فِي وَهْمٍ وَلَا ظَنٍّ مَا يَصُدُّ عَنْ عِبَادَتِهِ. أَوْ فَمَا ظَنُّكُمْ بِهِ أَيَّ شَيْءٍ هُوَ مِنَ الْأَشْيَاءِ، حَتَّى جَعَلْتُمُ الْأَصْنَامَ لَهُ أَنْدَادًا؟ أَوْ فَمَا ظَنُّكُمْ بِهِ مَاذَا يَفْعَلُ بِكُمْ وَكَيْفَ يُعَاقِبُكُمْ وَقَدْ عَبَدْتُمْ غَيْرَهُ؟

## ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ﴾[2]

﴿فِي النُّجُومِ﴾[3] فِي عِلْمِ النُّجُومِ أَوْ فِي كِتَابِهَا أَوْ فِي أَحْكَامِهَا.

وَعَنْ بَعْضِ الْمُلُوكِ أَنَّهُ سُئِلَ عَنْ مُشْتَهَاهُ، فَقَالَ: حَبِيبٌ أَنْظُرُ إِلَيْهِ، وَمُحْتَاجٌ أَنْظُرُ لَهُ، وَكِتَابٌ أَنْظُرُ فِيهِ. كَانَ الْقَوْمُ نَجَّامِينَ، فَأَوْهَمَهُمْ أَنَّهُ اسْتَدَلَّ بِأَمَارَةٍ فِي عِلْمِ النُّجُومِ عَلَى أَنَّهُ يَسْقُمُ، ﴿فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ﴾[4]: إِنِّي مَشَارِفٌ لِلسَّقَمِ، وَهُوَ الطَّاعُونُ، وَكَانَ أَغْلَبُ الْأَسْقَامِ عَلَيْهِمْ، وَكَانُوا يَخَافُونَ الْعَدْوَى لِيَتَفَرَّقُوا عَنْهُ، فَهَرَبُوا مِنْهُ إِلَى عِيدِهِمْ وَتَرَكُوهُ فِي بَيْتِ الْأَصْنَامِ لَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ، فَفَعَلَ بِالْأَصْنَامِ مَا فَعَلَ.

فَإِنْ قُلْتَ: كَيْفَ جَازَ لَهُ أَنْ يَكْذِبَ؟

قُلْتُ: قَدْ جَوَّزَهُ بَعْضُ النَّاسِ فِي الْمَكِيدَةِ فِي الْحَرْبِ وَالتَّقِيَّةِ، وَإِرْضَاءِ الزَّوْجِ وَالصُّلْحِ بَيْنَ الْمُتَخَاصِمِينَ وَالْمُتَهَاجِرِينَ.

وَالصَّحِيحُ: أَنَّ الْكَذِبَ حَرَامٌ إِلَّا إِذَا عَرَّضَ وَوَرَّى، وَالَّذِي قَالَهُ إِبْرَاهِيمُ –عَلَيْهِ السَّلَامُ– مِعْرَاضٌ مِنَ الْكَلَامِ، وَلَقَدْ نَوَى بِهِ أَنَّ مَنْ فِي عُنُقِهِ الْمَوْتُ سَقِيمٌ. وَمِنْهُ الْمَثَلُ: كَفَى بِالسَّلَامَةِ دَاءً.

وَقَوْلُ لَبِيدٍ:

---

[1] سُورَةُ الصَّافَّاتِ، الآية .

[2] سُورَةُ الصَّافَّاتِ، الآية .

[3] سُورَةُ الصَّافَّاتِ، الآية .

[4] سُورَةُ الصَّافَّاتِ، الآية .

فَدَعَوْتُ رَبِّي بِالسَّلَامَةِ جَاهِدًا لِيُصِحَّنِي فَإِذَا السَّلَامَةُ دَاءُ

وَقَدْ مَاتَ رَجُلٌ فَجْأَةً فَالْتَفَّ عَلَيْهِ النَّاسُ وَقَالُوا: مَاتَ وَهُوَ صَحِيحٌ، فَقَالَ أَعْرَابِيٌّ: أَصَحِيحٌ مِنَ الْمَوْتِ في عُنُقِهِ. وَقِيلَ: أَرَادَ: إِنِّي سَقِيمُ النَّفْسِ لِكُفْرِكُمْ.

## ﴿فَرَاغَ إِلَى آلِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ مَا لَكُمْ لَا تَنْطِقُونَ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ﴾[1]

﴿فَرَاغَ إِلَى آلِهَتِهِمْ﴾[2]، فَذَهَبَ إِلَيْهَا في خُفيةٍ، مِنْ رَوْغَةِ الثَّعْلَبِ، إِلَى آلِهَتِهِمْ: إِلَى أَصْنَامِهِمُ الَّتِي هِيَ في زَعْمِهِمْ آلِهَةٌ، كَقَوْلِهِ –تَعَالَى–: ﴿أَيْنَ شُرَكَائِيَ﴾[3]؟

﴿أَلا تَأْكُلُونَ مَا لَكُمْ لا تَنْطِقُونَ﴾[4] اسْتِهْزَاءً بِهَا وَبِانْحِطَاطِهَا عَنْ حَالِ عَبَدَتِهَا ﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ﴾[5]، فَأَقْبَلَ عَلَيْهِمْ مُسْتَخْفِيا، كَأَنَّهُ قَالَ: فَضَرَبَهُمْ ﴿ضَرْبًا﴾[6]، لِأَنَّ رَاغَ عَلَيْهِمْ بِمَعْنَى ضَرَبَهُمْ. أَوْ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ يَضْرِبُهُمْ ضَرْبًا. أَوْ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِمَعْنَى ضَارِبًا.

وَقُرِئَ: (صَفْقًا) وَ (سَفْقًا)، وَمَعْنَاهُمَا: الضَّرْبُ.

وَمَعْنَى ضَرْبًا ﴿بِالْيَمِينِ﴾[7] ضَرْبًا شَدِيدًا قَوِيًّا، لِأَنَّ الْيَمِينَ أَقْوَى الْجَارِحَتَيْنِ وَأَشَدُّهُمَا.

وَقِيلَ: بِالْقُوَّةِ وَالْمَتَانَةِ، وَقِيلَ: بِسَبَبِ الْحَلِفِ، وَهُوَ قَوْلُهُ: ﴿وَتَاللَّهِ لأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ﴾[8].

## ﴿فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ﴾[9]

---

[1] سُورَةُ الصَّافَّاتِ، الآية .

[2] سُورَةُ الصَّافَّاتِ، الآية .

[3] سورة النَّحْلَ، الآية 27.

[4] سُورَةُ الصَّافَّاتِ، الآية .

[5] سُورَةُ الصَّافَّاتِ، الآية .

[6] سُورَةُ الصَّافَّاتِ، الآية .

[7] سُورَةُ الصَّافَّاتِ، الآية .

[8] سُورَةُ الصَّافَّاتِ، الآية .

[9] سُورَةُ الصَّافَّاتِ، الآية .

"يَزِفُّونَ": يُسْرِعُونَ، مِنْ زَفِيفِ النَّعَامِ. وَيَزُفُّونَ: مِنْ أَزَفَ، إِذَا دَخَلَ فِي الزَّفِيفِ. أَوْ مِنْ أَزَفَّهُ، إِذَا حَمَلَهُ عَلَى الزَّفِيفِ، أَيْ: يَزُفُّ بَعْضُهُمْ بَعْضًا.

وَيَزُفُّونَ، عَلَى الْبِنَاءِ لِلْمَفْعُولِ، أَيْ: يَحْمِلُونَ عَلَى الزَّفِيفِ. وَيَزِفُّونَ، مِنْ وَزَفَ يَزِفُّ إِذَا أَسْرَعَ. وَيَزِفُّونَ: مِنْ زَفَاهُ إِذَا حَدَاهُ، كَأَنَّ بَعْضَهُمْ يَزْفُو بَعْضًا لِتَسَارُعِهِمْ إِلَيْهِ.

فَإِنْ قُلْتَ: بَيْنَ هَذَا وَبَيْنَ قَوْلِهِ -تَعَالَى-: ﴿قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ﴾[1]، كَالتَّنَاقُضِ حَيْثُ ذَكَرَ هَا هُنَا أَنَّهُمْ أَدْبَرُوا عَنْهُ خِيفَةَ الْعَدْوَى، فَلَمَّا أَبْصَرُوهُ يَكْسِرُهُمْ أَقْبَلُوا إِلَيْهِ مُتَبَادِرِينَ لِيَكُفُّوهُ وَيُوقِعُوا بِهِ، وَذُكِرَ ثُمَّ أَنَّهُمْ سَأَلُوا عَنِ الْكَاسِرِ، حَتَّى قِيلَ لَهُمْ: سَمِعْنَا إِبْرَاهِيمَ يَذُمُّهُمْ، فَلَعَلَّهُ هُوَ الْكَاسِرُ، فَفِي أَحَدِهِمَا أَنَّهُمْ شَاهَدُوهُ يَكْسِرُهَا، وَفِي الْآخَرِ: أَنَّهُمُ اسْتَدَلُّوا بِذِمِّهِ عَلَى أَنَّهُ الْكَاسِرُ.

قُلْتُ: فِيهِ وَجْهَانِ:

أَحَدُهُمَا: أَنْ يَكُونَ الَّذِينَ أَبْصَرُوهُ وَزَفُّوا إِلَيْهِ نَفَرًا مِنْهُمْ دُونَ جُمْهُورِهِمْ وَكُبَرَائِهِمْ، فَلَمَّا رَجَعَ الْجُمْهُورُ وَالْعِلْيَةُ مِنْ عِيدِهِمْ إِلَى بَيْتِ الْأَصْنَامِ لِيَأْكُلُوا الطَّعَامَ الَّذِي وَضَعُوهُ عِنْدَهَا لِتُبَرِّكَ عَلَيْهِ وَرَأَوْهَا مَكْسُورَةً اشْمَأَزُّوا مِنْ ذَلِكَ، وَسَأَلُوا: مَنْ فَعَلَ هَذَا بِهَا؟ ثُمَّ لَمْ يَنْمِ عَلَيْهِ أُولَئِكَ النَّفَرُ نَمِيمَةً صَرِيحَةً، وَلَكِنْ عَلَى سَبِيلِ التَّوْرِيَةِ وَالتَّعْرِيضِ بِقَوْلِهِمْ: ﴿سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ﴾[2] لِبَعْضِ الصَّوَارِفِ.

وَالثَّانِي: أَنْ يَكْسِرَهَا وَيَذْهَبَ وَلَا يَشْعُرُ بِذَلِكَ أَحَدٌ، وَيَكُونُ إِقْبَالُهُمْ إِلَيْهِ يَزِفُّونَ بَعْدَ رُجُوعِهِمْ مِنْ عِيدِهِمْ وَسُؤَالِهِمْ عَنِ الْكَاسِرِ.

وَقَوْلُهُمْ: ﴿قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ﴾[3].

---

[1] سورة الْأَنْبِيَاءِ، الآيتان 59-60.

[2] سُورَةُ الصَّافَّاتِ، الآية .

[3] سورة الْأَنْبِيَاءِ، الآية 61.

## ﴿قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾[1]

﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾[2]، يَعْنِي خُلَقَاءَ وَخَلَقَ مَا تَعْمَلُونَهُ مِنَ الْأَصْنَامِ، كَقَوْلِهِ: ﴿بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ﴾[3]، أَيْ فَطَرَ الْأَصْنَامَ.

فَإِنْ قُلْتَ: كَيْفَ يَكُونُ الشَّيْءُ الْوَاحِدُ مَخْلُوقًا لِلَّهِ مَعْمُولًا لَهُمْ، حَيْثُ أَوْقَعَ خَلْقَهُ وَعَمَلَهُمْ عَلَيْهَا جَمِيعًا؟

قُلْتُ: هَذَا كَمَا يُقَالُ: عَمِلَ النَّجَّارُ الْبَابَ وَالْكُرْسِيَّ، وَعَمِلَ الصَّائِغُ السُّوَارَ وَالْخَلْخَالَ، وَالْمُرَادُ عَمِلَ أَشْكَالَ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ وَصَوَّرَهَا دُونَ جَوَاهِرِهَا، وَالْأَصْنَامُ جَوَاهِرُ وَأَشْكَالٌ، فَخَالِقُ جَوَاهِرِهَا اللَّهُ، وَعَامِلُوا أَشْكَالِهَا الَّذِينَ يُشَكِّلُونَهَا بِنَحْتِهِمْ وَحَذْفِهِمْ بَعْضَ أَجْزَائِهَا، حَتَّى يَسْتَوِيَ التَّشْكِيلُ الَّذِي يُرِيدُونَهُ.

فَإِنْ قُلْتَ: فَمَا أَنْكَرْتَ أَنْ تَكُونَ "مَا" مَصْدَرِيَّةً لَا مَوْصُولَةً، وَيَكُونُ الْمَعْنَى: وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَعَمَلَكُمْ، كَمَا تَقُولُ الْمُجَبِّرَةُ؟

قُلْتُ: أَقْرَبُ مَا يُبْطِلُ بِهِ هَذَا السُّؤَالَ بَعْدَ بُطْلَانِهِ بِحُجَجِ الْعَقْلِ وَالْكِتَابِ، أَنَّ مَعْنَى الْآيَةِ يَأْبَاهُ إِبَاءً جَلِيًّا، وَيَنْبُو عَنْهُ نَبْوًا ظَاهِرًا، وَذَلِكَ أَنَّ اللَّهَ –عَزَّ وَجَلَّ– قَدِ احْتَجَّ عَلَيْهِمْ بِأَنَّ الْعَابِدَ وَالْمَعْبُودَ جَمِيعًا خَلْقُ اللَّهِ، فَكَيْفَ يَعْبُدُ الْمَخْلُوقُ الْمَخْلُوقَ؟ عَلَى أَنَّ الْعَابِدَ مِنْهُمَا هُوَ الَّذِي عَمِلَ صُورَةَ الْمَعْبُودِ وَشَكَّلَهُ، وَلَوْلَاهُ لَمَا قَدَرَ أَنْ يُصَوِّرَ نَفْسَهُ وَيُشَكِّلَهَا.

وَلَوْ قُلْتَ: وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَخَلَقَ عَمَلَكُمْ وَلَمْ يَكُنْ مُحْتَجًّا عَلَيْهِمْ وَلَا كَانَ لِكَلَامِكَ طِبَاقٌ.

وَشَيْءٌ آخَرُ: وَهُوَ أَنَّ قَوْلَهُ: ﴿مَا تَعْمَلُونَ﴾[4] تَرْجَمَةٌ عَنْ قَوْلِهِ: ﴿مَا تَنْحِتُونَ﴾[5].

---

[1] سُورَةُ الصَّافَّاتِ، الآية .

[2] سُورَةُ الصَّافَّاتِ، الآية .

[3] سورة الْأَنْبِيَاءَ، الآية 56.

[4] سُورَةُ الصَّافَّاتِ، الآية .

[5] سُورَةُ الصَّافَّاتِ، الآية .

وَ﴿مَا﴾[1] فِي ﴿مَا تَنْحِتُونَ﴾[2] مَوْصُولَةٌ لَا مَقَالَ فيها، فَلَا يَعْدِلُ بِهَا عَنْ أُخْتِهَا إِلَّا مُتَعَسِّفٌ مُتَعَصِّبٌ لِمَذْهَبِهِ، مِنْ غَيْرِ نَظَرٍ فِي عِلْمِ الْبَيَانِ، وَلَا تَبَصُّرٍ لِنَظْمِ الْقُرْآنِ.

فَإِنْ قُلْتَ: اجْعَلْهَا مَوْصُولَةً حَتَّى لَا يَلْزَمَنِي مَا أُلْزَمْتُ، وَأُرِيدُ: وَمَا تَعْمَلُونَهُ مِنْ أَعْمَالِكُمْ.

قُلْتُ: بَلِ الْإِلْزَامَانِ فِي عُنُقِكَ لَا يَفُكُّهُمَا إِلَّا الْإِذْعَانُ لِلْحَقِّ، وَذَلِكَ أَنَّكَ وَإِنْ جَعَلْتَهَا مَوْصُولَةً، فَإِنَّكَ فِي إِرَادَتِكَ بِهَا الْعَمَلَ غَيْرُ مُحْتَجٍّ عَلَى الْمُشْرِكِينَ، كَحَالِكَ وَقَدْ جَعَلْتَهَا مَصْدَرِيَّةً.

وَأَيْضًا، فَإِنَّكَ قَاطِعٌ بِذَلِكَ الْوَصْلَةَ بَيْنَ مَا تَعْمَلُونَ وَمَا تَنْحِتُونَ، حَيْثُ تُخَالِفُ بَيْنَ الْمُرَادَيْنِ بِهِمَا، فَتُرِيدُ بِمَا تَنْحِتُونَ: الْأَعْيَانَ الَّتِي هِيَ الْأَصْنَامُ، رُبَّمَا تَعْمَلُونَ: الْمَعَانِي الَّتِي هِيَ الْأَعْمَالُ، وَفِي ذَلِكَ فَكُّ النَّظْمِ وَتَبْتِيرُهُ، كَمَا إِذَا جَعَلْتَهَا مَصْدَرِيَّةً.

﴿قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ﴾[3]

"الْجَحِيمُ" النَّارُ الشَّدِيدَةُ الْوَقُودِ، وَقِيلَ: كُلُّ نَارٍ عَلَى نَارٍ وَجَمْرٍ فَوْقَ جَمْرٍ، فَهِيَ جَحِيمٌ.

وَالْمَعْنَى: أَنَّ اللَّهَ –تَعَالَى– غَلَبَهُ عَلَيْهِمْ فِي الْمَقَامَيْنِ جَمِيعًا، وَأَذَلَّهُمْ بَيْنَ يَدَيْهِ: أَرَادُوا أَنْ يَغْلِبُوهُ بِالْحُجَّةِ، فَلَقَّنَهُ اللَّهُ وَأَلْهَمَهُ مَا أَلْقَمَهُمْ بِهِ الْحَجَرَ، وَقَهَرَهُمْ فَمَالُوا إِلَى الْمَكْرِ، فَأَبْطَلَ اللَّهُ مَكْرَهُمْ وَجَعَلَهُمُ الْأَذَلِّينَ الْأَسْفَلِينَ لَمْ يَقْدِرُوا عَلَيْهِ.

﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ﴾[4]

---

[1] سُورَةُ الصَّافَّاتِ، الآية .

[2] سُورَةُ الصَّافَّاتِ، الآية .

[3] سُورَةُ الصَّافَّاتِ، الآية .

[4] سُورَةُ الصَّافَّاتِ، الآية .

أَرَادَ بِذَهَابِهِ إِلَى رَبِّهِ: مُهَاجَرَتَهُ إِلَى حَيْثُ أَمَرَهُ بِالْمُهَاجَرَةِ إِلَيْهِ مِنْ أَرْضِ الشَّامِ، كَمَا قَالَ: ﴿إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي﴾[1].

﴿سَيَهْدِينِ﴾[2] سَيُرْشِدُنِي إِلَى مَا فِيهِ صَلَاحِي فِي دِينِي وَيَعْصِمُنِي وَيُوَفِّقُنِي، كَمَا قَالَ مُوسَى –عَلَيْهِ السَّلَامُ–: ﴿كَلا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾[3]، كَأَنَّ اللَّهَ وَعَدَهُ وَقَالَ لَهُ: سَأَهْدِيكَ، فَأَجْرَى كَلَامَهُ عَلَى سَنَنِ مَوْعِدِ رَبِّهِ. أَوْ بِنَاءً عَلَى عَادَةِ اللَّهِ –تَعَالَى– مَعَهُ فِي هِدَايَتِهِ وَإِرْشَادِهِ. أَوْ أَظْهَرَ بِذَلِكَ تَوَكُّلَهُ وَتَفْوِيضَهُ أَمْرَهُ إِلَى اللَّهِ. وَلَوْ قَصَدَ الرَّجَاءَ وَالطَّمَعَ لَقَالَ كَمَا قَالَ مُوسَى –عَلَيْهِ السَّلَامُ–: ﴿عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾[4].

﴿هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ﴾[5] هَبْ لِي بَعْضَ الصَّالِحِينَ، يُرِيدُ الْوَلَدَ، لِأَنَّ لَفْظَ الْهِبَةِ غَلَبَ فِي الْوَلَدِ وَإِنْ كَانَ قَدْ جَاءَ فِي الْأَخِ فِي قَوْلِهِ –تَعَالَى–: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا﴾[6]، قَالَ –عَزَّ وَجَلَّ–: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾[7]، ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى﴾[8].

وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ لِابْنِ عَبَّاسٍ –رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ– حِينَ هَنَّأَهُ بِوَلَدِهِ عَلِيٍّ أَبِي الْأَمْلَاكِ: "شَكَرْتَ الْوَاهِبَ، وَبُورِكَ لَكَ فِي الْمَوْهُوبِ".

وَلِذَلِكَ وَقَعَتِ التَّسْمِيَةُ بِهِبَةِ اللَّهِ، وَبِمَوْهُوبٍ، وَوَهْبٍ، وَمُوهَبٍ، وَقَدِ انْطَوَتِ الْبِشَارَةُ عَلَى ثَلَاثٍ: عَلَى أَنَّ الْوَلَدَ غُلَامٌ ذَكَرٌ، وَأَنَّهُ يَبْلُغُ أَوَانَ الْحُلُمِ، وَأَنَّهُ يَكُونُ حَلِيمًا، وَأَيُّ حِلْمٍ أَعْظَمُ مِنْ حِلْمِهِ حِينَ عَرَضَ عَلَيْهِ أَبُوهُ الذَّبْحَ، فَقَالَ: ﴿سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾[9]، ثُمَّ اسْتَسْلَمَ لِذَلِكَ.

وَقِيلَ: مَا نَعَتَ اللَّهُ بِهِ إِبْرَاهِيمَ فِي قَوْلِهِ: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾[10]، ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ﴾[11]، لِأَنَّ الْحَادِثَةَ شَهِدَتْ بِحِلْمِهِمَا جَمِيعًا.

---

[1] سورة الْعَنْكَبُوتِ، الآية 26.

[2] سورة الشُّعَرَاءِ، الآية 62.

[3] سُورَةُ الصَّافَّاتِ، الآية .

[4] سورة الْقَصَصِ، الآية 22.

[5] سُورَةُ الصَّافَّاتِ، الآية .

[6] سورة مَرْيَمَ، الآية 53.

[7] سورة الْأَنْعَامِ، الآية 84.

[8] سورة الْأَنْبِيَاءِ، الآية 90.

[9] سُورَةُ الصَّافَّاتِ، الآية .

[10] سورة التَّوْبَةِ، الآية 114.

[11] سورة هُودَ، الآية 75.

﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾[1]

فَلَمَّا بَلَغَ أَنْ يَسْعَى مَعَ أَبِيهِ فِي أَشْغَالِهِ وَحَوَائِجِهِ.

فَإِنْ قُلْتَ: ﴿مَعَهُ﴾[2] بِمَ يَتَعَلَّقُ؟

قُلْتُ: لَا يَخْلُو إِمَّا أَنْ يَتَعَلَّقَ بِبَلَغَ، أَوْ بِالسَّعْيِ، أَوْ بِمَحْذُوفٍ، فَلَا يَصِحُّ تَعَلُّقُهُ بِبَلَغَ لِاقْتِضَائِهِ بُلُوغَهُمَا مَعًا حَدَّ السَّعْيِ، وَلَا بِالسَّعْيِ لِأَنَّ صِلَةَ الْمَصْدَرِ لَا تَتَقَدَّمُ عَلَيْهِ، فَبَقِيَ أَنْ يَكُونَ بَيَانًا، كَأَنَّهُ لَمَّا قَالَ: فَلَمَّا بَلَغَ السَّعْيَ أَيِ الْحَدَّ الَّذِي يَقْدِرُ فِيهِ عَلَى السَّعْيِ قِيلَ: مَعَ مَنْ؟ فَقَالَ مَعَ أَبِيهِ.

وَالْمَعْنَى فِي اخْتِصَاصِ الْأَبِ أَنَّهُ أَرْفَقُ النَّاسِ بِهِ، وَأَعْطَفُهُمْ عَلَيْهِ، وَغَيْرُهُ رُبَّمَا عَنَّفَ بِهِ فِي الِاسْتِسْعَاءِ فَلَا يَحْتَمِلُهُ، لِأَنَّهُ لَمْ تَسْتَحْكِمْ قُوَّتُهُ وَلَمْ يَصْلُبْ عُودُهُ، وَكَانَ إِذْ ذَاكَ ابْنَ ثَلَاثَ عَشْرَةَ سَنَةً.

وَالْمُرَادُ: أَنَّهُ عَلَى غَضَاضَةِ سِنِّهِ وَتَقَلُّبِهِ فِي حَدِّ الطُّفُولَةِ، كَانَ فِيهِ مِنْ رَصَانَةِ الْحِلْمِ وَفُسْحَةِ الصَّدْرِ مَا جَسَّرَهُ عَلَى احْتِمَالِ تِلْكَ الْبَلِيَّةِ الْعَظِيمَةِ وَالْإِجَابَةِ بِذَلِكَ الْجَوَابِ الْحَكِيمِ، أُتِيَ فِي الْمَنَامِ فَقِيلَ لَهُ: اذْبَحْ ابْنَكَ، وَرُؤْيَا الْأَنْبِيَاءِ وَحْيٌ كَالْوَحْيِ فِي الْيَقَظَةِ.

فَلِهَذَا قَالَ: ﴿إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ﴾[3]، فَذَكَرَ تَأْوِيلَ الرُّؤْيَا، كَمَا يَقُولُ الْمُمْتَحَنُ: وَقَدْ رَأَى أَنَّهُ رَاكِبٌ فِي سَفِينَةٍ: رَأَيْتُ فِي الْمَنَامِ أَنِّي نَاجٍ مِنْ هَذِهِ الْمِحْنَةِ، وَقِيلَ: رَأَى لَيْلَةَ التَّرْوِيَةِ كَأَنَّ قَائِلًا يَقُولُ لَهُ: إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكَ بِذَبْحِ ابْنِكَ هَذَا.

فَلَمَّا أَصْبَحَ رَوَى فِي ذَلِكَ مِنَ الصَّبَاحِ إِلَى الرَّوَاحِ، أَمِنَ اللَّهِ هَذَا الْحُلْمُ أَوْ مِنَ الشَّيْطَانِ؟ فَمِنْ ثَمَّ سُمِّيَ يَوْمَ التَّرْوِيَةِ، فَلَمَّا أَمْسَى رَأَى مِثْلَ ذَلِكَ، فَعَرَفَ أَنَّهُ مِنَ اللَّهِ، فَمِنْ ثَمَّ سُمِّيَ يَوْمَ عَرَفَةَ، ثُمَّ رَأَى مِثْلَهُ فِي اللَّيْلَةِ الثَّالِثَةِ، فَهَمَّ بِنَحْرِهِ فَسُمِّيَ الْيَوْمُ يَوْمَ النَّحْرِ.

وَقِيلَ: إِنَّ الْمَلَائِكَةَ حِينَ بَشَّرَتْهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ قَالَ: هُوَ إِذَنْ ذَبِيحُ اللَّهِ. فَلَمَّا وُلِدَ وَبَلَغَ حَدَّ السَّعْيِ مَعَهُ قِيلَ لَهُ: أَوْفِ بِنَذْرِكَ.

---

[1] سُورَةُ الصَّافَّاتِ، الآية .

[2] سُورَةُ الصَّافَّاتِ، الآية .

[3] سُورَةُ الصَّافَّاتِ، الآية .

﴿فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى﴾[1] مِنَ الرَّأْيِ عَلَى وَجْهِ الْمُشَاوَرَةِ.

وَقُرِئَ: (مَاذَا تَرَى)، أَيْ: مَاذَا تُبْصِرُ مِنْ رَأْيِكَ وَتُبْدِيهِ. وَمَاذَا تَرَى، عَلَى الْبِنَاءِ لِلْمَفْعُولِ، أَيْ: مَاذَا تُرِيكَ نَفْسُكَ مِنَ الرَّأْيِ.

﴿افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ﴾[2]، أَيْ مَا تُؤْمَرُ بِهِ، فَحُذِفَ الْجَارُّ كَمَا حُذِفَ مِنْ قَوْلِهِ:

أَمَرْتُكَ الْخَيْرَ فَافْعَلْ مَا أُمِرْتَ بِهِ

أَوْ أَمَرَكَ عَلَى إِضَافَةِ الْمَصْدَرِ إِلَى الْمَفْعُولِ، وَتَسْمِيَةِ الْمَأْمُورِ بِهِ أَمْرًا. وَقُرِئَ: (مَا تُؤْمَرُ بِهِ).

فَإِنْ قُلْتَ: لِمَ شَاوَرَهُ فِي أَمْرٍ هُوَ حَتْمٌ مِنَ اللَّهِ؟

قُلْتُ: لَمْ يُشَاوِرْهُ لِيَرْجِعَ إِلَى رَأْيِهِ وَمَشُورَتِهِ، وَلَكِنْ لِيَعْلَمَ مَا عِنْدَهُ فِيمَا نَزَلَ بِهِ مِنْ بَلَاءِ اللَّهِ، فَيُثْبِتَ قَدَمُهُ وَيُصَبِّرَهُ إِنْ جَزِعَ، وَيَأْمَنَ عَلَيْهِ الزَّلَلَ إِنْ صَبَرَ وَسَلَّمَ، وَلِيُعْلِمَهُ حَتَّى يُرَاجِعَ نَفْسَهُ، فَيُوَطِّنَهَا وَيُهَوِّنَ عَلَيْهَا، وَيَلْقَى الْبَلَاءَ، وَهُوَ كَالْمُسْتَأْنِسِ بِهِ، وَيَكْتَسِبَ الْمَثُوبَةَ بِالِانْقِيَادِ لِأَمْرِ اللَّهِ قَبْلَ نُزُولِهِ، وَلِأَنَّ الْمُغَافَصَةَ بِالذَّبْحِ مِمَّا يُسْتَمْسَجُ، وَلِيَكُونَ سُنَّةً فِي الْمُشَاوَرَةِ، فَقَدْ قِيلَ: لَوْ شَاوَرَ آدَمُ الْمَلَائِكَةَ فِي أَكْلِهِ مِنَ الشَّجَرَةِ لَمَا فَرَطَ مِنْهُ ذَلِكَ.

فَإِنْ قُلْتَ: لِمَ كَانَ ذَلِكَ بِالْمَنَامِ دُونَ الْيَقَظَةِ؟

قُلْتُ: كَمَا أَرَى يُوسُفَ –عَلَيْهِ السَّلَامُ– سُجُودَ أَبَوَيْهِ وَإِخْوَتِهِ لَهُ فِي الْمَنَامِ مِنْ غَيْرِ وَحْيٍ إِلَى أَبِيهِ، وَكَمَا وَعَدَ رَسُولَ اللَّهِ –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– دُخُولَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فِي الْمَنَامِ، وَمَا سِوَى ذَلِكَ مِنْ مَنَامَاتِ الْأَنْبِيَاءِ، وَذَلِكَ لِتَقْوِيَةِ الدَّلَالَةِ عَلَى كَوْنِهِمْ صَادِقِينَ مَصْدُوقِينَ، لِأَنَّ الْحَالَ إِمَّا حَالُ يَقَظَةٍ أَوْ حَالُ مَنَامٍ، فَإِذَا تَظَاهَرَتِ الْحَالَتَانِ عَلَى الصِّدْقِ كَانَ ذَلِكَ أَقْوَى لِلدَّلَالَةِ مِنَ انْفِرَادِ أَحَدِهِمَا.

﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾[3]

---

[1] سُورَةُ الصَّافَّاتِ، الآية .

[2] سُورَةُ الصَّافَّاتِ، الآية .

[3] سُورَةُ الصَّافَّاتِ، الآية .

يُقَالُ: سَلَّمَ لِأَمْرِ اللَّهِ وَأَسْلَمَ، وَاسْتَسْلَمَ بِمَعْنَى وَاحِدٍ.

وَقَدْ قُرِئَ بِهِنَّ جَمِيعًا إِذَا انْقَادَ لَهُ وَخَضَعَ، وَأَصْلُهَا مِنْ قَوْلِكَ: سَلَّمَ هَذَا لِفُلَانٍ إِذَا خَلَصَ لَهُ. وَمَعْنَاهُ: سَلَّمَ مِنْ أَنْ يُنَازِعَ فِيهِ، وَقَوْلُهُمْ: سَلَّمَ لِأَمْرِ اللَّهِ وَأَسْلَمَ لَهُ مَنْقُولَانِ مِنْهُ، وَحَقِيقَةُ مَعْنَاهُمَا: أَخْلَصَ نَفْسَهُ لِلَّهِ وَجَعَلَهَا سَالِمَةً لَهُ خَالِصَةً، وَكَذَلِكَ مَعْنَى اسْتَسْلَمَ: اسْتَخْلَصَ نَفْسَهُ لِلَّهِ.

وَعَنْ قَتَادَةَ فِي ﴿أَسْلَمَا﴾[1] أَسْلَمَ هَذَا ابْنَهُ وَهَذَا نَفْسَهُ ﴿وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ﴾[2] صَرَعَهُ عَلَى شِقِّهِ، فَوَقَعَ أَحَدُ جَنْبَيْهِ عَلَى الْأَرْضِ، تَوَاضُعًا عَلَى مُبَاشَرَةِ الْأَمْرِ بِصَبْرٍ وَجَلَدٍ، لِيُرْضِيَا الرَّحْمَنَ وَيُخْزِيَا الشَّيْطَانَ.

وَرُوِيَ أَنَّ ذَلِكَ كَانَ عِنْدَ الصَّخْرَةِ الَّتِي بِمِنَى، وَعَنِ الْحَسَنِ: فِي الْمَوْضِعِ الْمُشْرِفِ عَلَى مَسْجِدِ مِنَى. وَعَنِ الضَّحَّاكِ: فِي الْمَنْحَرِ الَّذِي يُنْحَرُ فِيهِ الْيَوْمَ.

فَإِنْ قُلْتَ: أَيْنَ جَوَابُ لَمَّا؟

قُلْتُ: هُوَ مَحْذُوفٌ تَقْدِيرُهُ: فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴿وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا﴾[3] كَانَ مَا كَانَ مِمَّا تَنْطِقُ بِهِ الْحَالُ وَلَا يُحِيطُ بِهِ الْوَصْفُ مِنَ اسْتِبْشَارِهِمَا وَاغْتِبَاطِهِمَا، وَحَمْدِهِمَا لِلَّهِ وَشُكْرِهِمَا عَلَى مَا أَنْعَمَ بِهِ عَلَيْهِمَا، مِنْ دَفْعِ الْبَلَاءِ الْعَظِيمِ بَعْدَ حُلُولِهِ، وَمَا اكْتَسَبَا فِي تَضَاعِيفِهِ بِتَوْطِينِ الْأَنْفُسِ عَلَيْهِ مِنَ الثَّوَابِ وَالْأَعْوَاضِ وَرِضْوَانِ اللَّهِ الَّذِي لَيْسَ وَرَاءَهُ مَطْلُوبٌ.

وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾[4] تَعْلِيلٌ لِتَخْوِيلِ مَا خَوَّلَهُمَا مِنَ الْفَرَجِ بَعْدَ الشِّدَّةِ، وَالظَّفَرِ بِالْبُغْيَةِ بَعْدَ الْيَأْسِ.

﴿الْبَلَاءُ الْمُبِينُ﴾[5]: الِاخْتِبَارُ الْبَيِّنُ الَّذِي يَتَمَيَّزُ فِيهِ الْمُخْلِصُونَ مِنْ غَيْرِهِمْ. أَوِ الْمِحْنَةُ الْبَيِّنَةُ الصُّعُوبَةِ الَّتِي لَا مِحْنَةَ أَصْعَبُ مِنْهَا. الذَّبْحُ: اسْمُ مَا يُذْبَحُ.

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ –رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا–: هُوَ الْكَبْشُ الَّذِي قَرَّبَهُ هَابِيلُ فَقُبِلَ مِنْهُ، وَكَانَ يَرْعَى فِي الْجَنَّةِ حَتَّى فَدَى بِهِ إِسْمَاعِيلَ.

---

[1] سُورَةُ الصَّافَّاتِ، الآية .

[2] سُورَةُ الصَّافَّاتِ، الآية .

[3] سُورَةُ الصَّافَّاتِ، الآية .

[4] سُورَةُ الصَّافَّاتِ، الآية .

[5] سُورَةُ الصَّافَّاتِ، الآية .

وَعَنِ الْحَسَنِ: فُدِيَ بِوَعْلٍ أُهْبِطَ عَلَيْهِ مِنْ ثَبِيرٍ.

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: لَوْ تَمَّتْ تِلْكَ الذَّبِيحَةُ لَكَانَتْ سُنَّةً وَذَبَحَ النَّاسُ أَبْنَاءَهُمْ.

"عَظِيمٌ" ضَخْمُ الْجُثَّةِ سَمِينٌ، وَهِيَ السُّنَّةُ في الْأَضَاحِي.

وَقَوْلُهُ –عَلَيْهِ السَّلَام–: "اسْتَشْرِفُوا ضَحَايَاكُمْ فَإِنَّهَا عَلَى الصِّرَاطِ مَطَايَاكُمْ"، وَقِيلَ: لِأَنَّهُ وَقْعٌ وَفِدَاءٌ عَنْ وَلَدِ إِبْرَاهِيمَ.

وَرُوِيَ أَنَّهُ هَرَبَ مِنْ إِبْرَاهِيمَ –عَلَيْهِ السَّلَام– عِنْدَ الْجَمْرَةِ فَرَمَاهُ بِسَبْعِ حَصَيَاتٍ حَتَّى أَخَذَهُ، فَبَقِيَتْ سُنَّةً في الرَّمْيِ، وَرُوِيَ أَنَّهُ رَمَى الشَّيْطَانَ حِينَ تَعَرَّضَ لَهُ بِالْوَسْوَسَةِ عِنْدَ ذَبْحِ وَلَدِهِ. وَرُوِيَ أَنَّهُ لَمَّا ذَبَحَهُ قَالَ جِبْرِيلُ: اللَّهُ أَكْبَرُ اللَّهُ أَكْبَرُ، فَقَالَ الذَّبِيحُ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاللَّهُ أَكْبَرُ، فَقَالَ إِبْرَاهِيمُ –عَلَيْهِ السَّلَام–: اللَّهُ أَكْبَرُ وَلِلَّهِ الْحَمْدُ، فَبَقِيَ سُنَّةً، وَحُكِيَ في قِصَّةِ الذَّبِيحِ أَنَّهُ حِينَ أَرَادَ ذَبْحَهُ قَالَ: يَا بُنَيَّ خُذِ الْحَبْلَ وَالْمُدْيَةَ وَانْطَلِقْ بِنَا إِلَى الشِّعْبِ نَحْتَطِبْ، فَلَمَّا تَوَسَّطَ شِعْبَ ثَبِيرٍ أَخْبَرَهُ بِمَا أُمِرَ. فَقَالَ لَهُ: اشْدُدْ رِبَاطِي لَا أَضْطَرِبُ، وَاكْفُفْ عَنِّي ثِيَابَكَ لَا يَنْتَضِحُ عَلَيْهَا شَيْءٌ مِنْ دَمِي فَيَنْقُصُ أَجْرِي وَتَرَاهُ أُمِّي فَتَحْزَنُ، وَاشْحَذْ شَفْرَتَكَ وَأَسْرِعْ إِمْرَارَهَا عَلَى حَلْقِي حَتَّى تُجْهِزَ عَلَيَّ، لِيَكُونَ أَهْوَنَ فَإِنَّ الْمَوْتَ شَدِيدٌ، وَاقْرَأْ عَلَى أُمِّي سَلَامِي، وَإِنْ رَأَيْتَ أَنْ تَرُدَّ قَمِيصِي عَلَى أُمِّي فَافْعَلْ، فَإِنَّهُ عَسَى أَنْ يَكُونَ أَسْهَلَ لَهَا، فَقَالَ إِبْرَاهِيمُ –عَلَيْهِ السَّلَام–: نِعْمَ الْعَوْنُ أَنْتَ يَا بُنَيَّ عَلَى أَمْرِ اللَّهِ، ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَيْهِ يَقْلِبُهُ وَقَدْ رَبَطَهُ، وَهُمَا يَبْكِيَانِ، ثُمَّ وَضَعَ السِّكِّينَ عَلَى حَلْقِهِ فَلَمْ تَعْمَلْ، لِأَنَّ اللَّهَ ضَرَبَ صَفِيحَةً مِنْ نُحَاسٍ عَلَى حَلْقِهِ، فَقَالَ لَهُ: كُبَّنِي عَلَى وَجْهِي، فَإِنَّكَ إِذَا نَظَرْتَ وَجْهِي رَحِمْتَنِي وَأَدْرَكَتْكَ رِقَّةٌ تَحُولُ بَيْنَكَ وَبَيْنَ أَمْرِ اللَّهِ، فَفَعَلَ، ثُمَّ وَضَعَ السِّكِّينَ عَلَى قَفَاهُ فَانْقَلَبَ السِّكِّينُ.

وَنُودِيَ: يَا إِبْرَاهِيمُ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا، فَنَظَرَ فَإِذَا جِبْرِيلُ –عَلَيْهِ السَّلَام– مَعَهُ كَبْشٌ أَقْرَنُ أَمْلَحُ، فَكَبَّرَ جِبْرِيلُ وَالْكَبْشُ، وَإِبْرَاهِيمُ وَابْنُهُ، وَأَتَى الْمَنْحَرَ مِنْ مِنًى فَذَبَحَهُ.

وَقِيلَ: لَمَّا وَصَلَ مَوْضِعَ السُّجُودِ مِنْهُ إِلَى الْأَرْضِ جَاءَ الْفَرَجُ، وَقَدِ اسْتَشْهَدَ أَبُو حَنِيفَةَ –رَحِمَهُ اللَّهُ– بِهَذِهِ الْآيَةِ فِيمَنْ نَذَرَ ذَبْحَ وَلَدِهِ: أَنَّهُ يَلْزَمُهُ ذَبْحَ شَاةٍ.

فَإِنْ قُلْتَ: مَنْ كَانَ الذَّبِيحُ مِنْ وَلَدَيْهِ؟

قُلْتُ: قَدِ اخْتُلِفَ فِيهِ، فَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ وَابْنِ عُمَرَ وَمُحَمَّدِ بْنِ كَعْبٍ الْقُرَظِيِّ وَجَمَاعَةٍ مِنَ التَّابِعِينَ: أَنَّهُ إِسْمَاعِيلُ.

وَالْحُجَّةُ فِيهِ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ –صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– قَالَ: "أَنَا ابْنُ الذَّبِيحَيْنِ"، وَقَالَ لَهُ أَعْرَابِيٌّ: يَا ابْنَ الذَّبِيحَيْنِ، فَتَبَسَّمَ، فَسُئِلَ عَنْ ذَلِكَ، فَقَالَ: "إِنَّ عَبْدَ الْمُطَّلِبِ لَمَّا

حَفَرَ بِئْرَ زَمْزَمَ نَذَرَ لِلَّهِ: لَئِنْ سَهَّلَ اللَّهُ لَهُ أَمْرَهَا لَيَذْبَحَنَّ أَحَدَ وَلَدِهِ، فَخَرَجَ السَّهْمُ عَلَى عَبْدِ اللَّهِ، فَمَنَعَهُ أَخْوَالُهُ، وَقَالُوا لَهُ: افْدِ ابْنَكَ بِمِائَةٍ مِنَ الْإِبِلِ، فَفَدَاهُ بِمِائَةٍ مِنَ الْإِبِلِ، وَالثَّانِي إِسْمَاعِيلُ".

وَعَنْ مُحَمَّدِ بْنِ كَعْبٍ الْقُرَظِيِّ قَالَ: كَانَ مُجْتَهِدُ بَنِي إِسْرَائِيلَ يَقُولُ إِذَا دَعَا: اللَّهُمَّ إِلَهَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْرَائِيلَ، فَقَالَ مُوسَى –عَلَيْهِ السَّلَامَ–: يَا رَبِّ، مَا لِمُجْتَهِدِ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذَا دَعَا قَالَ: اللَّهُمَّ إِلَهَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْرَائِيلَ، وَأَنَا بَيْنَ أَظْهُرِهِمْ، فَقَدْ أَسْمَعْتَنِي كَلَامَكَ وَاصْطَفَيْتَنِي بِرِسَالَتِكَ؟ قَالَ: يَا مُوسَى، لَمْ يُحِبَّنِي أَحَدٌ حَبَّ إِبْرَاهِيمَ قَطُّ، وَلَا خُيِّرَ بَيْنِي وَبَيْنَ شَيْءٍ قَطُّ إِلَّا اخْتَارَنِي.

وَأَمَّا إِسْمَاعِيلُ، فَإِنَّهُ جَادَ بِدَمِ نَفْسِهِ.

وَأَمَّا إِسْرَائِيلُ، فَإِنَّهُ لَمْ يَيْأَسْ مِنْ رُوحِي فِي شِدَّةٍ نَزَلَتْ بِهِ قَطُّ، وَيَدُلُّ عَلَيْهِ أَنَّ اللَّهَ –تَعَالَى– لَمَّا أَتَمَّ قِصَّةَ الذَّبِيحِ قَالَ: ﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا﴾[1].

وَعَنْ مُحَمَّدِ بْنِ كَعْبٍ أَنَّهُ قَالَ لِعُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ: هُوَ إِسْمَاعِيلُ، فَقَالَ عُمَرُ: إِنَّ هَذَا شَيْءٌ مَا كُنْتُ أَنْظُرُ فِيهِ، وَإِنِّي لَأَرَاهُ كَمَا قُلْتَ، ثُمَّ أَرْسَلَ إِلَى يَهُودِيٍّ قَدْ أَسْلَمَ فَسَأَلَهُ، فَقَالَ: إِنَّ الْيَهُودَ لَتَعْلَمُ أَنَّهُ إِسْمَاعِيلُ، وَلَكِنَّهُمْ يَحْسُدُونَكُمْ مَعْشَرَ الْعَرَبِ، وَيَدُلُّ عَلَيْهِ أَنَّ قَرْنَيِ الْكَبْشِ كَانَا مَنُوطَيْنِ فِي الْكَعْبَةِ فِي أَيْدِي بَنِي إِسْمَاعِيلَ إِلَى أَنِ احْتَرَقَ الْبَيْتُ.

وَعَنِ الْأَصْمَعِيِّ قَالَ: سَأَلْتُ أَبَا عَمْرِو بْنَ الْعَلَاءِ عَنِ الذَّبِيحِ، فَقَالَ: يَا أَصْمَعِيُّ أَيْنَ عَزَبَ عَنْكَ عَقْلُكَ؟ وَمَتَى كَانَ إِسْحَاقُ بِمَكَّةَ؟ وَإِنَّمَا كَانَ إِسْمَاعِيلُ بِمَكَّةَ، وَهُوَ الَّذِي بَنَى الْبَيْتَ مَعَ أَبِيهِ، وَالْمَنْحَرُ بِمَكَّةَ.

وَمِمَّا يَدُلُّ عَلَيْهِ أَنَّ اللَّهَ –تَعَالَى– وَصَفَهُ بِالصَّبْرِ دُونَ أَخِيهِ إِسْحَاقَ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾[2]، وَهُوَ صَبْرُهُ عَلَى الذَّبْحِ، وَوَصَفَهُ بِصِدْقِ الْوَعْدِ فِي قَوْلِهِ: ﴿إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ﴾[3]، لِأَنَّهُ وَعَدَ أَبَاهُ الصَّبْرَ مِنْ نَفْسِهِ عَلَى الذَّبْحِ فَوَفَى بِهِ، وَلِأَنَّ اللَّهَ بَشَّرَهُ بِإِسْحَاقَ وَوَلَدِهِ يَعْقُوبَ فِي قَوْلِهِ: ﴿فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾[4]؛ فَلَوْ كَانَ الذَّبِيحُ إِسْحَاقَ لَكَانَ خُلْفًا لِلْمَوْعِدِ فِي يَعْقُوبَ.

---

[1] سورة الصَّافَّاتِ، الآية 112.

[2] سورة الْأَنْبِيَاءِ، الآية 85.

[3] سورة مَرْيَمَ، الآية 54.

[4] سورة هُودَ، الآية 71.

وَعَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ وَابْنِ مَسْعُودٍ وَالْعَبَّاسِ وَعَطَاءٍ وَعِكْرِمَةَ وَجَمَاعَةٍ مِنَ التَّابِعِينَ: إِنَّهُ إِسْحَاقُ .

وَالْحُجَّةُ فِيهِ أَنَّ اللَّهَ –تَعَالَى– أَخْبَرَ عَنْ خَلِيلِهِ إِبْرَاهِيمَ حِينَ هَاجَرَ إِلَى الشَّامِ بِأَنَّهُ اسْتَوْهَبَهُ وَلَدًا، ثُمَّ أَتْبَعَ ذَلِكَ الْبِشَارَةَ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ، ثُمَّ ذَكَرَ رُؤْيَاهُ بِذَبْحِ ذَلِكَ الْغُلَامِ الْمُبَشَّرِ بِهِ. وَيَدُلُّ عَلَيْهِ كِتَابُ يَعْقُوبَ إِلَى يُوسُفَ: مِنْ يَعْقُوبَ إِسْرَائِيلِ اللَّهِ بْنِ إِسْحَاقَ ذَبِيحِ اللَّهِ بْنِ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلِ اللَّهِ.

فَإِنْ قُلْتَ: قَدْ أُوحِيَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ فِي الْمَنَامِ بِأَنْ يَذْبَحَ وَلَدَهُ وَلَمْ يَذْبَحْ، وَقِيلَ لَهُ: ﴿قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا﴾[1]، وَإِنَّمَا كَانَ يُصَدِّقُهَا لَوْ صَحَّ مِنْهُ الذَّبْحُ، وَلَمْ يَصِحَّ.

قُلْتُ: قَدْ بَذَلَ وُسْعَهُ وَفَعَلَ مَا يَفْعَلُ الذَّابِحُ: مِنْ بَطْحِهِ عَلَى شِقِّهِ وَإِمْرَارِ الشَّفْرَةِ عَلَى حَلْقِهِ، وَلَكِنَّ اللَّهَ –سُبْحَانَهُ– جَاءَ بِمَا مَنَعَ الشَّفْرَةَ أَنْ تَمْضِيَ فِيهِ، وَهَذَا لَا يَقْدَحُ فِي فِعْلِ إِبْرَاهِيمَ –عَلَيْهِ السَّلَامَ–.

أَلَا تَرَى أَنَّهُ لَا يُسَمَّى عَاصِيًا وَلَا مُفَرِّطًا، بَلْ يُسَمَّى مُطِيعًا وَمُجْتَهِدًا، كَمَا لَوْ مَضَتْ فِيهِ الشَّفْرَةُ وَفَرَتِ الْأَوْدَاجَ وَأَنْهَرَتِ الدَّمَ، وَلَيْسَ هَذَا مِنْ وُرُودِ النَّسْخِ عَلَى الْمَأْمُورِ بِهِ قَبْلَ الْفِعْلِ، وَلَا قَبْلَ أَوَانِ الْفِعْلِ فِي شَيْءٍ، كَمَا يَسْبِقُ إِلَى بَعْضِ الْأَوْهَامِ حَتَّى يُشْتَغَلَ بِالْكَلَامِ فِيهِ.

فَإِنْ قُلْتَ: اللَّهُ –تَعَالَى– هُوَ الْمُفْتَدَى مِنْهُ، لِأَنَّهُ الْآمِرُ بِالذَّبْحِ، فَكَيْفَ يَكُونُ فَادِيًا حَتَّى قَالَ: ﴿وَفَدَيْنَاهُ﴾[2]؟

قُلْتُ: الْفَادِي هُوَ إِبْرَاهِيمُ –عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ–، وَاللَّهُ –عَزَّ وَجَلَّ– وَهَبَ لَهُ الْكَبْشَ لِيَفْدِيَ بِهِ وَإِنَّمَا قَالَ: ﴿وَفَدَيْنَاهُ﴾[3] إِسْنَادًا لِلْفِدَاءِ إِلَى السَّبَبِ الَّذِي هُوَ الْمُمْكِنُ مِنَ الْفِدَاءِ بِهِبَتِهِ.

فَإِنْ قُلْتَ: فَإِذَا كَانَ مَا أَتَى بِهِ إِبْرَاهِيمُ مِنَ الْبَطْحِ وَإِمْرَارِ الشَّفْرَةِ فِي حُكْمِ الذَّبْحِ. فَمَا مَعْنَى الْفِدَاءِ، وَالْفِدَاءُ إِنَّمَا هُوَ التَّخْلِيصُ مِنَ الذَّبْحِ بِبَدَلٍ؟

---

[1] سُورَةُ الصَّافَّاتِ، الآية .

[2] سُورَةُ الصَّافَّاتِ، الآية .

[3] سُورَةُ الصَّافَّاتِ، الآية .

قُلْتُ: قَدْ عَلِمَ بِمَنْعِ اللَّهِ أَنَّ حَقِيقَةَ الذَّبْحِ لَمْ تَحْصُلْ مِنْ فَرْيِ الْأَوْدَاجِ وَإِنْهَارِ الدَّمِ، فَوَهَبَ اللَّهُ لَهُ الْكَبْشَ لِيُقِيمَ ذَبْحَهُ مَقَامَ تِلْكَ الْحَقِيقَةِ حَتَّى لَا تَحْصُلَ تِلْكَ الْحَقِيقَةُ فِي نَفْسِ إِسْمَاعِيلَ، وَلَكِنْ فِي نَفْسِ الْكَبْشِ بَدَلًا مِنْهُ.

فَإِنْ قُلْتَ: فَأَيُّ فَائِدَةٍ فِي تَحْصِيلِ تِلْكَ الْحَقِيقَةِ، وَقَدِ اسْتَغْنَى عَنْهَا بِقِيَامِ مَا وُجِدَ مِنْإِبْرَاهِيمَ مَقَامَ الذَّبْحِ مِنْ غَيْرِ نُقْصَانٍ؟

قُلْتُ: الْفَائِدَةُ فِي ذَلِكَ أَنْ يُوجَدَ مَا مُنِعَ مِنْهُ فِي بَدَلِهِ حَتَّى يَكْمُلَ مِنْهُ الْوَفَاءُ بِالْمَنْذُورِ وَإِيجَادُ الْمَأْمُورِ بِهِ مِنْ كُلِّ وَجْهٍ.

فَإِنْ قُلْتَ: لِمَ قِيلَ هَا هُنَا (كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ) وَفِي غَيْرِهَا مِنَ الْقِصَصِ: إِنَّا كَذَلِكَ؟

قُلْتُ: قَدْ سَبَقَهُ فِي هَذِهِ الْقِصَّةِ: (إِنَّا كَذَلِكَ)، فَكَأَنَّمَا اسْتَخَفَّ بِطَرْحِهِ اكْتِفَاءً بِذِكْرِهِ مَرَّةً عَنْ ذِكْرِهِ ثَانِيَةً.

## ﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَى إِسْحَاقَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِنَفْسِهِ مُبِينٌ﴾[1]

﴿نَبِيًّا﴾[2] حَالٌ مُقَدَّرَةٌ، كَقَوْلِهِ –تَعَالَى–: ﴿فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾[3].

فَإِنْ قُلْتَ: فَرْقٌ بَيْنَ هَذَا وَبَيْنَ قَوْلِهِ: ﴿فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾[4]، وَذَلِكَ أَنَّ الْمَدْخُولَ مَوْجُودٌ مَعَ وُجُودِ الدُّخُولِ، وَالْخُلُودُ غَيْرُ مَوْجُودٍ مَعَهُمَا، فَقُدِّرَتْ مُقَدِّرِينَ الْخُلُودَ فَكَانَ مُسْتَقِيمًا، وَلَيْسَ كَذَلِكَ الْمُبَشَّرُ بِهِ، فَإِنَّهُ مَعْدُومٌ وَقْتَ وُجُودِ الْبِشَارَةِ، وَعَدَمُ الْمُبَشَّرِ بِهِ، فَإِنَّهُ مَعْدُومٌ وَقْتَ وُجُودِ الْبِشَارَةِ وَعَدَمُ الْمُبَشَّرِ بِهِ أَوْجَبَ عَدَمَ حَالِهِ لَا مَحَالَةَ، لِأَنَّ الْحَالَ حِلْيَةٌ، وَالْحِلْيَةُ لَا تَقُومُ إِلَّا بِالْمُحَلَّى.

وَهَذَا الْمُبَشَّرُ بِهِ الَّذِي هُوَ إِسْحَاقُ حِينَ وُجِدَ لَمْ تُوجَدِ النُّبُوَّةُ أَيْضًا بِوُجُودِهِ، بَلْ تَرَاخَتْ عَنْهُ مُدَّةً مُتَطَاوِلَةً، فَكَيْفَ يُجْعَلُ نَبِيًّا حَالًا مُقَدَّرَةً، وَالْحَالُ صِفَةُ الْفَاعِلِ أَوِ الْمَفْعُولِ

---

[1] سورة الزُّمَر، الآية 73.

[2] سُورَةُ الصَّافَّاتِ، الآية .

[3] سُورَةُ الصَّافَّاتِ، الآية .

[4] سُورَةُ الصَّافَّاتِ، الآية .

عِنْدَ وُجُودِ الْفِعْلِ مِنْهُ أَوْ بِهِ، فَالْخُلُودُ وَإِنْ يَكُنْ صِفَتَهُمْ عِنْدَ دُخُولِ الْجَنَّةِ، فَتَقْدِيرُهَا صِفَتُهُمْ، لِأَنَّ الْمَعْنَى مُقَدِّرِينَ الْخُلُودَ، وَلَيْسَ كَذَلِكَ النُّبُوَّةُ، فَإِنَّهُ لَا سَبِيلَ إِلَى أَنْ تَكُونَ مَوْجُودَةً أَوْ مُقَدَّرَةً وَقْتَ وُجُودِ الْبِشَارَةِ بِإِسْحَاقَ لِعَدَمِ إِسْحَاقَ .

قُلْتُ: هَذَا سُؤَالٌ دَقِيقُ السَّلْكِ ضَيِّقُ الْمَسْلَكِ، وَالَّذِي يَحُلُّ الْإِشْكَالَ: أَنَّهُ لَا بُدَّ مِنْ تَقْدِيرِ مُضَافٍ مَحْذُوفٍ، وَذَلِكَ قَوْلُكَ: وَبَشَّرْنَاهُ بِوُجُودِ إِسْحَاقَ نَبِيًّا، أَيْ بِأَنْ يُوجَدَ مُقَدَّرَةٌ نُبُوَّتُهُ، فَالْعَامِلُ فِي الْحَالِ الْوُجُودُ لَا فِعْلُ الْبِشَارَةِ، وَبِذَلِكَ يُرْجَعُ، نَظِيرُ قَوْلِهِ -تَعَالَى-: ﴿فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾[1].

﴿مِنَ الصَّالِحِينَ﴾[2] حَالٌ ثَانِيَةٌ، وَوُرُودُهَا عَلَى سَبِيلِ الثَّنَاءِ وَالتَّقْرِيظِ، لِأَنَّ كُلَّ نَبِيٍّ لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ مِنَ الصَّالِحِينَ.

وَعَنْ قَتَادَةَ: بَشَّرَهُ اللَّهُ بِنُبُوَّةِ إِسْحَاقَ بَعْدَ مَا امْتَحَنَهُ بِذَبْحِهِ.

وَهَذَا جَوَابُ مَنْ يَقُولُ: الذَّبِيحُ إِسْحَاقُ لِصَاحِبِهِ عَنْ تَعَلُّقِهِ لِقَوْلِهِ: ﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ﴾[3]، قَالُوا: وَلَا يَجُوزُ أَنْ يُبَشِّرَهُ اللَّهُ بِمَوْلِدِهِ وَنُبُوَّتِهِ مَعًا، لِأَنَّ الِامْتِحَانَ بِذَبْحِهِ لَا يَصِحُّ مَعَ عِلْمِهِ بِأَنَّهُ سَيَكُونُ نَبِيًّا.

﴿وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَى إِسْحَاقَ﴾، وَقُرِئَ: (وَبَرَّكْنَا)، أَيْ: أَفَضْنَا عَلَيْهِمَا بَرَكَاتِ الدِّينِ وَالدُّنْيَا، كَقَوْلِهِ: ﴿وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾[4].

وَقِيلَ: بَارَكْنَا عَلَى إِبْرَاهِيمَ فِي أَوْلَادِهِ، وَعَلَى إِسْحَاقَ بِأَنْ أَخْرَجْنَا أَنْبِيَاءَ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ صُلْبِهِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَظَالِمٌ لِنَفْسِهِ﴾[5] نَظِيرُهُ: ﴿قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾[6]، وَفِيهِ تَنْبِيهٌ عَلَى أَنَّ الْخَبِيثَ وَالطَّيِّبَ لَا يَجْرِي أَمْرُهُمَا عَلَى الْعِرْقِ وَالْعُنْصُرِ، فَقَدْ يَلِدُ الْبَرُّ الْفَاجِرَ، وَالْفَاجِرُ الْبَرَّ.

---

[1] سورة الزُّمَر، الآية 73.

[2] سُورَةُ الصَّافَّاتِ، الآية .

[3] سُورَةُ الصَّافَّاتِ، الآية .

[4] سورة الْعَنْكَبُوتَ، الآية 27.

[5] سُورَةُ الصَّافَّاتِ، الآية .

[6] سورة الْبَقَرَةَ، الآية 124.

وَهَذَا مِمَّا يَهْدِمُ أَمْرَ الطَّبَائِعِ وَالْعَنَاصِرِ، وَعَلَى أَنَّ الظُّلْمَ في أَعْقَابِهِمَا لَمْ يَعُدْ عَلَيْهِمَا بِعَيْبٍ وَلَا نَقِيصَةٍ، وَأَنَّ الْمَرْءَ يُعَابُ بِسُوءِ فِعْلِهِ وَيُعَاتَبُ عَلَى مَا اجْتَرَحَتْ يَدَاهُ، لَا عَلَى مَا وُجِدَ مِنْ أَصْلِهِ أَوْ فَرْعِهِ.

﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ وَنَجَّيْنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ وَنَصَرْنَاهُمْ فَكَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ وَآتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي الآخِرِينَ سَلَامٌ عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾[1]

﴿مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾[2]: مِنَ الْغَرَقِ. أَوْ مِنْ سُلْطَانِ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ وَغَشَمِهِمْ ﴿وَنَصَرْنَاهُمْ﴾[3] الضَّمِيرُ لَهُمَا وَلِقَوْمِهِمَا في قَوْلِهِ: ﴿وَنَجَّيْنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا﴾[4].

﴿الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ﴾[5]: الْبَلِيغَ في بَيَانِهِ، وَهُوَ التَّوْرَاةُ، كَمَا قَالَ: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ﴾[6]، وَقَالَ: وَمِنْ جَوَّزَ أَنْ تَكُونَ التَّوْرَاةُ عَرَبِيَّةً أَنْ تُشْتَقَّ مِنْ وَرَى الزَّنْدَ "فَوْعَلَةَ " مِنْهُ، عَلَى أَنَّ التَّاءَ مُبْدَلَةٌ مِنْ وَاوٍ.

﴿الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾[7] صِرَاطَ أَهْلِ الْإِسْلَامِ، وَهِيَ صِرَاطُ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ.

﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ أَتَدْعُونَ بَعْلا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ اللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الأَوَّلِينَ فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ إِلا عِبَادَ اللَّهِ

---

[1] سُورَةُ الصَّافَّاتِ، الآية .

[2] سُورَةُ الصَّافَّاتِ، الآية .

[3] سُورَةُ الصَّافَّاتِ، الآية .

[4] سُورَةُ الصَّافَّاتِ، الآية .

[5] سُورَةُ الصَّافَّاتِ، الآية .

[6] سورة الْمَائِدَةِ، الآية 44.

[7] سُورَةُ الصَّافَّاتِ، الآية .

الْمُخْلَصِينَ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الآخِرِينَ سَلَامٌ عَلَى إِلْ يَاسِينَ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾[1]

قُرِئَ: (إِلْيَاسَ) بِكَسْرِ الْهَمْزَةِ، وَالِيَاسَ: عَلَى لَفْظِ الْوَصْلِ.

وَقِيلَ: هُوَ إِدْرِيسُ النَّبِيُّ.

وَقَرَأَ ابْنُ مَسْعُودٍ: (وَإِنَّ إِدْرِيسَ)، فِي مَوْضِعِ إِلْيَاسَ.

وَقُرِئَ: (إِدْرَاسَ)، وَقِيلَ: هُوَ إِلْيَاسُ بْنُ يَاسِينَ، مِنْ وَلَدِ هَارُونَ أَخِي مُوسَى ﴿أَتَدْعُونَ بَعْلًا﴾[2] أَتَعْبُدُونَ بَعْلًا، وَهُوَ عَلَمٌ لِصَنَمٍ كَانَ لَهُمْ كَمَنَاةَ وَهُبَلَ.

وَقِيلَ: كَانَ مِنْ ذَهَبٍ، وَكَانَ طُولُهُ عِشْرِينَ ذِرَاعًا، وَلَهُ أَرْبَعَةُ أَوْجُهٍ، فُتِنُوا بِهِ وَعَظَّمُوهُ حَتَّى أَخْدَمُوهُ أَرْبَعَمِائَةِ سَادِنٍ، وَجَعَلُوهُمْ أَنْبِيَاءَهُ، فَكَانَ الشَّيْطَانُ يَدْخُلُ فِي جَوْفِ بَعْلٍ وَيَتَكَلَّمُ بِشَرِيعَةِ الضَّلَالَةِ، وَالسَّدَنَةُ يَحْفَظُونَهَا وَيُعَلِّمُونَهَا النَّاسَ، وَهُمْ أَهْلُ بَعْلَبَكَّ مِنْ بِلَادِ الشَّامِ، وَبِهِ سُمِّيَتْ مَدِينَتُهُمْ بَعْلَبَكَّ.

وَقِيلَ: الْبَعْلُ: الرَّبُّ، بِلُغَةِ الْيَمَنِ، يُقَالُ: مَنْ بَعْلُ هَذِهِ الدَّارِ، أَيْ: مَنْ رَبُّهَا؟

وَالْمَعْنَى: أَتَعْبُدُونَ بَعْضَ الْبُعُولِ وَتَتْرُكُونَ عِبَادَةَ اللَّهِ ﴿اللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ﴾[3].

قُرِئَ: بِالرَّفْعِ عَلَى الِابْتِدَاءِ، وَبِالنَّصْبِ عَلَى الْبَدَلِ، وَكَانَ حَمْزَةُ إِذَا وَصَلَ نَصَبَ، وَإِذَا وَقَفَ رَفَعَ.

وَقُرِئَ: (عَلَى الْيَاسِينَ). وَ(إِدْرِيسِينَ)، وَ(إِدْرَاسِينَ)، وَ(إِدْرَسِينَ)، عَلَى أَنَّهَا لُغَاتٌ فِي إِلْيَاسَ وَإِدْرِيسَ.

وَلَعَلَّ لِزِيَادَةِ الْيَاءِ وَالنُّونِ فِي السُّرْيَانِيَّةِ مَعْنًى.

وَقُرِئَ: (عَلَى الْيَاسِينَ) بِالْوَصْلِ، عَلَى أَنَّهُ جَمْعٌ يُرَادُ بِهِ إِلْيَاسُ وَقَوْمُهُ، كَقَوْلِهِمْ: الْخَبِيبُونَ وَالْمُهَلِّبُونَ.

فَإِنْ قُلْتَ: فَهَلَّا حَمَلْتَ عَلَى هَذَا الْيَاسِينَ عَلَى الْقَطْعِ وَأَخَوَاتِهِ؟

قُلْتُ: لَوْ كَانَ جَمْعًا لَعُرِّفَ بِالْأَلِفِ وَاللَّامِ.

وَأَمَّا مَنْ قَرَأَ: (عَلَى آلِ يَاسِينَ) فَعَلَى أَنَّ يَاسِينَ اسْمُ أَبِي إِلْيَاسَ، أُضِيفَ إِلَيْهِ الْآلُ.

---

[1] سُورَةُ الصَّافَّاتِ، الآية .

[2] سُورَةُ الصَّافَّاتِ، الآية .

[3] سُورَةُ الصَّافَّاتِ، الآية .

﴿وَإِنَّ لُوطًا لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾[1]

﴿مُصْبِحِينَ﴾[2] دَاخِلِينَ في الصَّبَاحِ، يَعْنِي: تَمُرُّونَ عَلَى مَنَازِلِهِمْ في مَتَاجِرِكُمْ إِلَى الشَّامِ لَيْلًا وَنَهَارًا، فَمَا فيكُمْ عُقُولٌ تَعْتَبِرُونَ بِهَا.

﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ فَلَوْلا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ﴾[3]

قُرِئَ: (يُونُسَ) بِضَمِّ النُّونِ وَكَسْرِهَا. وَسُمِّيَ هَرَبُهُ في قَوْمِهِ بِغَيْرِ إِذْنِ رَبِّهِ: إِبَاقًا عَلَى طَرِيقَةِ الْمَجَازِ.

وَالْمُسَاهَمَةُ: الْمُقَارَعَةُ. وَيُقَالُ: اسْتَهَمَ الْقَوْمُ، إِذَا اقْتَرَعُوا.

وَالْمُدْحَضُ: الْمَغْلُوبُ الْمَقْرُوعُ. وَحَقِيقَتُهُ: الْمُزْلَقُ عَنْ مَقَامِ الظَّفَرِ وَالْغَلَبَةِ.

رُوِيَ: أَنَّهُ حِينَ رَكِبَ في السَّفِينَةِ وَقَفَتْ، فَقَالُوا: هَا هُنَا عَبْدٌ أَبَقَ مِنْ سَيِّدِهِ، وَفِيمَا يَزْعُمُ الْبَحَّارُونَ أَنَّ السَّفِينَةَ إِذَا كَانَ فيها آبِقٌ لَمْ تَجْرِ، فَاقْتَرَعُوا، فَخَرَجَتِ الْقُرْعَةُ عَلَى يُونُسَ، فَقَالَ: أَنَا الْآبِقُ، وَزَجَّ بِنَفْسِهِ في الْمَاءِ ﴿فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾[4] دَاخِلٌ في الْمَلَامَةِ. يُقَالُ: رُبَّ لَائِمٍ مُلِيمٌ، أَيْ يَلُومُ غَيْرَهُ وَهُوَ أَحَقُّ مِنْهُ بِاللَّوْمِ. وَقُرِئَ: (مَلِيمٌ) بِفَتْحِ الْمِيمِ، مِنْ لِيمَ فَهُوَ مَلِيمٌ، كَمَا جَاءَ مَشِيبٍ في مَشُوبٍ، مَبْنِيًّا عَلَى شَيَبَ. وَنَحْوُهُ: مُدَّعَى، بِنَاءً عَلَى دُعِيَ.

---

[1] سُورَةُ الصَّافَّاتِ، الآية .

[2] سُورَةُ الصَّافَّاتِ، الآية .

[3] سُورَةُ الصَّافَّاتِ، الآية .

[4] سُورَةُ الصَّافَّاتِ، الآية .

﴿مِنَ الْمُسَبِّحِينَ﴾[1] مِنَ الذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا بِالتَّسْبِيحِ وَالتَّقْدِيسِ.

وَقِيلَ: هُوَ قَوْلُهُ فِي بَطْنِ الْحُوتِ ﴿لا إِلَهَ إِلاّ أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾[2].

وَقِيلَ: مِنَ الْمُصَلِّينَ.

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ كُلُّ تَسْبِيحٍ فِي الْقُرْآنِ فَهُوَ صَلَاةٌ.

وَعَنْ قَتَادَةَ: كَانَ كَثِيرَ الصَّلَاةِ فِي الرَّخَاءِ. قَالَ: وَكَانَ يُقَالُ: إِنَّ الْعَمَلَ الصَّالِحَ يَرْفَعُ صَاحِبَهُ إِذَا عَثَرَ، وَإِذَا صُرِعَ وَجَدَ مُتَّكَأً. وَهَذَا تَرْغِيبٌ مِنَ اللَّهِ –عَزَّ وَجَلَّ– فِي إِكْثَارِ الْمُؤْمِنِ مِنْ ذِكْرِهِ بِمَا هُوَ أَهْلُهُ، وَإِقْبَالُهُ عَلَى عِبَادَتِهِ، وَجَمْعُ هَمِّهِ لِتَقْيِيدِ نِعْمَتِهِ بِالشُّكْرِ فِي وَقْتِ الْمُهْلَةِ وَالْفُسْحَةِ، لِيَنْفَعَهُ ذَلِكَ عِنْدَهُ –تَعَالَى– فِي الْمَضَايِقِ وَالشَّدَائِدِ ﴿لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ﴾[3]، الظَّاهِرُ لُبْثُهُ فِيهِ حَيًّا إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ.

وَعَنْ قَتَادَةَ لَكَانَ بَطْنُ الْحُوتِ لَهُ قَبْرًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ.

وَرُوِيَ أَنَّهُ حِينَ ابْتَلَعَهُ أَوْحَى اللَّهُ إِلَى الْحُوتِ: إِنِّي جَعَلْتُ بَطْنَكَ لَهُ سِجْنًا، وَلَمْ أَجْعَلْهُ لَكَ طَعَامًا.

وَاخْتُلِفَ فِي مِقْدَارِ لُبْثِهِ، فَعَنِ الْكَلْبِيِّ: أَرْبَعُونَ يَوْمًا، وَعَنِ الضَّحَّاكِ: عِشْرُونَ يَوْمًا، وَعَنْ عَطَاءٍ: سَبْعَةٌ، وَعَنْ بَعْضِهِمْ: ثَلَاثَةٌ، وَعَنِ الْحَسَنِ: لَمْ يَلْبَثْ إِلَّا قَلِيلًا، ثُمَّ أُخْرِجَ مِنْ بَطْنِهِ بُعَيْدَ الْوَقْتِ الَّذِي الْتُقِمَ فِيهِ.

وَرُوِيَ: أَنَّ الْحُوتَ سَارَ مَعَ السَّفِينَةِ رَافِعًا رَأْسَهُ يَتَنَفَّسُ فِيهِ يُونُسُ وَيُسَبِّحُ، وَلَمْ يُفَارِقْهُمْ حَتَّى انْتَهَوْا إِلَى الْبَرِّ، فَلَفَظَهُ سَالِمًا لَمْ يَتَغَيَّرْ مِنْهُ شَيْءٌ، فَأَسْلَمُوا.

وَرُوِيَ: أَنَّ الْحُوتَ قَذَفَهُ بِسَاحِلِ قَرْيَةٍ مِنَ الْمُوصِلِ. وَالْعَرَاءُ: الْمَكَانُ الْخَالِي لَا شَجَرَ فِيهِ وَلَا شَيْءَ يُغَطِّيهِ.

﴿وَهُوَ سَقِيمٌ﴾[4] اعْتَلَّ مِمَّا حَلَّ بِهِ، وَرُوِيَ: أَنَّهُ عَادَ بَدَنُهُ كَبَدَنِ الصَّبِيِّ حِينَ يُولَدُ. وَالْيَقْطِينُ: كُلُّ مَا يَنْسَدِحُ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ وَلَا يَقُومُ عَلَى سَاقٍ كَشَجَرِ الْبِطِّيخِ وَالْقِثَّاءِ وَالْحَنْظَلِ، وَهُوَ "يَفْعِيلُ" مِنْ قَطَنَ بِالْمَكَانِ إِذَا قَامَ بِهِ.

هُوَ: الدَّبَّاءُ.

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة الْأَنْبِيَاءَ، الآية 87.

[3] سورة ، الآية .

[4] سورة ، الآية .

وَفَائِدَةُ الدَّبَّاءِ: أَنَّ الذُّبَابَ لَا يَجْتَمِعُ عِنْدَهُ.

وَقِيلَ لِرَسُولِ اللَّهِ –صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: إِنَّكَ لَتُحِبُّ الْقَرْعَ، قَالَ: "أَجَلْ هِيَ شَجَرَةُ أَخِي يُونُسَ".

وَقِيلَ: هِيَ التِّينُ.

وَقِيلَ: شَجَرَةُ الْمَوْزِ، تَغَطَّى بِوَرَقِهَا، وَاسْتَظَلَّ بِأَغْصَانِهَا، وَأَفْطَرَ عَلَى ثِمَارِهَا.

وَقِيلَ: كَانَ يَسْتَظِلُّ بِالشَّجَرَةِ وَكَانَتْ وَعْلَةٌ تَخْتَلِفُ إِلَيْهِ، فيشْرَبُ مِنْ لَبَنِهَا.

وَرُوِيَ: أَنَّهُ مَرَّ زَمَانٌ عَلَى الشَّجَرَةِ فيبِسَتْ، فَبَكَى جَزَعًا، فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ: بَكَيْتَ عَلَى شَجَرَةٍ وَلَا تَبْكِي عَلَى مِائَةِ أَلْفٍ في يَدِ الْكَافِرِ.

فَإِنْ قُلْتَ: مَا مَعْنَى: ﴿وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً﴾؟

قُلْتُ: أَنْبَتْنَاهَا فَوْقَهُ مِظَلَّةً لَهُ، كَمَا يُطْنَبُ الْبَيْتُ عَلَى الْإِنْسَانِ.

﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ﴾[1] الْمُرَادُ بِهِ مَا سَبَقَ مِنْ إِرْسَالِهِ إِلَى قَوْمِهِ، وَهُمْ أَهْلُ نِينَوَى.

وَقِيلَ: هُوَ إِرْسَالٌ ثَانٍ بَعْدَ مَا جَرَى عَلَيْهِ إِلَى الْأَوَّلِينَ، أَوْ إِلَى غَيْرِهِمْ.

وَقِيلَ: أَسْلَمُوا فَسَأَلُوهُ أَنْ يَرْجِعَ إِلَيْهِمْ فَأَبَى، لِأَنَّ النَّبِيَّ إِذَا هَاجَرَ عَنْ قَوْمِهِ لَمْ يَرْجِعْ إِلَيْهِمْ مُقِيمًا فيهِمْ، وَقَالَ لَهُمْ: إِنَّ اللَّهَ بَاعِثٌ إِلَيْكُمْ نَبِيًّا.

﴿أَوْ يَزِيدُونَ﴾[2] في مَرْأَى النَّاظِرِ، أَيْ: إِذَا رَآهَا الرَّائِي قَالَ: هِيَ مِائَةُ أَلْفٍ أَوْ أَكْثَرُ، وَالْغَرَضُ: الْوَصْفُ بِالْكَثْرَةِ.

﴿إِلَى حِينٍ﴾[3] إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى، وَقُرِئَ: (وَيَزِيدُونَ) بِالْوَاوِ، وَ"حَتَّى حِينٍ".

﴿فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ أَلَا إِنَّهُمْ مِنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُبِينٌ فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾[4]

---

[1] سُورَةُ الصَّافَّاتِ، الآية .

[2] سُورَةُ الصَّافَّاتِ، الآية .

[3] سُورَةُ الصَّافَّاتِ، الآية .

[4] سُورَةُ الصَّافَّاتِ، الآية .

﴿فَاسْتَفْتِهِمْ﴾[1] مَعْطُوفٌ عَلَى مِثْلِهِ فِي أَوَّلِ السُّورَةِ، وَإِنْ تَبَاعَدَتْ بَيْنَهُمَا الْمَسَافَةُ، أَمَرَ رَسُولَهُ بِاسْتِفْتَاءِ قُرَيْشٍ عَنْ وَجْهِ إِنْكَارِ الْبَعْثِ أَوَّلًا، ثُمَّ سَاقَ الْكَلَامَ مَوْصُولًا بَعْضُهُ بِبَعْضٍ، ثُمَّ أَمَرَهُ بِاسْتِفْتَائِهِمْ عَنْ وَجْهِ الْقِسْمَةِ الضِّيزَى الَّتِي قَسَّمُوهَا، حَيْثُ جَعَلُوا لِلَّهِ الْإِنَاثَ وَلِأَنْفُسِهِمُ الذُّكُورَ فِي قَوْلِهِمْ: الْمَلَائِكَةُ بَنَاتُ اللَّهِ، مَعَ كَرَاهَتِهِمُ الشَّدِيدَةِ لَهُنَّ، وَوَأْدِهِنَّ، وَاسْتِنْكَافِهِمْ مِنْ ذِكْرِهِنَّ.

وَلَقَدِ ارْتَكَبُوا فِي ذَلِكَ ثَلَاثَةَ أَنْوَاعٍ مِنَ الْكُفْرِ:

– أَحَدُهَا: التَّجْسِيمُ، لِأَنَّ الْوِلَادَةَ مُخْتَصَّةٌ بِالْأَجْسَامِ،

– وَالثَّانِي: تَفْضِيلُ أَنْفُسِهِمْ عَلَى رَبِّهِمْ حِينَ جَعَلُوا أَوْضَعَ الْجِنْسَيْنِ لَهُ وَأَرْفَعَهُمَا لَهُمْ، كَمَا قَالَ: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾[2]، ﴿أَوَمَنْ يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾[3].

– وَالثَّالِثُ : أَنَّهُمُ اسْتَهَانُوا بِأَكْرَمِ خَلْقِ اللَّهِ عَلَيْهِ وَأَقْرَبِهِمْ إِلَيْهِ، حَيْثُ أَنَّثُوهُمْ، وَلَوْ قِيلَ لِأَقَلِّهِمْ وَأَدْنَاهُمْ: فيكَ أُنُوثَةٌ، أَوْ شَكْلُكَ شَكْلُ النِّسَاءِ، لَلَبَّسَ لِقَائِلِهِ جِلْدَ النَّمِرِ، وَلَانْقَلَبَتْ حَمَالِيقُهُ، وَذَلِكَ فِي أَهَاجِيهِمْ بَيِّنٌ مَكْشُوفٌ، فَكَرَّرَ اللَّهُ –سُبْحَانَهُ– الْأَنْوَاعَ كُلَّهَا فِي كِتَابِهِ مَرَّاتٍ.

وَدَلَّ عَلَى فَظَاعَتِهَا فِي آيَاتٍ: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ﴾[4]، ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ﴾[5]، ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾[6]، ﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ﴾[7]، ﴿أَلا إِنَّهُمْ مِنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ وَلَدَ اللَّهُ﴾[8]، ﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا﴾[9]، ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَا

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة الزُّخْرُفَ، الآية 17.

[3] سورة الزُّخْرُفَ، الآية 18.

[4] سورة مَرْيَمَ، الآيتان 88–89.

[5] سورة الْأَنْبِيَاءَ، الآية 26.

[6] سورة الْبَقَرَةَ، الآية 116.

[7] سورة الْأَنْعَامَ، الآية 101.

[8] سورة الصَّافَّاتِ، الآيتان 151–152 .

[9] سورة الزُّخْرُفَ، الآية 155.

يَشْتَهُونَ﴾[1]، ﴿أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ﴾[2]، ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ﴾[3]، ﴿أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ﴾[4]، ﴿أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُمْ بِالْبَنِينَ﴾[5]، ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا﴾[6].

﴿أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ﴾[7].

فَإِنْ قُلْتَ: لِمَ قَالَ: ﴿وَهُمْ شَاهِدُونَ﴾[8] فَخَصَّ عِلْمَ الْمُشَاهَدَةِ؟

قُلْتُ: مَا هُوَ الِاسْتِهْزَاءُ بِهِمْ وَتَجْهِيلٌ لَهُمْ، وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ﴾[9]، وَنَحْوُهُ قَوْلُهُ: ﴿مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ﴾[10]، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ كَمَا لَمْ يَعْلَمُوا ذَلِكَ بِطَرِيقِ الْمُشَاهَدَةِ، لَمْ يَعْلَمُوهُ بِخَلْقِ اللَّهِ عِلْمَهُ فِي قُلُوبِهِمْ. وَلَا بِإِخْبَارِ صَادِقٍ، وَلَا بِطَرِيقِ اسْتِدْلَالٍ وَنَظَرٍ.

وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الْمَعْنَى: أَنَّهُمْ يَقُولُونَ ذَلِكَ، كَالْقَائِلِ قَوْلًا عَنْ ثَلْجِ صَدْرٍ وَطُمَأْنِينَةِ نَفْسٍ لِإِفْرَاطِ جَهْلِهِمْ، كَأَنَّهُمْ قَدْ شَاهَدُوا خَلْقَهُمْ. وَقُرِئَ: (وَلَدُ اللَّهِ)، أَيِ الْمَلَائِكَةُ وَلَدُهُ.

وَالْوَلَدُ "فَعَلُ" بِمَعْنَى مَفْعُولٍ، يَقَعُ عَلَى الْوَاحِدِ وَالْجَمْعِ، وَالْمُذَكَّرِ وَالْمُؤَنَّثِ. تَقُولُ: هَذِهِ وَلَدِي، وَهَؤُلَاءِ وَلَدِي.

فَإِنْ قُلْتَ: ﴿أَصْطَفَى الْبَنَاتِ﴾[11] بِفَتْحِ الْهَمْزَةِ، اسْتِفْهَامٌ عَلَى طَرِيقِ الْإِنْكَارِ وَالِاسْتِبْعَادِ، فَكَيْفَ صَحَّتْ قِرَاءَةُ أَبِي جَعْفَرٍ بِكَسْرِ الْهَمْزَةِ عَلَى الْإِثْبَاتِ؟

قُلْتُ: جَعَلَهُ مِنْ كَلَامِ الْكَفَرَةِ بَدَلًا عَنْ قَوْلِهِمْ: ﴿وَلَدَ اللَّهُ﴾[12]، وَقَدْ قَرَأَ بِهَا حَمْزَةُ وَالْأَعْمَشُ –رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا–.

---

[1] سورة النَّحْلَ، الآية 57.

[2] سورة الطُّورَ، الآية 39.

[3] سورة النَّحْلَ، الآية 62.

[4] سورة الصَّافَّاتِ، الآية 153.

[5] سورة الزُّخْرُفَ، الآية 16.

[6] سورة الزُّخْرُفَ، الآية 16.

[7] سورة ، الآية .

[8] سورة ، الآية .

[9] سورة الزُّخْرُفَ، الآية 19.

[10] سورة الْكَهْفَ، الآية 51.

[11] سورة الرُّومَ، الآية 35.

[12] سُورَةُ الصَّافَّاتِ، الآية .

وَهَذِهِ الْقِرَاءَةُ –وَإِنْ كَانَ هَذَا مَحْمَلُهَا– فَهِيَ ضَعِيفَةٌ، وَالَّذِي أَضْعَفَهَا: أَنَّ الْإِنْكَارَ قَدِ اكْتَنَفَ هَذِهِ الْجُمْلَةَ مِنْ جَانِبَيْهَا، وَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ .مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾[1] ؟

فَمَنْ جَعَلَهَا لِلْإِثْبَاتِ، فَقَدْ أَوْقَعَهَا دَخِيلَةً بَيْنَ نَسِيبَيْنِ. وَقُرِئَ: (تَذْكُرُونَ) مِنْ ذَكَرَ.

﴿أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ﴾[2]، أَيْ حُجَّةٌ نَزَلَتْ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَخَبَرٌ بِأَنَّ الْمَلَائِكَةَ بَنَاتُ اللَّهِ، ﴿فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ﴾[3] الَّذِي أُنْزِلَ عَلَيْكُمْ فِي ذَلِكَ، كَقَوْلِهِ –تَعَالَى–: ﴿أَمْ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ﴾[4].

وَهَذِهِ الْآيَاتُ صَادِرَةٌ عَنْ سُخْطٍ عَظِيمٍ، وَإِنْكَارٍ فَظِيعٍ، وَاسْتِبْعَادٍ لِأَقَاوِيلِهِمْ شَدِيدٍ، وَمَا الْأَسَالِيبُ الَّتِي وَرَدَتْ عَلَيْهَا إِلَّا نَاطِقَةٌ بِتَسْفِيهِ أَحْلَامِ قُرَيْشٍ، وَتَجْهِيلِ نُفُوسِهَا، وَاسْتِرْكَاكِ عُقُولِهَا، مَعَ اسْتِهْزَاءٍ وَتَهَكُّمٍ وَتَعْجِيبٍ، مِنْ أَنْ يُخْطِرَ مَخْطَرُ مِثْلِ ذَلِكَ عَلَى بَالٍ وَيُحَدِّثَ بِهِ نَفْسًا، فَضْلًا أَنْ يَجْعَلَهُ مُعْتَقَدًا وَيَتَظَاهَرَ بِهِ مَذْهَبًا.

## ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ إِلا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾[5]

﴿وَجَعَلُوا﴾[6] بَيْنَ اللَّهِ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ وَأَرَادَ الْمَلَائِكَةَ ﴿نَسَبًا﴾[7]، وَهُوَ زَعْمُهُمْ أَنَّهُمْ بَنَاتُهُ، وَالْمَعْنَى: جَعَلُوا بِمَا قَالُوا: نِسْبَةً بَيْنَ اللَّهِ وَبَيْنَهُمْ، وَأَثْبَتُوا لَهُ بِذَلِكَ جِنْسِيَّةً جَامِعَةً لَهُ وَلِلْمَلَائِكَةِ.

فَإِنْ قُلْتَ: لِمَ سُمِّيَ الْمَلَائِكَةُ جِنَّةً؟

---

[1] سُورَةُ الصَّافَّاتِ، الآية .
[2] سُورَةُ الصَّافَّاتِ، الآية .
[3] سُورَةُ الصَّافَّاتِ، الآية .
[4] سُورَةُ الصَّافَّاتِ، الآية .
[5] سُورَةُ الصَّافَّاتِ، الآية .
[6] سُورَةُ الصَّافَّاتِ، الآية .
[7] سُورَةُ الصَّافَّاتِ، الآية .

قُلْتُ: قَالُوا: الْجِنْسُ وَاحِدٌ، وَلَكِنَّ مَنْ خَبُثَ مِنَ الْجِنِّ وَمَرَدَ وَكَانَ شَرًّا كُلَّهُ فَهُوَ شَيْطَانٌ، وَمَنْ طَهُرَ مِنْهُمْ وَنَسَكَ وَكَانَ خَيْرًا كُلَّهُ فَهُوَ مَلَكٌ، فَذَكَّرَهُمْ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ بِاسْمِ جِنْسِهِمْ، وَإِنَّمَا ذَكَّرَهُمْ بِهَذَا الِاسْمِ وَضْعًا مِنْهُمْ وَتَقْصِيرًا بِهِمْ.

وَإِنْ كَانُوا مُعَظَّمِينَ فِي أَنْفُسِهِمْ أَنْ يَبْلُغُوا مَنْزِلَةَ الْمُنَاسَبَةِ الَّتِي أَضَافُوهَا إِلَيْهِمْ. وَفِيهِ إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ مِنْ صِفَتِهِ الِاجْتِنَانُ وَالِاسْتِتَارُ –وَهُوَ مِنْ صِفَاتِ الْأَجْرَامِ– لَا يَصْلُحُ أَنْ يُنَاسِبَ مَنْ لَا يَجُوزُ عَلَيْهِ ذَلِكَ. وَمِثَالُهُ: أَنْ تُسَوِّيَ بَيْنَ الْمَلِكِ وَبَيْنَ بَعْضِ خَوَاصِّهِ وَمُقَرَّبِيهِ، فيقُولُ لَكَ: أَتُسَوِّي بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي؟ وَإِذَا ذَكَرَهُ فِي غَيْرِ هَذَا الْمَقَامِ وَقَّرَهُ وَكَنَّاهُ.

وَالضَّمِيرُ فِي ﴿إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾[1] لِلْكَفَرَةِ. وَالْمَعْنَى: أَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا يَقُولُونَ فِي الْمَلَائِكَةِ، وَقَدْ عَلِمَ الْمَلَائِكَةُ أَنَّهُمْ فِي ذَلِكَ كَاذِبُونَ مُفْتَرُونَ، وَأَنَّهُمْ مُحْضَرُونَ النَّارَ مُعَذَّبُونَ بِمَا يَقُولُونَ، وَالْمُرَادُ الْمُبَالَغَةُ فِي التَّكْذِيبِ؟ حَيْثُ أُضِيفَ إِلَى عِلْمِ الَّذِينَ ادَّعَوْا لَهُمْ تِلْكَ النِّسْبَةَ.

وَقِيلَ: قَالُوا إِنَّ اللَّهَ صَاهَرَ الْجِنَّ فَخَرَجَتِ الْمَلَائِكَةُ. وَقِيلَ: قَالُوا: إِنَّ اللَّهَ وَالشَّيْطَانَ أَخَوَانِ.

وَعَنِ الْحَسَنِ: أَشْرَكُوا الْجِنَّ فِي طَاعَةِ اللَّهِ.

وَيَجُوزُ إِذَا فُسِّرَ الْجِنَّةُ بِالشَّيَاطِينِ أَنْ يَكُونَ الضَّمِيرُ فِي ﴿فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾[2] لَهُمْ، وَالْمَعْنَى: أَنَّ الشَّيَاطِينَ عَالِمُونَ بِأَنَّ اللَّهَ يَحْضُرُهُمُ النَّارَ وَيُعَذِّبُهُمْ، وَلَوْ كَانُوا مُنَاسِبِينَ لَهُ أَوْ شُرَكَاءَ فِي وُجُوبِ الطَّاعَةِ لَمَا عَذَّبَهُمْ.

﴿إِلاَّ عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾[3] اسْتِثْنَاءٌ مُنْقَطِعٌ مِنَ الْمُحْضَرِينَ، مَعْنَاهُ: وَلَكِنَّ الْمُخْلَصِينَ نَاجُونَ. وَسُبْحَانَ اللَّهِ: اعْتِرَاضٌ بَيْنَ الِاسْتِثْنَاءِ وَبَيْنَ مَا وَقَعَ مِنْهُ. وَيَجُوزُ أَنْ يَقَعَ الِاسْتِثْنَاءُ مِنَ الْوَاوِ فِي يَصِفُونَ، أَيْ: يَصِفُهُ هَؤُلَاءِ بِذَلِكَ، وَلَكِنِ الْمُخْلَصُونَ بُرَآءُ مِنْ أَنْ يَصِفُوهُ بِهِ.

---

[1] سُورَةُ الصَّافَّاتِ، الآية .

[2] سُورَةُ الصَّافَّاتِ، الآية .

[3] سُورَةُ الصَّافَّاتِ، الآية .

## ﴿فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ إِلاَّ مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ﴾[1]

﴿عَلَيْهِ﴾[2] لِلَّهِ –عَزَّ وَجَلَّ– وَمَعْنَاهُ: فَإِنَّكُمْ وَمَعْبُودَكُمْ مَا أَنْتُمْ وَهُمْ جَمِيعًا بِفَاتِنِينَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا أَصْحَابَ النَّارِ الَّذِينَ سَبَقَ فِي عِلْمِهِ أَنَّهُمْ لِسُوءِ أَعْمَالِهِمْ يَسْتَوْجِبُونَ أَنْ يَصْلَوْهَا.

فَإِنْ قُلْتَ: كَيْفَ يَفْتِنُونَهُمْ عَلَى اللَّهِ؟

قُلْتُ: يُفْسِدُونَهُمْ عَلَيْهِ بِإِغْوَائِهِمْ وَاسْتِهْزَائِهِمْ، مِنْ قَوْلِكَ: فَتَنَ فُلَانٌ عَلَى فُلَانٍ امْرَأَتَهُ، كَمَا تَقُولُ: أَفْسَدَهَا عَلَيْهِ وَخَيَّبَهَا عَلَيْهِ.

وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الْوَاوُ فِي ﴿وَمَا تَعْبُدُونَ﴾[3] بِمَعْنَى مَعَ، مِثْلُهَا فِي قَوْلِهِمْ: كُلُّ رَجُلٍ وَضَيْعَتَهُ، فَكَمَا جَازَ السُّكُوتُ عَلَى كُلِّ رَجُلٍ وَضَيْعَتَهُ، وَأَنَّ كُلَّ رَجُلٍ وَضَيْعَتَهُ، جَازَ أَنْ يُسْكَتَ عَلَى قَوْلِهِ:﴿ فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ﴾[4] ، لِأَنَّ قَوْلَهُ: ﴿وَمَا تَعْبُدُونَ﴾[5] سَادٌّ مَسَدَّ الْخَبَرِ، لِأَنَّ مَعْنَاهُ: فَإِنَّكُمْ مَعَ مَا تَعْبُدُونَ. وَالْمَعْنَى: فَإِنَّكُمْ مَعَ آلِهَتِكُمْ، أَيْ: فَإِنَّكُمْ قُرَنَاؤُهُمْ وَأَصْحَابُهُمْ لَا تَبْرَحُونَ تَعْبُدُونَهَا.

ثُمَّ قَالَ: ﴿مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ﴾[6]، أَيْ: عَلَى مَا تَعْبُدُونَ "بِفَاتِنِينَ" بِبَاعِثِينَ أَوْ حَامِلِينَ عَلَى طَرِيقِ الْفِتْنَةِ وَالْإِضْلَالِ.

﴿إِلاَّ مَنْ هُوَ﴾[7] ضَالٌّ مِثْلُكُمْ. أَوْ يَكُونُ فِي أُسْلُوبِ قَوْلِهِ:

فَإِنَّكَ وَالْكِتَابُ إِلَى عَلِيٍّ كَدَابِغَةٍ وَقَدْ حَلِمَ الْأَدِيمُ

وَقَرَأَ الْحَسَنُ: (صَالُ الْجَحِيمِ) بِضَمِّ اللَّامِ.

وَفِيهِ ثَلَاثَةُ أَوْجُهٍ:

– أَحَدُهَا: أَنْ يَكُونَ جَمْعًا، وَسُقُوطُ وَاوِهِ لِالْتِقَاءِ السَّاكِنَيْنِ هِيَ وَلَامُ التَّعْرِيفِ.

فَإِنْ قُلْتَ: كَيْفَ اسْتَقَامَ الْجَمْعُ مَعَ قَوْلِهِ: "مَنْ هُوَ "؟

---

1 سُورَةُ الصَّافَّاتِ، الآية .

2 سُورَةُ الصَّافَّاتِ، الآية .

3 سُورَةُ الصَّافَّاتِ، الآية .

4 سُورَةُ الصَّافَّاتِ، الآية .

5 سُورَةُ الصَّافَّاتِ، الآية .

6 سُورَةُ الصَّافَّاتِ، الآية .

7 سُورَةُ الصَّافَّاتِ، الآية .

قُلْتُ: مَنْ مُوَحَّدُ اللَّفْظِ مَجْمُوعُ الْمَعْنَى، فَحُمِلَ هُوَ عَلَى لَفْظِهِ، وَالصَّالُونِ عَلَى مَعْنَاهُ، كَمَا حُمِلَ في مَوَاضِعَ مِنَ التَّنْزِيلِ عَلَى لَفْظِ مَنْ وَمَعْنَاهُ في آيَةٍ وَاحِدَةٍ.

– وَالثَّانِي: أَنْ يَكُونَ أَصْلُهُ صَائِلٌ عَلَى الْقَلْبِ، ثُمَّ يُقَالُ: صَالَ في صَائِلٍ، كَقَوْلِهِمْ: شَاكَ في شَائِكٍ.

– وَالثَّالِثُ: أَنْ تُحْذَفَ لَامُ صَالَ تَخْفِيفًا وَيَجْرِيَ الْإِعْرَابُ عَلَى عَيْنِهِ، كَمَا حُذِفَ مِنْ قَوْلِهِمْ: مَا بَالَيْتُ بِهِ بَالَةً، وَأَصْلُهَا بَالِيَةً مِنْ بَالَى، كَعَافِيةٍ مِنْ عَافى.

وَنَظِيرُهُ: قِرَاءَةُ مَنْ قَرَأَ: (وَجَنَى جَنَّتَيْنِ دَانٍ)[1]، (وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنْشَاتِ)[2] بِإِجْرَاءِ الْإِعْرَابِ عَلَى الْعَيْنِ.

## ﴿وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ﴾[3]

﴿وَمَا مِنَّا﴾[4] أَحَدٌ ﴿إِلا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ﴾[5]، فَحُذِفَ الْمَوْصُوفُ وَأُقِيمَتِ الصِّفَةُ مَقَامَهُ، كَقَوْلِهِ:

أَنَا ابْنُ جَلَا وَطَلَّاعُ الثَّنَايَـــــــا

[وقوله:]

بِكَفِي كَانَ مِنْ أَرْمَى الْبَشَـــــــرْ

مَقَامٌ مَعْلُومٌ: مَقَامٌ في الْعِبَادَةِ، وَالِانْتِهَاءُ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ مَقْصُورٌ عَلَيْهِ لَا يَتَجَاوَزُهُ، كَمَا رُوِيَ: فَمِنْهُمْ رَاكِعٌ لَا يُقِيمُ صُلْبَهُ، وَسَاجِدٌ لَا يَرْفَعُ رَأْسَهُ.

﴿لَنَحْنُ الصَّافُّونَ﴾[6] نَصُفُّ أَقْدَامَنَا في الصَّلَاةِ، أَوْ أَجْنِحَتَنَا في الْهَوَاءِ، مُنْتَظِرِينَ مَا نُؤْمَرُ. وَقِيلَ: نَصُفُّ أَجْنِحَتَنَا حَوْلَ الْعَرْشِ دَاعِينَ لِلْمُؤْمِنِينَ. وَقِيلَ: إِنَّ الْمُسْلِمِينَ إِنَّمَا

---

[1] سورة الرَّحْمَنَ، الآية 54.

[2] سورة الرَّحْمَنَ، الآية 24.

[3] سُورَةُ الصَّافَّاتِ، الآية .

[4] سُورَةُ الصَّافَّاتِ، الآية .

[5] سُورَةُ الصَّافَّاتِ، الآية .

[6] سورة ، الآية .

اصْطَفُّوا فِي الصَّلَاةِ مُنْذُ نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ. وَلَيْسَ يَصْطَفُّ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ الْمِلَلِ فِي صَلَاتِهِمْ غَيْرَ الْمُسْلِمِينَ ﴿الْمُسَبِّحُونَ﴾[1]: الْمُنَزِّهُونَ أَوِ الْمُصَلُّونَ.

وَالْوَجْهُ أَنْ يَكُونَ هَذَا وَمَا قَبْلَهُ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾[2] مِنْ كَلَامِ الْمَلَائِكَةِ حَتَّى يَتَّصِلَ بِذِكْرِهِمْ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ﴾[3]، كَأَنَّهُ قِيلَ: وَلَقَدْ عَلِمَ الْمَلَائِكَةُ وَشَهِدُوا أَنَّ الْمُشْرِكِينَ مُفْتَرُونَ عَلَيْهِمْ فِي مُنَاسَبَةِ رَبِّ الْعِزَّةِ، وَقَالُوا: سُبْحَانَ اللَّهِ، فَنَزَّهُوهُ عَنْ ذَلِكَ، وَاسْتَثْنَوْا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ وَبَرَّأَهُمْ مِنْهُ، وَقَالُوا لِلْكَفَرَةِ: فَإِذَا صَحَّ ذَلِكَ فَإِنَّكُمْ وَآلِهَتَكُمْ لَا تَقْدِرُونَ أَنْ تَفْتِنُوا عَلَى اللَّهِ أَحَدًا مِنْ خَلْقِهِ وَتَضِلُّوهُ، إِلَّا مَنْ كَانَ مِثْلَكُمْ مِمَّنْ عَلِمَ اللَّهُ –لِكُفْرِهِمْ، لَا لِتَقْدِيرِهِ وَإِرَادَتِهِ، –تَعَالَى– اللَّهُ عَمَّا يَقُولُ الظَّالِمُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا – أَنَّهُمْ مِنْ أَهْلِ النَّارِ، وَكَيْفَ نَكُونُ مُنَاسِبِينَ لِرَبِّ الْعِزَّةِ وَيَجْمَعُنَا وَإِيَّاهُ جِنْسِيَّةٌ وَاحِدَةٌ؟ وَمَا نَحْنُ إِلَّا عُبَيْدٌ أَذِلَّاءُ بَيْنَ يَدَيْهِ، لِكُلٍّ مِنَّا مَقَامٌ مِنَ الطَّاعَةِ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَزِلَّ عَنْهُ ظُفْرًا، خُشُوعًا لِعَظَمَتِهِ وَتَوَاضُعًا لِجَلَالِهِ، وَنَحْنُ الصَّافُّونَ أَقْدَامَنَا لِعِبَادَتِهِ وَأَجْنِحَتَنَا، مُذْعِنِينَ خَاضِعِينَ مُسَبِّحِينَ مُمَجِّدِينَ، وَكَمَا يَجِبُ عَلَى الْعِبَادِ لِرَبِّهِمْ.

وَقِيلَ: هُوَ مِنْ قَوْلِ رَسُولِ اللَّهِ –صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–، يَعْنِي: وَمَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ أَحَدٌ إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى قَدْرِ عَمَلِهِ، مِنْ قَوْلِهِ: ﴿عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا﴾[4]؛ ثُمَّ ذَكَرَ أَعْمَالَهُمْ وَأَنَّهُمْ هُمُ الَّذِينَ يَصْطَفُّونَ فِي الصَّلَاةِ يُسَبِّحُونَ اللَّهَ وَيُنَزِّهُونَهُ مِمَّا يُضِيفُ إِلَيْهِ مَنْ لَا يَعْرِفُهُ مِمَّا لَا يَجُوزُ عَلَيْهِ.

﴿وَإِنْ كَانُوا لَيَقُولُونَ لَوْ أَنَّ عِنْدَنَا ذِكْرًا مِنَ الْأَوَّلِينَ لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ فَكَفَرُوا بِهِ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾[5]

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة الصَّافَّاتِ، الآية 159.

[3] سورة الصَّافَّاتِ، الآية 158.

[4] سورة الْإِسْرَاءَ، الآية 79.

[5] سورة ، الآية .

هُمْ مُشْرِكُو قُرَيْشٍ كَانُوا يَقُولُونَ:﴿ لَوْ أَنَّ عِنْدَنَا ذِكْرًا﴾[1]، أَيْ كِتَابًا ﴿مِنَ﴾[2] كُتُبِ ﴿الأَوَّلِينَ﴾[3] الَّذِينَ نَزَلَ عَلَيْهِمُ التَّوْرَاةُ وَالْإِنْجِيلُ، لَأَخْلَصْنَا الْعِبَادَةَ لِلَّهِ، وَلَمَا كَذَّبْنَا كَمَا كَذَّبُوا، وَلَمَا خَالَفْنَا كَمَا خَالَفُوا، فَجَاءَهُمُ الذِّكْرُ الَّذِي هُوَ سَيِّدُ الْأَذْكَارِ، وَالْكِتَابُ الَّذِي هُوَ مُعْجِزٌ مِنْ بَيْنِ الْكُتُبِ، فَكَفَرُوا بِهِ.

وَنَحْوُهُ: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَا زَادَهُمْ إِلا نُفُورًا﴾[4]، فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ مَغَبَّةَ تَكْذِيبِهِمْ وَمَا يَحِلُّ بِهِمْ مِنَ الِانْتِقَامِ. وَ "إِنَّ " هِيَ الْمُخَفَّفَةُ مِنَ الثَّقِيلَةِ، وَاللَّامُ هِيَ الْفَارِقَةُ. وَفِي ذَلِكَ أَنَّهُمْ كَانُوا يَقُولُونَهُ مُؤَكِّدِينَ لِلْقَوْلِ جَادِّينَ فِيهِ، فَكَمْ بَيْنَ أَوَّلِ أَمْرِهِمْ وَآخِرِهِ.

## ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾[5]

الْكَلِمَةُ: قَوْلُهُ: ﴿إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾[6]، وَإِنَّمَا سَمَّاهَا كَلِمَةً وَهِيَ كَلِمَاتٌ عِدَّةٌ، لِأَنَّهَا لَمَّا انْتَظَمَتْ فِي مَعْنَى وَاحِدٍ كَانَتْ فِي حُكْمِ مُفْرَدَةٍ.

وَقُرِئَ: (كَلِمَاتُنَا) وَالْمُرَادُ الْمَوْعِدُ بِعُلُوِّهِمْ عَلَى عَدُوِّهِمْ فِي مُقَاوِمِ الْحِجَاجِ وَمَلَاحِمِ الْقِتَالِ فِي الدُّنْيَا، وَعُلُوِّهِمْ عَلَيْهِمْ فِي الْآخِرَةِ، كَمَا قَالَ: ﴿وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾[7]، وَلَا يَلْزَمُ انْهِزَامُهُمْ فِي بَعْضِ الْمَشَاهِدِ، وَمَا جَرَى عَلَيْهِمْ مِنَ الْقَتْلِ، فَإِنَّ الْغَلَبَةَ كَانَتْ لَهُمْ وَلِمَنْ بَعْدَهُمْ فِي الْعَاقِبَةِ، وَكَفَى بِمَشَاهِدِ رَسُولِ اللَّهِ –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– وَالْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ مَثَلًا يُحْتَذَى عَلَيْهَا وَعِبَرًا يُعْتَبَرُ بِهَا.

وَعَنِ الْحَسَنِ –رَحِمَهُ اللَّهُ–: مَا غُلِبَ نَبِيٌّ فِي حَرْبٍ وَلَا قُتِلَ فِيهَا، وَلِأَنَّ قَاعِدَةَ أَمْرِهِمْ وَأَسَاسَهُ وَالْغَالِبَ مِنْهُ: الظَّفَرُ وَالنُّصْرَةُ –وَإِنْ وَقَعَ فِي تَضَاعِيفِ ذَلِكَ شَوْبٌ مِنَ الِابْتِلَاءِ وَالْمِحْنَةِ – وَالْحُكْمِ لِلْغَالِبِ.

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

[4] سورة فَاطِرَ، الآية 42.

[5] سورة ، الآية .

[6] سورة ، الآية .

[7] سورة الْبَقَرَةَ، الآية 212.

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ –رَضِيَ اللهُ عَنْهُ–مَا: إِنْ لَمْ يُنْصَرُوا فِي الدُّنْيَا نُصِرُوا فِي الْآخِرَةِ، وَفِي قِرَاءَةِ ابْنِ مَسْعُودٍ: (عَلَى عِبَادِنَا)، عَلَى تَضْمِينِ سَبَقَتْ مَعْنَى حَقَّتْ.

## ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾[1]

﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾[2]: فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَأَغْضِ عَلَى أَذَاهُمْ، ﴿حَتَّى حِينٍ﴾[3] إِلَى مُدَّةٍ يَسِيرَةٍ وَهِيَ مُدَّةُ الْكَفِّ عَنِ الْقِتَالِ.

وَعَنِ السُّدِّيِّ: إِلَى يَوْمِ بَدْرٍ، وَقِيلَ: الْمَوْتُ، وَقِيلَ: إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ "وَأَبْصَارُهُمْ " وَمَا يَقْضِي عَلَيْهِمْ مِنَ الْأَسْرِ وَالْقَتْلِ وَالْعَذَابِ فِي الْآخِرَةِ، فَسَوْفَ يَنْصُرُونَكَ وَمَا يَقْضِي لَكَ مِنَ النُّصْرَةِ وَالتَّأْيِيدِ وَالثَّوَابِ فِي الْعَاقِبَةِ.

وَالْمُرَادُ بِالْأَمْرِ بِإِبْصَارِهِمْ عَلَى الْحَالِ الْمُنْتَظَرَةِ الْمَوْعُودَةِ، الدَّلَالَةُ عَلَى أَنَّهَا كَائِنَةٌ وَاقِعَةٌ لَا مَحَالَةَ، وَأَنَّ كَيْنُونَتَهَا قَرِيبَةٌ كَأَنَّهَا قُدَّامُ نَاظِرَيْكَ. وَفِي ذَلِكَ تَسْلِيَةٌ لَهُ وَتَنْفِيسٌ عَنْهُ.

وَقَوْلُهُ: ﴿فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾[4] لِلْوَعِيدِ كَمَا سَلَفَ لَا لِلتَّبْعِيدِ.

## ﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾[5]

مَثَّلَ الْعَذَابَ النَّازِلَ بِهِمْ بَعْدَ مَا أُنْذِرُوهُ فَأَنْكَرُوهُ بِجَيْشٍ أَنْذَرَ بِهُجُومِهِ قَوْمَهُ بَعْضُ نُصَّاحِهِمْ فَلَمْ يَلْتَفِتُوا إِلَى إِنْذَارِهِ، وَلَا أَخَذُوا أُهْبَتَهُمْ، وَلَا دَبَّرُوا أَمْرَهُمْ تَدْبِيرًا يُنْجِيهِمْ، حَتَّى أَنَاخَ بِفِنَائِهِمْ بَغْتَةً، فَشَنَّ عَلَيْهِمُ الْغَارَةَ وَقَطَعَ دَابِرَهُمْ، وَكَانَتْ عَادَةُ مُغَاوِرِيهِمْ أَنْ يُغِيرُوا صَبَاحًا، فَسُمِّيَتِ الْغَارَةُ صَبَاحًا وَإِنْ وَقَعَتْ فِي وَقْتٍ آخَرَ، وَمَا فَصَحَتْ هَذِهِ الْآيَةُ وَلَا كَانَتْ لَهَا الرَّوْعَةُ الَّتِي تُحِسُّ بِهَا وَيَرُوقُكَ مَوْرِدُهَا عَلَى نَفْسِكَ وَطَبْعِكَ، إِلَّا لِمَجِيئِهَا عَلَى طَرِيقَةِ

---

[1] سورة ، الآية .
[2] سورة ، الآية .
[3] سورة ، الآية .
[4] سورة ، الآية .
[5] سورة ، الآية .

التَّمْثِيلِ، وَقَرَأَ ابْنُ مَسْعُودٍ: فَبِئْسَ صَبَاحٌ. وَقُرِئَ: (نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ) عَلَى إِسْنَادِهِ إِلَى الْجَارِّ وَالْمَجْرُورِ كَقَوْلِكَ: ذَهَبَ يَزِيدُ وَنَزَلَ، عَلَى: وَنَزَلَ الْعَذَابُ.

وَالْمَعْنَى: فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ صَبَاحُهُمْ، وَاللَّامُ فِي الْمُنْذَرِينَ مُبْهَمٌ فِي جِنْسِ مَنْ أُنْذَرُوا، لِأَنَّ سَاءَ وَبِئْسَ يَقْتَضِيَانِ ذَلِكَ. وَقِيلَ: هُوَ نُزُولُ رَسُولِ اللَّهِ –صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– يَوْمَ الْفَتْحِ بِمَكَّةَ.

وَعَنْ أَنَسٍ –رَضِيَ الله عَنْهُ–: لَمَّا أَتَى رَسُولُ اللَّهِ –صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– خَيْبَرَ – كَانُوا خَارِجِينَ إِلَى مَزَارِعِهِمْ وَمَعَهُمُ الْمِسَاحِي– قَالُوا: مُحَمَّدٌ وَالْخَمِيسُ، وَرَجَعُوا إِلَى حِصْنِهِمْ. فَقَالَ –عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ–: "اللَّهُ أَكْبَرُ خَرِبَتْ خَيْبَرُ، إِنَّا إِذَا نَزَلْنَا بِسَاحَةِ قَوْمٍ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ.

وَإِنَّمَا ثَنَّى: ﴿وَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾[1]، لِيَكُونَ تَسْلِيَةً عَلَى تَسْلِيَةٍ. وَتَأْكِيدًا لِوُقُوعِ الْمِيعَادِ إِلَى تَأْكِيدٍ. وَفِيهِ فَائِدَةٌ زَائِدَةٌ وَهِيَ إِطْلَاقُ الْفِعْلَيْنِ مَعًا عَنِ التَّقْيِيدِ بِالْمَفْعُولِ، وَأَنَّهُ يُبْصِرُونَهُمْ يُبْصِرُونَ مَا لَا يُحِيطُ بِهِ الذِّكْرُ مِنْ صُنُوفِ الْمَسَرَّةِ وَأَنْوَاعِ الْمَسَاءَةِ. وَقِيلَ: أُرِيدَ بِأَحَدِهِمَا عَذَابُ الدُّنْيَا، وَبِالْآخَرِ عَذَابُ الْآخِرَةِ.

﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ وَسَلامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[2]

أُضِيفَ الرَّبُّ إِلَى الْعِزَّةِ لِاخْتِصَاصِهِ بِهَا، كَأَنَّهُ قِيلَ: ذُو الْعِزَّةِ، كَمَا تَقُولُ: صَاحِبُ صِدْقٍ لِاخْتِصَاصِهِ بِالصِّدْقِ.

وَيَجُوزُ أَنْ يُرَادَ أَنَّهُ مَا مِنْ عِزَّةٍ لِأَحَدٍ مِنَ الْمُلُوكِ وَغَيْرِهِمْ إِلَّا وَهُوَ رَبُّهَا وَمَالِكُهَا، كَقَوْلِهِ –تَعَالَى–: ﴿وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ﴾[3]: اشْتَمَلَتِ السُّورَةُ عَلَى ذِكْرِ مَا قَالَهُ الْمُشْرِكُونَ فِي اللَّهِ وَنَسَبُوا إِلَيْهِ، مِمَّا هُوَ مُنَزَّهٌ عَنْهُ، وَمَا عَانَاهُ الْمُرْسَلُونَ مِنْ جِهَتِهِمْ، وَمَا خَوَّلُوهُ فِي الْعَاقِبَةِ مِنَ النُّصْرَةِ عَلَيْهِمْ، فَخَتَمَهَا بِجَوَامِعِ ذَلِكَ مِنْ تَنْزِيهِ ذَاتِهِ عَمَّا وَصَفَهُ بِهِ الْمُشْرِكُونَ، وَالتَّسْلِيمِ عَلَى الْمُرْسَلِينَ.

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة آلَ عِمْرَانَ، الآية 26.

﴿وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[1] عَلَى مَا قَيَّضَ لَهُمْ مِنْ حُسْنِ الْعَوَاقِبِ، وَالْغَرَضُ تَعْلِيمُ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَقُولُوا ذَلِكَ وَلَا يُخِلُّوا بِهِ وَلَا يَغْفُلُوا عَنْ مُضَمَّنَاتِ كِتَابِهِ الْكَرِيمِ وَمُودَعَاتِ قُرْآنِهِ الْمَجِيدِ.

وَعَنْ عَلِيٍّ –رَضِيَ الله عَنْهُ–: مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَكْتَالَ بِالْمِكْيَالِ الْأَوْفى مِنَ الْأَجْرِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَلْيَكُنْ آخِرُ كَلَامِهِ إِذَا قَامَ مِنْ مَجْلِسِهِ: "سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ".

عَنْ رَسُولِ اللَّهِ –صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–:" مَنْ قَرَأَ وَالصَّافَّاتِ أُعْطِيَ مِنَ الْأَجْرِ عَشْرَ حَسَنَاتٍ بِعَدَدِ كُلِّ جِنِّيٍّ وَشَيْطَانٍ، وَتَبَاعَدَتْ عَنْهُ مَرَدَةُ الشَّيَاطِينِ وَبَرِئَ مِنَ الشِّرْكِ، وَشَهِدَ لَهُ حَافِظَاهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَنَّهُ كَانَ مُؤْمِنًا بِالْمُرْسَلِينَ".

[1] سورة ، الآية .

ﷺ

# سورة ص

# سورة ص

## مَكِّيَّةٌ، وَهِيَ سِتٌّ وَثَمَانُونَ آيَةً، وَقِيلَ: ثَمَانٌ وَثَمَانُونَ آيَةً

## [نَزَلَتْ بَعْدَ الْقَمَرِ]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ﴾[1]

﴿ص﴾[2] عَلَى الْوَاقِفِ وَهِيَ أَكْثَرُ الْقِرَاءَةِ. وَقُرِئَ: بِالْكَسْرِ وَالْفَتْحِ لِالْتِقَاءِ السَّاكِنَيْنِ، وَيَجُوزُ أَنْ يَنْتَصِبَ بِحَذْفِ حَرْفِ الْقَسَمِ وَإِيصَالِ فِعْلِهِ، كَقَوْلِهِمْ: اللَّهِ لَأَفْعَلَنَّ، كَذَا بِالنَّصْبِ، أَوْ بِإِضْمَارِ حَرْفِ الْقَسَمِ، وَالْفَتْحِ في مَوْضِعِ الْجَرِّ، كَقَوْلِهِمْ: اللَّهِ لَأَفْعَلَنَّ، بِالْجَرِّ وَامْتِنَاعِ الصَّرْفِ لِلتَّعْرِيفِ وَالتَّأْنِيثِ، لِأَنَّهَا بِمَعْنَى السُّورَةِ، وَقَدْ صَرَفَهَا مَنْ قَرَأَ (ص) بِالْجَرِّ وَالتَّنْوِينِ عَلَى تَأْوِيلِ الْكِتَابِ وَالتَّنْزِيلِ.

وَقِيلَ: فيمَنْ كَسَرَ هُوَ مِنْ الْمُصَادَاةِ، وَهِيَ الْمُعَارَضَةُ وَالْمُعَادَلَةُ. وَمِنْهَا الصَّدَى، وَهُوَ مَا يُعَارِضُ الصَّوْتَ في الْأَمَاكِنِ الْخَالِيَةِ مِنَ الْأَجْسَامِ الصُّلْبَةِ، وَمَعْنَاهُ: مَا عَارَضَ الْقُرْآنَ بِعَمَلِكَ فَاعْمَلْ بِأَوَامِرِهِ وَانْتَهِ عَنْ نَوَاهِيهِ.

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

فَإِنْ قُلْتَ: قَوْلُهُ: ﴿ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ﴾[1] كَلَامٌ ظَاهِرُهُ مُتَنَافِرٌ غَيْرُ مُنْتَظِمٍ، فَمَا وَجْهُ انْتِظَامِهِ؟

قُلْتُ: فِيهِ وَجْهَانِ:

أَحَدُهُمَا: أَنْ يَكُونَ قَدْ ذُكِرَ اسْمُ هَذَا الْحَرْفِ مِنْ حُرُوفِ الْمُعْجَمِ عَلَى سَبِيلِ التَّحَدِّي وَالتَّنْبِيهِ عَلَى الْإِعْجَازِ كَمَا مَرَّ فِي أَوَّلِ الْكِتَابِ، ثُمَّ أَتْبَعَهُ الْقَسَمَ مَحْذُوفَ الْجَوَابِ لِدَلَالَةِ التَّحَدِّي عَلَيْهِ، كَأَنَّهُ قَالَ: ﴿وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ﴾[2] إِنَّهُ لَكَلَامٌ مُعْجِزٌ.

وَالثَّانِي: أَنْ يَكُونَ "ص" خَبَرَ مُبْتَدَأٍ مَحْذُوفٍ، عَلَى أَنَّهَا اسْمٌ لِلسُّورَةِ، كَأَنَّهُ قَالَ: هَذِهِ ص، يَعْنِي: هَذِهِ السُّورَةُ الَّتِي أَعْجَزَتِ الْعَرَبَ، وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ، كَمَا تَقُولُ: هَذَا حَاتِمٌ وَاللَّهِ، تُرِيدُ: هَذَا هُوَ الْمَشْهُورُ بِالسَّخَاءِ وَاللَّهِ، وَكَذَلِكَ إِذَا أَقْسَمَ بِهَا كَأَنَّهُ قَالَ: أَقْسَمْتُ بِص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ أَنَّهُ لَمُعْجِزٌ؛ ثُمَّ قَالَ: بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَاسْتِكْبَارٍ عَنِ الْإِذْعَانِ لِذَلِكَ وَالِاعْتِرَافِ بِالْحَقِّ وَشِقَاقٍ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ، وَإِذَا جَعَلْتَهَا مُقْسَمًا بِهَا وَعَطَفْتَ عَلَيْهَا ﴿وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ﴾[3] جَازَ لَكَ أَنْ تُرِيدَ بِالْقُرْآنِ التَّنْزِيلَ كُلَّهُ، وَأَنْ تُرِيدَ السُّورَةَ بِعَيْنِهَا.

وَمَعْنَاهُ: أُقْسِمُ بِالسُّورَةِ الشَّرِيفَةِ وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ، كَمَا تَقُولُ: مَرَرْتُ بِالرَّجُلِ الْكَرِيمِ وَبِالنَّسَمَةِ الْمُبَارَكَةِ، وَلَا تُرِيدُ بِالنَّسَمَةِ غَيْرَ الرَّجُلِ. وَالذِّكْرُ: الشَّرَفُ وَالشُّهْرَةُ، مِنْ قَوْلِكَ: فُلَانٌ مَذْكُورٌ.

﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ﴾[4]، أَوِ الذِّكْرَى وَالْمَوْعِظَةُ، أَوْ ذِكْرُ مَا يُحْتَاجُ إِلَيْهِ فِي الدِّينِ مِنَ الشَّرَائِعِ وَغَيْرِهَا، كَأَقَاصِيصِ الْأَنْبِيَاءِ وَالْوَعْدِ وَالْوَعِيدِ.

وَالتَّنْكِيرُ فِي ﴿عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ﴾[5] لِلدَّلَالَةِ عَلَى شِدَّتِهِمَا وَتَفَاقُمِهِمَا. وَقُرِئَ: (فِي غِرَّةٍ)، أَيْ: فِي غَفْلَةٍ عَمَّا يَجِبُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّظَرِ وَاتِّبَاعِ الْحَقِّ.

## ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ فَنَادَوْا وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾[6]

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

[4] سورة الزُّخْرُفَ، الآية 44.

[5] سورة ، الآية .

[6] سورة ، الآية .

﴿كَمْ أَهْلَكْنَا﴾[1]: وَعِيدٌ لِذَوِي الْعِزَّةِ وَالشِّقَاقِ "فَنَادَوْا" فَدَعَوْا وَاسْتَغَاثُوا.

وَعَنِ الْحَسَنِ: فَنَادَوْا بِالتَّوْبَةِ.

﴿وَلَاتَ﴾[2] هِيَ لَا الْمُشَبَّهَةُ بِلَيْسَ، زِيدَتْ عَلَيْهَا تَاءُ التَّأْنِيثِ كَمَا زِيدَتْ عَلَى رُبَّ، وَثُمَّ لِلتَّوْكِيدِ، وَتَغَيَّرَ بِذَلِكَ حُكْمُهَا، حَيْثُ لَمْ تَدْخُلْ إِلَّا عَلَى الْأَحْيَانِ وَلَمْ يُبْرِزْ إِلَّا أَحَدٌ مُقْتَضِيَهَا: إِمَّا الِاسْمُ وَإِمَّا الْخَبَرُ، وَامْتَنَعَ بُرُوزُهُمَا جَمِيعًا، وَهَذَا مَذْهَبُ الْخَلِيلِ وَسِيبَوَيْهِ.

وَعِنْدَ الْأَخْفَشِ: أَنَّهَا لَا النَّافِيَةُ لِلْجِنْسِ زِيدَتْ عَلَيْهَا التَّاءُ، وَخُصَّتْ بِنَفْيِ الْأَحْيَانِ.

وَ﴿حِينَ مَنَاصٍ﴾[3] مَنْصُوبٌ بِهَا، كَأَنَّكَ قُلْتَ: وَلَا حِينَ مَنَاصٍ لَهُمْ. وَعَنْهُ: أَنَّ مَا يَنْتَصِبُ بَعْدَهُ بِفِعْلٍ مُضْمَرٍ، أَيْ: وَلَا أَرَى حِينَ مَنَاصٍ، وَيَرْتَفِعُ بِالِابْتِدَاءِ، أَيْ: وَلَا حِينَ مَنَاصٍ كَائِنٍ لَهُمْ، وَعِنْدَهُمَا أَنَّ: النَّصْبَ عَلَى: وَلَاتَ الْحِينَ حِينَ مَنَاصٍ، أَيْ: وَلَيْسَ الْحِينُ حِينَ مَنَاصٍ، وَالرَّفْعُ عَلَى وَلَاتَ حِينُ مَنَاصٍ حَاصِلًا لَهُمْ. وَقُرِئَ: (حِينَ مَنَاصٍ) بِالْكَسْرِ، وَمِثْلُهُ قَوْلُ أَبِي زُبَيْدٍ الطَّائِيُّ:

طَلَبُوا صُلْحَنَا وَلَاتَ أَوَانُ فَأَجَبْنَا أَنْ لَاتَ حِينَ بَقَاءِ

فَإِنْ قُلْتَ: وَمَا وَجْهُ الْكَسْرِ فِي أَوَانٍ؟

قُلْتُ: شُبِّهَ بِإِذْ فِي قَوْلِهِ: وَأَنْتَ إِذْ صَحِيحٌ، فِي أَنَّهُ زَمَانٌ قُطِعَ مِنْهُ الْمُضَافُ إِلَيْهِ وَعُوِّضَ التَّنْوِينُ، لِأَنَّ الْأَصْلَ: وَلَاتَ أَوَانَ صُلْحٍ.

فَإِنْ قُلْتَ: فَمَا تَقُولُ فِي حِينَ مَنَاصٍ وَالْمُضَافُ إِلَيْهِ قَائِمٌ؟

قُلْتُ: نَزَلَ قَطْعُ الْمُضَافِ إِلَيْهِ مِنْ مَنَاصٍ، لِأَنَّ أَصْلَهُ حِينَ مَنَاصِهِمْ مَنْزِلَةَ قَطْعِهِ مِنْ حِينَ، لِاتِّخَاذِ الْمُضَافِ وَالْمُضَافِ إِلَيْهِ، وَجَعَلَ تَنْوِينَهُ عِوَضًا مِنَ الضَّمِيرِ الْمَحْذُوفِ، ثُمَّ بَنَى الْحِينَ لِكَوْنِهِ مُضَافًا إِلَى غَيْرِ مُتَمَكِّنٍ. وَقُرِئَ: (وَلَاتِ) بِكَسْرِ التَّاءِ عَلَى الْبِنَاءِ، كَجَيْرِ.

فَإِنْ قُلْتَ: كَيْفَ يُوقَفُ عَلَى لَاتَ؟

قُلْتُ: يُوقَفُ عَلَيْهَا بِالتَّاءِ، كَمَا يُوقَفُ عَلَى الْفِعْلِ الَّذِي يَتَّصِلُ بِهِ تَاءُ التَّأْنِيثِ.

وَأَمَّا الْكِسَائِيُّ، فيقِفُ عَلَيْهَا بِالْهَاءِ كَمَا يَقِفُ عَلَى الْأَسْمَاءِ الْمُؤَنَّثَةِ.

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

وَأَمَّا قَوْلُ أَبِي عُبَيْدٍ: إِنَّ التَّاءَ دَاخِلَةٌ عَلَى حِينٍ فَلَا وَجْهَ لَهُ. وَاسْتِشْهَادُهُ بِأَنَّ التَّاءَ مُلْتَزِقَةٌ بِحِينٍ فِي الْإِمَامِ لَا مُتَشَبِّثٌ بِهِ، فَكَمْ وَقَعَتْ فِي الْمُصْحَفِ أَشْيَاءُ خَارِجَةٌ عَنْ قِيَاسِ الْخَطِّ. وَالْمَنَاصُ: الْمَنْجَا وَالْفَوْتُ. يُقَالُ: نَاصَهُ يَنُوصُهُ إِذَا فَاتَهُ، وَاسْتَنَاصَ: طَلَبَ الْمَنَاصَ.

قَالَ حَارِثَةُ بْنُ بَدْرٍ:

غَمْرُ الْجِرَاءِ إِذَا قَصَرْتُ عِنَانَهُ  بِيَدِي اسْتَنَاصَ وَرَامَ جَرْيَ الْمُسْحِلِ

﴿وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾[1]

﴿مُنْذِرٌ مِنْهُمْ﴾[2] رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِهِمْ.

﴿وَقَالَ الْكَافِرُونَ﴾[3] وَلَمْ يَقُلْ: وَقَالُوا: إِظْهَارًا لِلْغَضَبِ عَلَيْهِمْ، وَدَلَالَةً عَلَى أَنَّ هَذَا الْقَوْلَ لَا يَجْسُرُ عَلَيْهِ إِلَّا الْكَافِرُونَ الْمُتَوَغِّلُونَ فِي الْكُفْرِ الْمُنْهَمِكُونَ فِي الْغَيِّ الَّذِينَ قَالَ فِيهِمْ: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا﴾[4].

وَهَلْ تَرَى كُفْرًا أَعْظَمَ وَجَهْلًا أَبْلَغَ مِنْ أَنْ يُسَمُّوا مَنْ صَدَّقَهُ اللَّهُ بِوَحْيِهِ كَاذِبًا، وَيَتَعَجَّبُوا مِنَ التَّوْحِيدِ، وَهُوَ الْحَقُّ الَّذِي لَا يَصِحُّ غَيْرُهُ، وَلَا يَتَعَجَّبُوا مِنَ الشِّرْكِ وَهُوَ الْبَاطِلُ الَّذِي لَا وَجْهَ لِصِحَّتِهِ؟!

رُوِيَ: أَنَّ إِسْلَامَ عُمَرَ –رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى– عَنْهُ فَرِحَ بِهِ الْمُؤْمِنُونَ فَرَحًا شَدِيدًا، وَشَقَّ عَلَى قُرَيْشٍ وَبَلَغَ مِنْهُمْ، فَاجْتَمَعَ خَمْسَةٌ وَعِشْرُونَ نَفْسًا مِنْ صَنَادِيدِهِمْ وَمَشَوْا إِلَى أَبِي طَالِبٍ وَقَالُوا: أَنْتَ شَيْخُنَا وَكَبِيرُنَا، وَقَدْ عَلِمْتَ مَا فَعَلَ هَؤُلَاءِ السُّفَهَاءُ، يُرِيدُونَ: الَّذِينَ دَخَلُوا فِي الْإِسْلَامِ، وَجِئْنَاكَ لِتَقْضِيَ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ابْنِ أَخِيكَ، فَاسْتَحْضَرَ أَبُو طَالِبٍ رَسُولَ اللَّهِ –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– وَقَالَ: يَا ابْنَ أَخِي، هَؤُلَاءِ قَوْمُكَ يَسْأَلُونَكَ السَّوَّالَ، فَلَا تَمِلْ كُلَّ الْمَيْلِ عَلَى قَوْمِكَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: "مَاذَا يَسْأَلُونَنِي؟"، قَالُوا: ارْفُضْنَا وَارْفُضْ ذِكْرَ آلِهَتِنَا وَنَدَعْكَ وَإِلَهَكَ، فَقَالَ –عَلَيْهِ السَّلَامُ–: "أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَعْطَيْتُكُمْ مَا

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

[4] سورة النِّسَاءِ، الآية 151.

سَأَلْتُمْ أَمُعْطِيَّ أَنْتُمْ كَلِمَةً وَاحِدَةً تَمْلِكُونَ بِهَا الْعَرَبَ وَتَدِينُ لَكُمْ بِهَا الْعَجَمُ"؟ فَقَالُوا: نَعَمْ وَعَشْرًا، أَيْ نُعْطِيكَهَا وَعَشْرَ كَلِمَاتٍ مَعَهَا، فَقَالَ: "قُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ"، فَقَامُوا وَقَالُوا: ﴿أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾[1]، أَيْ: بَلِيغٌ فِي الْعَجَبِ. وَقُرِئَ: (عُجَّابٌ) بِالتَّشْدِيدِ، كَقَوْلِهِ -تَعَالَى-: ﴿مَكْرًا كُبَّارًا﴾[2]، وَهُوَ أَبْلَغُ مِنَ الْمُخَفَّفِ. وَنَظِيرُهُ: كَرِيمٌ وَكِرَامٌ وَكُرَّامٌ.

وَقَوْلُهُ: ﴿أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا﴾[3] مِثْلُ قَوْلِهِ: ﴿وَجَعَلُوا الْمَلائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا﴾[4] فِي أَنَّ مَعْنَى الْجَعْلِ التَّصْيِيرُ فِي الْقَوْلِ عَلَى سَبِيلِ الدَّعْوَى وَالزَّعْمِ، كَأَنَّهُ قَالَ: أَجَعَلَ الْجَمَاعَةَ وَاحِدًا فِي قَوْلِهِ، لِأَنَّ ذَلِكَ فِي الْفِعْلِ مُحَالٌ.

﴿وَانْطَلَقَ الْمَلأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلا اخْتِلاقٌ﴾[5]

الْمَلَأُ: أَشْرَافُ قُرَيْشٍ، يُرِيدُ: وَانْطَلَقُوا عَنْ مَجْلِسِ أَبِي طَالِبٍ، بَعْدَ مَا بَكَّتَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وَسَلَّمَ بِالْجَوَابِ الْعَتِيدِ، قَائِلِينَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: ﴿امْشُوا وَاصْبِرُوا﴾[6]، فَلَا حِيلَةَ لَكُمْ فِي دَفْعِ أَمْرِ مُحَمَّدٍ.

﴿إِنَّ هَذَا﴾[7] الْأَمْرَ ﴿لَشَيْءٌ يُرَادُ﴾[8]، أَيْ: يُرِيدُهُ اللَّهُ -تَعَالَى- وَيَحْكُمُ بِإِمْضَائِهِ، وَمَا أَرَادَ اللَّهُ كَوْنَهُ فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَلَا يَنْفَعُ فِيهِ إِلَّا الصَّبْرُ، أَوْ أَنَّ هَذَا الْأَمْرَ لَشَيْءٌ مِنْ نَوَائِبِ الدَّهْرِ يُرَادُ بِنَا فَلَا انْفِكَاكَ لَنَا مِنْهُ، أَوْ أَنَّ دِينَكُمْ لَشَيْءٌ يُرَادُ، أَيْ: يُطْلَبُ لِيُؤْخَذَ مِنْكُمْ وَتُغْلَبُوا عَلَيْهِ.

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة نُوحَ ، الآية 22.

[3] سورة ، الآية .

[4] سورة ]الزُّخْرُفَ، الآية 19.

[5] سورة ، الآية .

[6] سورة ، الآية .

[7] سورة ، الآية .

[8] سورة ، الآية .

وَ"أَنْ" بِمَعْنَى أَيْ، لِأَنَّ الْمُنْطَلِقِينَ عَنْ مَجْلِسِ التَّقَاوُلِ لَا بُدَّ لَهُمْ مِنْ أَنْ يَتَكَلَّمُوا وَيَتَفَاوَضُوا فيمَا جَرَى لَهُمْ، فَكَانَ انْطِلَاقُهُمْ مُضَمَّنًا مَعْنَى الْقَوْلِ، وَيَجُوزُ أَنْ يُرَادَ بِالِانْطِلَاقِ: الِانْدِفَاعُ في الْقَوْلِ، وَأَنَّهُمْ قَالُوا: امْشُوا، أَيْ: أَكْثِرُوا وَاجْتَمِعُوا، مِنْ مَشَتِ الْمَرْأَةُ إِذَا كَثُرَتْ وِلَادَتُهَا. وَمِنْهُ: الْمَاشِيَةُ، لِلتَّفَاؤُلِ، كَمَا قِيلَ لَهَا: الْفَاشِيَةُ. قَالَ رَسُولُ اللَّهِ –صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: "ضُمُّوا فَوَاشِيكُمْ".

وَمَعْنَى: ﴿وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ﴾[1]: وَاصْبِرُوا عَلَى عِبَادَتِهَا وَالتَّمَسُّكِ بِهَا حَتَّى لَا تُزَالُوا عَنْهَا، وَقُرِئَ: (وَانْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمُ امْشُوا) بِغَيْرِ (أَنْ) عَلَى إِضْمَارِ الْقَوْلِ.

وَعَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ: (وَانْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ يَمْشُونَ أَنِ اصْبِرُوا) ﴿فِي الْمِلَّةِ الآخِرَةِ﴾[2] في مِلَّةِ عِيسَى الَّتِي هِيَ آخِرُ الْمِلَلِ، لِأَنَّ النَّصَارَى يَدَّعُونَهَا وَهُمْ مُثَلَّثَةٌ غَيْرُ مُوَحِّدَةٍ. أَوْ في مِلَّةِ قُرَيْشٍ الَّتِي أَدْرَكْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا، أَوْ مَا سَمِعْنَا بِهَذَا كَائِنًا في الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ، عَلَى أَنْ يَجْعَلَ (فى الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ) حَالًا مِنْ هَذَا وَلَا تَعَلُّقُهُ بِمَا سَمِعْنَا كَمَا في الْوَجْهَيْنِ.

وَالْمَعْنَى: أَنَّا لَمْ نَسْمَعْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا مِنَ الْكُهَّانِ أَنَّهُ يَحْدُثُ في الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ تَوْحِيدُ اللَّهِ.

مَا ﴿هَذَا إِلا اخْتِلاقٌ﴾[3]، أَيِ: افْتِعَالٌ وَكَذِبٌ.

﴿أَأُنْزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي بَلْ لَمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ أَمْ لَهُمْ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا فِي الأَسْبَابِ جُنْدٌ مَا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِنَ الأَحْزَابِ﴾[4]

أَنْكَرُوا أَنْ يُخْتَصَّ بِالشَّرَفِ مِنْ بَيْنِ أَشْرَافِهِمْ وَرُؤَسَائِهِمْ وَيَنْزِلُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ، كَمَا قَالُوا: ﴿لَوْلا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾[5]، وَهَذَا الْإِنْكَارُ تَرْجَمَةٌ عَمَّا كَانَتْ تَغْلِي بِهِ صُدُورُهُمْ مِنَ الْحَسَدِ عَلَى مَا أُوتِيَ مِنْ شَرَفِ النُّبُوَّةِ مِنْ بَيْنِهِمْ.

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

[4] سورة ، الآية .

[5] سورة الزُّخْرُفَ، الآية 31.

﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ﴾[1] مِنَ الْقُرْآنِ، يَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ: إِمَّا وَإِمَّا.

وَقَوْلُهُمْ: ﴿إِنْ هَذَا إِلا اخْتِلاقٌ﴾[2] كَلَامٌ مُخَالِفٌ لِاعْتِقَادِهِمْ فِيهِ يَقُولُونَهُ عَلَى سَبِيلِ الْحَسَدِ.

﴿بَلْ لَمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ﴾[3] بَعْدُ، فَإِذَا ذَاقُوهُ زَالَ عَنْهُمْ مَا بِهِمْ مِنَ الشَّكِ وَالْحَسَدِ حِينَئِذٍ، يَعْنِي: أَنَّهُمْ لَا يُصَدِّقُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَمَسَّهُمُ الْعَذَابُ مُضْطَرِّينَ إِلَى تَصْدِيقِهِ.

﴿ أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ﴾[4]، يَعْنِي: مَا هُمْ بِمَالِكِي خَزَائِنِ الرَّحْمَةِ حَتَّى يُصِيبُوا بِهَا مَنْ شَاؤُوا وَيَصْرِفُوهَا عَمَّنْ شَاءُوا، وَيَتَخَيَّرُوا لِلنُّبُوَّةِ بَعْضَ صَنَادِيدِهِمْ، وَيَتَرَفَّعُوا بِهَا عَنْ مُحَمَّدٍ –عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ–. وَإِنَّمَا الَّذِي يَمْلِكُ الرَّحْمَةَ وَخَزَائِنَهَا: الْعَزِيزُ الْقَاهِرُ عَلَى خَلْقِهِ، الْوَهَّابُ الْكَثِيرُ الْمَوَاهِبِ الْمُصِيبُ بِهَا مَوَاقِعَهَا، الَّذِي يُقَسِّمُهَا عَلَى مَا تَقْتَضِيهِ حِكْمَتُهُ وَعَدْلُهُ، كَمَا قَالَ: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا﴾[5].

ثُمَّ رَشَّحَ هَذَا الْمَعْنَى فَقَالَ: ﴿أَمْ لَهُمْ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾[6] حَتَّى يَتَكَلَّمُوا فِي الْأُمُورِ الرَّبَّانِيَّةِ وَالتَّدَابِيرِ الْإِلَهِيَّةِ الَّتِي يَخْتَصُّ بِهَا رَبُّ الْعِزَّةِ وَالْكِبْرِيَاءِ، ثُمَّ تَهَكَّمَ بِهِمْ غَايَةَ التَّهَكُّمِ فَقَالَ: وَإِنْ كَانُوا يَصْلُحُونَ لِتَدْبِيرِ الْخَلَائِقِ وَالتَّصَرُّفِ فِي قِسْمَةِ الرَّحْمَةِ، وَكَانَتْ عِنْدَهُمُ الْحِكْمَةُ الَّتِي يُمَيِّزُونَ بِهَا بَيْنَ مَنْ هُوَ حَقِيقٌ بِإِيتَاءِ النُّبُوَّةِ دُونَ مَنْ لَا تَحِقُّ لَهُ.

﴿فَلْيَرْتَقُوا فِي الأَسْبَابِ﴾[7]: فَلْيَصْعَدُوا فِي الْمَعَارِجِ وَالطُّرُقِ الَّتِي يُتَوَصَّلُ بِهَا إِلَى الْعَرْشِ، حَتَّى يَسْتَوُوا عَلَيْهِ وَيُدَبِّرُوا أَمْرَ الْعَالَمِ وَمَلَكُوتَ اللَّهِ، وَيُنْزِلُوا الْوَحْيَ إِلَى مَنْ يَخْتَارُونَ وَيَسْتَصْوِبُونَ.

ثُمَّ خَسَّأَهُمْ خَسَاءَةً عَنْ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ: ﴿جُنْدٌ مَا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِنَ الأَحْزَابِ﴾[8]، يُرِيدُ: مَا هُمْ إِلَّا جَيْشٌ مِنَ الْكُفَّارِ الْمُتَحَزِّبِينَ عَلَى رُسُلِ اللَّهِ، مَهْزُومٌ مَكْسُورٌ عَمَّا قَرِيبٍ فَلَا تُبَالِ بِمَا يَقُولُونَ، وَلَا تَكْتَرِثْ لِمَا بِهِ يَهْزَءُونَ.

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

[4] سورة ، الآية .

[5] سورة الزُّخْرُفَ، الآية 32.

[6] سورة ، الآية .

[7] سورة ، الآية .

[8] سورة ، الآية .

وَ"مَا" مَزِيدَةٌ، وَفِيهَا مَعْنَى الِاسْتِعْظَامِ، كَمَا فِي قَوْلِ امْرِئِ الْقَيْسِ:

فَحَدِيثٌ مَا عَلَى قِصَرِهْ

إِلَّا أَنَّهُ عَلَى سَبِيلِ الْهَزْءِ وَ"هُنَالِكَ" إِشَارَةٌ إِلَى حَيْثُ وَضَعُوا فِيهِ أَنْفُسَهُمْ مِنَ الِانْتِدَابِ لِمِثْلِ ذَلِكَ الْقَوْلِ الْعَظِيمِ، مِنْ قَوْلِهِمْ لِمَنْ يُنْتَدَبُ لِأَمْرٍ لَيْسَ مِنْ أَهْلِهِ: لَسْتُ هُنَالِكَ.

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ أُولَئِكَ الْأَحْزَابُ إِنْ كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ وَمَا يَنْظُرُ هَؤُلاءِ إِلا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَا لَهَا مِنْ فَوَاقٍ﴾[1]

﴿ذُو الأَوْتَادِ﴾[2] أَصْلُهُ مِنْ ثَبَاتِ الْبَيْتِ الْمُطْنِبِ بِأَوْتَادِهِ.

قَالَ:

وَالْبَيْتُ لَا يُبْتَنَى إِلَّا عَلَى عَمَدٍ وَلَا عِمَادَ إِذَا لَمْ تَرْسُ أَوْتَادُ

فَاسْتُعِيرَ لِثَبَاتِ الْعِزِّ وَالْمُلْكِ وَاسْتِقَامَةِ الْأَمْرِ، كَمَا قَالَ الْأَسْوَدُ[3]:

فِي ظِلِّ مُلْكٍ ثَابِتِ الْأَوْتَادِ

وَقِيلَ: كَانَ يُشْبَحُ الْمُعَذَّبُ بَيْنَ أَرْبَعِ سَوَارٍ، كُلُّ طَرَفٍ مِنْ أَطْرَافِهِ إِلَى سَارِيَةٍ مَضْرُوبٍ فِيهِ وَتَدٌ مِنْ حَدِيدٍ، وَيَتْرُكُهُ حَتَّى يَمُوتَ. وَقِيلَ: كَانَ يَمُدُّهُ بَيْنَ أَرْبَعَةِ أَوْتَادٍ فِي الْأَرْضِ وَيُرْسِلُ عَلَيْهِ الْعَقَارِبَ وَالْحَيَّاتِ. وَقِيلَ: كَانَتْ لَهُ أَوْتَادٌ وَحِبَالٌ يَلْعَبُ بِهَا بَيْنَ يَدَيْهِ

﴿أُولَئِكَ الأَحْزَابُ﴾[4] قَصَدَ بِهَذِهِ الْإِشَارَةِ الْإِعْلَامَ بِأَنَّ الْأَحْزَابَ الَّذِينَ جَعَلَ الْجُنْدَ الْمَهْزُومَ وَمِنْهُمْ هُمْ هُمْ، وَأَنَّهُمْ هُمُ الَّذِينَ وُجِدَ مِنْهُمُ التَّكْذِيبُ.

وَلَقَدْ ذَكَرَ تَكْذِيبَهُمْ أَوَّلًا فِي الْجُمْلَةِ الْخَبَرِيَّةِ عَلَى وَجْهِ الْإِبْهَامِ، ثُمَّ جَاءَ بِالْجُمْلَةِ الِاسْتِئْنَائِيَّةِ فَأَوْضَحَهُ فِيهَا: بِأَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنَ الْأَحْزَابِ كَذَّبَ جَمِيعَ الرُّسُلِ، لِأَنَّهُمْ إِذَا كَذَّبُوا وَاحِدًا مِنْهُمْ فَقَدْ كَذَّبُوهُمْ جَمِيعًا. وَفِي تَكْرِيرِ التَّكْذِيبِ وَإِيضَاحِهِ بَعْدَ إِبْهَامِهِ، وَالتَّنْوِيعِ فِي

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] مِنَ بَحْرِ الْكَامِلِ.

[4] سورة ، الآية .

تَكْرِيرِهِ بِالْجُمْلَةِ الْخَبَرِيَّةِ أَوَّلًا وَبِالِاسْتِئْنَائِيَّةِ ثَانِيًا، وَمَا فِي الِاسْتِئْنَائِيَّةِ مِنَ الْوَضْعِ عَلَى وَجْهِ التَّوْكِيدِ وَالتَّخْصِيصِ أَنْوَاعٌ مِنَ الْمُبَالَغَةِ الْمُسَجَّلَةِ عَلَيْهِمْ بِاسْتِحْقَاقِ أَشَدِّ الْعِقَابِ أَوْ أَبْلَغِهِ.

ثُمَّ قَالَ: ﴿فَحَقَّ عِقَابِ﴾[1]، أَيْ: فَوَجَبَ لِذَلِكَ أَنْ أُعَاقِبَهُمْ حَقَّ عِقَابِهِمْ.

﴿هَؤُلَاءِ﴾[2]: أَهْلُ مَكَّةَ.

وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ إِشَارَةً إِلَى جَمِيعِ الْأَحْزَابِ، لِاسْتِحْضَارِهِمْ بِالذِّكْرِ، أَوْ لِأَنَّهُمْ كَالْحُضُورِ عِنْدَ اللَّهِ. وَالصَّيْحَةُ: النَّفْخَةُ.

﴿مَا لَهَا مِنْ فَوَاقٍ﴾[3]، وَقُرِئَ بِالضَّمِّ: (مَا لَهَا مِنْ تَوَقُّفٍ مِقْدَارَ فَوَاقٍ)، وَهُوَ مَا بَيْنَ حَلْبَتَيِ الْحَالِبِ وَرَضْعَتَيِ الرَّاضِعِ، يَعْنِي: إِذَا جَاءَ وَقْتُهَا لَمْ تَسْتَأْخِرْ هَذَا الْقَدْرَ مِنَ الزَّمَانِ، كَقَوْلِهِ –تَعَالَى–:﴿ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً﴾.[4]

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: مَا لَهَا مِنْ رُجُوعٍ وَتَرْدَادٍ، مِنْ أَفَاقَ الْمَرِيضُ إِذَا رَجَعَ إِلَى الصِّحَّةِ.

وَفَوَاقُ النَّاقَةِ: سَاعَةَ تُرْجِعُ الدَّرَّ إِلَى ضَرْعِهَا، يُرِيدُ: أَنَّهَا نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ فَحَسْبُ لَا تُثَنَّى وَلَا تَرَدُّدَ.

## ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ﴾[5]

الْقِطُّ: الْقِسْطُ مِنَ الشَّيْءِ، لِأَنَّهُ قِطْعَةٌ مِنْهُ، مِنْ قَطَّهُ إِذَا قَطَعَهُ. وَيُقَالُ لِصَحِيفَةِ الْجَائِزَةِ: قِطٌّ، لِأَنَّهَا قِطْعَةٌ مِنَ الْقِرْطَاسِ، وَقَدْ فُسِّرَ بِهِمَا قَوْلُهُ –تَعَالَى–: ﴿عَجِّلْ لَنَا قِطَّنَا﴾[6]، أَيْ: نَصِيبَنَا مِنَ الْعَذَابِ الَّذِي وَعَدْتَهُ، كَقَوْلِهِ –تَعَالَى–: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ﴾[7].

وَقِيلَ: ذَكَرَ رَسُولُ اللَّهِ –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– وَعْدَ اللَّهِ الْمُؤْمِنِينَ بِالْجَنَّةِ، فَقَالُوا عَلَى سَبِيلِ الْهَزْءِ: عَجِّلْ لَنَا نَصِيبَنَا مِنْهَا. أَوْ عَجِّلْ لَنَا صَحِيفَةَ أَعْمَالِنَا نَنْظُرْ فِيهَا.

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

[4] سورة النَّحْل، الآية 61.

[5] سورة ، الآية .

[6] سورة ، الآية .

[7] سورة الْحَجّ، الآية 47.

﴿اصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالإِشْرَاقِ وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ﴾[1]

فَإِنْ قُلْتَ: كَيْفَ تَطَابَقَ قَوْلُهُ: ﴿اصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ﴾[2]، وَقَوْلُهُ: ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ﴾[3] حَتَّى عُطِفَ أَحَدُهُمَا عَلَى صَاحِبِهِ؟

قُلْتُ: كَأَنَّهُ قَالَ لِنَبِيِّهِ -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ-: اصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ، وَعَظِّمْ أَمْرَ مَعْصِيَةِ اللَّهِ فِي أَعْيُنِهِمْ بِذِكْرِ قِصَّةِ دَاوُدَ، وَهُوَ أَنَّهُ نَبِيٌّ مِنْ أَنْبِيَاءِ اللَّهِ -تَعَالَى- قَدْ أَوْلَاهُ مَا أَوْلَاهُ مِنَ النُّبُوَّةِ وَالْمُلْكِ، وَلِكَرَامَتِهِ عَلَيْهِ وَزُلْفَتِهِ لَدَيْهِ، ثُمَّ زَلَّ زَلَّةً فَبَعَثَ إِلَيْهِ الْمَلَائِكَةَ وَوَبَّخَهُ عَلَيْهَا. عَلَى طَرِيقِ التَّمْثِيلِ وَالتَّعْرِيضِ، حَتَّى فَطِنَ لِمَا وَقَعَ فِيهِ فَاسْتَغْفَرَ وَأَنَابَ، وَوَجَدَ مِنْهُ مَا يُحْكَى مِنْ بُكَائِهِ الدَّائِمِ وَغَمِّهِ الْوَاصِبِ، وَنَقَشَ جِنَايَتَهُ فِي بَطْنِ كَفِّهِ حَتَّى لَا يَزَالَ يُجَدِّدُ النَّظَرَ إِلَيْهَا وَالنَّدَمَ عَلَيْهَا، فَمَا الظَّنُّ بِكُمْ مَعَ كُفْرِكُمْ وَمَعَاصِيكُمْ؟ أَوْ قَالَ لَهُ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: اصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ، وَصُنْ نَفْسَكَ وَحَافِظْ عَلَيْهَا أَنْ تَزِلَّ فِيمَا كُلِّفْتَ مِنْ مُصَابَرَتِهِمْ وَتَحَمُّلِ أَذَاهُمْ، وَاذْكُرْ أَخَاكَ دَاوُدَ وَكَرَامَتَهُ عَلَى اللَّهِ كَيْفَ زَلَّ تِلْكَ الزَّلَّةَ الْيَسِيرَةَ، فَلَقِيَ مِنْ تَوْبِيخِ اللَّهِ وَتَظْلِيمِهِ وَنِسْبَتِهِ إِلَى الْبَغْيِ مَا لَقِيَ.

﴿ذَا الأَيْدِ﴾[4] ذَا الْقُوَّةِ فِي الدِّينِ الْمُضْطَلِعَ بِمَشَاقِّهِ وَتَكَالِيفِهِ، كَانَ عَلَى نُهُوضِهِ بِأَعْبَاءِ النُّبُوَّةِ وَالْمُلْكِ يَصُومُ يَوْمًا وَيُفْطِرُ يَوْمًا، وَهُوَ أَشَدُّ الصَّوْمِ، وَيَقُومُ نِصْفَ اللَّيْلِ. يُقَالُ: فُلَانٌ أَيْدٍ، وَذُو أَيْدٍ، وَذُو آدٍ. وَأَيَادٍ كُلُّ شَيْءٍ: مَا يَتَقَوَّى بِهِ.

﴿أَوَّابٌ﴾[5]: تَوَّابٌ رَجَّاعٌ إِلَى مَرْضَاةِ اللَّهِ.

فَإِنْ قُلْتَ: مَا دَلَّكَ عَلَى أَنَّ الْأَيْدَ الْقُوَّةُ فِي الدِّينِ؟

قُلْتُ: قَوْلُهُ -تَعَالَى-: ﴿إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾[6]، لِأَنَّهُ تَعْلِيلٌ لِذِي الْأَيْدِ.

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

[4] سورة ، الآية .

[5] سورة ، الآية .

[6] سورة ، الآية .

"وَالْإِشْرَاقُ" وَقْتُ الْإِشْرَاقِ، وَهُوَ حِينَ تُشْرِقُ الشَّمْسُ، أَيْ: تُضِيءُ وَيَصْفُو شُعَاعُهَا وَهُوَ وَقْتُ الضُّحَى، وَأَمَّا شُرُوقُهَا فَطُلُوعُهَا، يُقَالُ: شَرِقَتِ الشَّمْسُ، وَلَمَّا تُشْرِقُ.

وَعَنْ أُمِّ هَانِئٍ: دَخَلَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فَدَعَا بِوَضُوءٍ فَتَوَضَّأَ ثُمَّ صَلَّى صَلَاةَ الضُّحَى وَقَالَ: "يَا أُمَّ هَانِئٍ هَذِهِ صَلَاةُ الْإِشْرَاقِ".

وَعَنْ طَاوُسٌ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: هَلْ تَجِدُونَ ذِكْرَ صَلَاةِ الضُّحَى فِي الْقُرْآنِ؟ قَالُوا: لَا، فَقَرَأَ: ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالإِشْرَاقِ﴾[1]، وَقَالَ: كَانَتْ صَلَاةً يُصَلِّيهَا دَاوُدُ -عَلَيْهِ السَّلَام-، وَعَنْهُ: مَا عَرَفْتُ صَلَاةَ الضُّحَى إِلَّا بِهَذِهِ الْآيَةِ، وَعَنْهُ: لَمْ يَزَلْ فِي نَفْسِي مِنْ صَلَاةِ الضُّحَى شَيْءٌ حَتَّى طَلَبْتُهَا فَوَجَدْتُهَا بِهَذِهِ الْآيَةِ ﴿يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالإِشْرَاقِ﴾[2]، وَكَانَ لَا يُصَلِّي صَلَاةَ الضُّحَى، ثُمَّ صَلَّاهَا بَعْدُ.

وَعَنْ كَعْبٍ أَنَّهُ قَالَ لِابْنِ عَبَّاسٍ: إِنِّي لَا أَجِدُ فِي كُتُبِ اللَّهِ صَلَاةً بَعْدَ طُلُوعِ الشَّمْسِ، فَقَالَ: أَنَا أُوجِدُكَ ذَلِكَ فِي كِتَابِ اللَّهِ -تَعَالَى-، يَعْنِي هَذِهِ الْآيَةَ.

وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ مِنْ أَشْرَقَ الْقَوْمُ إِذَا دَخَلُوا فِي الشُّرُوقِ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ -تَعَالَى-: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ﴾[3].

وَقَوْلُ أَهْلِ الْجَاهِلِيَّةِ: أَشْرِقْ ثَبِيرُ، وَيُرَادُ وَقْتُ صَلَاةِ الْفَجْرِ لِانْتِهَائِهِ بِالشُّرُوقِ.

وَيُسَبِّحْنَ: فِي مَعْنَى وَمُسَبِّحَاتٍ عَلَى الْحَالِ.

فَإِنْ قُلْتَ: هَلْ مِنْ فَرْقٍ بَيْنَ يُسَبِّحْنَ وَمُسَبِّحَاتٍ؟

قُلْتُ: نَعَمْ، وَمَا اخْتِيرَ يُسَبِّحْنَ عَلَى مُسَبِّحَاتٍ إِلَّا لِذَلِكَ، وَهُوَ الدَّلَالَةُ عَلَى حُدُوثِ التَّسْبِيحِ مِنَ الْجِبَالِ شَيْئًا بَعْدَ شَيْءٍ وَحَالًا بَعْدَ حَالٍ، كَأَنَّ السَّامِعَ مُحَاضِرٌ تِلْكَ الْحَالَ يَسْمَعُهَا تُسَبِّحُ. وَمِثْلُهُ قَوْلُ الْأَعْشَى:

إِلَى ضَوْءِ نَارٍ فِي يَفَاعٍ تَحْرِقُ

وَلَوْ قَالَ: مُحْرِقَةٌ، لَمْ يَكُنْ شَيْئًا.

وَقَوْلُهُ: ﴿مَحْشُورَةً﴾[4] فِي مُقَابَلَةِ: ﴿يُسَبِّحْنَ﴾[5] إِلَّا أَنَّهُ لَمَّا لَمْ يَكُنْ فِي الْحَشْرِ مَا كَانَ فِي التَّسْبِيحِ مِنْ إِرَادَةِ الدَّلَالَةِ عَلَى الْحُدُوثِ شَيْئًا بَعْدَ شَيْءٍ، جِيءَ بِهِ اسْمًا لَا فِعْلًا.

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة الْحِجْرَ، الآية 73.

[4] سورة ، الآية .

[5] سورة ، الآية .

وَذَلِكَ أَنَّهُ لَوْ قِيلَ: وَسَخَّرْنَا الطَّيْرَ يُحْشَرْنَ –عَلَى أَنَّ الْحَشْرَ يُوجَدُ مِنْ حَاشِرِهَا شَيْئًا شَيْءٌ، وَالْحَاشِرُ هُوَ اللَّهُ –عَزَّ وَجَلَّ– لَكَانَ خُلْفًا، لِأَنَّ حَشْرَهَا جُمْلَةً وَاحِدَةً أَدَلُّ عَلَى الْقُدْرَةِ.

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ –رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا– كَانَ إِذَا سَبَّحَ جَاوَبَتْهُ الْجِبَالُ بِالتَّسْبِيحِ، وَاجْتَمَعَا إِلَيْهِ الطَّيْرُ فَسَبَّحَتْ، فَذَلِكَ حَشْرُهَا. وَقُرِئَ: (وَالطَّيْرُ مَحْشُورَةٌ) بِالرَّفْعِ.

﴿كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ﴾[1] كُلُّ وَاحِدٍ مِنَ الْجِبَالِ وَالطَّيْرِ لِأَجْلِدَاوُدَ، أَيْ: لِأَجْلِ تَسْبِيحِهِ مُسَبِّحٌ، لِأَنَّهَا كَانَتْ تُسَبِّحُ بِتَسْبِيحِهِ، وَوُضِعَ الْأَوَّابُ مَوْضِعَ الْمُسَبِّحِ: إِمَّا لِأَنَّهَا كَانَتْ تُرَجِّعُ التَّسْبِيحَ، وَالْمُرَجِّعُ رَجَّاعٌ، لِأَنَّهُ يُرَجِّعُ إِلَى فِعْلِهِ رُجُوعًا بَعْدَ رُجُوعٍ، وَإِمَّا لِأَنَّ الْأَوَّابَ –وَهُوَ التَّوَّابُ الْكَثِيرُ الرُّجُوعِ إِلَى اللَّهِ وَطَلَبِ مَرْضَاتِهِ– مِنْ عَادَتِهِ أَنْ يُكْثِرَ ذِكْرَ اللَّهِ وَيُدِيمَ تَسْبِيحَهُ وَتَقْدِيسَهُ. وَقِيلَ: الضَّمِيرُ لِلَّهِ، أَيْ: كُلٌّ مِنْ دَاوُدَ وَالْجِبَالِ وَالطَّيْرِ لِلَّهِ أَوَّابٌ، أَيْ مُسَبِّحٌ مُرَجِّعٌ لِلتَّسْبِيحِ.

﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ﴾[2] قَوَّيْنَاهُ، قَالَ –تَعَالَى–: ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ﴾[3] وَقُرِئَ: وَ(شَدَّدْنَا) عَلَى الْمُبَالَغَةِ.

قِيلَ: كَانَ يَبِيتُ حَوْلَ مِحْرَابِهِ أَرْبَعُونَ أَلْفَ مُسْتَلْئِمٍ يَحْرُسُونَهُ وَقِيلَ: الَّذِي شَدَّ اللَّهُ بِهِ مُلْكَهُ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِ قَوْمِهِ الْهَيْبَةَ، أَنَّ رَجُلًا ادَّعَى عِنْدَهُ عَلَى آخَرَ بَقَرَةً، وَعَجَزَ عَنْ إِقَامَةِ الْبَيِّنَةِ، فَأَوْحَى اللَّهُ –تَعَالَى– إِلَيْهِ فِي الْمَنَامِ: أَنِ اقْتُلْ الْمُدَّعَى عَلَيْهِ، فَقَالَ: هَذَا مَنَامٌ، فَأُعِيدَ الْوَحْيُ فِي الْيَقَظَةِ، فَأَعْلَمَ الرَّجُلَ، فَقَالَ: إِنَّ اللَّهَ –عَزَّ وَجَلَّ– لَمْ يَأْخُذْنِي بِهَذَا الذَّنْبِ، وَلَكِنْ بِأَنِّي قَتَلْتُ أَبَا هَذَا غِيلَةً، فَقَتَلَهُ، فَقَالَ النَّاسُ: إِنْ أَذْنَبَ أَحَدٌ ذَنْبًا أَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ، فَقَتَلَهُ، فَهَابُوهُ.

﴿الْحِكْمَةَ﴾[4] الزَّبُورَ وَعِلْمَ الشَّرَائِعِ. وَقِيلَ: كُلُّ كَلَامٍ وَافَقَ الْحَقَّ فَهُوَ حِكْمَةٌ.

الْفَصْلُ: التَّمَيُّزُ بَيْنَ الشَّيْئَيْنِ. وَقِيلَ لِلْكَلَامِ الْبَيِّنِ: فَصْلٌ، بِمَعْنَى الْمَفْصُولِ كَضَرْبِ الْأَمِيرِ، لِأَنَّهُمْ قَالُوا: كَلَامٌ مُلْتَبِسٌ، وَفِي كَلَامِهِ لَبْسٌ. وَالْمُلْتَبِسُ: الْمُخْتَلِطُ، فَقِيلَ فِي نَقِيضِهِ: فَصْلٌ، أَيْ: مَفْصُولٌ بَعْضُهُ مِنْ بَعْضٍ، فَمَعْنَى فَصْلِ الْخِطَابِ الْبَيِّنُ مِنَ الْكَلَامِ الْمُلَخَّصُ الَّذِي يَتَبَيَّنُهُ مَنْ يُخَاطَبُ بِهِ لَا يَلْتَبِسَ عَلَيْهِ، وَمِنْ فَصْلِ الْخِطَابِ وَمُلَخَّصِهِ: أَنْ لَا يُخْطِئَ صَاحِبُهُ مَظَانَّ الْفَصْلِ وَالْوَصْلِ، فَلَا يَقِفُ فِي كَلِمَةِ الشَّهَادَةِ عَلَى الْمُسْتَثْنَى مِنْهُ، وَلَا يَتْلُو

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة الْقَصَصَ، الآية 35.

[4] سورة ، الآية .

قَوْلَهُ: ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ﴾[1] إِلَّا مَوْصُولًا بِمَا بَعْدَهُ، وَلَا ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ﴾، حَتَّى يَصِلَهُ بِقَوْلِهِ: ﴿لَا تَعْلَمُونَ﴾[2]، وَنَحْوَ ذَلِكَ، وَكَذَلِكَ مَظَانُّ الْعَطْفِ وَتَرْكُهُ، وَالْإِضْمَارُ وَالْإِظْهَارُ وَالْحَذْفُ وَالتَّكْرَارُ، وَإِنْ شِئْتَ كَانَ الْفَصْلُ بِمَعْنَى الْفَاصِلِ، كَالصَّوْمِ وَالزُّورِ، وَأَرَدْتُ بِفَصْلِ الْخِطَابِ: الْفَاصِلُ مِنَ الْخِطَابِ الَّذِي يَفْصِلُ بَيْنَ الصَّحِيحِ وَالْفَاسِدِ، وَالْحَقِّ وَالْبَاطِلِ، وَالصَّوَابِ وَالْخَطَأِ، وَهُوَ كَلَامُهُ فِي الْقَضَايَا وَالْحُكُومَاتِ، وَتَدَابِيرِ الْمُلْكِ وَالْمَشُورَاتِ.

وَعَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ –رَضِيَ اللهُ عَنْهُ–، وَهُوَ قَوْلُهُ: الْبَيِّنَةُ عَلَى الْمُدَّعِي وَالْيَمِينُ عَلَى الْمُدَّعَى عَلَيْهِ. وَهُوَ مِنَ الْفَصْلِ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ، وَيَدْخُلُ فِيهِ قَوْلُ بَعْضِهِمْ، هُوَ قَوْلُهُ: ﴿أَمَّا بَعْدُ﴾[3]، لِأَنَّهُ يَفْتَتِحُ إِذَا تَكَلَّمَ فِي الْأَمْرِ الَّذِي لَهُ شَأْنٌ بِذِكْرِ اللَّهِ وَتَحْمِيدِهِ، فَإِذَا أَرَادَ أَنْ يَخْرُجَ إِلَى الْغَرَضِ الْمَسُوقِ إِلَيْهِ: فَصَلَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ ذِكْرِ اللَّهِ بِقَوْلِهِ: أَمَّا بَعْدُ.

وَيَجُوزُ أَنْ يُرَادَ الْخِطَابُ الْقَصْدُ الَّذِي لَيْسَ فِيهِ اخْتِصَارٌ مُخِلٌّ وَلَا إِشْبَاعٌ مُمِلٌّ.

وَمِنْهُ مَا جَاءَ فِي صِفَةِ كَلَامِ رَسُولِ اللَّهِ –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: فَصْلٌ لَا نَذْرٌ وَلَا هَذْرٌ.

## ﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَاحْكُمْ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ﴾[4]

كَانَ أَهْلُ زَمَانِ دَاوُدَ –عَلَيْهِ السَّلَامُ– يَسْأَلُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا أَنْ يَنْزِلَ لَهُ عَنِ امْرَأَتِهِ فَيَتَزَوَّجَهَا إِذَا أَعْجَبَتْهُ، وَكَانَتْ لَهُمْ عَادَةٌ فِي الْمُوَاسَاةِ بِذَلِكَ قَدِ اعْتَادُوهَا.

وَقَدْ رَوَيْنَا أَنَّ الْأَنْصَارَ كَانُوا يُوَاسُونَ الْمُهَاجِرِينَ بِمِثْلِ ذَلِكَ، فَاتَّفَقَ أَنَّ عَيْنَ دَاوُدَ وَقَعَتْ عَلَى امْرَأَةِ رَجُلٍ يُقَالُ لَهُ أُورِيَا، فَأَحَبَّهَا، فَسَأَلَهُ النُّزُولَ لَهُ عَنْهَا، فَاسْتَحْيَا أَنْ يَرُدَّهُ فَفَعَلَ، فَتَزَوَّجَهَا، وَهِيَ أُمُّ سُلَيْمَانَ، فَقِيلَ لَهُ: إِنَّكَ مَعَ عِظَمِ مَنْزِلَتِكَ وَارْتِفَاعِ مَرْتَبَتِكَ وَكِبَرِ شَأْنِكَ وَكَثْرَةِ نِسَائِكَ لَمْ يَكُنْ يَنْبَغِي لَكَ أَنْ تَسْأَلَ رَجُلًا لَيْسَ لَهُ إِلَّا امْرَأَةٌ وَاحِدَةٌ

---

[1] سورة الْمَاعُونَ، الآية 4.

[2] سورة الْبَقَرَةَ، الآية 232.

[3] سورة ، الآية .

[4] سورة ، الآية .

النُّزُولَ، بَلْ كَانَ الْوَاجِبُ عَلَيْكَ مُغَالَبَةَ هَوَاكَ وَقَهْرَ نَفْسِكَ وَالصَّبْرَ عَلَى مَا امْتُحِنْتَ بِهِ. وَقِيلَ: خَطَبَهَا أُورِيَا ثُمَّ خَطَبَهَا دَاوُدُ، فَآثَرَهُ أَهْلُهَا، فَكَانَ ذَنْبُهُ أَنْ خَطَبَ عَلَى خِطْبَةِ أَخِيهِ الْمُؤْمِنِ، مَعَ كَثْرَةِ نِسَائِهِ.

وَأَمَّا مَا يُذْكَرُ أَنَّ دَاوُدَ -عَلَيْهِ السَّلَام- تَمَنَّى مَنْزِلَةَ آبَائِهِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ فَقَالَ: يَا رَبِّ إِنَّ آبَائِي قَدْ ذَهَبُوا بِالْخَيْرِ كُلِّهِ، فَأَوْحَى إِلَيْهِ: إِنَّهُمُ ابْتُلُوا بِبَلَايَا فَصَبَرُوا عَلَيْهَا، قَدِ ابْتُلِيَ إِبْرَاهِيمُ بِنَمْرُوذَ وَذَبْحِ وَلَدِهِ، وَإِسْحَاقَ بِذَبْحِهِ وَذَهَابِ بَصَرِهِ، وَيَعْقُوبَ بِالْحُزْنِ عَلَى يُوسُفَ، فَسَأَلَ الِابْتِلَاءَ فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ: إِنَّكَ لَمُبْتَلَى فِي يَوْمِ كَذَا وَكَذَا، فَاحْتَرِسْ، فَلَمَّا حَانَ ذَلِكَ الْيَوْمُ دَخَلَ مِحْرَابَهُ وَأَغْلَقَ بَابَهُ وَجَعَلَ يُصَلِّي وَيَقْرَأُ الزَّبُورَ، فَجَاءَهُ الشَّيْطَانُ فِي صُورَةِ حَمَامَةٍ مِنْ ذَهَبٍ، فَمَدَّ يَدَهُ لِيَأْخُذَهَا لِابْنٍ لَهُ صَغِيرٍ، فَطَارَتْ، فَامْتَدَّ إِلَيْهَا، فَطَارَتْ فَوَقَعَتْ فِي كُوَّةٍ، فَتَبِعَهَا، فَأَبْصَرَ امْرَأَةً جَمِيلَةً قَدْ نَقَضَتْ شَعْرَهَا فَغَطَّى بَدَنَهَا، وَهِيَ امْرَأَةُ أُورِيَا وَهُوَ مِنْ غَزَاةِ الْبَلْقَاءِ، فَكَتَبَ إِلَى أَيُّوبَ بْنِ صُورِيَا وَهُوَ صَاحِبُ بَعْثِ الْبَلْقَاءِ. أَنِ ابْعَثْ أُورِيَا وَقَدِّمْهُ عَلَى التَّابُوتِ، وَكُلُّ مَنْ يَتَقَدَّمُ عَلَى التَّابُوتِ لَا يَحِلُّ لَهُ أَنْ يَرْجِعَ حَتَّى يَفْتَحَ اللَّهُ عَلَى يَدِهِ أَوْ يُسْتَشْهَدَ، فَفَتَحَ اللَّهُ عَلَى يَدِهِ وَسَلِمَ، فَأَمَرَ بِرَدِّهِ مَرَّةً أُخْرَى، وَثَالِثَةً، حَتَّى قُتِلَ، فَأَتَاهُ خَبَرُ قَتْلِهِ فَلَمْ يَحْزَنْ كَمَا كَانَ يَحْزَنُ عَلَى الشُّهَدَاءِ، وَتَزَوَّجَ امْرَأَتَهُ.

فَهَذَا وَنَحْوُهُ مِمَّا يَقْبُحُ أَنْ يُحَدَّثَ بِهِ عَنْ بَعْضِ الْمُتَّسِمِينَ بِالصَّلَاحِ مِنْ أَفْنَاءِ الْمُسْلِمِينَ فَضْلًا عَنْ بَعْضِ أَعْلَامِ الْأَنْبِيَاءِ.

وَعَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ وَالْحَرْثِ الْأَعْوَرِ أَنَّ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ -رَضِيَ الله عَنْهُ- قَالَ: مَنْ حَدَّثَكُمْ بِحَدِيثِ دَاوُدَ عَلَى مَا يَرْوِيهِ الْقُصَّاصُ جِلْدْتُهُ مِائَةً وَسِتِّينَ، وَهُوَ حَدُّ الْفِرْيَةِ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ.

وَرُوِيَ أَنَّهُ حُدِّثَ بِذَلِكَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ وَعِنْدَهُ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْحَقِّ، فَكَذَّبَ الْمُحَدَّثُ بِهِ، وَقَالَ: إِنْ كَانَتِ الْقِصَّةُ عَلَى مَا فِي كِتَابِ اللَّهِ فَمَا يَنْبَغِي أَنْ يُلْتَمَسَ خِلَافُهَا، وَأَعْظَمَ بِأَنْ يُقَالَ غَيْرُ ذَلِكَ، وَإِنْ كَانَتْ عَلَى مَا ذَكَرْتَ وَكَفَّ اللَّهُ عَنْهَا سِتْرًا عَلَى نَبِيِّهِ فَمَا يَنْبَغِي إِظْهَارُهَا عَلَيْهِ، فَقَالَ عُمَرُ: لِسَمَاعِي هَذَا الْكَلَامِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ.

وَالَّذِي يَدُلُّ عَلَيْهِ الْمَثَلُ الَّذِي ضَرَبَهُ اللَّهُ لِقِصَّتِهِ -عَلَيْهِ السَّلَام- لَيْسَ إِلَّا طَلَبُهُ إِلَى زَوْجِ الْمَرْأَةِ أَنْ يَنْزِلَ لَهُ عَنْهَا فَحَسْبُ.

فَإِنْ قُلْتَ: لِمَ جَاءَتْ عَلَى طَرِيقَةِ التَّمْثِيلِ وَالتَّعْرِيضِ دُونَ التَّصْرِيحِ؟

قُلْتُ: لِكَوْنِهَا أَبْلَغَ فِي التَّوْبِيخِ، مِنْ قِبَلِ أَنَّ التَّأَمُّلَ إِذَا أَدَّاهُ إِلَى الشُّعُورِ بِالْمُعَرَّضِ بِهِ، كَانَ أَوْقَعَ فِي نَفْسِهِ، وَأَشَدَّ تَمَكُّنًا مِنْ قَلْبِهِ، وَأَعْظَمَ أَثَرًا فِيهِ، وَأَجْلَبَ لِاحْتِشَامِهِ وَحَيَائِهِ، وَأَدْعَى إِلَى التَّنَبُّهِ عَلَى الْخَطَأِ فِيهِ مِنْ أَنْ يُبَادِرَهُ بِهِ صَرِيحًا، مَعَ مُرَاعَاةِ حُسْنِ الْأَدَبِ بِتَرْكِ الْمُجَاهَرَةِ، أَلَا تَرَى إِلَى الْحُكَمَاءِ كَيْفَ أَوْصَوْا فِي سِيَاسَةِ الْوَلَدِ إِذَا وُجِدَتْ مِنْهُ هَنَةً مُنْكَرَةً بِأَنْ يَعْرِضَ لَهُ بِإِنْكَارٍ عَلَيْهِ وَلَا يُصَرِّحَ، وَأَنْ تُحْكَى لَهُ حِكَايَةٌ مُلَاحَظَةٌ لِحَالِهِ إِذَا تَأَمَّلَهَا اسْتَسْمَجَ حَالَ صَاحِبِ الْحِكَايَةِ فَاسْتَسْمَجَ حَالَ نَفْسِهِ، وَذَلِكَ أَزْجَرُ لَهُ، لِأَنَّهُ يَنْصَبُّ ذَلِكَ مِثَالًا لِحَالِهِ وَمِقْيَاسًا لِشَأْنِهِ، فيتَصَوَّرُ قُبْحَ مَا وُجِدَ مِنْهُ بِصُورَةٍ مَكْشُوفَةٍ، مَعَ أَنَّهُ أَصَوْنُ لِمَا بَيْنَ الْوَالِدِ وَالْوَلَدِ مِنْ حِجَابِ الْحِشْمَةِ.

فَإِنْ قُلْتَ: فَلِمَ كَانَ ذَلِكَ عَلَى وَجْهِ التَّحَاكُمِ إِلَيْهِ؟

قُلْتُ: لِيَحْكُمَ بِمَا حَكَمَ بِهِ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ﴾[1]، حَتَّى يَكُونَ مَحْجُوجًا بِحُكْمِهِ وَمُعْتَرِفًا عَلَى نَفْسِهِ بِظُلْمِهِ.

﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ﴾[2] ظَاهِرُهُ الِاسْتِفْهَامُ، وَمَعْنَاهُ: الدَّلَالَةُ عَلَى أَنَّهُ مِنَ الْأَنْبَاءِ الْعَجِيبَةِ الَّتِي حَقُّهَا أَنْ تَشِيعَ وَلَا تَخْفى عَلَى أَحَدٍ، وَالتَّشْوِيقُ إِلَى اسْتِمَاعِهِ، وَالْخَصْمُ: الْخُصَمَاءُ، وَهُوَ يَقَعُ عَلَى الْوَاحِدِ وَالْجَمْعِ، كَالضَّيْفِ. قَالَ اللَّهُ –تَعَالَى–: ﴿حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ﴾[3]، لِأَنَّهُ مَصْدَرٌ فِي أَصْلِهِ، تَقُولُ: خَصَمَهُ خَصْمًا، كَمَا تَقُولُ: ضَافَهُ ضَيْفًا.

فَإِنْ قُلْتَ: هَذَا جَمْعٌ، وَقَوْلُهُ: ﴿خَصْمَانِ﴾[4] تَثْنِيَةٌ، فَكَيْفَ اسْتَقَامَ ذَلِكَ؟

قُلْتُ: مَعْنَى خَصْمَانِ: فَرِيقَانِ خَصْمَانِ، وَالدَّلِيلُ عَلَيْهِ قِرَاءَةِ مَنْ قَرَأَ: خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ، وَنَحْوُهُ قَوْلُهُ –تَعَالَى–: ﴿هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ﴾[5].

فَإِنْ قُلْتَ: فَمَا تَصْنَعُ بِقَوْلِهِ: ﴿إِنَّ هَذَا أَخِي﴾[6]، وَهُوَ دَلِيلٌ عَلَى اثْنَيْنِ؟

قُلْتُ: هَذَا قَوْلُ الْبَعْضِ، الْمُرَادُ بِقَوْلِهِ: بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ.

فَإِنْ قُلْتَ: فَقَدْ جَاءَ فِي الرِّوَايَةِ أَنَّهُ بَعَثَ إِلَيْهِ مَلَكَانِ.

---

[1] سورة ص، الآية 24.

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة الذَّارِيَاتِ، الآية 24.

[4] سورة ، الآية .

[5] سورة الْحَجِّ، الآية 19.

[6] سورة ص، الآية 23 و ص 254.

قُلْتُ: مَعْنَاهُ أَنَّ التَّحَاكُمَ كَانَ بَيْنَ مَلَكَيْنِ، وَلَا يَمْنَعُ ذَلِكَ أَنْ يَصْحَبَهُمَا آخَرُونَ.

فَإِنْ قُلْتَ: فَإِذَا كَانَ التَّحَاكُمُ بَيْنَ اثْنَيْنِ كَيْفَ سَمَّاهُمْ جَمِيعًا خِصْمًا فِي قَوْلِهِ: ﴿نَبَأُ الْخَصْمِ﴾[1] وَ﴿خَصْمَانِ﴾[2]؟

قُلْتُ: لَمَّا كَانَ صَحِبَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنَ الْمُتَحَاكِمَيْنِ فِي صُورَةِ الْخَصْمِ صَحَّتِ التَّسْمِيَةُ بِهِ.

فَإِنْ قُلْتَ: بِمَ انْتَصَبَ "إِذْ"؟

قُلْتُ: لَا يَخْلُو إِمَّا أَنْ يَنْتَصِبَ بِأَتَاكَ، أَوْ بِالنَّبَأِ، أَوْ بِمَحْذُوفٍ، فَلَا يَسُوغُ انْتِصَابُهُ بِأَتَاكَ، لِأَنَّ إِتْيَانَ النَّبَأِ رَسُولُ اللَّهِ –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– لَا يَقَعُ إِلَّا فِي عَهْدِهِ لَا فِي عَهْدِ دَاوُدَ، وَلَا بِالنَّبَأِ، لِأَنَّ النَّبَأَ الْوَاقِعَ فِي عَهْدِ دَاوُدَ لَا يَصِحُّ إِتْيَانُهُ رَسُولُ اللَّهِ –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–.

وَإِنْ أَرَدْتَ بِالنَّبَأِ: الْقِصَّةَ فِي نَفْسِهَا لَمْ يَكُنْ نَاصِبًا، فَبَقِيَ أَنْ يَنْتَصِبَ بِمَحْذُوفٍ، وَتَقْدِيرُهُ: وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ تَحَاكُمِ الْخَصْمِ.

وَيَجُوزُ أَنْ يَنْتَصِبَ بِالْخَصْمِ لِمَا فِيهِ مِنْ مَعْنَى الْفِعْلِ، وَأَمَّا إِذِ الثَّانِيَةُ فَبَدَلٌ مِنَ الْأُولَى.

﴿تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ﴾[3]: تَصْعَدُوا سُورَهُ وَنَزَلُوا إِلَيْهِ، وَالسُّورُ: الْحَائِطُ الْمُرْتَفِعُ وَنَظِيرُهُ فِي الْأَبْنِيَةِ: تَسَنُّمُهُ، إِذْ عَلَا سَنَامُهُ، وَتَذَرَّاهُ: إِذَا عَلَا ذُرْوَتَهُ.

رُوِيَ: أَنَّ اللَّهَ –تَعَالَى– بَعَثَ إِلَيْهِ مَلَكَيْنِ فِي صُورَةِ إِنْسَانَيْنِ، فَطَلَبَا أَنْ يَدْخُلَا عَلَيْهِ، فَوَجَدَاهُ فِي يَوْمِ عِبَادَتِهِ، فَمَنَعَهُمَا الْحَرَسُ فَتَسَوَّرَا عَلَيْهِ الْمِحْرَابَ، فَلَمْ يَشْعُرْ إِلَّا وَهُمَا بَيْنَ يَدَيْهِ جَالِسَانِ ﴿فَفَزِعَ مِنْهُمْ﴾[4].

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: إِنَّ دَاوُدَ –عَلَيْهِ السَّلَامُ– جَزَّأَ زَمَانَهُ أَرْبَعَةَ أَجْزَاءٍ: يَوْمًا لِلْعِبَادَةِ، وَيَوْمًا لِلْقَضَاءِ، وَيَوْمًا لِلِاشْتِغَالِ بِخَوَاصِّ أُمُورِهِ، وَيَوْمًا يَجْمَعُ بَنِي إِسْرَائِيلَ فَيَعِظُهُمْ وَيُبْكِيهِمْ، فَجَاءُوهُ فِي غَيْرِ يَوْمِ الْقَضَاءِ فَفَزِعَ مِنْهُمْ، وَلِأَنَّهُمْ نَزَلُوا عَلَيْهِ مِنْ فَوْقٍ، وَفِي يَوْمِ الِاحْتِجَابِ، وَالْحَرَسُ حَوْلَهُ لَا يَتْرُكُونَ مَنْ يَدْخُلُ عَلَيْهِ "خَصْمَانِ" خَبَرُ مُبْتَدَأٍ مَحْذُوفٍ، أَيْ: نَحْنُ خَصْمَانِ

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

[4] سورة ، الآية .

﴿وَلا تُشْطِطْ﴾[1]: وَلَا تَجُرْ. وَقُرِئَ: (وَلَا تُشْطِطْ)، أَيْ: وَلَا تَبْعُدْ عَنِ الْحَقِّ. وَقُرِئَ: (وَلَا تَشْطِطْ)، (وَلَا تُشَاطِطْ)، وَكُلُّهَا مِنْ مَعْنَى الشَّطَطِ: وَهُوَ مُجَاوَزَةُ الْحَدِّ وَتَخَطِّي الْحَقِّ.

وَ﴿سَوَاءِ الصِّرَاطِ﴾[2]: وَسَطُهُ وَمَحَجَّتُهُ، ضَرْبُهُ مَثَلًا لِعَيْنِ الْحَقِّ وَمَحْضِهِ.

## ﴿إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ﴾[3]

﴿أَخِي﴾[4] بَدَلٌ مِنْ هَذَا، أَوْ خَبَرٌ لـ "أَنَّ"، وَالْمُرَادُ أُخُوَّةُ الدِّينِ، أَوْ أُخُوَّةُ الصَّدَاقَةِ وَالْأُلْفَةِ، أَوْ أُخُوَّةُ الشَّرِكَةِ وَالْخُلْطَةِ، لِقَوْلِهِ –تَعَالَى–: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْخُلَطَاءِ﴾[5] كُلُّ وَاحِدَةٍ مِنْ هَذِهِ الْأَخَوَاتِ تُدْلِي بِحَقٍّ مَانِعٍ مِنَ الِاعْتِدَاءِ وَالظُّلْمِ. وَقُرِئَ: (تِسَعٌ وَتِسْعُونَ)، بِفَتْحِ التَّاءِ. و(نِعْجَةٌ) بِكَسْرِ النُّونِ، وَهَذَا مِنِ اخْتِلَافِ اللُّغَاتِ، نَحْوُ نُطِعْ وَنُطِعْ، وَلَقْوَةٌ وَلِقْوَةٌ.

﴿أَكْفِلْنِيهَا﴾[6]: مَلِّكْنِيهَا. وَحَقِيقَتُهُ: اجْعَلْنِي أَكْفُلُهَا كَمَا أَكْفُلُ مَا تَحْتَ يَدِي.

﴿وَعَزَّنِي﴾[7]: وَغَلَبَنِي، يُقَالُ: عَزَّهُ يَعُزُّهُ.

قَالَ:

قَطَاةٌ عَزَّهَا شَرَكٌ فَبَاتَتْ تُجَاذِبُهُ وَقَدْ عَلِقَ الْجَنَـــاحُ

يُرِيدُ: جَاءَنِي بِحُجَّاجٍ لَمْ أَقْدِرْ أَنْ أُورِدَ عَلَيْهِ مَا أَرُدُّهُ بِهِ.

وَأَرَادَ بِالْخِطَابِ: مُخَاطَبَةَ الْمُحَاجِّ الْمُجَادِلِ، أَوْ أَرَادَ: خُطِبَتِ الْمَرْأَةُ وَخَطَبَهَا هُوَ فَخَاطَبَنِي خِطَابًا، أَيْ: غَالَبَنِي فِي الْخُطْبَةِ فَغَلَبَنِي، حَيْثُ زُوِّجَهَا دُونِي، وَقُرِئَ: (وَعَازَنِي) مِنَ الْمُعَازَةِ وَهِيَ الْمُغَالَبَةُ. وَقَرَأَ أَبُو حَيْوَةَ: (وَعَزَّنِي) بِتَخْفِيفِ الزَّايِ طَلَبًا لِلْخِفَّةِ، وَهُوَ تَخْفِيفٌ غَرِيبٌ، وَكَأَنَّهُ قَاسَهُ عَلَى نَحْوِ: ظَلْتُ، وَمَسْتُ.

فَإِنْ قُلْتَ: مَا مَعْنَى ذِكْرِ النِّعَاجِ؟

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

[4] سورة ، الآية .

[5] سورة ص، الآية 24.

[6] سورة ، الآية .

[7] سورة ، الآية .

قُلْتُ: كَأَنْ تُحَاكِمَهُمْ فِي نَفْسِهِ تَمْثِيلًا وَكَلَامَهُمْ تَمْثِيلًا، لِأَنَّ التَّمْثِيلَ أَبْلَغُ فِي التَّوْبِيخِ، لِمَا ذَكَرْنَا، وَلِلتَّنْبِيهِ عَلَى أَمْرٍ يُسْتَحَيَا مِنْ كَشْفِهِ، فيكَنَّى عَنْهُ كَمَا يُكَنَّى عَمَّا يُسْتَحْيَا الْإِفْصَاحُ بِهِ، وَلِلسَّتْرِ عَلَى دَاوُدَ –عَلَيْهِ السَّلَام– وَالِاحْتِفَاظِ بِحُرْمَتِهِ.

وَوَجْهُ التَّمْثِيلِ فِيهِ: أَنْ مُثِّلَتْ قِصَّةُ أُورِيَا مَعَ دَاوُدَ بِقِصَّةِ رَجُلٍ لَهُ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ وَلِخَلِيطِهِ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ، فَأَرَادَ صَاحِبُهُ تَتِمَّةَ الْمِائَةِ فَطَمِعَ فِي نَعْجَةِ خَلِيطِهِ وَأَرَادَهُ عَلَى الْخُرُوجِ مِنْ مِلْكِهَا إِلَيْهِ، وَحَاجَّهُ فِي ذَلِكَ مُحَاجَّةَ حَرِيصٍ عَلَى بُلُوغِ مُرَادِهِ. وَالدَّلِيلُ عَلَيْهِ قَوْلُهُ : ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْخُلَطَاءِ﴾[1].

وَإِنَّمَا خَصَّ هَذِهِ الْقِصَّةَ لِمَا فيها مِنَ الرَّمْزِ إِلَى الْغَرَضِ بِذِكْرِ النَّعْجَةِ.

فَإِنْ قُلْتَ: إِنَّمَا يَسْتَقِيمُ طَرِيقَةُ التَّمْثِيلِ إِذَا فَسَّرَتِ الْخِطَابَ بِالْجِدَالِ، فَإِنْ فَسَّرَتْهُ بِالْمُفَاعَلَةِ مِنَ الْخُطْبَةِ لَمْ يَسْتَقِمْ.

قُلْتُ: الْوَجْهُ مَعَ هَذَا التَّفْسِيرِ أَنْ أَجْعَلَ النَّعْجَةَ اسْتِعَارَةً عَنِ الْمَرْأَةِ، كَمَا اسْتَعَارُوا لَهَا الشَّاةَ فِي نَحْوِ قَوْلِهِ:

يَا شَاةُ مَا قَنَصٌ لِمَنْ حَلَّتْ لَهُ

[وقوله:]

فَرَمَيْتُ غَفْلَةَ عَيْنِهِ عَنْ شَاتِـــــهِ

وَشَبَّهَهَا بِالنَّعْجَةِ مَنْ قَالَ:

كَنِعَاجِ الْفَلَا تَعَسَّفْنَ رَمْـــــــلَا

لَوْلَا أَنَّ الْخُلَطَاءَ تَأْبَاهُ، إِلَّا أَنْ يَضْرِبَ دَاوُدُ الْخُلَطَاءَ ابْتِدَاءً مَثَلًا لَهُمْ وَلِقِصَّتِهِمْ.

فَإِنْ قُلْتَ: الْمَلَائِكَةُ –عَلَيْهِمُ السَّلَامُ– كَيْفَ صَحَّ مِنْهُمْ أَنْ يُخْبِرُوا عَنْ أَنْفُسِهِمْ بِمَا لَمْ يَلْتَبِسُوا مِنْهُ بِقَلِيلٍ وَلَا كَثِيرٍ وَلَا هُوَ مِنْ شَأْنِهِمْ؟

قُلْتُ: هُوَ تَصْوِيرٌ لِلْمَسْأَلَةِ وَفَرْضٌ لَهَا، فَصَوَّرُوهَا فِي أَنْفُسِهِمْ وَكَانُوا فِي صُورَةِ الْأَنَاسِيِّ، كَمَا تَقُولُ فِي تَصْوِيرِ الْمَسَائِلِ: زَيْدٌ لَهُ أَرْبَعُونَ شَاةً، وَعَمْرٌ لَهُ أَرْبَعُونَ، وَأَنْتَ تُشِيرُ إِلَيْهِمَا، فَخَلَطَاهَا وَحَالَ عَلَيْهِ الْحَوْلُ، كَمْ يَجِبُ فيها؟ وَمَا لِزَيْدٍ وَعَمْرٍو سِبَدٌ وَلَا لِبَدٌ وَتَقُولُ أَيْضًا فِي تَصْوِيرِهَا: لِي أَرْبَعُونَ شَاةً وَأَرْبَعُونَ فَخَلَطْنَاهَا. وَمَا لَكُمَا مِنَ الْأَرْبَعِينَ أَرْبَعَةٌ وَلَا رُبْعُهَا.

فَإِنْ قُلْتَ: مَا وَجْهُ قِرَاءَةِ ابْنِ مَسْعُودٍ: (وَلِي نَعْجَةٌ أُنْثَى)؟

---

[1] سورة ص، الآية 24.

قُلْتُ: يُقَالُ لَكَ: امْرَأَةٌ أُنْثَى لِلْحَسْنَاءِ الْجَمِيلَةِ.

وَالْمَعْنَى: وَصْفُهَا بِالْعَرَاقَةِ فِي لِينِ الْأُنُوثَةِ وَفُتُورِهَا، وَذَلِكَ أَمْلَحُ لَهَا وَأَزْيَدُ فِي تَكَسُّرِهَا وَتَثَنِّيهَا. أَلَا تَرَى إِلَى وَصْفِهِمْ لَهَا بِالْكَسُولِ وَالْمِكْسَالِ.

وَقَوْلُهُ:

فَتُورُ الْقِيَامِ قَطُوعُ الْكَلَامِ

وَقَوْلُهُ:

تَمْشِي رُوَيْدًا تَكَادُ تَنْغَرِفُ

﴿قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ﴾[1]

﴿لَقَدْ ظَلَمَكَ﴾[2]: جَوَابُ قَسَمٍ مَحْذُوفٍ. وَفِي ذَلِكَ اسْتِنْكَارٌ لِفِعْلِ خَلِيطِهِ وَتَهْجِينٌ لِطَمَعِهِ، وَالسُّؤَالُ: مَصْدَرٌ مُضَافٌ إِلَى الْمَفْعُولِ، كَقَوْلِهِ –تَعَالَى–:﴿ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ﴾[3]، وَقَدْ ضَمَّنَ مَعْنَى الْإِضَافَةِ فَعَدَّى تَعْدِيَتَهَا، كَأَنَّهُ قِيلَ بِإِضَافَةِ: ﴿نَعْجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ﴾[4] عَلَى وَجْهِ السُّؤَالِ وَالطَّلَبِ.

فَإِنْ قُلْتَ: كَيْفَ سَارَعَ إِلَى تَصْدِيقِ أَحَدِ الْخِصْمَيْنِ حَتَّى ظُلِمَ الْآخَرُ قَبْلَ اسْتِمَاعِ كَلَامِهِ؟

قُلْتُ: مَا قَالَ ذَلِكَ إِلَّا بَعْدَ اعْتِرَافِ صَاحِبِهِ، لَكِنَّهُ لَمْ يُحْكَ فِي الْقُرْآنِ، لِأَنَّهُ مَعْلُومٌ.

وَيُرْوَى أَنَّهُ قَالَ: أَنَا أُرِيدُ أَنْ آخُذَهَا مِنْهُ وَأُكْمِلَ نِعَاجِي مِائَةً، فَقَالَ دَاوُدُ :إِنَّ رُمْتَ ذَلِكَ ضَرَبْنَا مِنْكَ هَذَا وَهَذَا، وَأَشَارَ إِلَى طَرَفِ الْأَنْفِ وَالْجَبْهَةِ، فَقَالَ: يَا دَاوُدُ أَنْتَ أَحَقُّ أَنْ

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة فُصِّلَتْ، الآية 49.

[4] سورة ، الآية .

يَضْرِبَ مِنْكَ هَذَا وَهَذَا، وَأَنْتَ فَعَلْتَ كَيْتَ وَكَيْتَ، ثُمَّ نَظَرَ دَاوُدُ فَلَمْ يَرَ أَحَدًا، فَعَرَفَ مَا وَقَعَ فِيهِ.

وَ"الْخُلَطَاءُ" الشُّرَكَاءُ الَّذِينَ خَلَطُوا أَمْوَالَهُمْ، الْوَاحِدُ: خَلِيطٌ، وَهِيَ الْخَلْطَةُ، وَقَدْ غَلَبَتْ فِي الْمَاشِيَةِ، وَالشَّافِعِيُّ -رَحِمَهُ اللَّهُ- يَعْتَبِرُهَا، فَإِذَا كَانَ الرَّجُلَانِ خَلِيطَيْنِ فِي مَاشِيَةٍ بَيْنَهُمَا غَيْرَ مَقْسُومَةٍ، أَوْ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مَاشِيَةٌ عَلَى حِدَةٍ إِلَّا أَنَّ مَرَاحَهُمَا وَمَسَاقَهُمَا وَمَوْضِعَ حَلْبِهِمَا وَالرَّاعِي وَالْكَلْبَ وَاحِدٌ وَالْفُحُولَةُ مُخْتَلِطَةٌ، فَهُمَا يُزَكِّيَانِ زَكَاةَ الْوَاحِدِ، فَإِنْ كَانَ لَهُمَا أَرْبَعُونَ شَاةً فَعَلَيْهِمَا شَاةٌ، وَإِنْ كَانُوا ثَلَاثَةً وَلَهُمْ مِائَةٌ وَعِشْرُونَ لِكُلِّ وَاحِدٍ وَأَرْبَعُونَ، فَعَلَيْهِمْ وَاحِدَةٌ كَمَا لَوْ كَانَتْ لِوَاحِدٍ.

وَعِنْدَ أَبِي حَنِيفَةَ: لَا تَعْتَبِرُ الْخُلْطَةَ، وَالْخَلِيطُ وَالْمُنْفَرِدُ عِنْدَهُ وَاحِدٌ، فَفِي أَرْبَعِينَ بَيْنَ خَلِيطَيْنِ، لَا شَيْءَ عِنْدَهُ، وَفِي مِائَةٍ وَعِشْرِينَ بَيْنَ ثَلَاثَةٍ: ثَلَاثُ شِيَاهٍ.

فَإِنْ قُلْتَ: فَهَذِهِ الْخُلْطَةُ مَا تَقُولُ فِيهَا؟

قُلْتُ: عَلَيْهِمَا شَاةٌ وَاحِدَةٌ، فَيجِبُ عَلَى ذِي النَّعْجَةِ أَدَاءُ جُزْءٍ مِنْ مِائَةِ جُزْءٍ مِنَ الشَّاةِ عِنْدَ الشَّافِعِيِّ -رَحِمَهُ اللَّهُ-، وَعِنْدَ أَبِي حَنِيفَةَ لَا شَيْءَ عَلَيْهِ.

فَإِنْ قُلْتَ: مَاذَا أَرَادَ بِذِكْرِ حَالِ الْخُلَطَاءِ فِي ذَلِكَ الْمَقَامِ؟

قُلْتُ: قَصِدَ بِهِ الْمَوْعِظَةَ الْحَسَنَةَ وَالتَّرْغِيبَ فِي إِيثَارِ عَادَةِ الْخُلَطَاءِ الصُّلَحَاءِ الَّذِي حَكَمَ لَهُمْ بِالْقِلَّةِ، وَأَنْ يَكْرَهَ إِلَيْهِمُ الظُّلْمَ وَالِاعْتِدَاءَ الَّذِي عَلَيْهِ أَكْثَرُهُمْ، مَعَ التَّأَسُّفِ عَلَى حَالِهِمْ، وَأَنْ يُسَلِّيَ الْمَظْلُومُ عَمَّا جَرَى عَلَيْهِ مِنْ خَلِيطِهِ، وَأَنَّ لَهُ فِي أَكْثَرِ الْخُلَطَاءِ أُسْوَةٌ.

وَقُرِئَ: (لِيَبْغِيَ) بِفَتْحِ الْيَاءِ عَلَى تَقْدِيرِ النُّونِ الْخَفِيفَةِ، وَحَذْفُهَا كَقَوْلِهِ:

إِضْرِبَ عَنْكَ الْهُمُومَ طَارِقَهَا

وَهُوَ جَوَابُ قَسَمٍ مَحْذُوفٍ. وَلْيَبْغِ: بِحَذْفِ الْيَاءِ، اكْتِفَاءً مِنْهَا بِالْكَسْرَةِ.

وَ﴿مَا﴾[1] فِي.

﴿وَقَلِيلٌ مَا هُمْ﴾[2] لِلْإِبْهَامِ. وَفِيهِ تَعَجُّبٌ مِنْ قِلَّتِهِمْ.

وَإِنْ أَرَدْتَ أَنْ تَتَحَقَّقَ فَائِدَتَهَا وَمَوْقِعَهَا فَاطْرَحْهَا، مِنْ قَوْلِ امْرِئِ الْقَيْسِ:

وَحَدِيثٌ مَا عَلَى قِصَـــرِهْ

وَانْظُرْ هَلْ بَقِيَ لَهُ مَعْنًى قَطُّ، لَمَّا كَانَ الظَّنُّ الْغَالِبُ يُدَانِي الْعِلْمَ، اسْتُعِيرَ لَهُ.

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

وَمَعْنَاهُ: وَعَلِمَ دَاوُدُ وَأَيْقَنَ ﴿أَنَّمَا فَتَنَّاهُ﴾[1] أَنَّا ابْتَلَيْنَاهُ لَا مَحَالَةَ بِامْرَأَةٍ أُورِيَا، هَلْ يَثْبُتُ أَوْ يَزَلْ؟ وَقُرِئَ: (فَتَنَّاهُ) بِالتَّشْدِيدِ لِلْمُبَالَغَةِ. وَأَفْتَنَّاهُ، مِنْ قَوْلِهِ:

لَئِنْ فَتَنَتْنِي لَهِيَ بِالْأَمْسِ أَفْتَنَتْ

وَفَتَنَّاهُ وَفَتَنَاهُ، عَلَى أَنَّ الْأَلِفَ ضَمِيرُ الْمِلْكَيْنِ، وَعَبَّرَ بِالرَّاكِعِ عَنِ السَّاجِدِ، لِأَنَّهُ يَنْحَنِي وَيَخْضَعُ كَالسَّاجِدِ. وَبِهِ اسْتَشْهَدَ أَبُو حَنِيفَةَ وَأَصْحَابُهُ فِي سَجْدَةِ التِّلَاوَةِ عَلَى أَنَّ الرُّكُوعَ يَقُومُ مَقَامَ السُّجُودِ.

وَعَنِ الْحَسَنِ: لِأَنَّهُ لَا يَكُونُ سَاجِدًا حَتَّى يَرْكَعَ، وَيَجُوزَ أَنْ يَكُونَ قَدِ اسْتَغْفَرَ اللَّهُ لِذَنْبِهِ وَأَحْرَمَ بِرَكْعَتَيِّ الِاسْتِغْفَارِ وَالْإِنَابَةِ، فيكُونُ الْمَعْنَى: وَخَرَّ لِلسُّجُودِ رَاكِعًا أَيْ: مُصَلِّيًا، لِأَنَّ الرُّكُوعَ يُجْعَلُ عِبَارَةً عَنِ الصَّلَاةِ.

﴿وَأَنَابَ﴾[2] وَرَجَعَ إِلَى اللَّهِ –تَعَالَى– بِالتَّوْبَةِ وَالتَّنَصُّلِ. وَرُوِيَ أَنَّهُ بَقِيَ سَاجِدًا أَرْبَعِينَ يَوْمًا وَلَيْلَةً لَا يَرْفَعُ رَأْسَهُ إِلَّا لِصَلَاةٍ مَكْتُوبَةٍ أَوْ مَا لَا بُدَّ مِنْهُ، وَلَا يَرْقَأُ دَمْعُهُ حَتَّى نَبَتَ الْعُشْبُ مِنْ دَمْعِهِ إِلَى رَأْسِهِ، وَلَمْ يَشْرَبْ مَاءً إِلَّا وَثُلْثَاهُ دَمْعٌ، وَجَهِدَ نَفْسَهُ رَاغِبًا إِلَى اللَّهِ –تَعَالَى– فِي الْعَفْوِ عَنْهُ حَتَّى كَادَ يَهْلَكُ، وَاشْتَغَلَ بِذَلِكَ عَنِ الْمُلْكِ حَتَّى وَثَبَ ابْنٌ لَهُ يُقَالُ لَهُ: إِيشَا عَلَى مُلْكِهِ وَدَعَا إِلَى نَفْسِهِ، وَاجْتَمَعَ إِلَيْهِ أَهْلُ الزَّيْغِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَلَمَّا غَفَرَ لَهُ حَارَبَهُ فَهَزَمَهُ.

وَرُوِيَ أَنَّهُ نَقَشَ خَطِيئَتَهُ فِي كَفِّهِ حَتَّى لَا يَنْسَاهَا. وَقِيلَ: إِنَّ الْخَصْمَيْنِ كَانَا مِنَ الْإِنْسِ، وَكَانَتِ الْخُصُومَةُ عَلَى الْحَقِيقَةِ بَيْنَهُمَا: إِمَّا كَانَا خَلِيطَيْنِ فِي الْغَنَمِ، وَإِمَّا كَانَ أَحَدُهُمَا مُوسِرًا وَلَهُ نِسْوَانٌ كَثِيرَةٌ مِنَ الْمَهَائِرِ وَالسَّرَارِي، وَالثَّانِي: مُعْسِرًا مَالُهُ إِلَّا امْرَأَةٍ وَاحِدَةٍ، فَاسْتَنْزَلَهُ عَنْهَا، وَإِنَّمَا فَزِعَ لِدُخُولِهِمَا عَلَيْهِ فِي غَيْرِ وَقْتِ الْحُكُومَةِ أَنْ يَكُونَا مُغْتَالَيْنِ، وَمَا كَانَ ذَنْبُ دَاوُدَ إِلَّا أَنَّهُ صَدَّقَ أَحَدَهُمَا عَلَى الْآخَرِ وَظَلَمَهُ قَبْلَ مَسْأَلَتِهِ.

﴿يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾[3]

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

﴿خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ﴾[1]، أَيِ: اسْتَخْلَفْنَاكَ عَلَى الْمُلْكِ فِي الْأَرْضِ، كَمَنْ يَسْتَخْلِفُهُ بَعْضُ السَّلَاطِينِ عَلَى بَعْضِ الْبِلَادِ وَيُمَلِّكُهُ عَلَيْهَا. وَمِنْهُ قَوْلُهُمْ: خُلَفَاءُ اللَّهِ فِي أَرْضِهِ. وَجَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً مِمَّنْ كَانَ قَبْلَكَ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ الْقَائِمِينَ بِالْحَقِّ. وَفِيهِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ حَالَهُ بَعْدَ التَّوْبَةِ بَقِيَتْ عَلَى مَا كَانَتْ عَلَيْهِ لَمْ تَتَغَيَّرْ .

﴿فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ﴾[2]، أَيْ بِحُكْمِ اللَّهِ –تَعَالَى–، إِذْ كُنْتَ خَلِيفَتَهُ.

﴿وَلا تَتَّبِعِ﴾[3] هَوَى النَّفْسِ فِي قَضَائِكَ وَغَيْرِهِ، مِمَّا تَتَصَرَّفُ فِيهِ مِنْ أَسْبَابِ الدِّينِ وَالدُّنْيَا "فيضِلَّكَ" الْهَوَى فيكُونُ سَبَبًا لِضَلَالِكَ ﴿عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾[4] عَنْ دَلَائِلِهِ الَّتِي نَصَبَهَا فِي الْعُقُولِ، وَعَنْ شَرَائِعِهِ الَّتِي شَرَعَهَا وَأَوْحَى بِهَا.

وَ﴿يَوْمَ الْحِسَابِ﴾[5] مُتَعَلِّقٌ بِنَسَوْا، أَيْ: بِنِسْيَانِهِمْ يَوْمَ الْحِسَابِ، أَمَرَ بِقَوْلِهِ: ﴿لَهُمْ﴾[6]، أَيْ: لَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الْقِيَامَةِ بِسَبَبِ نِسْيَانِهِمْ وَهُوَ ضَلَالُهُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ.

وَعَنْ بَعْضِ خُلَفَاءِ بَنِي مَرْوَانَ أَنَّهُ قَالَ لِعُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ أَوْ لِلزُّهْرِيِّ: هَلْ سَمِعْتَ مَا بَلَغَنَا؟ قَالَ: وَمَا هُوَ؟ قَالَ: بَلَغَنَا أَنَّ الْخَلِيفَةَ لَا يَجْرِي عَلَيْهِ الْقَلَمُ وَلَا تُكْتَبُ عَلَيْهِ مَعْصِيَةٌ. فَقَالَ: يَا أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ، الْخُلَفَاءُ أَفْضَلُ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ؟ ثُمَّ تَلَا هَذِهِ الْآيَةَ .

## ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾[7]

﴿بَاطِلًا﴾[8]، أَيْ: خَلْقًا بَاطِلًا، لَا لِغَرَضٍ صَحِيحٍ وَحِكْمَةٍ بَالِغَةٍ. أَوْ مُبْطِلِينَ عَابِثِينَ، كَقَوْلِهِ –تَعَالَى–: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاعِبِينَ مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلا

---

[1] سورة ، الآية .
[2] سورة ، الآية .
[3] سورة ، الآية .
[4] سورة ، الآية .
[5] سورة ، الآية .
[6] سورة ، الآية .
[7] سورة ، الآية .
[8] سورة ، الآية .

بِالْحَقِّ﴾[1]، وَتَقْدِيرُهُ: ذَوِي بَاطِلٍ أَوْ عَبَثًا، فَوَضَعَ بَاطِلًا مَوْضِعَهُ، كَمَا وَضَعُوا هَنِيئًا مَوْضِعَ الْمَصْدَرِ، وَهُوَ صِفَةٌ، أَيْ: مَا خَلَقْنَاهُمَا وَمَا بَيْنَهُمَا لِلْعَبَثِ وَاللَّعِبِ، وَلَكِنْ لِلْحَقِّ الْمُبِينِ، وَهُوَ أَنْ خَلَقْنَاهَا نُفُوسًا أَوْدَعْنَاهَا الْعَقْلَ وَالتَّمْيِيزَ، وَمَنَحْنَاهَا التَّمْكِينَ، وَأَزَحْنَا عِلَلَهَا ثُمَّ عَرَضْنَاهَا لِلْمَنَافِعِ الْعَظِيمَةِ بِالتَّكْلِيفِ، وَأَعْدَدْنَا لَهَا عَاقِبَةً وَجَزَاءً عَلَى حَسَبِ أَعْمَالِهِمْ.

وَ"ذَلِكَ" إِشَارَةٌ إِلَى خَلْقِهَا بَاطِلًا، وَالظَّنُّ: بِمَعْنَى الْمَظْنُونِ، أَيْ: خَلَقَهَا لِلْعَبَثِ لَا لِلْحِكْمَةِ هُوَ مَظْنُونُ الَّذِينَ كَفَرُوا.

فَإِنْ قُلْتَ: إِذَا كَانُوا مُقِرِّينَ بِأَنَّ اللَّهَ خَالِقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا بِدَلِيلِ قَوْلِهِ: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾[2]، فَبِمَ جَعَلُوا ظَانِّينَ أَنَّهُ خَلَقَهَا لِلْعَبَثِ لَا لِلْحِكْمَةِ؟

قُلْتُ: لَمَّا كَانَ إِنْكَارُهُمْ لِلْبَعْثِ وَالْحِسَابِ وَالثَّوَابِ وَالْعِقَابِ مُؤَدِّيًا إِلَى أَنَّ خَلْقَهَا عَبَثٌ وَبَاطِلٌ جَعَلُوا كَأَنَّهُمْ يَظُنُّونَ ذَلِكَ وَيَقُولُونَهُ، لِأَنَّ الْجَزَاءَ هُوَ الَّذِي سَبَقَتْ إِلَيْهِ الْحِكْمَةُ فِي خَلْقِ الْعَالَمِ مِنْ رَأْسِهَا، فَمَنْ جَحَدَهُ فَقَدْ جَحَدَ الْحِكْمَةَ مِنْ أَصْلِهَا، وَمَنْ جَحَدَ الْحِكْمَةَ فِي خَلْقِ الْعَالَمِ فَقَدْ سَفَّهَ الْخَالِقَ، وَظَهَرَ بِذَلِكَ أَنَّهُ لَا يَعْرِفُهُ وَلَا يُقَدِّرُهُ حَقَّ قَدْرِهِ، فَكَانَ إِقْرَارُهُ بِكَوْنِهِ خَالِقًا كَلَا إِقْرَارَ.

## ﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾[3]

﴿أَمْ﴾[4] مُنْقَطِعَةٌ.

وَمَعْنَى الِاسْتِفْهَامِ فِيهَا الْإِنْكَارُ، وَالْمُرَادُ: أَنَّهُ لَوْ بَطَلَ الْجَزَاءُ كَمَا يَقُولُ الْكَافِرُونَ لَاسْتَوَتْ عِنْدَ اللَّهِ أَحْوَالُ مَنْ أَصْلَحَ وَأَفْسَدَ، وَاتَّقَى وَفَجَرَ، وَمَنْ سَوَّى بَيْنَهُمْ كَانَ سَفِيهًا وَلَمْ يَكُنْ حَكِيمًا.

---

[1] سورة الدُّخَانُ، الآية 39.

[2] سورة لُقْمَانُ، الآية 25.

[3] سورة ، الآية .

[4] سورة ، الآية .

﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾[1]

وَقُرِئَ: (مُبَارَكًا)، وَ(لِيَتَدَبَّرُوا): عَلَى الْأَصْلِ، وَ(لِتَدَّبَّرُوا): عَلَى الْخِطَابِ. وَ(تَدَبُّرُ الْآيَاتِ): التَّفَكُّرُ فيها، وَالتَّأَمُّلُ الَّذِي يُؤَدِّي إِلَى مَعْرِفَةِ مَا يُدَبِّرُ ظَاهِرَهَا مِنَ التَّأْوِيلَاتِ الصَّحِيحَةِ وَالْمَعَانِي الْحَسَنَةِ، لِأَنَّ مَنِ اقْتَنَعَ بِظَاهِرِ الْمَتْلُوِّ، لَمْ يَحِلْ مِنْهُ بِكَثِيرٍ طَائِلٍ، وَكَانَ مَثَلُهُ كَمَثَلِ مَنْ لَهُ لِقِحَةٍ دَرُورٍ لَا يَحْلِبُهَا، وَمُهْرَةٍ نَثُورٍ لَا يَسْتَوْلِدُهَا.

وَعَنِ الْحَسَنِ: قَدْ قَرَأَ هَذَا الْقُرْآنَ عَبِيدٌ وَصِبْيَانٌ لَا عِلْمَ لَهُمْ بِتَأْوِيلِهِ: حَفِظُوا حُرُوفَهُ وَضَيَّعُوا حُدُودَهُ، حَتَّى إِنَّ أَحَدَهُمْ لَيَقُولُ: وَاللَّهِ لَقَدْ قَرَأْتُ الْقُرْآنَ فَمَا أَسْقَطْتُ مِنْهُ حَرْفًا، وَقَدْ وَاللَّهِ أَسْقَطَهُ كُلَّهُ، مَا يُرَى لِلْقُرْآنِ عَلَيْهِ أَثَرٌ فِي خَلْقٍ وَلَا عَمَلٍ، وَاللَّهِ مَا هُوَ بِحِفْظِ حُرُوفِهِ وَإِضَاعَةِ حُدُودِهِ، وَاللَّهِ مَا هَؤُلَاءِ بِالْحُكَمَاءِ وَلَا الْوَرَعَةِ، لَا كَثَّرَ اللَّهُ فِي النَّاسِ مِثْلَ هَؤُلَاءِ. اللَّهُمَّ اجْعَلْنَا مِنَ الْعُلَمَاءِ الْمُتَدَبِّرِينَ، وَأَعِذْنَا مِنَ الْقُرَّاءِ الْمُتَكَبِّرِينَ.

﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ﴾[2]

وَقُرِئَ: (نَعِمَ الْعَبْدُ) عَلَى الْأَصْلِ، وَالْمَخْصُوصُ بِالْمَدْحِ مَحْذُوفٌ. وَعَلَّلَ كَوْنَهُ مَمْدُوحًا بِكَوْنِهِ أَوَّابًا رَجَّاعًا إِلَيْهِ بِالتَّوْبَةِ. أَوْ مُسَبِّحًا مُؤَوِّبًا لِلتَّسْبِيحِ مُرَجِّعًا لَهُ، لِأَنَّ كُلَّ مُؤَوِّبٍ أَوَّابٌ.

وَالصَّافِنُ: الَّذِي فِي قَوْلِهِ:

أَلِفَ الصُّفُونَ فَمَا يَزَالُ كَأَنَّهُ مِمَّا يَقُومُ عَلَى الثَّلَاثِ كَسِيـــرًا

وَقِيلَ: الَّذِي يَقُومُ عَلَى طَرَفِ سُنْبُكِ يَدٍ أَوْ رِجْلٍ: هُوَ الْمُتَخَيِّمُ.

وَأَمَّا الصَّافِنُ: فَالَّذِي يَجْمَعُ بَيْنَ يَدَيْهِ.

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

وَعَنِ النَّبِيِّ –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: "مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَقُومَ النَّاسُ لَهُ صُفُونًا فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ"، أَيْ: وَاقِفِينَ كَمَا خَدَمَ الْجَبَابِرَةُ.

فَإِنْ قُلْتَ: مَا مَعْنَى وَصْفِهَا بِالصُّفُونِ؟

قُلْتُ: الصُّفُونُ لَا يَكَادُ يَكُونُ فِي الْهَجْنِ، وَإِنَّمَا هُوَ فِي الْعِرَابِ الْخُلَّصِ. وَقِيلَ: وَصَفَهَا بِالصُّفُونِ وَالْجَوْدَةِ، لِيَجْمَعَ لَهَا بَيْنَ الْوَصْفَيْنِ الْمَحْمُودَيْنِ: وَاقِفَةٌ وَجَارِيَةٌ، يَعْنِي: إِذَا وَقَفَتْ كَانَتْ سَاكِنَةً مُطْمَئِنَّةً فِي مَوَاقِفِهَا، وَإِذَا جَرَتْ كَانَتْ سِرَاعًا خِفَافًا فِي جَرْيِهَا.

وَرُوِيَ أَنَّ سُلَيْمَانَ –عَلَيْهِ السَّلَامُ– غَزَا أَهْلَ دِمَشْقَ وَنَصِيبِينَ، فَأَصَابَ أَلْفَ فَرَسٍ. وَقِيلَ: وَرِثَهَا مِنْ أَبِيهِ وَأَصَابَهَا أَبُوهُ مِنَ الْعَمَالِقَةِ. وَقِيلَ: خَرَجَتْ مِنَ الْبَحْرِ لَهَا أَجْنِحَةٌ، فَقَعَدَ يَوْمًا بَعْدَ مَا صَلَّى الْأُولَى عَلَى كُرْسِيِّهِ وَاسْتَعْرَضَهَا، فَلَمْ تَزَلْ تُعْرَضُ عَلَيْهِ حَتَّى غَرَبَتِ الشَّمْسُ وَغَفَلَ عَنِ الْعَصْرِ أَوْ عَنْ وِرْدٍ مِنَ الذِّكْرِ كَانَ لَهُ وَقْتُ الْعَشِيِّ، وَتَهَيَّبُوهُ فَلَمْ يَعْلَمُوهُ، فَاغْتَمَّ لَمَّا فَاتَهُ، فَاسْتَرَدَّهَا وَعَقَرَهَا مُقَرِّبًا اللَّهَ، وَبَقِيَ مِائَةٌ، فَمَا بَقِيَ فِي أَيْدِي النَّاسِ مِنَ الْجِيَادِ فَمِنْ نَسْلِهَا، وَقِيلَ: لَمَّا عَقَرَهَا أَبْدَلَهُ اللَّهُ خَيْرًا مِنْهَا، وَهِيَ الرِّيحُ تَجْرِي بِأَمْرِهِ.

فَإِنْ قُلْتَ: مَا مَعْنَى: ﴿أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي﴾[1]؟

قُلْتُ: أَحْبَبْتُ مُضَمَّنٌ مَعْنَى فِعْلٍ يَتَعَدَّى بِعَنْ، كَأَنَّهُ قِيلَ: أَنَبْتَ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي، أَوْ جَعَلْتَ حُبَّ الْخَيْرِ مُجْزِيًا أَوْ مُغْنِيًا عَنْ ذِكْرِ رَبِّي. وَذَكَرَ أَبُو الْفَتْحِ الْهَمْدَانِيُّ فِي كِتَابِ التِّبْيَانِ: أَنْ "أَحْبَبْتَ" بِمَعْنَى: لَزِمْتَ مِنْ قَوْلِهِ:

مِثْلُ بَعِيرِ السُّوءِ إِذْ أَحَبَّا

وَلَيْسَ بِذَاكَ.

وَالْخَيْرُ: الْمَالُ، كَقَوْلِهِ: ﴿إِنْ تَرَكَ خَيْرًا﴾[2]، وَقَوْلُهُ: ﴿وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾[3].

وَالْمَالُ: الْخَيْلُ الَّتِي شَغَلَتْهُ. أَوْ سُمِّيَ الْخَيْلُ خَيْرًا كَأَنَّهَا نَفْسُ الْخَيْرِ لِتُعَلِّقِ الْخَيْرِ بِهَا. قَالَ رَسُولُ اللَّهِ –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: "الْخَيْلُ مَعْقُودٌ بِنَوَاصِيهَا الْخَيْرَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ". وَقَالَ فِي زَيْدِ الْخَيْلِ حَيُّ وَفْدٍ عَلَيْهِ وَأَسْلَمَ: "مَا وُصِفَ لِي رَجُلٌ فَرَأَيْتُهُ إِلَّا كَانَ دُونَ مَا بَلَغَنِي إِلَّا زِيدَ الْخَيْلِ"، وَسَمَّاهُ زَيْدَ الْخَيْرِ.

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة الْبَقَرَةُ، الآية 180.

[3] سورة الْعَادِيَّاتُ، الآية 8.

وَسَأَلَ رَجُلٌ بِلَالًا –رَضِيَ الله عَنْهُ– عَنْ قَوْمٍ يَسْتَبِقُونَ: مَنِ السَّابِقُ؟ فَقَالَ: رَسُولُ اللَّهِ –صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–. فَقَالَ لَهُ الرَّجُلُ: أَرَدْتُ الْخَيْلَ. فَقَالَ: وَأَنَا أَرَدْتُ الْخَيْرَ. وَالتَّوَارِي بِالْحِجَابِ: مَجَازٌ فِي غُرُوبِ الشَّمْسِ عَنْ تُوَارِي الْمُلْكِ، أَوِ الْمُخَبَّأَةُ بِحِجَابِهِمَا.

وَالَّذِي دَلَّ عَلَى أَنَّ الضَّمِيرَ لِلشَّمْسِ مُرُورُ ذِكْرِ الْعَشِيِّ، وَلَا بُدَّ لِلْمُضْمَرِ مِنْ جَرْيِ ذِكْرٍ أَوْ دَلِيلِ ذِكْرٍ. وَقِيلَ: الضَّمِيرُ لِلصَّافِنَاتِ، أَيْ: حَتَّى تَوَارَتْ بِحِجَابِ اللَّيْلِ يَعْنِي الظَّلَامَ.

وَمِنْ بِدَعِ التَّفَاسِيرِ: أَنَّ الْحِجَابَ جَبَلٌ دُونَ قَافٍ بِمَسِيرَةِ سَنَةٍ تَغْرُبُ الشَّمْسُ مِنْ وَرَائِهِ.

﴿فَطَفِقَ مَسْحًا﴾[1]: فَجَعَلَ يَمْسَحُ مَسْحًا، أَيْ: يَمْسَحُ بِالسَّيْفِ بِسُوقِهَا وَأَعْنَاقِهَا، يَعْنِي: يَقْطَعُهَا. يُقَالُ: مَسَحَ عِلَاوَتَهُ، إِذَا ضَرَبَ عُنُقَهُ، وَمَسَحَ الْمُسْفِرُ الْكِتَابَ إِذَا قَطَعَ أَطْرَافَهُ بِسَيْفِهِ.

وَعَنِ الْحَسَنِ: كَسَفَ عَرَاقِيبَهَا وَضَرَبَ أَعْنَاقَهَا، أَرَادَ بِالْكَسْفِ: الْقَطْعُ، وَمِنْهُ: الْكَسْفُ فِي أَلْقَابِ الزِّحَافِ فِي الْعُرُوضِ، وَمَنْ قَالَ بِالشِّينِ الْمُعْجَمَةِ فَمُصْحَفٌ، وَقِيلَ: مَسْحُهَا بِيَدِهِ، اسْتِحْسَانًا لَهَا وَإِعْجَابًا بِهَا.

فَإِنْ قُلْتَ: بِمَ اتَّصَلَ قَوْلُهُ: ﴿رُدُّوهَا عَلَيَّ﴾[2]؟

قُلْتُ: بِمَحْذُوفٍ، تَقْدِيرُهُ: قَالَ رُدُّوهَا عَلَيَّ، فَأَضْمَرَ وَأَضْمَرَ مَا هُوَ جَوَابُ لَهُ، كَأَنَّ قَائِلًا قَالَ: فَمَاذَا قَالَ سُلَيْمَانُ؟ لِأَنَّهُ مَوْضِعٌ مُقْتَضٍ لِلسُّؤَالِ اقْتِضَاءً ظَاهِرًا، وَهُوَ اشْتِغَالُ نَبِيٍّ مِنْ أَنْبِيَاءِ اللَّهِ بِأَمْرِ الدُّنْيَا، حَتَّى تَفُوتُهُ الصَّلَاةُ عَنْ وَقْتِهَا.

وَقُرِئَ: (بِالسُّؤُوقِ) بِهَمْزِ الْوَاوِ لِضَمَّتِهَا، كَمَا فِي أَدْؤُرَ. وَنَظِيرُهُ: الْغُؤُرُ، فِي مَصْدَرِ غَارَتِ الشَّمْسُ.

وَأَمَّا مَنْ قَرَأَ بِالسُّؤْقِ فَقَدْ جَعَلَ الضَّمَّةَ فِي السِّينِ كَأَنَّهَا فِي الْوَاوِ لِلتَّلَاصُقِ، كَمَا قِيلَ: مُؤَسًّى، وَنَظِيرُ سَاقَ وَسُوقَ: أَسَدَ وَأُسِدَ. وَقُرِئَ: (بِالسَّاقِ) اكْتِفَاءً بِالْوَاحِدِ عَنِ الْجَمْعِ، لِأَمْنِ الْإِلْبَاسِ.

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

## ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ﴾[1]

قِيلَ: فُتِنَ سُلَيْمَانُ بَعْدَ مَا مَلَكَ عِشْرِينَ سَنَةً، وَمَلَكَ بَعْدَ الْفِتْنَةِ عِشْرِينَ سَنَةً، وَكَانَ مِنْ فِتْنَتِهِ: أَنَّهُ وُلِدَ لَهُ ابْنٌ، فَقَالَتِ الشَّيَاطِينُ: إِنْ عَاشَ لَمْ نَنْفَكَّ مِنَ السُّخْرَةِ، فَسَبِيلُنَا أَنْ نَقْتُلَهُ أَوْ نَخْبِلَهُ، فَعَلَّمَ ذَلِكَ، فَكَانَ يَغْدُوهُ فِي السَّحَابَةِ، فَمَا رَاعَهُ إِلَّا أَنْ أُلْقِيَ عَلَى كُرْسِيِّهِ مَيِّتًا، فَتُنُبِّهُ عَلَى خَطَئِهِ فِي أَنْ لَمْ يَتَوَكَّلْ فِيهِ عَلَى رَبِّهِ، فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَتَابَ إِلَيْهِ.

وَرُوِيَ عَنِ النَّبِيِّ –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: قَالَ سُلَيْمَانُ: "لَأَطُوفَنَّ اللَّيْلَةَ عَلَى سَبْعِينَ امْرَأَةً، كُلُّ وَاحِدَةٍ تَأْتِي بِفَارِسٍ يُجَاهِدُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَلَمْ يَقُلْ: إِنْ شَاءَ اللَّهُ، فَطَافَ عَلَيْهِنَّ فَلَمْ يَحْمِلْ إِلَّا امْرَأَةٌ وَاحِدَةٌ جَاءَتْ بِشِقِّ رَجُلٍ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَوْ قَالَ: إِنْ شَاءَ اللَّهُ، لَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فِرْسَانًا أَجْمَعُونَ"، فَلِذَلِكَ قَوْلُهُ –تَعَالَى–: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ﴾[2]. وَهَذَا وَنَحْوُهُ مِمَّا لَا بَأْسَ بِهِ.

وَأَمَّا مَا يُرْوَى مِنْ حَدِيثِ الْخَاتَمِ وَالشَّيَاطِينِ وَعِبَادَةِ الْوَثَنِ فِي بَيْتِ سُلَيْمَانَ، فَاللَّهُ أَعْلَمُ بِصِحَّتِهِ. حَكَوْا أَنَّ سُلَيْمَانَ بَلَغَهُ خَبَرُ صَيْدُونَ وَهِيَ مَدِينَةٌ فِي بَعْضِ الْجَزَائِرِ، وَأَنَّ بِهَا مَلِكًا عَظِيمَ الشَّأْنِ لَا يَقْوَى عَلَيْهِ لِتَحَصُّنِهِ بِالْبَحْرِ، فَخَرَجَ إِلَيْهِ تَحْمِلُهُ الرِّيحُ حَتَّى أَنَاخَ بِهَا بِجُنُودِهِ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ، فَقَتَلَ مَلِكَهَا وَأَصَابَ بِنْتًا لَهُ اسْمُهَا جَرَادَةُ مِنْ أَحْسَنِ النَّاسِ وَجْهًا، فَاصْطَفَاهَا لِنَفْسِهِ وَأَسْلَمَتْ وَأَحَبَّهَا، وَكَانَتْ لَا يَرْقَأُ دَمْعُهَا حُزْنًا عَلَى أَبِيهَا، فَأَمَرَ الشَّيَاطِينِ فَمَثَّلُوا لَهَا صُورَةَ أَبِيهَا، فَكَسَتْهَا مِثْلَ كُسْوَتِهِ، وَكَانَتْ تَغْدُو إِلَيْهَا وَتَرُوحُ مَعَ وَلَائِدِهَا يَسْجُدْنَ لَهُ كَعَادَتِهِنَّ فِي مِلْكِهِ، فَأَخْبَرَ آصَفُ سُلَيْمَانَ بِذَلِكَ فَكَسَرَ الصُّورَةَ وَعَاقَبَ الْمَرْأَةَ، ثُمَّ خَرَجَ وَحْدَهُ إِلَى فَلَاةٍ وَفُرِشَ لَهُ الرَّمَادُ، فَجَلَسَ عَلَيْهِ تَائِبًا إِلَى اللَّهِ مُتَضَرِّعًا، وَكَانَتْ لَهُ أُمُّ وَلَدٍ يُقَالُ لَهَا: أَمِينَةُ، إِذَا دَخَلَ لِلطَّهَارَةِ أَوْ لِإِصَابَةِ امْرَأَةٍ وَضَعَ خَاتَمَهُ عِنْدَهَا، وَكَانَ مُلْكُهُ فِي خَاتَمِهِ، فَوَضَعَهُ عِنْدَهَا يَوْمًا وَأَتَاهَا الشَّيْطَانُ صَاحِبُ الْبَحْرِ –وَهُوَ الَّذِي دَلَّ سُلَيْمَانَ عَلَى الْمَاسِ حِينَ أَمَرَ بِبِنَاءِ بَيْتِ الْمَقْدِسِ وَاسْمُهُ صَخْرٌ– عَلَى صُورَةِ سُلَيْمَانَ، فَقَالَ: يَا أَمِينَةَ خَاتِمِي، فَتَخَتَّمَ بِهِ وَجَلَسَ عَلَى كُرْسِيِّ سُلَيْمَانَ، وَعَكَفَتْ عَلَيْهِ الطَّيْرُ وَالْجِنُّ وَالْإِنْسُ، وَغَيَّرَ سُلَيْمَانُ عَنْ هَيْئَتِهِ فَأَتَى أَمِينَةَ لِطَلَبِ الْخَاتَمِ فَأَنْكَرَتْهُ وَطَرَدَتْهُ،

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

فَعَرَفَ أَنَّ الْخَطِيئَةَ قَدْ أَدْرَكَتْهُ، فَكَانَ يَدُورُ عَلَى الْبُيُوتِ يَتَكَفَّفُ، فَإِذَا قَالَ: أَنَا سُلَيْمَانُ حَثُّوا عَلَيْهِ التُّرَابَ وَسَبُّوهُ، ثُمَّ عَمَدُوا إِلَى السَّمَّاكِينَ يَنْقُلُ لَهُمُ السَّمَكَ فيعْطُونَهُ كُلَّ يَوْمٍ سَمَكَتَيْنِ، فَمَكَثَ عَلَى ذَلِكَ أَرْبَعِينَ صَبَاحًا عَدَدَ مَا عَبَدَ الْوَثَنَ في بَيْتِهِ، فَأَنْكَرَ آصَفُ وَعُظَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ حُكْمَ الشَّيْطَانِ، وَسَأَلَ آصَفُ نِسَاءَ سُلَيْمَانَ فَقُلْنَ: مَا يَدَعُ امْرَأَةً مِنَّا في دَمِهَا وَلَا يَغْتَسِلُ مِنْ جَنَابَةٍ. وَقِيلَ: بَلْ نَفَذَ حُكْمُهُ في كُلِّ شَيْءٍ إِلَّا فيهِنَّ، ثُمَّ طَارَ الشَّيْطَانُ وَقَذَفَ الْخَاتَمَ في الْبَحْرِ، فَابْتَلَعَتْهُ سَمَكَةٌ وَوَقَعَتِ السَّمَكَةُ في يَدِ سُلَيْمَانَ، فَبَقَرَ بَطْنَهَا فَإِذَا هُوَ بِالْخَاتَمِ، فَتَخَتَّمَ بِهِ وَوَقَعَ سَاجِدًا، وَرَجَعَ إِلَيْهِ مُلْكُهُ، وَجَابَ صَخْرَةً لِصَخْرٍ فَجَعَلَهُ فيها، وَسَدَّ عَلَيْهِ بِأُخْرَى، ثُمَّ أَوْثَقَهُمَا بِالْحَدِيدِ وَالرَّصَاصِ، وَقَذَفَهُ في الْبَحْرِ.

وَقِيلَ: لَمَّا افْتُتِنَ كَانَ يَسْقُطُ الْخَاتَمُ في يَدِهِ لَا يَتَمَاسَكُ فيها، فَقَالَ لَهُ آصَفُ: إِنَّكَ لَمَفْتُونٌ بِذَنْبِكَ، وَالْخَاتَمُ لَا يَقَرُّ في يَدِكَ، فَتُبْ إِلَى اللَّهِ –عَزَّ وَجَلَّ–. وَلَقَدْ أَبَى الْعُلَمَاءُ الْمُتْقِنُونَ قَبُولَهُ وَقَالُوا: هَذَا مِنْ أَبَاطِيلِ الْيَهُودِ، وَالشَّيَاطِينُ لَا يَتَمَكَّنُونَ مِنْ مِثْلِ هَذِهِ الْأَفَاعِيلِ. وَتَسْلِيطُ اللَّهِ إِيَّاهُمْ عَلَى عِبَادَةٍ حَتَّى يَقَعُوا في تَغْيِيرِ الْأَحْكَامِ، وَعَلَى نِسَاءِ الْأَنْبِيَاءِ حَتَّى يَفْجُرُوا بِهِنَّ قَبِيحٌ، وَأَمَّا اتِّخَاذُ التَّمَاثِيلِ فيجُوزُ أَنْ تَخْتَلِفَ فيهِ الشَّرَائِعُ.

أَلَا تَرَى إِلَى قَوْلِهِ: ﴿مِنْ مَحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ﴾[1]؟

وَأَمَّا السُّجُودُ لِلصُّورَةِ، فَلَا يُظَنُّ بِنَبِيِّ اللَّهِ أَنْ يَأْذَنَ فيهِ، وَإِذَا كَانَ بِغَيْرِ عِلْمِهِ، فَلَا عَلَيْهِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَدًا﴾[2] نَابٍ عَنْ إِفَادَةِ مَعْنَى إِنَابَةِ الشَّيْطَانِ مَنَابَهُ نُبُوًّا ظَاهِرًا .

## ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لا يَنْبَغِي لأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾[3]

قَدَّمَ الِاسْتِغْفَارَ عَلَى اسْتِيهَابِ الْمُلْكِ جَرْيًا عَلَى عَادَةِ الْأَنْبِيَاءِ وَالصَّالِحِينَ في تَقْدِيمِهِمْ أَمْرَ دِينِهِمْ عَلَى أُمُورِ دُنْيَاهُمْ.

---

[1] سورة سَبَأٌ ، الآية 13.

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

﴿لَا يَنْبَغِي﴾[1] لَا يَتَسَهَّلُ وَلَا يَكُونُ.

وَمَعْنَى ﴿مِنْ بَعْدِي﴾[2] دُونِي.

فَإِنْ قُلْتَ: أَمَا يُشْبِهُ الْحَسَدَ وَالْحِرْصَ عَلَى الِاسْتِبْدَادِ بِالنِّعْمَةِ أَنْ يَسْتَعْطِيَ اللَّهُ مَا لَا يُعْطِيهِ غَيْرَهُ؟

قُلْتُ: كَانَ سُلَيْمَانُ -عَلَيْهِ السَّلَامُ- نَاشِئًا فِي بَيْتِ الْمُلْكِ وَالنُّبُوَّةِ وَوَارِثًا لَهُمَا، فَأَرَادَ أَنْ يَطْلُبَ مِنْ رَبِّهِ مُعْجِزَةً، فَطَلَبَ عَلَى حَسَبِ إِلْفِهِ مُلْكًا زَائِدًا عَلَى الْمَمَالِكِ زِيَادَةً خَارِقَةً لِلْعَادَةِ بَالِغَةً حَدَّ الْإِعْجَازِ، لِيَكُونَ ذَلِكَ دَلِيلًا عَلَى نُبُوَّتِهِ قَاهِرًا لِلْمَبْعُوثِ إِلَيْهِمْ، وَأَنْ يَكُونَ مُعْجِزَةً حَتَّى يَخْرُقَ الْعَادَاتِ، فَذَلِكَ مَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿لا يَنْبَغِي لأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي﴾[3]، وَقِيلَ: كَانَ مُلْكًا عَظِيمًا، فَخَافَ أَنْ يُعْطَى مِثْلَهُ أَحَدٌ فَلَا يُحَافِظُ عَلَى حُدُودِ اللَّهِ فِيهِ، كَمَا قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾[4]، وَقِيلَ: مُلْكًا لَا أَسْلُبُهُ وَلَا يَقُومُ غَيْرِي فِيهِ مَقَامِي، كَمَا سَلَبْتُهُ مَرَّةً وَأُقِيمَ مَقَامِي غَيْرِي.

وَيَجُوزُ أَنْ يُقَالَ: عِلْمُ اللَّهِ فِيمَا اخْتَصَّهُ بِهِ مِنْ ذَلِكَ الْمُلْكِ الْعَظِيمِ مَصَالِحُ فِي الدِّينِ، وَعَلِمَ أَنَّهُ لَا يَضْطَلِعُ بِأَعْبَائِهِ غَيْرُهُ، وَأَوْجَبَتِ الْحِكْمَةُ اسْتِهَابَهُ، فَأَمَرَهُ أَنْ يَسْتَوْهِبَهُ إِيَّاهُ، فَاسْتَوْهَبَهُ بِأَمْرٍ مِنَ اللَّهِ عَلَى الصِّفَةِ أَنَّهُ لَا يَضْبُطُهُ عَلَيْهَا إِلَّا هُوَ وَحْدَهُ دُونَ سَائِرِ عِبَادِهِ. أَوْ أَرَادَ أَنْ يَقُولَ: مُلْكًا عَظِيمًا، فَقَالَ: ﴿لا يَنْبَغِي لأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي﴾[5]، وَلَمْ يَقْصِدْ بِذَلِكَ إِلَّا عِظَمَ الْمُلْكِ وَسِعَتِهِ، كَمَا تَقُولُ: لِفُلَانٍ مَا لَيْسَ لِأَحَدٍ مِنَ الْفَضْلِ وَالْمَالِ، وَرُبَّمَا كَانَ لِلنَّاسِ أَمْثَالُ ذَلِكَ، وَلَكِنَّكَ تُرِيدُ تَعْظِيمَ مَا عِنْدَهُ.

وَعَنِ الْحَجَّاجِ أَنَّهُ قِيلَ لَهُ: إِنَّكَ حَسُودٌ، فَقَالَ: أَحْسَدُ مِنِّي مَنْ قَالَ: ﴿وَهَبْ لِي مُلْكًا لا يَنْبَغِي لأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي﴾[6]. وَهَذَا مِنْ جُرْأَتِهِ عَلَى اللَّهِ وَشَيْطَنَتِهِ، كَمَا حَكَى عَنْهُ: طَاعَتُنَا

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

[4] سورة الْبَقَرَةُ، الآية 30.

[5] سورة ، الآية .

[6] سورة ، الآية .

أَوْجَبُ مِنْ طَاعَةِ اللَّهِ، لِأَنَّهُ شَرْطٌ مِنْ طَاعَتِهِ فَقَالَ: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾[1]، وَأَطْلَقَ طَاعَتَنَا فَقَالَ: ﴿وَأُولِي الأَمْرِ مِنْكُمْ﴾[2].

﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الأَصْفَادِ هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ﴾[3]

قُرِئَ: (الرِّيحُ) وَالرِّيَاحُ.

﴿رُخَاءً﴾ لَيِّنَةً طَيِّبَةً لَا تَزَعْزَعَ. وَقِيلَ: طَيِّعَةً لَهُ لَا تَمْتَنِعُ عَلَيْهِ.

﴿حَيْثُ أَصَابَ﴾[4] حَيْثُ قَصَدَ وَأَرَادَ. حَكَى الْأَصْمَعِيُّ عَنِ الْعَرَبِ: أَصَابَ الصَّوَابَ فَأَخْطَأَ الْجَوَابَ. وَعَنْ رُؤْبَةَ أَنَّ رَجُلَيْنِ مِنْ أَهْلِ اللُّغَةِ قَصَدَاهُ لِيَسْأَلَاهُ عَنْ هَذِهِ الْكَلِمَةِ، فَخَرَجَ إِلَيْهِمَا فَقَالَ: أَيْنَ تُصِيبَانِ؟ فَقَالَا: هَذِهِ طَلْبَتُنَا وَرَجَعَا، وَيُقَالُ: أَصَابَ اللَّهُ بِكَ خَيْرًا.

﴿وَالشَّيَاطِينَ﴾[5] عُطِفَ عَلَى الرِّيحِ، ﴿كُلَّ بَنَّاءٍ﴾[6] بَدَلٌ مِنَ الشَّيَاطِينِ، ﴿وَآخَرِينَ﴾[7] عُطِفَ عَلَى كُلِّ دَاخِلٍ فِي حُكْمِ الْبَدَلِ، وَهُوَ بَدَلُ الْكُلِّ مِنَ الْكُلِّ، كَانُوا يَبْنُونَ لَهُ مَا شَاءَ مِنَ الْأَبْنِيَةِ، وَيَغُوصُونَ لَهُ فَيَسْتَخْرِجُونَ اللُّؤْلُؤَ، وَهُوَ أَوَّلُ مَنِ اسْتَخْرَجَ الدُّرَّ مِنَ الْبَحْرِ، وَكَانَ يُقْرِنُ مَرَدَةَ الشَّيَاطِينِ بَعْضَهُمْ مَعَ بَعْضٍ فِي الْقُيُودِ وَالسَّلَاسِلِ، لِلتَّأْدِيبِ وَالْكَفِّ عَنِ الْفَسَادِ.

وَعَنِ السُّدِّيِّ: كَانَ يَجْمَعُ أَيْدِيَهُمْ إِلَى أَعْنَاقِهِمْ مُغَلَّلِينَ فِي الْجَوَامِعِ. وَالصَّفْدُ: الْقَيْدُ، وَسُمِّيَ بِهِ الْعَطَاءُ، لِأَنَّهُ ارْتِبَاطٌ لِلْمُنْعِمِ عَلَيْهِ، وَمِنْهُ قَوْلُ عَلِيٍّ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ-: مَنْ بَرَّكَ فَقَدْ أَسَرَّكَ، وَمَنْ جَفَاكَ فَقَدْ أَطْلَقَكَ. وَمِنْهُ قَوْلُ الْقَائِلِ: غَلَّ يَدًا مُطْلِقُهَا، وَأَرَقَّ رَقَبَةً مُعْتِقُهَا.

وَقَالَ حَبِيبٌ :إِنَّ الْعَطَاءَ إِسَارٌ، وَتَبِعَهُ مَنْ قَالَ:

وَمَنْ وَجَدَ الْإِحْسَانَ قَيْدًا تَقَيَّدَا

---

[1] سورة التَّغَابُنُ، الآية 16.

[2] سورة النِّسَاءُ، الآية 59.

[3] سورة ، الآية .

[4] سورة ، الآية .

[5] سورة ، الآية .

[6] سورة ، الآية .

[7] سورة ، الآية .

وَفَرَّقُوا بَيْنَ الْفِعْلَيْنِ فَقَالُوا: صَفَّدَهُ قَيَّدَهُ، وَأَصْفَدَهُ أَعْطَاهُ، كَوَعْدَهُ وَأَوْعَدَهُ، أَيْ: "هَذَا" الَّذِي أَعْطَيْنَاكَ مِنَ الْمُلْكِ وَالْمَالِ وَالْبَسْطَةِ

﴿عَطَاؤُنَا﴾[1] بِغَيْرِ حِسَابٍ، يَعْنِي: جَمًّا كَثِيرًا لَا يَكَادُ يَقْدِرُ عَلَى حَسَبِهِ وَحَصْرِهِ، ﴿فَامْنُنْ﴾[2] مِنَ الْمِنَّةِ، وَهِيَ الْعَطَاءُ، أَيْ: فَأَعْطِ مِنْهُ مَا شِئْتَ.

﴿أَوْ أَمْسِكْ﴾[3] مُفَوِّضًا إِلَيْكَ التَّصَرُّفَ فيهِ.

وَفِي قِرَاءَةِ ابْنِ مَسْعُودٍ: (هَذَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ عَطَاؤُنَا بِغَيْرِ حِسَابٍ)، أَوْ هَذَا التَّسْخِيرُ عَطَاؤُنَا، فَامْنُنْ عَلَى مَنْ شِئْتَ مِنَ الشَّيَاطِينِ بِالْإِطْلَاقِ، وَأَمْسِكْ مَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ في الْوِثَاقِ بِغَيْرِ حِسَابٍ، أَيْ: لَا حِسَابَ عَلَيْكَ في ذَلِكَ.

﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِبْ بِهِ وَلا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾[4]

﴿أَيُّوبَ﴾ [5]عَطْفُ بَيَانٍ.

وَ﴿إِذْ﴾[6] بَدَلُ اشْتِمَالٍ مِنْهُ

﴿أَنِّي مَسَّنِيَ﴾[7] بِأَنِّي مَسَّنِيَ: حِكَايَةٌ لِكَلَامِهِ الَّذِي نَادَاهُ بِسَبَبِهِ، وَلَوْ لَمْ يَحْكِ لَقَالَ بِأَنَّهُ مَسَّهُ، لِأَنَّهُ غَائِبٌ. وَقُرِئَ: (بِنُصْبٍ) بِضَمِّ النُّونِ وَفَتْحِهَا مَعَ سُكُونِ الصَّادِ، وَبِفَتْحِهِمَا، وَضَمِّهِمَا، فَالنَّصْبُ وَالنُّصْبُ: كَالرَّشْدِ وَالرُّشْدِ، وَالنَّصْبُ: عَلَى أَصْلِ الْمَصْدَرِ، وَالنُّصْبُ: تَثْقِيلُ نَصَبَ، وَالْمَعْنَى وَاحِدٌ، وَهُوَ التَّعَبُ وَالْمَشَقَّةُ. وَالْعَذَابُ: الْأَلَمُ، يُرِيدُ مَرَضَهُ وَمَا كَانَ يُقَاسِي فيهِ مِنْ أَنْوَاعِ الْوَصْبِ. وَقِيلَ: الضُّرُّ في الْبَدَنِ، وَالْعَذَابُ في ذَهَابِ الْأَهْلِ وَالْمَالِ.

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

[4] سورة ، الآية .

[5] سورة ، الآية .

[6] سورة ، الآية .

[7] سورة ، الآية .

فَإِنْ قُلْتَ: لِمَ نَسَبَهُ إِلَى الشَّيْطَانِ، وَلَا يَجُوزُ أَنْ يُسَلِّطَهُ اللَّهُ عَلَى أَنْبِيَائِهِ لِيَقْضِيَ مِنْ أَتْعَابِهِمْ وَتَعْذِيبِهِمْ وَطَرَهُ، وَلَوْ قَدَرَ عَلَى ذَلِكَ لَمْ يَدَّعِ صَالِحًا إِلَّا وَقَدْ نَكَبَهُ وَأَهْلَكَهُ، وَقَدْ تَكَرَّرَ فِي الْقُرْآنِ أَنَّهُ لَا سُلْطَانَ لَهُ إِلَّا الْوَسْوَسَةُ فَحَسْبُ؟

قُلْتُ: لَمَّا كَانَتْ وَسْوَسَتُهُ إِلَيْهِ وَطَاعَتُهُ لَهُ فِيمَا وَسْوَسَ سَبَبًا فِيمَا مَسَّهُ اللَّهُ بِهِ مِنَ النَّصَبِ وَالْعَذَابِ، نَسَبَهُ إِلَيْهِ، وَقَدْ رَاعَى الْأَدَبَ فِي ذَلِكَ حَيْثُ لَمْ يَنْسِبْهُ إِلَى اللَّهِ فِي دُعَائِهِ، مَعَ أَنَّهُ فَاعِلُهُ وَلَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ إِلَّا هُوَ. وَقِيلَ: أَرَادَ مَا كَانَ يُوَسْوِسُ بِهِ إِلَيْهِ فِي مَرَضِهِ مِنْ تَعْظِيمِ مَا نَزَلَ بِهِ مِنَ الْبَلَاءِ، وَيُغْرِيهِ عَلَى الْكَرَاهَةِ وَالْجَزَعِ، فَالْتَجَأَ إِلَى اللَّهِ –تَعَالَى– فِي أَنْ يَكْفِيَهُ ذَلِكَ بِكَشْفِ الْبَلَاءِ، أَوْ بِالتَّوْفِيقِ فِي دَفْعِهِ وَرَدِّهِ بِالصَّبْرِ الْجَمِيلِ. وَرُوِيَ أَنَّهُ كَانَ يَعُودُهُ ثَلَاثَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، فَارْتَدَّ أَحَدُهُمْ، فَسَأَلَ عَنْهُ فَقِيلَ: أَلْقَى إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ: إِنَّ اللَّهَ لَا يَبْتَلِي الْأَنْبِيَاءَ وَالصَّالِحِينَ، وَذَكَرَ فِي سَبَبِ بَلَائِهِ أَنَّ رَجُلًا اسْتَغَاثَهُ عَلَى ظَالِمٍ فَلَمْ يُغِثْهُ. وَقِيلَ: كَانَتْ مَوَاشِيهِ فِي نَاحِيَةِ مَلِكٍ كَافِرٍ، فَدَاهَنَهُ وَلَمْ يَغْزُهُ. وَقِيلَ: أُعْجِبَ بِكَثْرَةِ مَالِهِ

﴿ارْكُضْ بِرِجْلِكَ﴾[1] حِكَايَةُ مَا أُجِيبَ بِهِ أَيُّوبُ، أَيِ: اضْرِبْ بِرِجْلِكَ الْأَرْضَ. وَعَنْ قَتَادَةَ: هِيَ أَرْضُ الْجَابِيَةِ فَضَرَبَهَا، فَنَبَعَتْ عَيْنٌ، فَقِيلَ: ﴿هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾[2]، أَيْ: هَذَا مَاءٌ تَغْتَسِلُ بِهِ وَتَشْرَبُ مِنْهُ، فَيَبْرَأُ بَاطِنُكَ وَظَاهِرُكَ، وَتَنْقَلِبُ مَا بِكَ قَلْبَةً. وَقِيلَ: نَبَعَتْ لَهُ عَيْنَانِ، فَاغْتَسَلَ مِنْ إِحْدَاهُمَا وَشَرِبَ مِنَ الْأُخْرَى، فَذَهَبَ الدَّاءُ مِنْ ظَاهِرِهِ وَبَاطِنِهِ بِإِذْنِ اللَّهِ، وَقِيلَ: ضَرَبَ بِرِجْلِهِ الْيُمْنَى فَنَبَعَتْ عَيْنٌ حَارَّةٌ فَاغْتَسَلَ مِنْهَا، ثُمَّ بِالْيُسْرَى فَنَبَعَتْ بَارِدَةً فَشَرِبَ مِنْهَا.

﴿رَحْمَةً مِنَّا وَذِكْرَى﴾[3]: مَفْعُولٌ لَهُمَا، وَالْمَعْنَى: أَنَّ الْهِبَةَ كَانَتْ لِلرَّحْمَةِ لَهُ وَلِتَذْكِيرِ أُولِي الْأَلْبَابِ، لِأَنَّهُمْ إِذَا سَمِعُوا بِمَا أَنْعَمْنَا بِهِ عَلَيْهِ لِصَبْرِهِ، رَغَّبَهُمْ فِي الصَّبْرِ عَلَى الْبَلَاءِ وَعَاقِبَةِ الصَّابِرِينَ وَمَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِهِمْ.

﴿وَخُذْ﴾[4] مَعْطُوفٌ عَلَى ارْكُضْ.

وَالضِّغْثُ: الْحُزْمَةُ مِنْ حَشِيشٍ أَوْ رَيْحَانٍ أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ. وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: قَبْضَةٌ مِنَ الشَّجَرِ، كَانَ حَلَفَ فِي مَرَضِهِ لَيَضْرِبَنَّ امْرَأَتَهُ مِائَةً إِذَا بَرِئَ، فَحَلَّلَ اللَّهُ يَمِينَهُ بِأَهْوَنِ شَيْءٍ عَلَيْهِ وَعَلَيْهَا لِحُسْنِ خِدْمَتِهَا إِيَّاهُ وَرِضَاهُ عَنْهَا، وَهَذِهِ الرُّخْصَةُ بَاقِيَةٌ.

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

[4] سورة ، الآية .

وَعَنِ النَّبِيِّ –صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: أَنَّهُ أَتَى بِمُخَدَّجٍ، وَقَدْ خَبُثَ بِأَمَةٍ، فَقَالَ: "خُذُوا عِثْكَالًا فِيهِ مِائَةُ شِمْرَاخٍ فَاضْرِبُوهُ بِهَا ضَرْبَةً".

وَيَجِبُ أَنْ يُصِيبَ الْمَضْرُوبُ كُلَّ وَاحِدٍ مِنَ الْمِائَةِ، إِمَّا أَطْرَافُهَا قَائِمَةً، وَإِمَّا أَعْرَاضُهَا مَبْسُوطَةً مَعَ وُجُودِ صُورَةِ الضَّرْبِ، وَكَانَ السَّبَبُ فِي يَمِينِهِ أَنَّهَا أَبْطَأَتْ عَلَيْهِ ذَاهِبَةً فِي حَاجَةٍ فَحَرَجَ صَدْرُهُ، وَقِيلَ: بَاعَتْ ذُؤَابَتَيْهَا بِرَغِيفِينِ وَكَانَتَا مُتَعَلِّقُ أَيُّوبَ إِذَا قَامَ. وَقِيلَ: قَالَ لَهَا الشَّيْطَانُ: اسْجُدِي لِي سَجْدَةً فَأَرُدُّ عَلَيْكُمْ مَالَكُمْ وَأَوْلَادَكُمْ، فَهَمَّتْ بِذَلِكَ فَأَدْرَكَتْهَا الْعِصْمَةُ، فَذَكَرَتْ ذَلِكَ لَهُ، فَحَلَفَ. وَقِيلَ: أَوْهَمَهَا الشَّيْطَانُ أَنَّ أَيُّوبَ إِذَا شَرِبَ الْخَمْرَ بَرِئَ، فَعَرَّضَتْ لَهُ بِذَلِكَ. وَقِيلَ: سَأَلَتْهُ أَنْ يُقَرِّبَ لِلشَّيْطَانِ بِعَنَاقٍ.

﴿وَجَدْنَاهُ صَابِرًا﴾[1]: عَلِمْنَاهُ صَابِرًا.

فَإِنْ قُلْتَ: كَيْفَ وَجَدَهُ صَابِرًا وَقَدْ شَكَا إِلَيْهِ مَا بِهِ وَاسْتَرْحَمَهُ؟

قُلْتُ: الشَّكْوَى إِلَى اللَّهِ عِزَّ وَعُلَا لَا تُسَمَّى جَزَعًا، وَلَقَدْ قَالَ يَعْقُوبُ –عَلَيْهِ السَّلَامُ–: ﴿إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ﴾[2]، وَكَذَلِكَ شَكْوَى الْعَلِيلِ إِلَى الطَّبِيبِ، وَذَلِكَ أَنْ أُصَبِّرَ النَّاسَ عَلَى الْبَلَاءِ لَا يَخْلُو مِنْ تَمَنِّي الْعَافِيَةِ وَطَلَبِهَا، فَإِذَا صَحَّ أَنْ يُسَمَّى صَابِرًا مَعَ تَمَنِّي الْعَافِيَةِ وَطَلَبِ الشِّفَاءِ، فَلْيُسَمِّ صَابِرًا مَعَ اللَّجَإِ إِلَى اللَّهِ –تَعَالَى–، وَالدُّعَاءِ بِكَشْفِ مَا بِهِ، وَمَعَ التَّعَالُجِ وَمُشَاوَرَةِ الْأَطِبَّاءِ، عَلَى أَنَّ أَيُّوبَ –عَلَيْهِ السَّلَامُ– كَانَ يَطْلُبُ الشِّفَاءَ خِيفَةً عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْفِتْنَةِ، حَيْثُ كَانَ الشَّيْطَانُ يُوَسْوِسُ إِلَيْهِمْ كَمَا كَانَ يُوَسْوِسُ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَوْ كَانَ نَبِيًّا لَمَا ابْتُلِيَ بِمِثْلِ مَا ابْتُلِيَ بِهِ، وَإِرَادَةُ الْقُوَّةِ عَلَى الطَّاعَةِ، فَقَدْ بَلَغَ أَمْرَهُ إِلَى أَنْ لَمْ يَبْقَ مِنْهُ إِلَّا الْقَلْبُ وَاللِّسَانُ.

وَيُرْوَى أَنَّهُ قَالَ فِي مُنَاجَاتِهِ: إِلَهِي قَدْ عَلِمْتُ أَنَّهُ لَمْ يُخَالِفْ لِسَانِي قَلْبِي، وَلَمْ يَتَّبِعْ قَلْبِي بَصَرِي، وَلَمْ يَهَبْنِي مَا مَلَكَتْ يَمِينِي، وَلَمْ آكُلْ إِلَّا وَمَعِي يَتِيمٌ، وَلَمْ أَبِتْ شَبْعَانَ وَلَا كَاسِيًا وَمَعِي جَائِعٌ أَوْ عُرْيَانُ، فَكَشَفَ اللَّهُ عَنْهُ.

﴿وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ﴾[3]

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة يُوسُفُ، الآية 86.

[3] سورة ، الآية .

﴿إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾[1] عَطْفُ بَيَانٍ لِعِبَادِنَا. وَمَنْ قَرَأَ: (عَبْدَنَا) جَعَلَ إِبْرَاهِيمَ وَحْدَهُ عَطْفُ بَيَانٍ لَهُ، ثُمَّ عَطَفَ ذُرِّيَّتَهُ عَلَى عَبْدِنَا، وَهِيَ إِسْحَاقُ وَيَعْقُوبُ، كَقِرَاءَةِ ابْنِ عَبَّاسٍ: (وَإِلَهِ أَبِيكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ).

وَلَمَّا كَانَتْ أَكْثَرُ الْأَعْمَالِ تُبَاشَرُ بِالْأَيْدِي غَلَبَتْ، فَقِيلَ: فِي كُلِّ عَمَلٍ هَذَا مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِيهِمْ، وَإِنْ كَانَ عَمَلًا لَا يَتَأَتَّى فِيهِ الْمُبَاشِرَةُ بِالْأَيْدِي، أَوْ كَانَ الْعُمَّالُ جَذْمًا لَا أَيْدِيَ لَهُمْ.

وَعَلَى ذَلِكَ وَرَدَ قَوْلُهُ –عَزَّ وَعَلَا–: ﴿أُولِي الأَيْدِي وَالأَبْصَارِ﴾[2]، يُرِيدُ: أُولِي الْأَعْمَالِ وَالْفِكْرِ، كَأَنَّ الَّذِينَ لَا يَعْمَلُونَ أَعْمَالَ الْآخِرَةِ، وَلَا يُجَاهِدُونَ فِي اللَّهِ، وَلَا يُفَكِّرُونَ أَفْكَارَ ذَوِي الدِّيَانَاتِ، وَلَا يَسْتَبْصِرُونَ فِي حُكْمِ الزَّمْنَى الَّذِينَ لَا يَقْدِرُونَ عَلَى أَعْمَالِ جَوَارِحِهِمْ وَالْمَسْلُوبِي الْعُقُولِ الَّذِينَ لَا اسْتِبْصَارَ بِهِمْ. وَفِيهِ تَعْرِيضٌ بِكُلِّ مَنْ لَمْ يَكُنْ مِنْ عُمَّالِ اللَّهِ، وَلَا مِنَ الْمُسْتَبْصِرِينَ فِي دِينِ اللَّهِ، وَتَوْبِيخٌ عَلَى تَرْكِهِمُ الْمُجَاهَدَةَ وَالتَّأَمُّلَ مَعَ كَوْنِهِمْ مُتَمَكِّنِينَ مِنْهُمَا. وَقُرِئَ: (أُولِي الْأَيَادِي) عَلَى جَمْعِ الْجَمْعِ. وَفِي قِرَاءَةِ ابْنِ مَسْعُودٍ: (أُولِي الْأَيْدِ) عَلَى طَرْحِ الْيَاءِ وَالِاكْتِفَاءِ بِالْكَسْرَةِ. وَتَفْسِيرُهُ بِالْأَيْدِ –مِنَ التَّأْيِيدِ– قَلِقٌ غَيْرُ مُتَمَكِّنٍ.

﴿أَخْلَصْنَاهُمْ﴾[3]: جَعَلْنَاهُمْ خَالِصِينَ "بِخَالِصَةٍ" بِخَصْلَةٍ خَالِصَةٍ لَا شَوْبَ فِيهَا، ثُمَّ فَسَّرَهَا "بِذِكْرَى الدَّارِ" شَهَادَةً بِذِكْرَى الدَّارِ بِالْخُلُوصِ وَالصَّفَاءِ وَانْتِفَاءِ الْكُدُورَةِ عَنْهَا. وَقُرِئَ: عَلَى الْإِضَافَةِ. وَالْمَعْنَى: بِمَا خَلُصَ مِنْ ذِكْرَى الدَّارِ، عَلَى أَنَّهُمْ لَا يَشُوبُونَ ذِكْرَى الدَّارِ بِهَمٍّ آخَرَ، إِنَّمَا هَمُّهُمْ ذِكْرَى الدَّارِ لَا غَيْرُ.

وَمَعْنَى ﴿ذِكْرَى الدَّارِ﴾[4]: ذِكْرَاهُمُ الْآخِرَةُ دَائِبًا، وَنِسْيَانُهُمْ إِلَيْهَا ذِكْرُ الدُّنْيَا، أَوْ تَذْكِيرُهُمُ الْآخِرَةَ وَتَرْغِيبُهُمْ فِيهَا، وَتَزْهِيدُهُمْ فِي الدُّنْيَا، كَمَا هُوَ شَأْنُ الْأَنْبِيَاءِ وَدَيْدَنُهُمْ. وَقِيلَ: ذِكْرَى الدَّارِ. الثَّنَاءُ الْجَمِيلُ فِي الدُّنْيَا وَلِسَانُ الصِّدْقِ الَّذِي لَيْسَ لِغَيْرِهِمْ.

فَإِنْ قُلْتَ: مَا مَعْنَى ﴿أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ﴾[5]؟

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

[4] سورة ، الآية .

[5] سورة ، الآية .

قُلْتُ: مَعْنَاهُ: أَخْلَصْنَاهُمْ بِسَبَبِ هَذِهِ الْخَصْلَةِ، وَبِأَنَّهُمْ مِنْ أَهْلِهَا. أَوْ أَخْلَصْنَاهُمْ بِتَوْفِيقِهِمْ لَهَا، وَاللُّطْفِ بِهِمْ فِي اخْتِيَارِهَا. وَتُعَضِّدُ الْأَوَّلَ قِرَاءَةَ مَنْ قَرَأَ: (بِخَالِصَتِهِمْ).

﴿الْمُصْطَفِينَ﴾[1]، أَيِ: الْمُخْتَارِينَ مِنْ أَبْنَاءِ جِنْسِهِمْ.

وَ﴿الأَخْيَارِ﴾[2] جَمْعُ خَيِّرٍ، أَوْ خَيْرٍ عَلَى التَّخْفِيفِ، كَالْأَمْوَاتِ فِي جَمْعِ مَيِّتٍ أَوْ مَيْتٍ.

﴿وَاذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ
وَكُلٌّ مِنَ الأَخْيَارِ﴾[3]

﴿وَالْيَسَعَ﴾[4] كَأَنَّ حَرْفَ التَّعْرِيفِ دَخَلَ عَلَى يَسَعُ.

وَقُرِئَ: (وَلِلْيَسَعِ)، كَأَنَّ حَرْفَ التَّعْرِيفِ دَخَلَ عَلَى لِيَسَعَ، فِيعْلٌ مِنَ اللَّسْعِ. وَالتَّنْوِينُ فِي "وَكُلٌّ" عِوَضٌ مِنَ الْمُضَافِ إِلَيْهِ، وَمَعْنَاهُ: وَكُلُّهُمْ مِنَ الْأَخْيَارِ.

﴿هَذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ جَنَّاتِ عَدْنٍ مُفَتَّحَةً لَهُمُ الأَبْوَابُ
مُتَّكِئِينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ
وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ أَتْرَابٌ﴾[5]

﴿هَذَا ذِكْرٌ﴾[6]، أَيْ: هَذَا نَوْعٌ مِنَ الذِّكْرِ وَهُوَ الْقُرْآنُ. لَمَّا أَجْرَى ذِكْرَ الْأَنْبِيَاءِ وَأَتَمَّهُ، وَهُوَ بَابٌ مِنْ أَبْوَابِ التَّنْزِيلِ، وَنَوْعٌ مِنْ أَنْوَاعِهِ، وَأَرَادَ أَنْ يَذْكُرَ عَلَى عَقِبِهِ بَابًا آخَرَ، وَهُوَ ذِكْرُ الْجَنَّةِ وَأَهْلِهَا.

---

[1] سورة ، الآية .
[2] سورة ، الآية .
[3] سورة ، الآية .
[4] سورة ، الآية .
[5] سورة ، الآية .
[6] سورة ، الآية .

قَالَ: ﴿هَذَا ذِكْرٌ﴾[1]، ثُمَّ قَالَ: ﴿وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ﴾[2]، كَمَا يَقُولُ الْجَاحِظُ فِي كُتُبِهِ: فَهَذَا بَابٌ، ثُمَّ يَشْرَعُ فِي بَابٍ آخَرَ، وَيَقُولُ الْكَاتِبُ إِذَا فَرَغَ مِنْ فَصْلٍ مِنْ كِتَابِهِ وَأَرَادَ الشُّرُوعَ فِي آخَرَ: هَذَا وَقَدْ كَانَ كَيْتَ وَكَيْتَ، وَالدَّلِيلَ عَلَيْهِ: أَنَّهُ لَمَّا أُتِمَّ ذَكَرَ أَهْلُ الْجَنَّةِ وَأَرَادَ أَنْ يُعْقِبَهُ بِذِكْرِ أَهْلِ النَّارِ.

قَالَ: ﴿هَذَا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ﴾[3]. وَقِيلَ: مَعْنَاهُ هَذَا شَرَفٌ وَذِكْرٌ جَمِيلٌ وَيُذَكِّرُونَ بِهِ أَبَدًا.

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ –رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا–: هَذَا ذِكْرُ مَنْ مَضَى مِنَ الْأَنْبِيَاءِ.

﴿جَنَّاتِ عَدْنٍ﴾[4] مَعْرِفَةٌ لِقَوْلِهِ: ﴿جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ﴾[5]، وَانْتِصَابُهَا عَلَى أَنَّهَا عَطْفُ بَيَانٍ لِحُسْنِ مَآبٍ.

و﴿مُفَتَّحَةً﴾[6] حَالٌ، وَالْعَامِلُ فِيهَا مَا فِي ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾[7] مِنْ مَعْنَى الْفِعْلِ.

وَفِي ﴿مُفَتَّحَةً﴾[8] ضَمِيرُ الْجَنَّاتِ، وَالْأَبْوَابُ بَدَلٌ مِنَ الضَّمِيرِ، تَقْدِيرُهُ: مُفَتَّحَةٌ هِيَ الْأَبْوَابُ، كَقَوْلِهِمْ: ضَرَبَ زَيْدٌ الْيَدَ وَالرِّجْلَ، وَهُوَ مِنْ بَدَلِ الِاشْتِمَالِ.

وَقُرِئَ: (جَنَّاتُ عَدْنٍ مُفَتَّحَةً) بِالرَّفْعِ، عَلَى أَنَّ جَنَّاتِ عَدْنٍ مُبْتَدَأٌ، وَمُفَتَّحَةٌ خَبَرُهُ. أَوْ كِلَاهُمَا خَبَرُ مُبْتَدَأٍ مَحْذُوفٍ، أَيْ هُوَ "جَنَّاتُ عَدْنٍ" هِيَ مُفَتَّحَةٌ لَهُمْ، كَأَنَّ اللِّدَاتِ سُمِّينَ أَتْرَابًا، لِأَنَّ التُّرَابَ مَسَّهُنَّ فِي وَقْتٍ وَاحِدٍ، وَإِنَّمَا جُعِلْنَ عَلَى سِنٍّ وَاحِدَةٍ، لِأَنَّ التَّحَابَّ بَيْنَ الْأَقْرَانِ أَثْبَتُ. وَقِيلَ: هُنَّ أَتْرَابٌ لِأَزْوَاجِهِنَّ، أَسْنَانُهُنَّ كَأَسْنَانِهِمْ .

﴿هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِنْ نَفَادٍ﴾[9]

---

[1] سورة ، الآية .
[2] سورة ، الآية .
[3] سورة ، الآية .
[4] سورة ، الآية .
[5] سورة مَرْيَمَ، الآية 61.
[6] سورة ، الآية .
[7] سورة ، الآية .
[8] سورة ، الآية .
[9] سورة ، الآية .

قُرِئَ: (يُوعِدُونَ) بِالتَّاءِ وَالْيَاءِ ﴿لِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾[1] لِأَجْلِ يَوْمِ الْحِسَابِ، كَمَا تَقُولُ: هَذَا مَا تَدَّخِرُونَهُ لِيَوْمِ الْحِسَابِ، أَيْ: لِيَوْمٍ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ .

﴿هَذَا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمِهَادُ هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ وَآخَرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ هَذَا فَوْجٌ مُقْتَحِمٌ مَعَكُمْ لا مَرْحَبًا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُو النَّارِ قَالُوا بَلْ أَنْتُمْ لا مَرْحَبًا بِكُمْ أَنْتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا فَبِئْسَ الْقَرَارُ قَالُوا رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ﴾[2]

﴿هَذَا﴾[3]، أَيِ الْأَمْرُ هَذَا، أَوْ هَذَا كَمَا ذُكِرَ.

﴿فَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾[4]، كَقَوْلِهِ: ﴿لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾[5] شِبْهُ مَا تَحْتَهُمْ مِنَ النَّارِ بِالْمِهَادِ الَّذِي يَفْتَرِشُهُ النَّائِمُ، أَيْ: هَذَا حَمِيمٌ فَلْيَذُوقُوهُ. أَوِ الْعَذَابُ هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ، ثُمَّ ابْتَدَأَ فَقَالَ: هُوَ ﴿حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ﴾[6] أَوْ: هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ بِمَنْزِلَةِ ﴿وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾[7]، أَيْ: لِيَذُوقُوا هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ، وَالْغَسَّاقُ -بِالتَّخْفِيفِ وَالتَّشْدِيدِ-: مَا يَغْسِقُ مِنْ صَدِيدِ أَهْلِ النَّارِ، يُقَالُ: غَسَقَتِ الْعَيْنُ، إِذَا سَالَ دَمْعُهَا. وَقِيلَ: الْحَمِيمُ يَحْرِقُ بِحَرِّهِ، وَالْغَسَّاقُ يَحْرِقُ بِبَرْدِهِ. وَقِيلَ: لَوْ قُطِرَتْ مِنْهُ قَطْرَةٌ فِي الْمَشْرِقِ لَنَتَنَتْ أَهْلَ الْمَغْرِبِ، وَلَوْ قُطِرَتْ مِنْهُ قَطْرَةٌ فِي الْمَغْرِبِ لَنَتَنَتْ أَهْلَ الْمَشْرِقِ.

وَعَنِ الْحَسَنِ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ-: الْغَسَّاقُ: عَذَابٌ لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا اللَّهُ -تَعَالَى-، إِنَّ النَّاسَ أَخْفَقُوا لِلَّهِ طَاعَةً، فَأَخْفَى لَهُمْ ثَوَابًا فِي قَوْلِهِ: ﴿فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾[8]، وَأَخْفَوْا مَعْصِيَةً فَأَخْفَى لَهُمْ عُقُوبَةً.

---

[1] سورة ، الآية .
[2] سورة ، الآية .
[3] سورة ، الآية .
[4] سورة ، الآية .
[5] سورة الْأَعْرَافُ، الآية 41.
[6] سورة ، الآية .
[7] سورة الْبَقَرَةِ، الآية 40.
[8] سورة السَّجْدَةُ، الآية 17.

﴿وَآخَرُ﴾[1]: وَمَذُوقَاتٌ أُخَرُ مِنْ شَكْلِ هَذَا الْمَذُوقِ مِنْ مِثْلِهِ فِي الشِّدَّةِ وَالْفَظَاعَةِ.

﴿أَزْوَاجٌ﴾[2]: أَجْنَاسٌ. وَقُرِئَ: (وَآخَرُ) أَيْ: وَعَذَابٌ آخَرُ، أَوْ مَذُوقٌ آخَرُ. وَأَزْوَاجٌ: صِفَةٌ لِآخَرَ، لِأَنَّهُ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ ضُرُوبًا، أَوْ صِفَةً لِلثَّلَاثَةِ وَهِيَ: حَمِيمٌ، وَغَسَّاقٌ، وَآخَرُ مِنْ شَكْلِهِ. وَقُرِئَ: (مِنْ شِكْلِهِ) بِالْكَسْرِ وَهِيَ لُغَةٌ. وَأَمَّا الْغِنْجُ فَبِالْكَسْرِ لَا غَيْرُ.

﴿هَذَا فَوْجٌ مُقْتَحِمٌ مَعَكُمْ﴾[3]: هَذَا جَمْعٌ كَثِيفٌ قَدِ اقْتَحَمَ مَعَكُمُ النَّارَ، أَيْ: دَخَلَ النَّارَ فِي صُحْبَتِكُمْ وَقِرَانِكُمْ، وَالِاقْتِحَامُ: رُكُوبُ الشِّدَّةِ وَالدُّخُولُ فيها. وَالْقَحْمَةُ: الشِّدَّةُ.

وَهَذِهِ حِكَايَةُ كَلَامِ الطَّاغِينَ بَعْضُهُمْ مَعَ بَعْضٍ، أَيْ: يَقُولُونَ هَذَا. وَالْمُرَادُ بِالْفَوْجِ: أَتْبَاعُهُمُ الَّذِينَ اقْتَحَمُوا مَعَهُمُ الضَّلَالَةَ، فيقْتَحِمُونَ مَعَهُمُ الْعَذَابَ.

﴿لا مَرْحَبًا بِهِمْ﴾[4]: دُعَاءٌ مِنْهُمْ عَلَى أَتْبَاعِهِمْ. تَقُولُ لِمَنْ تَدْعُو لَهُ: مَرْحَبًا، أَيْ: أَتَيْتَ رَحْبًا مِنَ الْبِلَادِ لَا ضَيْقًا، أَوْ رَحُبَتْ بِلَادُكَ رَحْبًا، ثُمَّ تَدْخُلُ عَلَيْهِ ﴿لَا﴾[5] فِي دُعَاءِ السُّوءِ. وَ﴿بِهِمْ﴾[6] بَيَانٌ لِلْمَدْعُوِّ عَلَيْهِمْ.

﴿إِنَّهُمْ صَالُو النَّارِ﴾[7]: تَعْلِيلُ اسْتِيجَابِهِمْ لِلدُّعَاءِ عَلَيْهِمْ. وَنَحْوُهُ قَوْلُهُ -تَعَالَى-: ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا﴾[8]، وَقِيلَ: هَذَا فَوْجٌ مُقْتَحِمٌ مَعَكُمْ، كَلَامُ الْخَزَنَةِ لِرُؤَسَاءِ الْكَفَرَةِ فِي أَتْبَاعِهِمْ.

وَ﴿لا مَرْحَبًا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُو النَّارِ﴾[9] كَلَامُ الرُّؤَسَاءِ. وَقِيلَ: هَذَا كُلُّهُ كَلَامُ الْخَزَنَةِ.

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

[4] سورة ، الآية .

[5] سورة ، الآية .

[6] سورة ، الآية .

[7] سورة ، الآية .

[8] سورة الْأَعْرَافُ، الآية 38.

[9] سورة ، الآية .

﴿قَالُواْ﴾[1]، أَيِ: الْأَتْبَاعُ، ﴿بَلْ أَنْتُمْ لا مَرْحَبًا بِكُمْ﴾[2]، يُرِيدُونَ: الدُّعَاءَ الَّذِي دَعَوْتُمْ بِهِ عَلَيْنَا أَنْتُمْ أَحَقُّ بِهِ، وَعَلَّلُوا ذَلِكَ بِقَوْلِهِمْ: ﴿أَنْتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا﴾[3]، وَالضَّمِيرُ لِلْعَذَابِ أَوْ لِصُلْبِهِمْ.

فَإِنْ قُلْتَ: مَا مَعْنَى تَقْدِيمُهُمُ الْعَذَابَ لَهُمْ؟

قُلْتُ: الْمُقَدَّمُ هُوَ عَمَلُ السُّوءِ. قَالَ اللَّهُ –تَعَالَى–: ﴿ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ﴾[4]، وَلَكِنَّ الرُّؤَسَاءَ لَمَّا كَانُوا السَّبَبَ فِيهِ بِإِغْوَائِهِمْ وَكَانَ الْعَذَابُ جَزَاءَهُمْ عَلَيْهِ، قِيلَ: أَنْتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا، فَجُعِلَ الرُّؤَسَاءُ هُمُ الْمُقْدِمِينَ، وَجُعِلَ الْجَزَاءُ هُوَ الْمُقَدَّمُ، فَجَمَعَ بَيْنَ مَجَازَيْنِ، لِأَنَّ الْعَامِلِينَ هُمُ الْمُقْدِمُونَ فِي الْحَقِيقَةِ لَا رُؤَسَاؤُهُمْ، وَالْعَمَلُ هُوَ الْمُقَدَّمُ لَا جَزَاؤُهُ.

فَإِنْ قُلْتَ: فَالَّذِي جَعَلَ قَوْلَهُ: ﴿لا مَرْحَبًا بِهِمْ﴾[5] مِنْ كَلَامِ الْخَزَنَةِ مَا يَصْنَعُ بِقَوْلِهِ: ﴿بَلْ أَنْتُمْ لا مَرْحَبًا بِكُمْ﴾[6]، وَالْمُخَاطَبُونَ –أَعْنِي رُؤَسَاءَهُمْ– لَمْ يَتَكَلَّمُوا بِمَا يَكُونُ هَذَا جَوَابًا لَهُمْ؟

قُلْتُ: كَأَنَّهُ قِيلَ: هَذَا الَّذِي دَعَا بِهِ عَلَيْنَا الْخَزَنَةُ أَنْتُمْ يَا رُؤَسَاءُ أَحَقُّ بِهِ مِنَّا لِإِغْوَائِكُمْ إِيَّانَا وَتَسَبُّبِكُمْ فِيمَا نَحْنُ فِيهِ مِنَ الْعَذَابِ، وَهَذَا صَحِيحٌ، كَمَا لَوْ زَيَّنَ قَوْمٌ لِقَوْمٍ بَعْضَ الْمَسَاوِي فَارْتَكَبُوهُ، فَقِيلَ لِلْمُزَيِّنِينَ: أَخْزَى اللَّهُ هَؤُلَاءِ مَا أَسْوَأَ فِعْلَهُمْ؟ فَقَالَ الْمُزَيَّنُ لَهُمْ لِلْمُزَيِّنِينَ: بَلْ أَنْتُمْ أَوْلَى بِالْخِزْيِ مِنَّا، فَلَوْلَا أَنْتُمْ لَمْ نَرْتَكِبْ ذَلِكَ، ﴿قَالُواْ﴾[7] هُمُ الْأَتْبَاعُ أَيْضًا، ﴿فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا﴾[8]، أَيْ: مُضَاعَفًا، وَمَعْنَاهُ: ذَا ضِعْفٍ: وَنَحْوُهُ قَوْلُهُ –تَعَالَى–: ﴿رَبَّنَا هَؤُلاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا﴾[9]، وَهُوَ أَنْ يَزِيدَ عَلَى عَذَابِهِ مِثْلَهُ فَيَصِيرُ ضِعْفَيْنِ،

---

[1] سورة ، الآية .
[2] سورة ، الآية .
[3] سورة ، الآية .
[4] سورة الْأَنْفَالُ، الآيتان 50–51.
[5] سورة ، الآية .
[6] سورة ، الآية .
[7] سورة ، الآية .
[8] سورة ، الآية .
[9] سورة الْأَعْرَافُ، الآية 38.

كَقَوْلِهِ –عَزَّ وَجَلَّ–: ﴿رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ﴾[1]، وَجَاءَ فِي التَّفْسِيرِ: ﴿عَذَابًا ضِعْفًا﴾[2]: حَيَّاتٌ وَأَفَاعِي.

## ﴿وَقَالُوا مَا لَنَا لا نَرَى رِجَالا كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الأَشْرَارِ أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الأَبْصَارُ﴾[3]

﴿وَقَالُوا﴾[4]: الضَّمِيرُ لِلطَّاغِينَ.

﴿رِجَالًا﴾[5] يَعْنُونَ فُقَرَاءَ الْمُسْلِمِينَ الَّذِينَ لَا يَؤْبَهُ لَهُمْ

﴿مِنَ الأَشْرَارِ﴾[6] مَنَّ الْأَرَاذِلِ الَّذِينَ لَا خَيْرَ فِيهِمْ وَلَا جَدْوَى، وَلِأَنَّهُمْ كَانُوا عَلَى خِلَافِ دِينِهِمْ، فَكَانُوا عِنْدَهُمْ أَشْرَارًا.

﴿أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا﴾[7] قُرِئَ: بِلَفْظِ الْإِخْبَارِ عَلَى أَنَّهُ صِفَةٌ لـ ﴿رِجَالًا﴾[8]، مِثْلَ قَوْلِهِ: ﴿كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الأَشْرَارِ﴾[9]، وَبِهَمْزَةِ الِاسْتِفْهَامِ عَلَى أَنَّهُ إِنْكَارٌ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَتَأْنِيبٌ لَهَا فِي الِاسْتِسْخَارِ مِنْهُمْ.

وَقَوْلُهُ: ﴿أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الأَبْصَارُ﴾[10] لَهُ وَجْهَانِ مِنَ الِاتِّصَالِ:

– أَحَدُهُمَا: أَنْ يَتَّصِلَ بِقَوْلِهِ: ﴿مَا لَنَا﴾[11]، أَيْ: مَا لَنَا لَا نَرَاهُمْ فِي النَّارِ؟ كَأَنَّهُمْ لَيْسُوا فِيهَا بَلْ أَزَاغَتْ أَبْصَارُنَا فَلَا نَرَاهُمْ وَهُمْ فِيهَا: قَسَّمُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَ أَنْ يَكُونُوا مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، وَبَيْنَ أَنْ يَكُونُوا مِنْ أَهْلِ النَّارِ. إِلَّا أَنَّهُ خَفِيَ عَلَيْهِمْ مَكَانُهُمْ.

---

[1] سورة الْأَحْزَابُ، الآية 68.
[2] سورة ، الآية .
[3] سورة ، الآية .
[4] سورة ، الآية .
[5] سورة ، الآية .
[6] سورة ، الآية .
[7] سورة ، الآية .
[8] سورة ، الآية .
[9] سورة ، الآية .
[10] سورة ، الآية .
[11] سورة ، الآية .

– وَالْوَجْهُ الثَّانِي: أَنْ يَتَّصِلَ بِـ ﴿اتَّخَذْنَاهُمْ سُخْرِيًّا﴾[1]، إِمَّا أَنْ تَكُونَ أَمْ مُتَّصِلَةً عَلَى مَعْنَى: أَيُّ الْفِعْلَيْنِ فَعَلْنَا بِهِمُ الِاسْتِسْخَارَ مِنْهُمْ، أَمِ الِازْدِرَاءُ بِهِمْ وَالتَّحْقِيرُ، وَأَنَّ أَبْصَارَنَا كَانَتْ تَعْلُو عَنْهُمْ وَتَقْتَحِمُهُمْ، عَلَى مَعْنَى إِنْكَارِ الْأَمْرَيْنِ جَمِيعًا عَلَى أَنْفُسِهِمْ، وَعَنِ الْحَسَنِ: كُلُّ ذَلِكَ قَدْ فَعَلُوا، اتَّخَذُوهُمْ سُخْرِيًّا وَزَاغَتْ عَنْهُمْ أَبْصَارُهُمْ مُحَقِّرَةً لَهُمْ.

وَإِمَّا أَنْ تَكُونَ مُنْقَطِعَةً بَعْدَ مُضِيِّ ﴿أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا﴾[2] عَلَى الْخَبَرِ أَوِ الِاسْتِفْهَامِ، كَقَوْلِكَ: إِنَّهَا إِبِلٌ أَمْ شَاءٌ، وَأَزَيْدٌ عِنْدَكَ أَمْ عِنْدَكَ عَمْرٌو، وَلَكَ أَنْ تُقَدِّرَ هَمْزَةَ الِاسْتِفْهَامِ مَحْذُوفَةً فِيمَنْ قَرَأَ بِغَيْرِ هَمْزَتِهِ، لِأَنَّ ﴿أَمْ﴾[3] تَدُلُّ عَلَيْهَا، فَلَا تَفْتَرِقُ الْقِرَاءَتَانِ، إِثْبَاتُ هَمْزَةِ الِاسْتِفْهَامِ وَحَذْفُهَا.

وَقِيلَ: الضَّمِيرُ فِي ﴿وَقَالُوا﴾[4] لِصَنَادِيدِ قُرَيْشٍ، كَأَبِي جَهْلٍ وَالْوَلِيدُ وَأَضْرَابُهُمَا، وَالرِّجَالُ: عَمَّارٌ وَصُهَيْبٌ وَبِلَالٌ وَأَشْبَاهُهُمْ.

وَقُرِئَ: (سُخْرِيًّا) بِالضَّمِّ وَالْكَسْرِ.

## ﴿إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ﴾[5]

﴿إِنَّ ذَلِكَ﴾[6]، أَيِ: الَّذِي حَكَيْنَا عَنْهُمْ "لَحَقٌّ" لَا بُدَّ أَنْ يَتَكَلَّمُوا بِهِ، ثُمَّ بَيَّنَ مَا هُوَ، فَقَالَ هُوَ ﴿تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ﴾[7]. وَقُرِئَ بِالنَّصْبِ عَلَى أَنَّهُ صِفَةٌ لِذَلِكَ، لِأَنَّ أَسْمَاءَ الْإِشَارَةِ تُوصَفُ بِأَسْمَاءِ الْأَجْنَاسِ.

فَإِنْ قُلْتَ: لِمَ سُمِّيَ ذَلِكَ تَخَاصُمًا؟

قُلْتُ: شَبَّهَ تُقَاوُلَهُمْ وَمَا يَجْرِي بَيْنَهُمْ مِنَ السُّؤَالِ وَالْجَوَابِ بِمَا يَجْرِي بَيْنَ الْمُتَخَاصِمِينَ مِنْ نَحْوِ ذَلِكَ، وَلِأَنَّ قَوْلَ الرُّؤَسَاءِ: لَا مَرْحَبًا بِهِمْ، وَقَوْلُ أَتْبَاعِهِمْ: بَلْ أَنْتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ، مِنْ بَابِ الْخُصُومَةِ، فَسُمِّيَ التَّقَاوُلُ كُلُّهُ تَخَاصُمًا لِأَجْلِ اشْتِمَالِهِ عَلَى ذَلِكَ .

---

[1] سورة ، الآية .
[2] سورة ، الآية .
[3] سورة ، الآية .
[4] سورة ، الآية .
[5] سورة ، الآية .
[6] سورة ، الآية .
[7] سورة ، الآية .

﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنْذِرٌ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ﴾[1]

﴿قُلْ﴾[2] يَا مُحَمَّدُ لِمُشْرِكِي مَكَّةَ: مَا أَنَا إِلَّا رَسُولٌ ﴿مُنْذِرٌ﴾[3] أُنْذِرُكُمْ عَذَابَ اللَّهِ لِلْمُشْرِكِينَ، وَأَقُولُ لَكُمْ: إِنَّ دِينَ الْحَقِّ تَوْحِيدُ اللَّهِ وَأَنْ يَعْتَقِدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، ﴿الْوَاحِدُ﴾[4] بِلَا نِدٍّ وَلَا شَرِيكٍ، ﴿الْقَهَّارُ﴾[5] لِكُلِّ شَيْءٍ، وَأَنَّ الْمُلْكَ وَالرُّبُوبِيَّةَ لَهُ فِي الْعَالَمِ كُلِّهِ، وَهُوَ ﴿الْعَزِيزُ﴾[6] الَّذِي لَا يُغْلَبُ إِذَا عَاقَبَ الْعُصَاةَ، وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ ﴿الْغَفَّارُ﴾[7] لِذُنُوبِ مَنِ الْتَجَأَ إِلَيْهِ. أَوْ قُلْ لَهُمْ: مَا أَنَا إِلَّا مُنْذِرٌ لَكُمْ مَا أَعْلَمُ، وَأَنَا أُنْذِرُكُمْ عُقُوبَةَ مَنْ هَذِهِ صِفَتُهُ، فَإِنَّ مَثَلَهُ حَقِيقٌ بِأَنْ يَخَافَ عِقَابَهُ، كَمَا هُوَ حَقِيقٌ بِأَنْ يُرْجَى ثَوَابُهُ.

﴿قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلإِ الأَعْلَى إِذْ يَخْتَصِمُونَ إِنْ يُوحَى إِلَيَّ إِلا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾[8]

﴿قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ﴾[9]، أَيْ: هَذَا الَّذِي أَنْبَأْتُكُمْ بِهِ –مِنْ كَوْنِي رَسُولًا مُنْذِرًا، وَأَنَّ اللَّهَ وَاحِدٌ لَا شَرِيكَ لَهُ– نَبَأٌ عَظِيمٌ لَا يُعْرِضُ عَنْ مَثَلِهِ إِلَّا غَافِلٌ شَدِيدُ الْغَفْلَةِ.

ثُمَّ احْتَجَّ لِصِحَّةِ نُبُوَّتِهِ بِأَنَّ مَا يُنْبِئُ بِهِ عَلَى الْمَلَأِ الْأَعْلَى وَاخْتِصَامُهُمْ أَمْرَ مَا كَانَ لَهُ بِهِ مِنْ عِلْمٍ قَطُّ، ثُمَّ عَلِمَهُ وَلَمْ يَسْلُكِ الطَّرِيقَ الَّذِي يَسْلُكُهُ النَّاسُ فِي عِلْمِ مَا لَمْ يَعْلَمُوا، وَهُوَ الْأَخْذُ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ وَقِرَاءَةِ الْكُتُبِ، فَعَلِمَ أَنَّ ذَلِكَ لَمْ يَحْصُلْ إِلَّا بِالْوَحْيِ مِنَ اللَّهِ.

---

[1] سورة ، الآية .
[2] سورة ، الآية .
[3] سورة ، الآية .
[4] سورة ، الآية .
[5] سورة ، الآية .
[6] سورة ، الآية .
[7] سورة ، الآية .
[8] سورة ، الآية .
[9] سورة ، الآية .

﴿إِنْ يُوحَى إِلَيَّ إِلا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ﴾[1]، أَيْ: لِأَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ. وَمَعْنَاهُ: مَا يُوحَى إِلَيَّ إِلَّا لِلْإِنْذَارِ، فَحَذَفَ اللَّامَ وَانْتَصَبَ بِإِفْضَاءِ الْفِعْلِ إِلَيْهِ. وَيَجُوزُ أَنْ يَرْتَفِعَ عَلَى مَعْنَى: مَا يُوحَى إِلَيَّ إِلَّا هَذَا، وَهُوَ أَنْ أُنْذِرَ وَأُبَلِّغَ وَلَا أُفَرِّطَ فِي ذَلِكَ، أَيْ: مَا أُومَرُ إِلَّا بِهَذَا الْأَمْرِ وَحْدَهُ، وَلَيْسَ إِلَيَّ غَيْرُ ذَلِكَ. وَقُرِئَ: (إِنَّمَا) بِالْكَسْرِ عَلَى الْحِكَايَةِ، أَيْ: إِلَّا هَذَا الْقَوْلُ، وَهُوَ أَنْ أَقُولَ لَكُمْ: إِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ وَلَا أَدَّعِي شَيْئًا آخَرَ. وَقِيلَ: النَّبَأُ الْعَظِيمُ: قَصَصُ آدَمَ –عَلَيْهِ السَّلَامُ– وَالْإِنْبَاءُ بِهِ مِنْ غَيْرِ سَمَاعٍ مِنْ أَحَدٍ، وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: الْقُرْآنُ. وَعَنِ الْحَسَنِ: يَوْمُ الْقِيَامَةِ.

فَإِنْ قُلْتَ: بِمَ يَتَعَلَّقُ ﴿إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾[2]؟

قُلْتُ: بِمَحْذُوفٍ، لِأَنَّ الْمَعْنَى: مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِكَلَامِ الْمَلَأِ الْأَعْلَى وَقْتَ اخْتِصَامِهِمْ، وَ﴿إِذْ قَالَ﴾[3] بَدَلٌ مِنْ ﴿إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾[4].

فَإِنْ قُلْتَ: مَا الْمُرَادُ بِالْمَلَأِ الْأَعْلَى؟

قُلْتُ: أَصْحَابُ الْقِصَّةِ الْمَلَائِكَةُ وَآدَمُ وَإِبْلِيسُ، لِأَنَّهُمْ كَانُوا فِي السَّمَاءِ وَكَانَ التَّقَاوُلُ بَيْنَهُمْ.

فَإِنْ قُلْتَ: مَا كَانَ التَّقَاوُلُ بَيْنَهُمْ إِنَّمَا كَانَ بَيْنَ اللَّهِ –تَعَالَى– وَبَيْنَهُمْ، لِأَنَّ اللَّهَ –سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى– هُوَ الَّذِي قَالَ لَهُمْ وَقَالُوا لَهُ، فَأَنْتَ بَيْنَ أَمْرَيْنِ: إِمَّا أَنْ تَقُولَ الْمَلَأُ الْأَعْلَى هَؤُلَاءِ، وَكَانَ التَّقَاوُلُ بَيْنَهُمْ وَلَمْ يَكُنِ التَّفَاؤُلُ بَيْنَهُمْ، وَإِمَّا أَنْ تَقُولَ: التَّقَاوُلُ كَانَ بَيْنَ اللَّهِ وَبَيْنَهُمْ، فَقَدْ جَعَلْتَهُ مِنَ الْمَلَأِ الْأَعْلَى.

قُلْتُ: كَانَتْ مُقَاوَلَةُ اللَّهِ –سُبْحَانَهُ– بِوَاسِطَةِ مَلَكٍ، فَكَانَ الْمُقَاوِلُ فِي الْحَقِيقَةِ هُوَ الْمَلِكُ الْمُتَوَسِّطُ، فَصَحَّ أَنَّ التَّقَاوُلَ كَانَ بَيْنَ الْمَلَائِكَةِ وَآدَمَ وَإِبْلِيسَ، وَهُمُ الْمَلَأُ الْأَعْلَى. وَالْمُرَادُ بِالِاخْتِصَامِ: التَّقَاوُلُ عَلَى مَا سَبَقَ.

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

[4] سورة ، الآية .

﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾[1]

فَإِنْ قُلْتَ: كَيْفَ صَحَّ أَنْ يَقُولَ لَهُمْ :إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا وَمَا عَرَفُوا مَا الْبَشَرُ وَلَا عَهِدُوا بِهِ قَبْلُ؟

قُلْتُ: وَجْهُهُ أَنْ يَكُونَ قَدْ قَالَ لَهُمْ: إِنِّي خَالِقٌ خَلْقًا مِنْ صِفَتِهِ كَيْتُ وَكَيْتُ، وَلَكِنَّهُ حِينَ حَكَاهُ اقْتَصَرَ عَلَى الِاسْمِ، فَإِذَا سَوَّيْتُهُ فَإِذَا أَتْمَمْتَ خَلْقَهُ وَعَدَّلْتَهُ .وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي وَأَحْيَيْتَهُ وَجَعَلْتَهُ حَسَّاسًا مُتَنَفِّسًا "فَقَعُواْ" فَخَرُّوا، كُلٌّ: لِلْإِحَاطَةِ. وَأَجْمَعُونَ: لِلِاجْتِمَاعِ، فَأَفَادَا مَعًا أَنَّهُمْ سَجَدُوا عَنْ آخِرِهِمْ مَا بَقِيَ مِنْهُمْ مَلَكٌ إِلَّا سَجَدُوا، وَأَنَّهُمْ سَجَدُوا جَمِيعًا فِي وَقْتٍ وَاحِدٍ غَيْرِ مُتَفَرِّقِينَ فِي أَوْقَاتٍ.

فَإِنْ قُلْتَ: كَيْفَ سَاغَ السُّجُودُ لِغَيْرِ اللَّهِ؟

قُلْتُ: الَّذِي لَا يَسُوغُ هُوَ السُّجُودُ لِغَيْرِ اللَّهِ عَلَى وَجْهِ الْعِبَادَةِ، فَأَمَّا عَلَى وَجْهِ التَّكْرِمَةِ وَالتَّبْجِيلِ فَلَا يَأْبَاهُ الْعَقْلُ، إِلَّا أَنْ يَعْلَمَ اللَّهُ فِيهِ مَفْسَدَةً فَيَنْهَى عَنْهُ،

فَإِنْ قُلْتَ: كَيْفَ اسْتَثْنَى إِبْلِيسَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ وَهُوَ مِنَ الْجِنِّ؟

قُلْتُ: قَدْ أُمِرَ بِالسُّجُودِ مَعَهُمْ فَغُلِبُوا عَلَيْهِ فِي قَوْلِهِ: ﴿فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ﴾[2]؛ ثُمَّ اسْتَثْنَى كَمَا يُسْتَثْنَى الْوَاحِدُ مِنْهُمُ اسْتِثْنَاءً مُتَّصِلًا، ﴿وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾[3]، أُرِيدَ: وُجُودُ كُفْرِهِ ذَلِكَ الْوَقْتِ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ قَبْلَهُ كَافِرًا، لِأَنَّ ﴿كَانَ﴾[4] مُطْلَقٌ فِي جِنْسِ الْأَوْقَاتِ الْمَاضِيَةِ، فَهُوَ صَالِحٌ لِأَيِّهَا شِئْتَ، وَيَجُوزُ أَنْ يُرَادَ: وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ فِي الْأَزْمِنَةِ الْمَاضِيَةِ فِي عِلْمِ اللَّهِ.

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة ، الآية .

[4] سورة ، الآية .

﴿قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾[1]

فَإِنْ قُلْتَ: مَا وَجْهُ قَوْلِهِ: ﴿خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾[2]؟

قُلْتُ: قَدْ سَبَقَ لَنَا أَنَّ ذَا الْيَدَيْنِ يُبَاشِرُ أَكْثَرَ أَعْمَالِهِ بِيَدَيْهِ، فَغَلَبَتِ الْعَمَلَ بِالْيَدَيْنِ عَلَى سَائِرِ الْأَعْمَالِ الَّتِي تُبَاشِرُ بِغَيْرِهِمَا، حَتَّى قِيلَ فِي عَمَلِ الْقَلْبِ: هُوَ مِمَّا عَمِلَتْ يَدَاكَ، وَحَتَّى قِيلَ لِمَنْ لَا يَدِي لَهُ: يَدَاكَ أَوْكَتَا وَفُوكَ نَفْخٌ، وَحَتَّى لَمْ يَبْقَ فَرْقٌ بَيْنَ قَوْلِكَ: هَذَا مِمَّا عَمِلَتْهُ، وَهَذَا مِمَّا عَمِلَتْهُ يَدَاكَ. وَمِنْهُ قَوْلُهُ –تَعَالَى–: ﴿مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا﴾[3]، وَ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾[4].

فَإِنْ قُلْتَ: فَمَا مَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾[5]؟

قُلْتُ: الْوَجْهُ الَّذِي اسْتَنْكَرَ لَهُ إِبْلِيسُ السُّجُودَ لِآدَمَ، وَاسْتَنْكَفَ مِنْهُ أَنَّهُ سُجُودٌ لِمَخْلُوقٍ، فَذَهَبَ بِنَفْسِهِ، وَتَكَبَّرَ أَنْ يَكُونَ سُجُودُهُ لِغَيْرِ الْخَالِقِ، وَانْضَمَّ إِلَى ذَلِكَ أَنَّ آدَمَ مَخْلُوقٌ مِنْ طِينٍ، وَهُوَ مَخْلُوقٌ مِنْ نَارٍ. وَرَأَى لِلنَّارِ فَضْلًا عَلَى الطِّينِ، فَاسْتَعْظَمَ أَنْ يَسْجُدَ لِمَخْلُوقٍ مَعَ فَضْلِهِ عَلَيْهِ فِي الْمَنْصِبِ، وَزَلَّ عَنْهُ أَنَّ اللَّهَ –سُبْحَانَهُ– حِينَ أَمَرَ بِهِ أَعَزَّ عِبَادَهُ عَلَيْهِ وَأَقْرَبَهُمْ مِنْهُ زُلْفى وَهُمُ الْمَلَائِكَةُ، وَهُمْ أَحَقُّ بِأَنْ يَذْهَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنِ التَّوَاضُعِ لِلْبَشَرِ الضَّئِيلِ، وَيَسْتَنْكِفُوا مِنَ السُّجُودِ لَهُ مِنْ غَيْرِهِمْ، ثُمَّ لَمْ يَفْعَلُوا وَتَبِعُوا أَمْرَ اللَّهِ وَجَعَلُوهُ قُدَّامَ أَعْيُنِهِمْ، وَلَمْ يَلْتَفِتُوا إِلَى التَّفَاوُتِ بَيْنَ السَّاجِدِ وَالْمَسْجُودِ لَهُ، تَعْظِيمًا لِأَمْرِ رَبِّهِمْ وَإِجْلَالًا لِخِطَابِهِ –كَانَ هُوَ مَعَ انْحِطَاطِهِ عَنْ مَرَاتِبِهِمْ حَرِيٌّ بِأَنْ يَقْتَدِيَ بِهِمْ وَيَقْتَفِي أَثَرَهُمْ، وَيَعْلَمَ أَنَّهُمْ فِي السُّجُودِ لِمَنْ هُوَ دُونَهُمْ بِأَمْرِ اللَّهِ أَوْغَلَ فِي عِبَادَتِهِ مِنْهُمْ فِي السُّجُودِ لَهُ، لِمَا فِيهِ مِنْ طَرْحِ الْكِبْرِيَاءِ وَخَفْضِ الْجَنَاحِ، فَقِيلَ لَهُ: مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَّا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ؟ أَيْ: مَا مَنَعَكَ مِنَ السُّجُودِ لِشَيْءٍ هُوَ كَمَا تَقُولُ مَخْلُوقٌ خَلَقْتُهُ بِيَدِي– لَا شَكَّ فِي كَوْنِهِ

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة ، الآية .

[3] سورة يس، الآية 71.

[4] سورة ، الآية .

[5] سورة ص، الآية 75.

مَخْلُوقًا امْتِثَالًا لِأَمْرِي وَإِعْظَامًا لِخِطَابِي كَمَا فَعَلَتِ الْمَلَائِكَةُ؟ فَذَكَرَ لَهُ مَا تَرَكَهُ مِنَ السُّجُودِ مَعَ ذِكْرِ الْعِلَّةِ الَّتِي تَشَبَّثَ بِهَا فِي تَرْكِهِ.

وَقِيلَ لَهُ: لِمَ تَرَكْتَهُ مَعَ وُجُودِ هَذِهِ الْعِلَّةِ، وَقَدْ أَمَرَكَ اللَّهُ بِهِ؟ يَعْنِي: كَانَ عَلَيْكَ أَنْ تَعْتَبِرَ أَمْرَ اللَّهِ وَلَا تَعْتَبِرَ هَذِهِ الْعِلَّةَ، وَمِثَالُهُ: أَنْ يَأْمُرَ الْمَلِكُ وَزِيرَهُ أَنْ يَزُورَ بَعْضَ سِقَاطِ الْحَشَمِ فيمْتَنِعُ اعْتِبَارًا لِسُقُوطِهِ، فيقُولُ لَهُ: مَا مَنَعَكَ أَنْ تَتَوَاضَعَ لِمَنْ لَا يَخْفى عَلَيَّ سُقُوطُهُ، يُرِيدُ: هَلَّا اعْتَبَرْتَ أَمْرِي وَخِطَابِي وَتَرَكْتَ اعْتِبَارَ سُقُوطِهِ، وَفيهِ: أَنِّي خَلَقْتُهُ بِيَدَيَّ، فَأَنَا أَعْلَمُ بِحَالِهِ، وَمَعَ ذَلِكَ أَمَرْتُ الْمَلَائِكَةَ بِأَنْ يَسْجُدُوا لَهُ لِدَاعِي حِكْمَةٍ دَعَانِي إِلَيْهِ: مَنْ إِنْعَامٍ عَلَيْهِ بِالتَّكْرِمَةِ السُّنِّيَّةِ وَابْتِلَاءٌ لِلْمَلَائِكَةِ، فَمَنْ أَنْتَ حَتَّى يَصْرِفَكَ عَنِ السُّجُودِ لَهُ، مَا لَمْ يَصْرِفْنِي عَنِ الْأَمْرِ بِالسُّجُودِ لَهُ؟

وَقِيلَ: مَعْنَى ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾[1] لَمَّا خُلِقَتْ بِغَيْرِ وَاسِطَةٍ. وَقُرِئَ: (بِيَدِي) كَمَا قُرِئَ: (بِمُصْرِخِيَّ)، وَقُرِئَ: (بِيَدِي) عَلَى التَّوْحِيدِ.

﴿مِنَ الْعَالِينَ﴾[2] مِمَّنْ عَلَوْتَ وُفِّقْتَ، فَأَجَابَ بِأَنَّهُ مِنَ الْعَالِينَ حَيْثُ ﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ﴾[3]، وَقِيلَ: "أَسْتَكْبَرْتَ" الْآنَ، أَمْ لَمْ تَزَلْ مُنْذُ كُنْتَ مِنَ الْمُسْتَكْبِرِينَ. وَمَعْنَى الْهَمْزَةِ: التَّقْرِيرُ، وَقُرِئَ: (اسْتَكْبَرْتَ) بِحَذْفِ حَرْفِ الِاسْتِفْهَامِ، لِأَنَّ أَمْ تَدُلُّ عَلَيْهِ، أَوْ بِمَعْنَى الْإِخْبَارِ.

هَذَا عَلَى سَبِيلِ الْأَوْلَى، أَيْ: لَوْ كَانَ مَخْلُوقًا مِنْ نَارٍ لَمَا سَجَدْتَ لَهُ، لِأَنَّهُ مَخْلُوقٌ مِثْلِي، فَكَيْفَ أَسْجُدُ لِمَنْ هُوَ دُونِي لِأَنَّهُ مَنْ طِينٍ وَالنَّارُ تَغْلِبُ الطِّينَ وَتَأْكُلُهُ؟

وَقَدْ جَرَتِ الْجُمْلَةُ الثَّانِيَةُ مِنَ الْأُولَى، وَهِيَ ﴿خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ﴾[4] مَجْرَى الْمَعْطُوفِ عَطْفُ الْبَيَانِ مِنَ الْمَعْطُوفِ عَلَيْهِ فِي الْبَيَانِ وَالْإِيضَاحِ.

﴿قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ﴾[5]

---

[1] سورة ، الآية .
[2] سورة ، الآية .
[3] سورة ، الآية .
[4] سورة ، الآية .
[5] سورة ، الآية .

﴿مِنْهَا﴾[1] مِنَ الْجَنَّةِ. وَقِيلَ: مِنَ السَّمَاوَاتِ. وَقِيلَ: مِنَ الْخِلْقَةِ الَّتِي أَنْتَ فيها، لِأَنَّهُ كَانَ يَفْتَخِرُ بِخِلْقَتِهِ، فَغَيَّرَ اللَّهُ خِلْقَتَهُ، فَاسْوَدَّ بَعْدَ مَا كَانَ أَبْيَضَ، وَقَبُحَ بَعْدَ مَا كَانَ حَسَنًا، وَأَظْلَمَ بَعْدَ مَا كَانَ نَوْرَانِيًّا.

وَالرَّجِيمُ: الْمَرْجُومُ. وَمَعْنَاهُ: الْمَطْرُودُ، كَمَا قِيلَ لَهُ: الْمَدْحُورُ وَالْمَلْعُونُ، لِأَنَّ مَنْ طُرِدَ رُمِيَ بِالْحِجَارَةِ عَلَى أَثَرِهِ. وَالرَّجْمُ: الرَّمْيُ بِالْحِجَارَةِ، أَوْ لِأَنَّ الشَّيَاطِينَ يُرْجَمُونَ بِالشُّهُبِ.

فَإِنْ قُلْتَ: قَوْلُهُ: ﴿لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ﴾ كَأَنَّ لَعْنَةَ إِبْلِيسَ غَايَتُهَا يَوْمَ الدِّينِ ثُمَّ تَنْقَطِعُ؟

قُلْتُ: كَيْفَ تَنْقَطِعُ وَقَدْ قَالَ اللَّهُ –تَعَالَى–: ﴿فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾[2]، وَلَكِنَّ الْمَعْنَى: أَنَّ عَلَيْهِ اللَّعْنَةَ فِي الدُّنْيَا، فَإِذَا كَانَ يَوْمُ الدِّينِ اقْتَرَنَ لَهُ بِاللَّعْنَةِ مَا يَنْسَى عِنْدَهُ اللَّعْنَةَ، فَكَأَنَّهَا انْقَطَعَتْ.

﴿قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾[3]

فَإِنْ قُلْتَ: مَا الْوَقْتُ الْمَعْلُومُ الَّذِي أُضِيفَ إِلَيْهِ الْيَوْمُ؟

قُلْتُ: الْوَقْتُ الَّذِي تَقَعُ فيهِ النَّفْخَةُ الْأُولَى.

وَيَوْمُهُ: الْيَوْمُ الَّذِي وَقْتُ النَّفْخَةِ جُزْءٌ مِنْ أَجْزَائِهِ.

وَمَعْنَى الْمَعْلُومِ: أَنَّهُ مَعْلُومٌ عِنْدَ اللَّهِ مُعَيَّنٌ، لَا يَسْتَقْدِمُ وَلَا يَسْتَأْخِرُ.

﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾[4]

---

[1] سورة ، الآية .

[2] سورة الْأَعْرَافُ، الآية 44.

[3] سورة ، الآية .

[4] سورة ، الآية .

﴿فَبِعِزَّتِكَ﴾[1] إِقْسَامٌ بِعِزَّةِ اللَّهِ –تَعَالَى– وَهِيَ سُلْطَانُهُ وَقَهْرُهُ.

## ﴿قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾[2]

قُرِئَ: (فَالْحَقَّ وَالْحَقَّ) مَنْصُوبَيْنِ عَلَى أَنَّ الْأَوَّلَ مُقْسَمٌ بِهِ كَاللَّهِ فِي:

إِنَّ عَلَيْكَ اللَّهَ أَنْ تُبَايِعَا

وَجَوَابُهُ: ﴿لَأَمْلَأَنَّ﴾[3] وَالْحَقَّ أَقُولُ: اعْتِرَاضٌ بَيْنَ الْمُقْسَمِ بِهِ وَالْمُقْسَمِ عَلَيْهِ، وَمَعْنَاهُ: وَلَا أَقُولُ إِلَّا الْحَقَّ.

وَالْمُرَادُ بِالْحَقِّ: إِمَّا اسْمُهُ –عَزَّ وَعَلَا– الَّذِي فِي قَوْلِهِ: ﴿أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ﴾[4] أَوِ الْحَقُّ الَّذِي هُوَ نَقِيضُ الْبَاطِلِ: عَظَّمَهُ اللَّهُ بِإِقْسَامِهِ بِهِ، وَمَرْفُوعَيْنِ عَلَى أَنَّ الْأَوَّلَ مُبْتَدَأٌ مَحْذُوفُ الْخَبَرِ، كَقَوْلِهِ: ﴿لَعَمْرُكَ﴾[5]، أَيْ: فَالْحَقُّ قَسَمِي لَأَمْلَأَنَّ.

وَالْحَقُّ أَقُولُ، أَيْ: أَقُولُهُ كَقَوْلِهِ كُلِّهِ لَمْ أَصْنَعْ، وَمَجْرُورَيْنِ: عَلَى أَنَّ الْأَوَّلَ أُقْسِمُ بِهِ قَدْ أُضْمِرَ حَرْفُ قِسْمِهِ، كَقَوْلِكَ: اللَّهِ لَأَفْعَلَنَّ. وَالْحَقَّ أَقُولُ، أَيْ: وَلَا أَقُولُ إِلَّا الْحَقَّ عَلَى حِكَايَةِ لَفْظِ الْمُقْسَمِ بِهِ. وَمَعْنَاهُ: التَّوْكِيدُ وَالتَّشْدِيدُ.

وَهَذَا الْوَجْهُ جَائِزٌ فِي الْمَنْصُوبِ وَالْمَرْفُوعِ أَيْضًا، وَهُوَ وَجْهٌ دَقِيقٌ حَسَنٌ. وَقُرِئَ بِرَفْعِ الْأَوَّلِ وَجَرِّهِ مَعَ نَصْبِ الثَّانِي، وَتَخْرِيجِهِ عَلَى مَا ذَكَرْنَا، ﴿مِنْكَ﴾[6] مِنْ جِنْسِكَ وَهُمُ الشَّيَاطِينُ، ﴿وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ﴾[7] مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ.

فَإِنْ قُلْتَ: ﴿أَجْمَعِينَ﴾[8] تَأْكِيدٌ لِمَاذَا؟

---

[1] سورة ، الآية .
[2] سورة ، الآية .
[3] سورة ، الآية .
[4] سورة النُّورُ، الآية 25.
[5] سورة ، الآية .
[6] سورة ، الآية .
[7] سورة ، الآية .
[8] سورة ، الآية .

قُلْتُ: لَا يَخْلُو أَنْ يُؤَكَّدَ بِهِ الضَّمِيرُ في "مِنْهُمْ"، أَوِ الْكَافُ في "مِنْكَ" مَعَ "مَنْ تَبِعَكَ". وَمَعْنَاهُ: لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْمَتْبُوعِينَ وَالتَّابِعِينَ أَجْمَعِينَ لَا أَتْرُكُ مِنْهُمْ أَحَدًا، أَوْ لَأَمْلَأَنَّهَا مِنَ الشَّيَاطِينِ وَمِمَّنْ تَبِعَهُمْ مِنْ جَمِيعِ النَّاسِ، لَا تَفَاوُتَ في ذَلِكَ بَيْنَ نَاسٍ وَنَاسٍ بَعْدَ وُجُودِ الْأَتْبَاعِ مِنْهُمْ مِنْ أَوْلَادِ الْأَنْبِيَاءِ وَغَيْرِهِمْ.

## ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ﴾[1]

﴿عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾[2] الضَّمِيرُ لِلْقُرْآنِ أَوْ لِلْوَحْيِ.

﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾[3] مِنَ الَّذِينَ يَتَصَنَّعُونَ وَيَتَحَلَّوْنَ بِمَا لَيْسُوا مَنْ أَهْلِهِ، وَمَا عَرَّفْتُمُونِي قَطُّ مُتَصَنِّعًا وَلَا مُدَّعِيًا مَا لَيْسَ عِنْدِي، حَتَّى أَنْتَحِلَ النُّبُوَّةَ وَأَتَقَوَّلَ الْقُرْآنَ.

﴿إِنْ هُوَ إِلا ذِكْرٌ﴾[4] مِنَ اللَّهِ ﴿لِلْعَالَمِينَ﴾[5] لِلثَّقَلَيْنِ. أَوْحَى إِلَيَّ فَأَنَا أُبَلِّغُهُ، وَعَنْ رَسُولِ اللَّهِ –صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: "لِلْمُتَكَلِّفِ ثَلَاثُ عَلَامَاتٍ: يُنَازِعُ مَنْ فَوْقَهُ، وَيَتَعَاطَى مَا لَا يَنَالُ، وَيَقُولُ مَا لَا يَعْلَمُ".

﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ﴾[6]، أَيْ: مَا يَأْتِيكُمْ عِنْدَ الْمَوْتِ، أَوْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، أَوْ عِنْدَ ظُهُورِ الْإِسْلَامِ وَفُشُوِّهِ، مِنْ صِحَّةِ خَبَرِهِ، وَأَنَّهُ الْحَقُّ وَالصِّدْقُ. وَفِيهِ تَهْدِيدٌ.

عَنْ رَسُولِ اللَّهِ –صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: "مَنْ قَرَأَ سُورَةَ ص كَانَ لَهُ بِوَزْنِ كُلِّ جَبَلٍ سَخَّرَهُ اللَّهُ لِدَاوُدَ عَشْرَ حَسَنَاتٍ، وَعَصَمَهُ أَنْ يُصِرَّ عَلَى ذَنْبٍ صَغِيرٍ أَوْ كَبِيرٍ".

---

[1] سورة ، الآية .
[2] سورة ، الآية .
[3] سورة ، الآية .
[4] سورة ، الآية .
[5] سورة ، الآية .
[6] سورة ، الآية .

# سورة الزمر

# سورة الزمر

مَكِّيَّةٌ، إِلَّا قَوْلَهُ: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا﴾[1] ....الْآيَةُ،
وَتُسَمَّى سُورَ الْغُرَفِ.
وَهِيَ خَمْسٌ وَسَبْعُونَ آيَةً، وَقِيلَ: اثْنَتَانِ وَسَبْعُونَ آيَةً
[نَزَلَتْ بَعْدَ سُورَةِ سَبَإٍ]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَاصْطَفَى مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾[2]

﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ﴾[3]، قُرِئَ: بِالرَّفْعِ عَلَى أَنَّهُ مُبْتَدَأٌ أُخْبِرَ عَنْهُ بِالظَّرْفِ، أَوْ خَبَرُ مُبْتَدَأٍ مَحْذُوفٍ وَالْجَارُّ صِلَةُ التَّنْزِيلِ، كَمَا تَقُولُ: نَزَلَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، أَوْ غَيْرَ صِلَةٍ، كَقَوْلِكَ: هَذَا الْكِتَابُ مِنْ فُلَانٍ إِلَى فُلَانٍ، فَهُوَ عَلَى هَذَا خَبَرٌ بَعْدَ خَبَرٍ، أَوْ خَبَرُ مُبْتَدَأٍ مَحْذُوفٍ، تَقْدِيرُهُ: هَذَا تَنْزِيلُ الْكِتَابِ، هَذَا مِنَ اللَّهِ، أَوْ حَالٌ مِنَ التَّنْزِيلِ عَمِلَ فيها مَعْنَى الْإِشَارَةِ، وَبِالنَّصْبِ عَلَى إِضْمَارِ فِعْلٍ، نَحْوُ: اقْرَأْ، وَالْزَمْ.

---

[1] سورة الزُّمَر، الآية .
[2] سورة الزُّمَر، الآية .
[3] سورة الزُّمَر، الآية .

فَإِنْ قُلْتَ: مَا الْمُرَادُ بِالْكِتَابِ؟

قُلْتُ: الظَّاهِرُ عَلَى الْوَجْهِ الْأَوَّلِ أَنَّهُ الْقُرْآنُ، وَعَلَى الثَّانِي: أَنَّهُ السُّورَةُ

﴿مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ﴾[1] مُمَحِّضًا لَهُ الدِّينَ مِنَ الشِّرْكِ وَالرِّيَاءِ بِالتَّوْحِيدِ وَتَصْفِيَةِ السِّرِّ.

وَقُرِئَ: (الدِّينُ) بِالرَّفْعِ.

وَحَقُّ مَنْ رَفَعَهُ أَنْ يَقْرَأَ مُخْلِصًا -بِفَتْحِ اللَّامِ- كَقَوْلِهِ -تَعَالَى-: ﴿وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ﴾[2] حَتَّى يُطَابِقَ قَوْلَهُ: ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾[3] وَالْخَالِصُ وَالْمُخْلِصُ: وَاحِدٌ، إِلَّا أَنْ يَصِفَ الدِّينَ بِصِفَةِ صَاحِبِهِ عَلَى الْإِسْنَادِ الْمَجَازِيِّ، كَقَوْلِهِمْ: شِعْرُ شَاعِرٍ.

وَأَمَّا مَنْ جَعَلَ ﴿مُخْلِصًا﴾[4] حَالًا مِنَ الْعَابِدِ، وَ﴿لَهُ الدِّينَ﴾[5] مُبْتَدَأً وَخَبَرًا، فَقَدْ جَاءَ بِإِعْرَابٍ رَجَعَ بِهِ الْكَلَامُ إِلَى قَوْلِكَ: لِلَّهِ الدِّينُ.

﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾[6]، أَيْ: هُوَ الَّذِي وَجَبَ اخْتِصَاصُهُ بِأَنْ يُخْلِصَ لَهُ الطَّاعَةَ مِنْ كُلِّ شَائِبَةِ كَدْرٍ، لِاطِّلَاعِهِ عَلَى الْغُيُوبِ وَالْأَسْرَارِ، وَلِأَنَّهُ الْحَقِيقُ بِذَلِكَ، لِخُلُوصِ نِعْمَتِهِ عَنِ اسْتِجْرَارِ الْمَنْفَعَةِ بِهَا.

وَعَنْ قَتَادَةَ: الدِّينُ الْخَالِصُ شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ. وَعَنِ الْحَسَنِ: الْإِسْلَامُ.

﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا﴾[7] يَحْتَمِلُ الْمُتَّخِذِينَ وَهُمُ الْكَفَرَةُ، وَالْمُتَّخِذِينَ وَهُمُ الْمَلَائِكَةُ وَعِيسَى وَاللَّاتُ وَالْعُزَّى، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا-، فَالضَّمِيرُ فِي ﴿اتَّخَذُوا﴾[8] عَلَى الْأَوَّلِ رَاجِعٌ إِلَى الَّذِينَ، وَعَلَى الثَّانِي إِلَى الْمُشْرِكِينَ، وَلَمْ يَجْرِ ذِكْرُهُمْ لِكَوْنِهِ مَفْهُومًا، وَالرَّاجِعُ إِلَى الَّذِينَ مَحْذُوفٌ، وَالْمَعْنَى: وَالَّذِينَ اتَّخَذَهُمُ الْمُشْرِكُونَ أَوْلِيَاءَ، ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا﴾[9] فِي مَوْضِعِ الرَّفْعِ عَلَى الِابْتِدَاءِ.

فَإِنْ قُلْتَ: فَالْخَبَرُ مَا هُوَ؟

---

[1] سورة الزُّمَر، الآية .

[2] سورة النِّسَاءُ، الآية 146.

[3] سورة الزُّمَر، الآية .

[4] سورة الزُّمَر، الآية .

[5] سورة الزُّمَر، الآية .

[6] سورة الزُّمَر، الآية .

[7] سورة الزُّمَر، الآية .

[8] سورة الزُّمَر، الآية .

[9] سورة الزُّمَر، الآية .

قُلْتُ: هُوَ عَلَى الْأَوَّلِ إِمَّا ﴿إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾[1] أَوْ مَا أُضْمِرَ مِنَ الْقَوْلِ قَبْلَ قَوْلِهِ: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ﴾[2]؛ وَعَلَى الثَّانِي: أَنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ.

فَإِنْ قُلْتَ: فَإِذَا كَانَ ﴿إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾[3] الْخَبَرُ، فَمَا مَوْضِعُ الْقَوْلِ الْمُضْمَرِ؟ قُلْتُ: يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ فِي مَوْضِعِ الْحَالِ، أَيْ: قَائِلِينَ ذَلِكَ.

وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ بَدَلًا مِنَ الصِّلَةِ فَلَا يَكُونُ لَهُ مَحَلٌّ، كَمَا أَنَّ الْمُبْدَلَ مِنْهُ كَذَلِكَ. وَقَرَأَ ابْنُ مَسْعُودٍ بِإِظْهَارِ الْقَوْلِ: (قَالُوا مَا نَعْبُدُهُمْ) وَفِي قِرَاءَةِ أُبَيٍّ: (مَا نَعْبُدُكُمْ إِلَّا لِتُقَرِّبُونَا) عَلَى الْخِطَابِ، حِكَايَةً لِمَا خَاطَبُوا بِهِ آلِهَتَهُمْ. وَقُرِئَ: (نَعْبُدُهُمْ) بِضَمِّ النُّونِ اتِّبَاعًا لِلْعَيْنِ كَمَا تَتْبَعُهَا الْهَمْزَةُ فِي الْأَمْرِ، وَالتَّنْوِينِ فِي ﴿وَعَذَابٍ ارْكُضْ﴾[4]، وَالضَّمِيرُ فِي "بَيْنَهُمْ" لَهُمْ وَلِأَوْلِيَائِهِمْ.

وَالْمَعْنَى: أَنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ بِأَنَّهُ يُدْخِلُ الْمَلَائِكَةَ وَعِيسَى الْجَنَّةَ، وَيُدْخِلُهُمُ النَّارَ مَعَ الْحِجَارَةِ الَّتِي نَحَتُوهَا وَعَبَدُوهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ يُعَذِّبُهُمْ بِهَا، حَيْثُ يَجْعَلُهُمْ وَإِيَّاهَا حَصَبُ جَهَنَّمَ. وَاخْتِلَافُهُمْ: أَنَّ الَّذِينَ يَعْبُدُونَ مُوَحِّدُونَ وَهُمْ مُشْرِكُونَ، وَأُولَئِكَ يُعَادُونَهُمْ وَيَلْعَنُونَهُمْ، وَهُمْ يَرْجُونَ شَفَاعَتَهُمْ وَتَقْرِيبَهُمْ إِلَى اللَّهِ زُلْفِي. وَقِيلَ: كَانَ الْمُسْلِمُونَ إِذَا قَالُوا لَهُمْ: مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ؟ أَقَرُّوا وَقَالُوا: اللَّهُ، فَإِذَا قَالُوا لَهُمْ: فَمَا لَكُمْ تَعْبُدُونَ الْأَصْنَامَ؟ قَالُوا: مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفِي، فَالضَّمِيرُ فِي ﴿بَيْنَهُمْ﴾[5] عَائِدٌ إِلَيْهِمْ وَإِلَى الْمُسْلِمِينَ.

وَالْمَعْنَى: إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بَيْنَ الْمُتَنَازِعِينَ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ، وَالْمُرَادُ بِمَنْعِ الْهِدَايَةِ: مَنْعُ اللُّطْفِ تَسْجِيلًا عَلَيْهِمْ بِأَنْ لَا لُطْفَ لَهُمْ، وَأَنَّهُمْ فِي عِلْمِ اللَّهِ مِنَ الْهَالِكِينَ.

وَقُرِئَ: (كَذَّابٌ وَكَذُوبٌ)، وَكَذِبُهُمْ: قَوْلُهُمْ فِي بَعْضِ مَنِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ: بَنَاتُ اللَّهِ؛ وَلِذَلِكَ عَقَّبَهُ مُحْتَجًّا عَلَيْهِمْ بِقَوْلِهِ: ﴿لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَاصْطَفَى مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾[6]، يَعْنِي: لَوْ أَرَادَ اتِّخَاذَ الْوَلَدِ لَامْتَنَعَ وَلَمْ يَصِحَّ، لِكَوْنِهِ مَحَالًا وَلَمْ يَتَأَتَّ إِلَّا أَنْ يَصْطَفِيَ مِنْ خَلْقِهِ بَعْضَهُ وَيَخْتَصِمُهُمْ وَيُقَرِّبُهُمْ، كَمَا يَخْتَصُّ الرَّجُلُ وَلَدَهُ وَيُقَرِّبُهُ. وَقَدْ

---

[1] سورة الزُّمَر، الآية .

[2] سورة الزُّمَر، الآية .

[3] سورة الزُّمَر، الآية .

[4] سورة ص، الآيتان 41–42.

[5] سورة الزُّمَر، الآية .

[6] سورة الزُّمَر، الآية .

فَعَلَ ذَلِكَ بِالْمَلَائِكَةِ فَافْتَتَنْتُمْ بِهِ وَغَرَّكُمُ اخْتِصَاصُهُ إِيَّاهُمْ، فَزَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ أَوْلَادُهُ، جَهْلًا مِنْكُمْ بِهِ وَبِحَقِيقَتِهِ الْمُخَالِفَةِ لِحَقَائِقِ الْأَجْسَامِ وَالْأَعْرَاضِ، كَأَنَّهُ قَالَ: لَوْ أَرَادَ اتِّخَاذَ الْوَلَدِ لَمْ يَزِدْ عَلَى مَا فَعَلَ مِنَ اصْطِفَاءِ مَا يَشَاءُ مِنْ خَلْقِهِ وَهُمُ الْمَلَائِكَةُ، إِلَّا أَنَّكُمْ لِجَهْلِكُمْ بِهِ حَسِبْتُمُ اصْطِفَاءَهُمُ اتِّخَاذَهُمْ أَوْلَادًا، ثُمَّ تَمَادَيْتُمْ فِي جَهْلِكُمْ وَسَفَهِكُمْ فَجَعَلْتُمُوهُمْ بَنَاتَ، فَكُنْتُمْ كَذَّابِينَ كَفَّارِينَ مُتَبَالِغِينَ فِي الِافْتِرَاءِ عَلَى اللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ، غَالِبِينَ فِي الْكُفْرِ.

ثُمَّ قَالَ: ﴿سُبْحَانَهُ﴾[1]، فَنَزَّهَ ذَاتَهُ عَنْ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَحَدٌ مَا نَسَبُوا إِلَيْهِ مِنَ الْأَوْلَادِ وَالْأَوْلِيَاءِ، وَدَلَّ عَلَى ذَلِكَ بِمَا يُنَافِيهِ، وَهُوَ أَنَّهُ وَاحِدٌ، فَلَا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ لَهُ صَاحِبَةٌ، لِأَنَّهُ لَوْ كَانَتْ لَهُ صَاحِبَةٌ لَكَانَتْ مِنْ جِنْسِهِ وَلَا جِنْسَ لَهُ، وَإِذَا لَمْ يَتَأَتَّ أَنْ يَكُونَ لَهُ صَاحِبَةٌ لَمْ يَتَأَتَّ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ، وَهُوَ مَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ﴾[2].

وَقَهَّارٌ: غَلَّابٌ لِكُلِّ شَيْءٍ، وَمِنَ الْأَشْيَاءِ آلِهَتُهُمْ، فَهُوَ يَغْلِبُهُمْ، فَكَيْفَ يَكُونُونَ لَهُ أَوْلِيَاءَ وَشُرَكَاءَ؟

﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارِ عَلَى اللَّيْلَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُسَمًّى أَلا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ﴾[3]

ثُمَّ دَلَّ بِخَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَتَكْوِيرِ كُلِّ وَاحِدٍ مِنَ الْمَلَوَيْنِ عَلَى الْآخَرِ، وَتَسْخِيرِ النَّيِّرَيْنِ، وَجَرْيِهِمَا لِأَجَلٍ مُسَمًّى، وَبَثِّ النَّاسِ عَلَى كَثْرَةِ عَدَدِهِمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ، وَخَلَقَ الْأَنْعَامَ عَلَى أَنَّهُ وَاحِدٌ لَا يُشَارَكُ، قَهَّارٌ لَا يُغَالَبُ.

وَالتَّكْوِيرُ: اللَّفُّ وَاللَّيُّ، يُقَالُ: كَارَ الْعِمَامَةَ عَلَى رَأْسِهِ، وَكَوَّرَهَا.

وَفِيهِ أَوْجُهٌ مِنْهَا: أَنَّ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خَلْفَهُ يَذْهَبُ هَذَا وَيَغْشَى مَكَانَهُ هَذَا، وَإِذَا غُشِيَ مَكَانَهُ فَكَأَنَّمَا أَلْبَسَهُ وَلَفَّ عَلَيْهِ كَمَا يَلُفُّ اللِّبَاسُ عَلَى اللَّابِسِ.

وَمِنْهُ قَوْلُ ذِي الرُّمَّةِ فِي وَصْفِ السَّرَابِ:

تَلْوِي الثَّنَايَا بِأَحْقَيْهَا حَوَاشِيَهُ لَيَّ الْمَلَاءِ بِأَبْوَابِ التَّفَارِيجِ

---

[1] سورة الزُّمَر، الآية .

[2] سورة الْأَنْعَامُ، الآية **101**.

[3] سورة الزُّمَر، الآية .

وَمِنْهَا أَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا يَغِيبُ الْآخَرُ إِذَا طَرَأَ عَلَيْهِ، فَشَبَّهَ فِي تَغْيِيبِهِ إِيَّاهُ بِشَيْءٍ ظَاهِرٍ لَفَّ عَلَيْهِ مَا غَيَّبَهُ عَنْ مَطَامِحِ الْأَبْصَارِ

. وَمِنْهَا: أَنَّ هَذَا يَكُرُّ عَلَى هَذَا كُرُورًا مُتَتَابِعًا. فَشَبَّهَ ذَلِكَ بِتَتَابُعِ أَكْوَارِ الْعِمَامَةِ بَعْضُهَا عَلَى إِثْرِ بَعْضٍ.

﴿أَلا هُوَ الْعَزِيزُ﴾[1]: الْغَالِبُ الْقَادِرُ عَلَى عِقَابِ الْمُصِرِّينَ.

"الْغَفَّارُ" لِذُنُوبِ التَّائِبِينَ، أَوِ الْغَالِبُ الَّذِي يَقْدِرُ عَلَى أَنْ يُعَالِجَهُمْ بِالْعُقُوبَةِ، وَهُوَ يَحْلُمُ عَنْهُمْ وَيُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى، فَسَمَّى الْحُلْمَ عَنْهُمْ: مَغْفِرَةً .

﴿خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ﴾[2]

فَإِنْ قُلْتَ: مَا وَجْهُ قَوْلِهِ: ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾[3]، وَمَا يُعْطِيهِ مِنْ مَعْنَى التَّرَاخِي؟

قُلْتُ: هُمَا آيَتَانِ مِنْ جُمْلَةِ الْآيَاتِ الَّتِي عَدَدُهَا دَالًّا عَلَى وَحْدَانِيَّتِهِ وَقُدْرَتِهِ: تَشْعِيبُ هَذَا الْخَلْقِ الْفَائِتِ لِلْحَصْرِ مِنْ نَفْسِ آدَمَ، وَخَلْقِ حَوَّاءَ مِنْ قَصِيرَاهُ، إِلَّا أَنَّ إِحْدَاهُمَا جَعَلَهَا اللَّهُ عَادَةً مُسْتَمِرَّةً، وَالْأُخْرَى لَمْ تَجْرِيهَا الْعَادَةُ، وَلَمْ تُخْلَقْ أُنْثَى غَيْرُ حَوَّاءَ مِنْ قُصَيْرَى رَجُلٍ، فَكَانَتْ أَدْخَلَ فِي كَوْنِهَا آيَةً، وَأَجْلَبُ لِعَجَبِ السَّامِعِ، فَعَطَفَهَا بِثُمَّ عَلَى الْآيَةِ الْأُولَى، لِلدَّلَالَةِ عَلَى مُبَايَنَتِهَا لَهَا فَضْلًا وَمَزِيَّةً، وَتَرَاخِيهَا عَنْهَا فِيمَا يَرْجِعُ إِلَى زِيَادَةِ كَوْنِهَا آيَةً، فَهُوَ مِنَ التَّرَاخِي فِي الْحَالِ وَالْمَنْزِلَةِ، لَا مِنَ التَّرَاخِي فِي الْوُجُودِ. وَقِيلَ: ثُمَّ مُتَعَلِّقٌ بِمَعْنَى وَاحِدَةٍ، كَأَنَّهُ قِيلَ: خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وُحِّدَتْ، ثُمَّ شَفَّعَهَا اللَّهُ بِزَوْجٍ. وَقِيلَ: أَخْرَجَ ذُرِّيَّةَ آدَمَ مِنْ ظَهْرِهِ كَالذَّرِّ، ثُمَّ خَلَقَ بَعْدَ ذَلِكَ حَوَّاءَ

---

[1] سورة الزُّمَر، الآية .

[2] سورة الزُّمَر، الآية .

[3] سورة الزُّمَر، الآية .

﴿وَأَنْزَلَ لَكُمْ﴾[1]: وَقَضَى لَكُمْ وَقَسَّمَ، لِأَنَّ قَضَايَاهُ وَقَسْمَهُ مَوْصُوفَةٌ بِالنُّزُولِ مِنَ السَّمَاءِ، حَيْثُ كَتَبَ فِي اللَّوْحِ: كُلُّ كَائِنٍ يَكُونُ. وَقِيلَ: لَا تَعِيشُ الْأَنْعَامُ إِلَّا بِالنَّبَاتِ، وَالنَّبَاتُ لَا يَقُومُ إِلَّا بِالْمَاءِ. وَقَدْ أَنْزَلَ الْمَاءَ، فَكَأَنَّهُ أَنْزَلَهَا. وَقِيلَ: خَلَقَهَا فِي الْجَنَّةِ، ثُمَّ أَنْزَلَهَا

﴿ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ﴾[2] ذَكَرًا وَأُنْثَى مِنَ الْإِبِلِ وَالْبَقَرِ وَالضَّأْنِ وَالْمَعِزِ. وَالزَّوْجُ: اسْمٌ لِوَاحِدٍ مَعَهُ آخَرُ، فَإِذَا انْفَرَدَ فَهُوَ فَرْدٌ وَوِتْرٌ. قَالَ اللَّهُ –تَعَالَى–: ﴿فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنْثَى﴾[3].

﴿خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ﴾[4] حَيَوَانًا سَوِيًّا، مِنْ بَعْدِ عِظَامٍ مَكْسُوَّةٍ لَحْمًا، مِنْ بَعْدِ عِظَامٍ عَارِيَةٍ، مِنْ بَعْدِ مَضْغٍ، مِنْ بَعْدِ عَلَقٍ، مِنْ بَعْدِ نُطَفٍ. وَالظُّلُمَاتُ الثَّلَاثُ: الْبَطْنُ وَالرَّحِمُ وَالْمَشِيمَةُ. وَقِيلَ: الصُّلْبُ وَالرَّحِمُ وَالْبَطْنُ.

﴿ذَلِكُمُ﴾[5] الَّذِي هَذِهِ أَفْعَالُهُ هُوَ (اللَّهُ رَبُّكُمْ ... فَأَنَّى تُصْرَفُونَ)، فَكَيْفَ يَعْدِلُ بِكُمْ عَنْ عِبَادَتِهِ إِلَى عِبَادَةِ غَيْرِهِ؟

﴿إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾[6]

﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ﴾[7] عَنْ إِيمَانِكُمْ وَإِنَّكُمُ الْمُحْتَاجُونَ إِلَيْهِ، اسْتِضْرَارُكُمْ بِالْكُفْرِ وَاسْتِنْفَاعُكُمْ بِالْإِيمَانِ .

﴿وَلا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ﴾[8] رَحْمَةٌ لَهُمْ، لِأَنَّهُ يُوقِعُهُمْ فِي الْهَلَكَةِ

---

1 سورة الزُّمَر، الآية .
2 سورة الزُّمَر، الآية .
3 سورة الْقِيَامَةُ، الآية 39.
4 سورة الزُّمَر، الآية .
5 سورة الزُّمَر، الآية .
6 سورة الزُّمَر، الآية .
7 سورة الزُّمَر، الآية .
8 سورة الزُّمَر، الآية .

﴿وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾[1]، أَيْ: يَرْضَ الشُّكْرَ لَكُمْ، لِأَنَّهُ سَبَبُ فَوْزِكُمْ وَفَلَاحِكُمْ، فَإِذَا مَا كَرِهَ كُفْرَكُمْ وَلَا رَضِيَ شُكْرَكُمْ إِلَّا لَكُمْ وَلِصَلَاحِكُمْ، لَا لِأَنَّ مَنْفَعَةً تَرْجِعُ إِلَيْهِ، لِأَنَّهُ الْغَنِيُّ الَّذِي لَا يَجُوزُ عَلَيْهِ الْحَاجَةُ.

وَلَقَدْ تَمَحَّلَ بَعْضُ الْغُوَاةِ لِيُثْبِتَ لِلَّهِ –تَعَالَى– مَا نَفَاهُ عَنْ ذَاتِهِ مِنَ الرِّضَا لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ، فَقَالَ: هَذَا مِنَ الْعَامِّ الَّذِي أُرِيدَ بِهِ الْخَاصَّ، وَمَا أَرَادَ إِلَّا عِبَادَةَ الَّذِينَ عَنَاهُمْ فِي قَوْلِهِ: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾[2] يُرِيدُ: الْمَعْصُومِينَ، كَقَوْلِهِ –تَعَالَى–: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ﴾[3]، تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يَقُولُ الظَّالِمُونَ، وَقُرِئَ: (يَرْضَهُ) بِضَمِّ الْهَاءِ بِوَصْلٍ وَبِغَيْرِ وَصْلٍ، وَبِسُكُونِهَا.

﴿خَوَّلَهُ﴾[4]: أَعْطَاهُ.

قَالَ أَبُو النَّجْمِ:

أَعْطَى فَلَمْ يَبْخَلْ وَلَمْ يُبَخَّلِ كُومَ الذُّرَى مِنْ خِوَلِ الْمُخَوَّلِ

وَفِي حَقِيقَتِهِ وَجْهَانِ،

أَحَدُهُمَا: جَعَلَهُ خَائِلَ مَالٍ، مِنْ قَوْلِهِمْ: هُوَ خَائِلُ مَالٍ، وَخَالُ مَالٍ: إِذَا كَانَ مُتَعَهِّدًا لَهُ حَسَنَ الْقِيَامِ بِهِ، وَمِنْهُ مَا رُوِيَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: أَنَّهُ كَانَ يَتَخَوَّلُ أَصْحَابَهُ بِالْمَوْعِظَةِ،

وَالثَّانِي: جَعَلَهُ يُخَوِّلُ مِنْ خَالٍ يَخُولُ إِذَا اخْتَالَ وَافْتَخَرَ، وَفِي مَعْنَاهُ قَوْلُ الْعَرَبِ:

إِنَّ الْغَنِيَّ طَوِيلُ الذَّيْلِ مَيَّاسُ

﴿وَإِذَا مَسَّ الإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾[5]

---

[1] سورة الزُّمَر، الآية .

[2] سورة الْإِسْرَاءُ، الآية 65.

[3] سورة الْإِنْسَانُ، الآية 66.

[4] سورة الزُّمَر، الآية .

[5] سورة الزُّمَر، الآية .

﴿نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ﴾[1]، أَيْ: نَسِيَ الضُّرَّ الَّذِي كَانَ يَدْعُو اللَّهَ إِلَى كَشْفِهِ. وَقِيلَ: نَسِيَ رَبَّهُ الَّذِي كَانَ يَتَضَرَّعُ إِلَيْهِ وَيَبْتَهِلُ إِلَيْهِ.

وَ﴿مَا﴾[2] بِمَعْنَى مِنْ، كَقَوْلِهِ –تَعَالَى–: ﴿وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالأُنْثَى﴾[3]، وَقُرِئَ: (لِيَضِلَّ) بِفَتْحِ الْبَاءِ وَضَمِّهَا، بِمَعْنَى أَنَّ نَتِيجَةَ جَعْلِهِ لِلَّهِ أَنْدَادًا ضَلَالَةً عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ إِضْلَالِهِ وَالنَّتِيجَةُ: قَدْ تَكُونُ غَرَضًا فِي الْفِعْلِ، وَقَدْ تَكُونُ غَيْرَ غَرَضٍ.

وَقَوْلُهُ: ﴿تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ﴾[4] مِنْ بَابِ الْخِذْلَانِ وَالتَّخْلِيَةِ، كَأَنَّهُ قِيلَ لَهُ: إِذْ قَدْ أُبَيِّتُ قَبُولَ مَا أُمِرْتُ بِهِ مِنَ الْإِيمَانِ وَالطَّاعَةِ، فَمِنْ حَقِّكَ أَلَّا تُؤْمَرَ بِهِ بَعْدَ ذَلِكَ، وَتُؤْمَرَ بِتَرْكِهِ، مُبَالَغَةً فِي خِذْلَانِهِ وَتَخْلِيَتِهِ وَشَأْنِهِ، لِأَنَّهُ لَا مُبَالَغَةَ فِي الْخِذْلَانِ، لِأَنَّهُ أَشَدُّ مِنْ أَنْ يُبْعَثَ عَلَى عَكْسِ مَا أُمِرَ بِهِ.

وَنَظِيرُهُ فِي الْمَعْنَى قَوْلُهُ: ﴿مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ﴾[5].

## ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الأَلْبَابِ﴾[6]

قُرِئَ: (أَمَنْ هُوَ قَانِتٌ) بِالتَّخْفِيفِ عَلَى إِدْخَالِ هَمْزَةِ الِاسْتِفْهَامِ عَلَى مَنْ، وَبِالتَّشْدِيدِ عَلَى إِدْخَالِ "أَمْ" عَلَيْهِ.

وَ "مِنْ" مُبْتَدَأٌ خَبَرُهُ مَحْذُوفٌ، تَقْدِيرُهُ: أَمَنَ هُوَ قَانِتٌ كَغَيْرِهِ، وَإِنَّمَا حُذِفَ لِدَلَالَةِ الْكَلَامِ عَلَيْهِ، وَهُوَ جَرْيُ ذِكْرِ الْكَافِرِ قَبْلَهُ.

وَقَوْلُهُ بَعْدَهُ: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ﴾[7]، وَقِيلَ: مَعْنَاهُ أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ أَفْضَلُ أَمَّنْ هُوَ كَافِرٌ. أَوْ أَهَذَا أَفْضَلُ أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ عَلَى الِاسْتِفْهَامِ الْمُتَّصِلِ.

---

1 سورة الزُّمَر، الآية .

2 سورة اللَّيْلُ، الآية 33.

3 سورة آلُ عِمْرَانَ، الآية 197.

4 سورة الزُّمَر، الآية .

5 سورة الزُّمَر، الآية .

6 سورة الزُّمَر، الآية .

7 سورة الزُّمَر، الآية .

وَالْقَانِتُ: الْقَائِمُ بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِ مِنَ الطَّاعَةِ. وَمِنْهُ قَوْلُهُ –عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ–: أَفْضَلُ الصَّلَاةِ طُولُ الْقُنُوتِ"، وَهُوَ الْقِيَامُ فيها. وَمِنْهُ الْقُنُوتُ في الْوِتْرِ، لِأَنَّهُ دُعَاءُ الْمُصَلِّي قَائِمًا.

﴿سَاجِدًا﴾[1] حَالٌ. وَقُرِئَ: (سَاجِدٌ وَقَائِمٌ) عَلَى أَنَّهُ خَبَرٌ بَعْدَ خَبَرٍ، وَالْوَاوُ لِلْجَمْعِ بَيْنَ الصِّفَتَيْنِ. وَقُرِئَ: (وَيَحْذَرُ عَذَابَ الْآخِرَةِ).

وَأَرَادَ بِـ ﴿الَّذِينَ يَعْلَمُونَ﴾[2]: الْعَامِلِينَ مِنْ عُلَمَاءِ الدِّيَانَةِ، كَأَنَّهُ جَعَلَ مَنْ لَا يَعْمَلُ غَيْرَ عَالِمٍ. وَفيهِ ازْدِرَاءٌ عَظِيمٌ بِالَّذِينَ يَقْتَنُونَ الْعُلُومَ، ثُمَّ لَا يَقْتَنُونَ، وَيَفْتِنُونَ، ثُمَّ يُفْتَنُونَ بِالدُّنْيَا، فَهُمْ عِنْدَ اللَّهِ جَهَلَةٌ، حَيْثُ جَعَلَ الْقَانِتِينَ هُمُ الْعُلَمَاءُ، وَيَجُوزُ أَنْ يُرَدَّ عَلَى سَبِيلِ التَّشْبِيهِ، أَيْ: كَمَا لَا يَسْتَوِي الْعَالِمُونَ وَالْجَاهِلُونَ، كَذَلِكَ لَا يَسْتَوِي الْقَانِتُونَ وَالْعَاصُونَ.

وَقِيلَ: وَنَزَلَتْ في عَمَّارِ بْنِ يَاسِرٍ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ– وَأَبِي حُذَيْفَةَ بْنِ الْمُغِيرَةَ الْمَخْزُومِيِّ.

وَعَنِ الْحَسَنِ أَنَّهُ سُئِلَ عَنْ رَجُلٍ يَتَمَادَى في الْمَعَاصِي وَيَرْجُو، فَقَالَ: هَذَا تَمَنِّ وَالرَّجَاءُ قَوْلُهُ، وَتَلَا هَذِهِ الْآيَةَ. وَقُرِئَ: (إِنَّمَا ذَكَّرَ) بِالْإِدْغَامِ.

## ﴿قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[3]

﴿فِي هَذِهِ الدُّنْيَا﴾[4] مُتَعَلِّقٌ بِأَحْسَنُوا لَا بِحَسَنَةٍ، مَعْنَاهُ: الَّذِينَ أَحْسَنُوا في هَذِهِ الدُّنْيَا فَلَهُمْ حَسَنَةٌ في الْآخِرَةِ. وَهِيَ دُخُولُ الْجَنَّةِ، أَيْ: حَسَنَةٌ غَيْرُ مُكْتَنِهَةٍ بِالْوَصْفِ.

وَقَدْ عَلَّقَهُ السُّدِّيُّ بِحَسَنَةٍ، فَفَسَّرَ بِحَسَنَةٍ بِالصِّحَّةِ وَالْعَافِيَةِ.

فَإِنْ قُلْتَ: إِذَا عَلَّقَ الظَّرْفَ بِأَحْسَنُوا فَإِعْرَابُهُ ظَاهِرٌ، فَمَا مَعْنَى تَعْلِيقِهِ بِحَسَنَةٍ؟ وَلَا يَصِحُّ أَنْ يَقَعَ صِفَةً لَهَا لِتُقَدِّمَهُ.

---

[1] سورة الزُّمَر، الآية .

[2] سورة الزُّمَر، الآية .

[3] سورة الزُّمَر، الآية .

[4] سورة الزُّمَر، الآية .

قُلْتُ: هُوَ صِفَةٌ لَهَا إِذَا تَأَخَّرَ، فَإِذَا تَقَدَّمَ كَانَ بَيَانًا لِمَكَانِهَا فَلَمْ يَخْلُ التَّقَدُّمُ بِالتَّعَلُّقِ، وَإِنْ لَمْ يَكُنِ التَّعَلُّقُ وَصْفًا.

وَمَعْنَى: ﴿وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ﴾[1] أَنْ لَا عُذْرَ لِلْمُفَرِّطِينَ فِي الْإِحْسَانِ الْبَتَّةَ، حَتَّى إِنِ اعْتَلَوْا بِأَوْطَانِهِمْ وَبِلَادِهِمْ، وَأَنَّهُمْ لَا يَتَمَكَّنُونَ فِيهَا مِنَ التَّوَفُّرِ عَلَى الْإِحْسَانِ، وَصَرْفِ الْهِمَمِ إِلَيْهِ قِيلَ لَهُمْ: فَإِنَّ أَرْضَ اللَّهِ وَاسِعَةٌ وَبِلَادُهُ كَثِيرَةٌ، فَلَا تَجْتَمِعُوا مَعَ الْعَجْزِ، وَتُحَوِّلُوا إِلَى بِلَادٍ أُخَرَ، وَاقْتَدُوا بِالْأَنْبِيَاءِ وَالصَّالِحِينَ فِي مُهَاجَرَتِهِمْ إِلَى غَيْرِ بِلَادِهِمْ، لِيَزْدَادُوا إِحْسَانًا إِلَى إِحْسَانِهِمْ وَطَاعَةً إِلَى طَاعَتِهِمْ. وَقِيلَ: هُوَ لِلَّذِينِ كَانُوا فِي بَلَدِ الْمُشْرِكِينَ فَأُمِرُوا بِالْمُهَاجَرَةِ عَنْهُ، كَقَوْلِهِ –تَعَالَى–: ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا﴾[2].

وَقِيلَ: هِيَ أَرْضُ الْجَنَّةِ.

وَ﴿الصَّابِرُونَ﴾[3] الَّذِينَ صَبَرُوا عَلَى مُفَارَقَةِ أَوْطَانِهِمْ وَعَشَائِرِهِمْ، وَعَلَى غَيْرِهَا. مِنْ تَجَرُّعِ الْغُصَصِ وَاحْتِمَالِ الْبَلَايَا فِي طَاعَةِ اللَّهِ وَازْدِيَادِ الْخَيْرِ.

﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[4] لَا يُحَاسَبُونَ عَلَيْهِ. وَقِيلَ: بِغَيْرِ مِكْيَالٍ وَغَيْرِ مِيزَانٍ يُغْرَفُ لَهُمْ غُرَفًا، وَهُوَ تَمْثِيلٌ لِلتَّكْثِيرِ.

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا–: لَا يَهْتَدِي إِلَيْهِ حِسَابُ الْحِسَابِ وَلَا يَعْرِفُ.

وَعَنِ النَّبِيِّ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: "يَنْصِبُ اللَّهُ الْمَوَازِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فيؤْتَى بِأَهْلِ الصَّلَاةِ فيوَفَّوْنَ أُجُورَهُمْ بِالْمَوَازِينِ، وَيُؤْتَى بِأَهْلِ الصَّدَقَةِ فيوَفَّوْنَ أُجُورَهُمْ بِالْمَوَازِينِ، وَيُؤْتَى بِأَهْلِ الْحَجِّ فيوَفَّوْنَ أُجُورَهُمْ بِالْمَوَازِينِ، وَيُؤْتَى بِأَهْلِ الْبَلَاءِ فَلَا يُنْصَبُ لَهُمْ مِيزَانٌ وَلَا يُنْشَرُ لَهُمْ دِيوَانٌ، وَيُصَبُّ عَلَيْهِمُ الْأَجْرَ صَبًّا، قَالَ اللَّهُ –تَعَالَى–: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[5]، حَتَّى يَتَمَنَّى أَهْلُ الْعَافِيَةِ فِي الدُّنْيَا أَنَّ أَجْسَادَهُمْ تُقْرَضُ بِالْمَقَارِيضِ مِمَّا يَذْهَبُ بِهِ أَهْلُ الْبَلَاءِ مِنَ الْفَضْلِ".

﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا

---

[1] سورة الزُّمَر، الآية .

[2] سورة النِّسَاءُ، الآية 97.

[3] سورة الزُّمَر، الآية .

[4] سورة الزُّمَر، الآية .

[5] سورة الزُّمَر، الآية .

لَهُ دِينِي فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾[1]

﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ﴾[2] بِإِخْلَاصِ الدِّينِ، ﴿وَأُمِرْتُ﴾[3] بِذَلِكَ "لِ" أَجْلِ.

﴿لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ﴾[4]، أَيْ: مُقَدِّمُهُمْ وَسَابِقُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَالْمَعْنَى: أَنَّ الْإِخْلَاصَ لَهُ السَّبْقَةُ فِي الدِّينِ، فَمَنْ أَخْلَصَ كَانَ سَابِقًا.

فَإِنْ قُلْتَ: كَيْفَ عَطَفَ ﴿أُمِرْتُ﴾[5] عَلَى ﴿أُمِرْتُ﴾[6] وَهُمَا وَاحِدٌ؟

قُلْتُ: لَيْسَا بِوَاحِدٍ لِاخْتِلَافِ جِهَتَيْهِمَا، وَذَلِكَ أَنَّ الْأَمْرَ بِالْإِخْلَاصِ وَتَكْلِيفِهِ شَيْءٌ، وَالْأَمْرُ بِهِ لِيُحْرِزَ الْقَائِمُ بِهِ قَصْبَ السَّبْقِ فِي الدِّينِ شَيْءٌ، وَإِذَا اخْتَلَفَ وَجْهَا الشَّيْءِ وَصِفَتَاهُ يَنْزِلُ بِذَلِكَ مَنْزِلَةَ شَيْئَيْنِ مُخْتَلِفِينِ، وَلَكَ أَنْ تَجْعَلَ اللَّامَ مَزِيدَةً مِثْلَهَا فِي أَرَدْتُ لِأَنْ أَفْعَلَ ، وَلَا تُزَادُ إِلَّا مَعَ أَنَّ خَاصَّةً دُونَ الِاسْمِ الصَّرِيحِ، كَأَنَّهَا زِيدَتْ عِوَضًا مِنْ تَرْكِ الْأَصْلِ إِلَى مَا يَقُومُ مَقَامَهُ، كَمَا عَوَّضَ السِّينَ فِي اسْطَاعَ عِوَضًا مِنْ تَرْكِ الْأَصْلِ الَّذِي هُوَ أَطْوَعُ.

وَالدَّلِيلُ عَلَى هَذَا الْوَجْهُ مَجِيئُهُ بِغَيْرِ لَامٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾[7]، ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾[8]، وَ﴿أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ﴾[9].

وَفِي مَعْنَاهُ أَوْجُهٌ: أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ فِي زَمَانِي وَمِنْ قَوْمِي، لِأَنَّهُ أَوَّلُ مَنْ خَالَفَ دِينَ آبَائِهِ وَخَلَعَ الْأَصْنَامَ وَحَطَّمَهَا، وَأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الَّذِينَ دَعَوْتُهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ إِسْلَامًا، وَأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ دَعَا نَفْسَهُ إِلَى مَا دَعَا إِلَيْهِ غَيْرُهُ، لِأَكُونَ مُقْتَدًى بِي فِي قَوْلِي وَفِعْلِي جَمِيعًا، وَلَا تَكُونُ صِفَتِي صِفَةُ الْمُلُوكِ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِمَا لَا يَفْعَلُونَ، وَأَنْ أَفْعَلَ مَا أَسْتَحِقُّ بِهِ الْأَوَّلِيَّةَ مِنْ أَعْمَالِ السَّابِقَيْنِ دَلَالَةً عَلَى السَّبَبِ بِالْمُسَبَّبِ، يَعْنِي: أَنَّ اللَّهَ أَمَرَنِي أَنْ أُخْلِصَ لَهُ الدِّينَ

---

[1] سورة الزُّمَر، الآية .
[2] سورة الزُّمَر، الآية .
[3] سورة الزُّمَر، الآية .
[4] سورة الزُّمَر، الآية .
[5] سورة الزُّمَر، الآية .
[6] سورة الزُّمَر، الآية .
[7] سورة يُونُسُ، الآية 72.
[8] سورة يُونُسُ، الآية 104.
[9] سورة الْأَنْعَامُ، الآية 14.

مِنَ الشِّرْكِ وَالرِّيَاءِ وَكُلِّ شَوْبٍ، بِدَلِيلِ الْعَقْلِ وَالْوَحْيِ. فَإِنْ عَصَيْتُ رَبِّي بِمُخَالَفَةِ الدَّلِيلَيْنِ، اسْتَوْجَبْتُ عَذَابَهُ فَلَا أَعْصِيهُ وَلَا أُتَابِعُ أَمْرَكُمْ، وَذَلِكَ حِينَ دَعَوْهُ إِلَى دِينِ آبَائِهِ.

فَإِنْ قُلْتَ: مَا مَعْنَى التَّكْرِيرِ فِي قَوْلِهِ: ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ﴾[1]، وَقَوْلِهِ: ﴿قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي﴾[2]؟

قُلْتُ: لَيْسَ بِتَكْرِيرٍ، لِأَنَّ الْأَوَّلَ إِخْبَارٌ بِأَنَّهُ مَأْمُورٌ مِنْ جِهَةِ اللَّهِ بِإِحْدَاثِ الْعِبَادَةِ وَالْإِخْلَاصِ. وَالثَّانِي: إِخْبَارٌ بِأَنَّهُ يَخْتَصُّ اللَّهَ وَحْدَهُ دُونَ غَيْرِهِ بِعِبَادَتِهِ مُخْلِصًا لَهُ دِينَهُ، وَلِدَلَالَتِهِ عَلَى ذَلِكَ قَدَّمَ الْمَعْبُودَ عَلَى فِعْلِ الْعِبَادَةِ وَأَخَّرَهُ فِي الْأَوَّلِ، فَالْكَلَامُ أَوَّلًا وَاقِعٌ فِي الْفِعْلِ نَفْسِهِ وَإِيجَادِهِ، وَثَانِيًا فِيمَنْ يَفْعَلُ الْفِعْلَ لِأَجْلِهِ، وَلِذَلِكَ رَتَّبَ عَلَيْهِ قَوْلَهُ: ﴿فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ﴾[3].

وَالْمُرَادُ بِهَذَا الْأَمْرِ الْوَارِدِ عَلَى وَجْهِ التَّخْيِيرِ: الْمُبَالَغَةُ فِي الْخِذْلَانِ وَالتَّخْلِيَةِ، عَلَى مَا حَقَّقْتَ فِيهِ الْقَوْلَ مَرَّتَيْنِ.

قُلْ إِنَّ الْكَامِلِينَ فِي الْخُسْرَانِ الْجَامِعِينَ لِوُجُوهِهِ وَأَسْبَابِهِ هُمْ ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ﴾[4] لِوُقُوعِهَا فِي هَلَكَةٍ لَا هَلَكَةَ بَعْدَهَا، (وَ) خَسِرُوا ﴿وَأَهْلِيهِمْ﴾[5] لِأَنَّهُمْ إِنْ كَانُوا مِنْ أَهْلِ النَّارِ فَقَدْ خَسِرُوهُمْ كَمَا خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ، وَإِنْ كَانُوا مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَقَدْ ذَهَبُوا عَنْهُمْ ذِهَابًا لَا رُجُوعَ بَعْدَهُ إِلَيْهِمْ. وَقِيلَ: وَخَسِرُوهُمْ، لِأَنَّهُمْ لَمْ يَدْخُلُوا مَدْخَلَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ لَهُمْ أَهْلٌ فِي الْجَنَّةِ، يَعْنِي: وَخَسِرُوا أَهْلِيهِمُ الَّذِينَ كَانُوا يَكُونُونَ لَهُمْ لَوْ آمَنُوا، وَلَقَدْ وَصَفَ خُسْرَانَهُمْ بِغَايَةِ الْفَظَاعَةِ فِي قَوْلِهِ: ﴿أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾[6] حَيْثُ اسْتَأْنَفَ الْجُمْلَةَ وَصَدَّرَهَا بِحَرْفِ التَّنْبِيهِ، وَوَسَّطَ الْفَصْلَ بَيْنَ الْمُبْتَدَأِ وَالْخَبَرِ، وَعَرَّفَ الْخُسْرَانَ وَنَعَتَهُ بِالْمُبِينِ.

---

1 سورة الزُّمَر، الآية .
2 سورة الزُّمَر، الآية .
3 سورة الزُّمَر، الآية .
4 سورة الزُّمَر، الآية .
5 سورة الزُّمَر، الآية .
6 سورة الزُّمَر، الآية .

﴿لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ﴾[1]

﴿وَمِنْ تَحْتِهِمْ﴾[2] أَطْبَاقٌ مِنَ النَّارِ هِيَ ﴿ظُلَلٌ﴾[3] لِآخَرِينَ.

﴿ذَلِكَ﴾[4] الْعَذَابُ هُوَ الَّذِي يَتَوَعَّدُ اللَّهُ ﴿بِهِ عِبَادَهُ﴾[5] وَيُخَوِّفُهُمْ، لِيَجْتَنِبُوا مَا يُوقِعُهُمْ فِيهِ.

﴿يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ﴾[6] فَلَا تَتَعَرَّضُوا لِمَا يُوجِبُ سُخْطِي، وَهَذِهِ عِظَةٌ مِنَ اللَّهِ –تَعَالَى– وَنَصِيحَةٌ بَالِغَةٌ، وَقُرِئَ: (يَا عِبَادِي).

﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَى فَبَشِّرْ عِبَادِ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الأَلْبَابِ﴾[7]

﴿الطَّاغُوتَ﴾[8] فَعَلُوتَ مِنَ الطُّغْيَانِ كَالْمَلَكُوتِ وَالرَّحَمُوتِ، إِلَّا أَنَّ فيها قَلْبًا بِتَقْدِيمِ اللَّامِ عَلَى الْعَيْنِ، أُطْلِقَتْ عَلَى الشَّيْطَانِ أَوِ الشَّيَاطِينِ، لِكَوْنِهَا مَصْدَرًا وَفيها مُبَالَغَاتٌ، وَهِيَ التَّسْمِيَةُ بِالْمَصْدَرِ، كَأَنَّ عَيْنَ الشَّيْطَانِ طُغْيَانٌ، وَأَنَّ الْبِنَاءَ بِنَاءُ مُبَالَغَةٍ، فَإِنَّ الرَّحَمُوتَ: الرَّحْمَةُ الْوَاسِعَةُ، وَالْمَلَكُوتَ: الْمُلْكُ الْمَبْسُوطُ، وَالْقَلْبُ هُوَ لِلِاخْتِصَاصِ، إِذْ لَا تُطْلَقُ عَلَى غَيْرِ الشَّيْطَانِ، وَالْمُرَادُ بِهَا هَهُنَا الْجَمْعُ. وَقُرِئَ: (الطَّوَاغِيتُ).

﴿أَنْ يَعْبُدُوهَا﴾[9] بَدَلٌ مِنَ الطَّاغُوتِ بَدَلُ الِاشْتِمَالِ.

---

1 سورة الزُّمَر، الآية .
2 سورة الزُّمَر، الآية .
3 سورة الزُّمَر، الآية .
4 سورة الزُّمَر، الآية .
5 سورة الزُّمَر، الآية .
6 سورة الزُّمَر، الآية .
7 سورة الزُّمَر، الآية .
8 سورة الزُّمَر، الآية .
9 سورة الزُّمَر، الآية .

﴿لَهُمُ الْبُشْرَى﴾ هِيَ الْبِشَارَةُ بِالثَّوَابِ، كَقَوْلِهِ –تَعَالَى–: ﴿لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ﴾[1] اللَّهُ –عَزَّ وَجَلَّ– يُبَشِّرُهُمْ بِذَلِكَ في وَحْيِهِ عَلَى أَلْسِنَةِ رُسُلِهِ، وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ عِنْدَ حُضُورِ الْمَوْتِ مُبَشِّرِينَ، وَحِينَ يُحْشَرُونَ، قَالَ اللَّهُ –تَعَالَى–: ﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ﴾[2].

وَأَرَادَ بِعِبَادِهِ: ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾[3] الَّذِينَ اجْتَنَبُوا وَأَنَابُوا لَا غَيْرُهُمْ، وَإِنَّمَا أَرَادَ بِهِمْ أَنْ يَكُونُوا مَعَ الِاجْتِنَابِ وَالْإِنَابَةِ عَلَى هَذِهِ الصِّفَةِ، فَوُضِعَ الظَّاهِرُ مَوْضِعَ الضَّمِيرِ، وَأَرَادَ أَنْ يَكُونُوا نُقَّادًا في الدِّينِ يُمَيِّزُونَ بَيْنَ الْحَسَنِ وَالْأَحْسَنِ وَالْفَاضِلِ وَالْأَفْضَلِ، فَإِذَا اعْتَرَضَهُمْ أَمْرَانِ: وَاجِبٌ وَنَدْبٌ، اخْتَارُوا الْوَاجِبَ، وَكَذَلِكَ الْمُبَاحُ وَالنَّدْبُ، حُرَّاصًا عَلَى مَا هُوَ أَقْرَبُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَكْثَرُ ثَوَابًا، وَيَدْخُلُ تَحْتَهُ الْمَذَاهِبُ وَاخْتِيَارُ أَثْبَتِهَا عَلَى السَّبْكِ وَأَقْوَاهَا عِنْدَ السَّبْرِ، وَأَبْيَنُهَا دَلِيلًا أَوْ أَمَارَةً، وَأَنْ لَا تَكُونَ في مَذْهَبِكَ، كَمَا قَالَ الْقَائِلُ:

وَلا تَكُنْ مِثْلَ عَيْرٍ قَيْدٍ فَانْقَـــــادَا

يُرِيدُ الْمُقَلِّدَ، وَقِيلَ: يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ وَغَيْرَهُ فيتَّبِعُونَ الْقُرْآنَ. وَقِيلَ: يَسْتَمِعُونَ أَوَامِرَ اللَّهِ فيتَّبِعُونَ أَحْسَنَهَا، وَنَحْوُ: الْقِصَاصُ وَالْعَفْوُ، وَالِانْتِصَارُ وَالْإِغْضَاءُ، وَالْإِبْدَاءُ وَالْإِخْفَاءُ، لِقَوْلِهِ –تَعَالَى–: ﴿وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾[4]، ﴿وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾[5].

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا–: هُوَ الرَّجُلُ يَجْلِسُ مَعَ الْقَوْمِ فيسْمَعُ الْحَدِيثَ فيهِ مَحَاسِنُ وَمُسَاوٍ، فيحَدِّثُ بِأَحْسَنِ مَا سَمِعَ وَيَكُفُّ عَمَّا سِوَاهُ.

وَمِنَ الْوَقْفَةِ مَنْ يَقِفُ عَلَى: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ﴾[6]، وَيَبْتَدِئُ: ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ﴾[7]، يَرْفَعُهُ عَلَى الِابْتِدَاءِ، وَخَبَرُهُ ﴿أُولَئِكَ﴾[8].

---

[1] سورة يُونُسُ، الآية 64.

[2] سورة الْحَدِيدُ، الآية 12.

[3] سورة الزُّمَرِ، الآية .

[4] سورة الْبَقَرَةُ، الآية 237.

[5] سورة الْبَقَرَةُ، الآية 271.

[6] سورة الزُّمَرِ، الآية .

[7] سورة الزُّمَرِ، الآية .

[8] سورة الزُّمَرِ، الآية .

## ﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ﴾[1]

أَصْلُ الْكَلَامِ: أَمَّنَ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ فَأَنْتِ تُنْقِذُهُ، جُمْلَةٌ شَرْطِيَّةٌ دَخَلَ عَلَيْهَا هَمْزَةُ الْإِنْكَارِ، وَالْفَاءُ فَاءُ الْجَزَاءِ، ثُمَّ دَخَلَتِ الْفَاءُ الَّتِي فِي أَوَّلِهَا لِلْعَطْفِ عَلَى مَحْذُوفٍ يَدُلُّ عَلَيْهِ الْخِطَابُ، تَقْدِيرُهُ: أَأَنْتَ مَالِكُ أَمْرِهِمْ، فَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ فَأَنْتَ تُنْقِذُهُ، وَالْهَمْزَةُ الثَّانِيَةُ هِيَ الْأُولَى، كُرِّرَتْ لِتَوْكِيدِ مَعْنَى الْإِنْكَارِ وَالِاسْتِبْعَادِ، وَوُضِعَ ﴿مَنْ فِي النَّارِ﴾[2] مَوْضِعَ الضَّمِيرِ، فَالْآيَةُ عَلَى هَذَا جُمْلَةٌ وَاحِدَةٌ.

وَوَجْهٌ آخَرُ: وَهُوَ أَنْ تَكُونَ الْآيَةُ جُمْلَتَيْنِ: أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ فَأَنْتَ تُخَلِّصُهُ؟ ﴿أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ﴾[3]؟

وَإِنَّمَا جَازَ حَذْفُ: فَأَنْتَ تُخَلِّصُهُ، لِأَنَّ ﴿أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ﴾[4] يَدُلُّ عَلَيْهِ، نَزَلَ اسْتِحْقَاقُهُمُ الْعَذَابَ وَهُمْ فِي الدُّنْيَا مَنْزِلَةَ دُخُولِهِمُ النَّارَ، حَتَّى نَزَلَ اجْتِهَادُ رَسُولِ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– وَكَدُّهُ نَفْسَهُ فِي دُعَائِهِمْ إِلَى الْإِيمَانِ فِي مَنْزِلَةِ إِنْقَاذِهِمْ مِنَ النَّارِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ﴾[5] يُفِيدُ أَنَّ اللَّهَ –تَعَالَى– هُوَ الَّذِي يَقْدِرُ عَلَى الْإِنْقَاذِ مِنَ النَّارِ وَحْدَهُ، لَا يَقْدِرُ عَلَى ذَلِكَ أَحَدٌ غَيْرُهُ، فَكَمَا لَا تَقْدِرُ أَنْتَ أَنْ تَنْقُدَ الدَّاخِلَ فِي النَّارِ مِنَ النَّارِ، لَا تَقْدِرُ أَنْ تُخَلِّصَهُ مِمَّا هُوَ فِيهِ مِنَ اسْتِحْقَاقِ الْعَذَابِ بِتَحْصِيلِ الْإِيمَانِ فِيهِ .

## ﴿لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِنْ فَوْقِهَا غُرَفٌ مَبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهِ الْمِيعَادَ﴾[6]

---

1 سورة الزُّمَر، الآية .
2 سورة الزُّمَر، الآية .
3 سورة الزُّمَر، الآية .
4 سورة الزُّمَر، الآية .
5 سورة الزُّمَر، الآية .
6 سورة الزُّمَر، الآية .

﴿غُرَفٌ مِنْ فَوْقِهَا غُرَفٌ﴾[1] عَلَالِي بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ.

فَإِنْ قُلْتَ: مَا مَعْنَى قَوْلِهِ: "مَبْنِيَّةٌ"؟

قُلْتُ: مَعْنَاهُ –وَاللَّهُ أَعْلَمُ–: أَنَّهَا بُنِيَتْ بِنَاءَ الْمَنَازِلِ الَّتِي عَلَى الْأَرْضِ وَسُوِّيَتْ تَسْوِيَتَهَا.

﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ﴾[2] كَمَا تَجْرِي تَحْتَ الْمَنَازِلِ، مِنْ غَيْرِ تَفَاوُتٍ بَيْنَ الْعُلُوِّ وَالسُّفْلِ.

﴿وَعْدَ اللَّهِ﴾[3] مَصْدَرٌ مُؤَكِّدٌ، لِأَنَّ قَوْلَهُ لَهُمْ غُرَفٌ في مَعْنَى: وَعَدَهُمُ اللَّهُ ذَلِكَ .

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لأُولِي الأَلْبَابِ﴾[4]

﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾[5] هُوَ الْمَطَرُ. وَقِيلَ: كُلُّ مَاءٍ في الْأَرْضِ فَهُوَ مِنَ السَّمَاءِ يَنْزِلُ مِنْهَا إِلَى الصَّخْرَةِ، ثُمَّ يُقَسِّمُهُ اللَّهُ، "فَسَلَكَهُ"، فَأَدْخَلَهُ وَنَظَّمَهُ.

﴿يَنَابِيعَ فِي الأَرْضِ﴾[6] عُيُونًا وَمَسَالِكَ وَمَجَارِيَ كَالْعُرُوقِ في الْأَجْسَادِ.

﴿مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ﴾[7] هَيْئَاتُهُ مِنْ خُضْرَةٍ وَحُمْرَةٍ وَصُفْرَةٍ وَبَيَاضٍ وَغَيْرِ ذَلِكَ، وَأَصْنَافُهُ مِنْ بُرٍّ وَشَعِيرٍ وَسِمْسِمٍ وَغَيْرِهَا.

﴿يَهِيجُ﴾[8] يَتِمُّ جَفَافُهُ، عَنِ الْأَصْمَعِيِّ، لِأَنَّهُ إِذَا تَمَّ جَفَافُهُ حَانَ لَهُ أَنْ يَثُورَ عَنْ مَنَابِتِهِ وَيَذْهَبَ ﴿حُطَامًا﴾[9] فُتَاتًا وَدَرِينًا

---

1 سورة الزُّمَر، الآية .
2 سورة الزُّمَر، الآية .
3 سورة الزُّمَر، الآية .
4 سورة الزُّمَر، الآية .
5 سورة الزُّمَر، الآية .
6 سورة الزُّمَر، الآية .
7 سورة الزُّمَر، الآية .
8 سورة الزُّمَر، الآية .
9 سورة الزُّمَر، الآية .

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى﴾[1] لَتَذْكِيرًا وَتَنْبِيهًا، عَلَى أَنَّهُ لَا بُدَّ مِنْ صَانِعٍ حَكِيمٍ، وَأَنَّ ذَلِكَ كَائِنٌ عَنْ تَقْدِيرٍ وَتَدْبِيرٍ، لَا عَنْ تَعْطِيلٍ وَإِهْمَالٍ.

وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مَثَلًا لِلدُّنْيَا، كَقَوْلِهِ -تَعَالَى-: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾[2]، ﴿وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾[3].

وَقُرِئَ: (مُصْفَارًّا).

## ﴿أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ أُولَئِكَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾[4]

﴿أَفَمَنْ﴾[5] عَرَفَ اللَّهَ أَنَّهُ مِنْ أَهْلِ اللُّطْفِ فَلَطَفَ بِهِ حَتَّى انْشَرَحَ صَدْرُهُ لِلْإِسْلَامِ وَرَغِبَ فِيهِ وَقَبِلَهُ كَمَنْ لَا لُطْفَ لَهُ، فَهُوَ حَرَجُ الصَّدْرِ قَاسِي الْقَلْبِ، وَنُورُ اللَّهِ: هُوَ لُطْفُهُ، وَقَرَأَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- هَذِهِ الْآيَةَ فَقِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، كَيْفَ انْشِرَاحُ الصَّدْرِ؟ قَالَ: "إِذَا دَخَلَ النُّورُ الْقَلْبَ انْشَرَحَ وَانْفَسَحَ"، فَقِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَمَا عَلَامَةُ ذَلِكَ؟ قَالَ: "الْإِنَابَةُ إِلَى دَارِ الْخُلُودِ، وَالتَّجَافِي عَنْ دَارِ الْغُرُورِ، وَالتَّأَهُّبُ لِلْمَوْتِ قَبْلَ نُزُولِ الْمَوْتِ"، وَهُوَ نَظِيرُ قَوْلِهِ: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ﴾[6] فِي حَذْفِ الْخَبَرِ.

﴿مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾[7] مِنْ أَجْلِ ذِكْرِهِ، أَيْ: إِذَا ذَكَرَ اللَّهَ عِنْدَهُمْ أَوْ آيَاتِهِ اشْمَأَزُّوا وَازْدَادَتْ قُلُوبُهُمْ قَسَاوَةً، كَقَوْلِهِ -تَعَالَى-: ﴿فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ﴾[8].

وَقُرِئَ: (عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ).

فَإِنْ قُلْتَ: مَا الْفَرْقُ بَيْنَ مَنْ وَعَنْ فِي هَذَا؟

---

[1] سورة الزُّمَر، الآية .

[2] سورة يُونُس، الآية 24.

[3] سورة الْكَهْف، الآية 45.

[4] سورة الزُّمَر، الآية .

[5] سورة الزُّمَر، الآية .

[6] سورة الزُّمَر، الآية 9.

[7] سورة الزُّمَر، الآية .

[8] سورة التَّوْبَة، الآية 125.

قُلْتُ: إِذَا قُلْتَ: قَسَا قَلْبُهُ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ، فَالْمَعْنَى مَا ذَكَرْتَ مِنْ أَنَّ الْقَسْوَةَ مِنْ أَجْلِ الذِّكْرِ وَبِسَبَبِهِ، وَإِذَا قُلْتَ: عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ، فَالْمَعْنَى: غَلِظَ عَنْ قَبُولِ الذِّكْرِ وَجَفَا عَنْهُ.

وَنَظِيرُهُ: سَقَاهُ مِنَ الْعَيْمَةِ، أَيْ: مِنْ أَجْلِ عَطَشِهِ، وَسَقَاهُ عَنِ الْعَيْمَةِ: إِذَا أَرَوَاهُ حَتَّى أَبْعَدَهُ عَنِ الْعَطَشِ.

﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مَنْ هَادٍ﴾[1]

عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ–: أَنَّ أَصْحَابَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَلُّوا مِلَّةً، فَقَالُوا لَهُ: حَدِّثْنَا فَنَزَلَتْ، وَإِيقَاعُ اسْمِ اللَّهِ مُبْتَدَأً وَبِنَاءُ ﴿نَزَّلَ﴾[2] عَلَيْهِ فِيهِ: تَفْخِيمٌ لِأَحْسَنِ الْحَدِيثِ، وَرَفْعٌ مِنْهُ، وَاسْتِشْهَادٌ عَلَى حُسْنِهِ، وَتَأْكِيدٌ لِاسْتِنَادِهِ إِلَى اللَّهِ وَأَنَّهُ مِنْ عِنْدِهِ، وَأَنَّ مِثْلَهُ لَا يَجُوزُ أَنْ يَصْدُرَ إِلَّا عَنْهُ، وَتَنْبِيهٌ عَلَى أَنَّهُ وَحْيٌ مُعْجِزٌ مُبَايِنٌ لِسَائِرِ الْأَحَادِيثِ.

وَ﴿كِتَابًا﴾[3] بَدَلٌ مِنْ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ، وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ حَالًا مِنْهُ، ﴿مُتَشَابِهًا﴾[4] مُطْلَقٌ فِي مُشَابَهَةِ بَعْضِهِ بَعْضًا، فَكَانَ مُتَنَاوِلًا لِتَشَابُهِ مَعَانِيهِ فِي الصِّحَّةِ وَالْإِحْكَامِ، وَالْبِنَاءِ عَلَى الْحَقِّ وَالصِّدْقِ وَمَنْفَعَةِ الْخَلْقِ، وَتَنَاسُبِ أَلْفَاظِهِ وَتَنَاصُفِهَا فِي التَّخَيُّرِ وَالْإِصَابَةِ، وَتَجَاوَبَ نَظْمُهُ وَتَأْلِيفُهُ فِي الْإِعْجَازِ وَالتَّبْكِيتِ.

وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ ﴿مَثَانِيَ﴾[5] بَيَانًا لِكَوْنِهِ مُتَشَابِهًا، لِأَنَّ الْقِصَصَ الْمُكَرَّرَةَ لَا تَكُونُ إِلَّا مُتَشَابِهَةً. وَالْمَثَانِي: جَمْعُ مَثْنًى بِمَعْنَى مُرَدَّدٌ مُكَرَّرٌ، وَلَمَّا ثُنِّيَ مِنْ قِصَصِهِ وَأَنْبَائِهِ، وَأَحْكَامِهِ، وَأَوَامِرِهِ وَنَوَاهِيهِ، وَوَعْدِهِ وَوَعِيدِهِ، وَمَوَاعِظِهِ. وَقِيلَ: لِأَنَّهُ يُثْنِي فِي التِّلَاوَةِ، فَلَا يَمِلُّ كَمَا جَاءَ فِي وَصْفِهِ لَا يَتْفَهُ وَلَا يَتْشَانُ وَلَا يَخْلَقُ عَلَى كَثْرَةِ الرَّدِّ.

---

[1] سورة الزُّمَر، الآية .

[2] سورة الزُّمَر، الآية .

[3] سورة الزُّمَر، الآية .

[4] سورة الزُّمَر، الآية .

[5] سورة الزُّمَر، الآية .

وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ جَمْعُ مُثَنَّى مَفْعَلٌ، مِنَ التَّثْنِيَةِ بِمَعْنَى التَّكْرِيرِ، وَالْإِعَادَةِ كَمَا كَانَ قَوْلُهُ –تَعَالَى–: ﴿ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ﴾[1]، بِمَعْنَى كَرَّةٍ بَعْدَ كَرَّةٍ، وَكَذَلِكَ: لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ، وَحَنَانَيْكَ.

فَإِنْ قُلْتَ: كَيْفَ وُصِفَ الْوَاحِدُ بِالْجَمْعِ؟

قُلْتُ: إِنَّمَا صَحَّ ذَلِكَ لِأَنَّ الْكِتَابَ جُمْلَةٌ ذَاتُ تَفَاصِيلَ، وَتَفَاصِيلُ الشَّيْءِ هِيَ جُمْلَتُهُ لَا غَيْرَ.

أَلَا تَرَاكَ تَقُولُ: الْقُرْآنُ أَسْبَاعٌ وَأَخْمَاسٌ، وَسُوَرٌ وَآيَاتٌ، وَكَذَلِكَ تَقُولُ: أَقَاصِيصُ وَأَحْكَامٌ وَمَوَاعِظُ مُكَرَّرَاتٌ، وَنَظِيرُهُ قَوْلُكَ: الْإِنْسَانُ عِظَامٌ وَعُرُوقٌ وَأَعْصَابٌ، إِلَّا أَنَّكَ تَرَكْتَ الْمَوْصُوفَ إِلَى الصِّفَةِ، وَأَصْلُهُ: كِتَابًا مُتَشَابِهًا فُصُولًا مَثَانِيَ، وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ كَقَوْلِكَ: بِرُمَّةِ أَعْشَارٍ، وَثَوْبِ أَخْلَاقٍ. وَيَجُوزُ أَنْ لَا يَكُونُ مَثَانِي صِفَةٌ، وَيَكُونُ مُنْتَصِبًا عَلَى التَّمْيِيزِ مِنْ "مُتَشَابِهًا"، كَمَا تَقُولُ: رَأَيْتُ رَجُلًا حَسَنًا شَمَائِلَ، وَالْمَعْنَى: مُتَشَابِهَةٌ مَثَانِيَةٌ.

فَإِنْ قُلْتَ: مَا فَائِدَةُ التَّثْنِيَةِ وَالتَّكْرِيرِ؟

قُلْتُ: النُّفُوسُ أَنْفَرُ شَيْءٍ مِنْ حَدِيثِ الْوَعْظِ وَالنَّصِيحَةِ، فَمَا لَمْ يُكَرَّرْ عَلَيْهَا عَوْدًا عَنْ بَدْءٍ لَمْ يُرَسِّخْ فيها وَلَمْ يَعْمَلْ عَمَلَهُ، وَمِنْ ثَمَّ كَانَتْ عَادَةُ رَسُولِ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– أَنْ يُكَرِّرَ عَلَيْهِمْ مَا كَانَ يَغِطُّ بِهِ وَيَنْصَحُ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ وَسَبْعًا، لِيُرَكِّزَهُ في قُلُوبِهِمْ، وَيَغْرِسَهُ في صُدُورِهِمْ. اقْشَعَرَّ الْجِلْدُ: إِذَا تَقَبَّضَ تَقَبُّضًا شَدِيدًا، وَتَرْكِيبُهُ مِنْ حُرُوفِ الْقَشْعِ، وَهُوَ الْأَدِيمُ الْيَابِسُ، مَضْمُومًا إِلَيْهَا حَرْفٌ رَابِعٌ وَهُوَ الرَّاءُ، لِيَكُونَ رُبَاعِيًّا وَدَالًّا عَلَى مَعْنًى زَائِدٍ. يُقَالُ: اقْشَعَرَّ جِلْدُهُ مِنَ الْخَوْفِ وَقَفَ شَعْرُهُ، وَهُوَ مَثَلٌ في شِدَّةِ الْخَوْفِ، فيجُوزُ أَنْ يُرِيدَ بِهِ اللَّهُ سُبْحَانَهُ التَّمْثِيلَ، تَصْوِيرًا لِإِفْرَاطِ خَشْيَتِهِمْ، وَأَنْ يُرِيدَ التَّحْقِيقَ.

وَالْمَعْنَى: أَنَّهُمْ إِذَا سَمِعُوا بِالْقُرْآنِ وَبِآيَاتِ وَعِيدِهِ أَصَابَتْهُمْ خَشْيَةٌ تَقْشَعِرُّ مِنْهَا جُلُودُهُمْ، ثُمَّ إِذَا ذَكَرُوا اللَّهَ وَرَحْمَتَهُ وَجُودَهُ بِالْمَغْفِرَةِ لَانَتْ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ وَزَالَ عَنْهَا مَا كَانَ بِهَا مِنَ الْخَشْيَةِ وَالْقَشْعَرِيرَةِ.

فَإِنْ قُلْتَ: مَا وَجْهُ تَعَدِّيهِ "لَانَ" بِإِلَى؟

قُلْتُ: ضَمِنَ مَعْنَى فِعْلٍ مُتَعَدٍّ بِإِلَى، كَأَنَّهُ قِيلَ: سَكَنَتْ، أَوِ اطْمَأَنَّتْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ، لَيِّنَةٌ غَيْرُ مُنْقَبِضَةٍ، رَاجِيَةٌ غَيْرُ خَاشِيَةٍ.

فَإِنْ قُلْتَ: لِمَ اقْتَصَرَ عَلَى ذِكْرِ اللَّهِ مِنْ غَيْرِ ذِكْرِ الرَّحْمَةِ؟

---

[1] سورة الْمُلْكُ، الآية 44.

قُلْتُ: لِأَنَّ أَصْلَ أَمْرِهِ الرَّحْمَةُ وَالرَّأْفَةُ، وَرَحْمَتُهُ هِيَ سَابِقَةٌ غَضَبَهُ، فَلِأَصَالَةِ رَحْمَتِهِ إِذَا ذَكَرَ لَمْ يَخْطُرْ بِالْبَالِ قَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ مِنْ صِفَاتِهِ إِلَّا كَوْنُهُ رَؤُوفًا رَحِيمًا.

فَإِنْ قُلْتَ: لِمَ ذُكِرَتِ الْجُلُودُ وَحْدَهَا أَوَّلًا، ثُمَّ قُرِنَتْ بِهَا الْقُلُوبُ؟ ثَانِيًا؟

قُلْتُ: إِذَا ذُكِرَتِ الْخَشْيَةُ الَّتِي مَحَلُّهَا الْقُلُوبُ، فَقَدْ ذُكِرَتِ الْقُلُوبُ، فَكَأَنَّهُ قِيلَ: تَقْشَعِرُّ جُلُودُهُمْ مِنْ آيَاتِ الْوَعِيدِ، وَتَخْشَى قُلُوبُهُمْ فِي أَوَّلِ وَهْلَةٍ، فَإِذَا ذَكَرُوا اللَّهَ وَمَبْنَى أَمْرِهِ عَلَى الرَّأْفَةِ وَالرَّحْمَةِ، اسْتَبْدَلُوا بِالْخَشْيَةِ رَجَاءً فِي قُلُوبِهِمْ، وَبِالْقُشَعْرِيرَةِ لِينًا فِي جُلُودِهِمْ.

﴿ذَلِكَ﴾[1] إِشَارَةٌ إِلَى الْكِتَابِ، وَهُوَ ﴿هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ﴾[2] يُوَفِّقُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ، يَعْنِي: عِبَادَهُ الْمُتَّقِينَ، حَتَّى يَخْشَوْا تِلْكَ الْخَشْيَةَ وَيَرْجُوا ذَلِكَ الرَّجَاءَ، كَمَا قَالَ: ﴿هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾[3].

﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ﴾[4]: وَمَنْ يَخْذُلُهُ مِنَ الْفُسَّاقِ وَالْفَجَرَةِ، ﴿فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾[5]، أَوْ ذَلِكَ الْكَائِنِ مِنَ الْخَشْيَةِ وَالرَّجَاءِ هُدَى اللَّهِ، أَيْ: أَثَرُ هَدَاهُ وَهُوَ لُطْفُهُ، فَسَمَّاهُ هُدًى، لِأَنَّهُ حَاصِلٌ بِالْهُدَى.

﴿يَهْدِي بِهِ﴾[6] بِهَذَا الْأَثَرِ.

﴿مَنْ يَشَاءُ﴾[7] مِنْ عِبَادِهِ، يَعْنِي: مَنْ صَحِبَ أُولَئِكَ وَرَآهُمْ خَاشِينَ رَاجِينَ، فَكَانَ ذَلِكَ مُرَغِّبًا لَهُمْ فِي الِاقْتِدَاءِ بِسِيرَتِهِمْ وَسُلُوكِ طَرِيقَتِهِمْ .

﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ﴾[8]: وَمَنْ لَمْ تُؤَثِّرْ فِيهِ أَلْطَافُهُ، لِقَسْوَةِ قَلْبِهِ، وَإِصْرَارُهُ عَلَى فُجُورِهِ.

﴿فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾[9] مِنْ مُؤَثِّرٍ فِيهِ بِشَيْءٍ قَطُّ .

---

[1] سورة الزُّمَرِ، الآية .

[2] سورة الْبَقَرَةُ، الآية 2.

[3] سورة الزُّمَرِ، الآية .

[4] سورة الزُّمَرِ، الآية .

[5] سورة الزُّمَرِ، الآية .

[6] سورة الزُّمَرِ، الآية .

[7] سورة الزُّمَرِ، الآية .

[8] سورة الزُّمَرِ، الآية .

[9] سورة الزُّمَرِ، الآية .

﴿أَفَمَنْ يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُونَ فَأَذَاقَهُمُ اللَّهُ الْخِزْيَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾[1]

يُقَالُ: اتَّقَاهُ بِدَرَقَتِهِ اسْتَقْبَلَهُ بِهَا فَوُقِيَ بِهَا نَفْسَهُ إِيَّاهُ وَاتَّقَاهُ بِيَدِهِ.

وَتَقْدِيرُهُ: ﴿أَفَمَنْ يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ﴾[2] كَمَنْ أَمِنَ الْعَذَابَ، فَحَذَفَ كَمَا حَذَفَ فِي نَظَائِرِهِ، وَ﴿سُوءَ الْعَذَابِ﴾[3]: شِدَّتُهُ، وَمَعْنَاهُ: أَنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا لَقِيَ مَخُوفًا مِنَ الْمَخَاوِفِ اسْتَقْبَلَهُ بِيَدِهِ، وَطَلَبَ أَنْ يَقِيَ بِهَا وَجْهَهُ، لِأَنَّهُ أَعَزُّ أَعْضَائِهِ عَلَيْهِ، وَالَّذِي يُلْقَى فِي النَّارِ يُلْقَى مَغْلُولَةً يَدَاهُ إِلَى عُنُقِهِ، فَلَا يَتَهَيَّأُ لَهُ أَنْ يَتَّقِيَ النَّارَ إِلَّا بِوَجْهِهِ الَّذِي كَانَ يَتَّقِي الْمَخَاوِفَ بِغَيْرِهِ، وِقَايَةً لَهُ وَمُحَامَاةً عَلَيْهِ. وَقِيلَ: الْمُرَادُ بِالْوَجْهِ الْجُمْلَةُ، وَقِيلَ: نَزَلَتْ فِي أَبِي جَهْلٍ. وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَةُ النَّارِ: ﴿ذُوقُوا﴾[4] وَبَالَ (مَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ ..... مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُونَ) مِنَ الْجِهَةِ الَّتِي لَا يَحْتَسِبُونَ، وَلَا يَخْطُرُ بِبَالِهِمْ أَنَّ الشَّرَّ يَأْتِيهِمْ مِنْهَا، بَيْنَا هُمْ آمِنُونَ رَافِهُونَ إِذْ فُوجِئُوا مِنْ مَأْمَنِهِمْ. وَالْخِزْيُ: الذُّلُّ وَالصَّغَارُ، كَالْمَسْخِ وَالْخَسْفِ وَالْقَتْلِ وَالْجَلَاءِ، وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ مِنْ نَكَالِ اللَّهِ.

﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾[5]

﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾[6] حَالٌ مُؤَكِّدَةٌ، كَقَوْلِكَ: جَاءَنِي زَيْدٌ رَجُلًا صَالِحًا وَإِنْسَانًا عَاقِلًا، وَيَجُوزُ أَنْ يَنْتَصِبَ عَلَى الْمَدْحِ.

---

1 سورة الزُّمَر، الآية .
2 سورة الزُّمَر، الآية .
3 سورة الزُّمَر، الآية .
4 سورة الزُّمَر، الآية .
5 سورة الزُّمَر، الآية .
6 سورة الزُّمَر، الآية .

﴿غَيْرَ ذِي عِوَجٍ﴾[1] مُسْتَقِيمًا بَرِيئًا مِنَ التَّنَاقُضِ وَالِاخْتِلَافِ.

فَإِنْ قُلْتَ: فَهَلَّا قِيلَ: مُسْتَقِيمًا، أَوْ غَيْرَ مُعْوَجٍّ؟

قُلْتُ: فِيهِ فَائِدَتَانِ:

– إِحْدَاهُمَا: نَفى أَنْ يَكُونَ فِيهِ عِوَجٌ قَطُّ، كَمَا قَالَ: ﴿وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا﴾[2]،

– وَالثَّانِيَةُ: أَنَّ لَفْظَ الْعِوَجِ مُخْتَصٌّ بِالْمَعَانِي دُونَ الْأَعْيَانِ، وَقِيلَ: الْمُرَادُ بِالْعِوَجِ: الشَّكُّ وَاللَّبْسُ.

وَأَنْشَدَ:

وَقَدْ أَتَاكَ يَقِينٌ غَيْرُ ذِي عِوَجٍ مِنَ الْإِلَهِ وَقَوْلٌ غَيْرُ مَكْذُوبِ

## ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾[3]

وَاضْرِبْ لِقَوْمِكَ مَثَلًا، وَقُلْ لَهُمْ: مَا تَقُولُونَ فِي رَجُلٍ مِنَ الْمَمَالِيكِ قَدِ اشْتَرَكَ فِيهِ شُرَكَاءُ بَيْنَهُمُ اخْتِلَافٌ وَتَنَازُعٌ، كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ يَدَّعِي أَنَّهُ عَبْدُهُ، فَهُمْ يَتَجَاذَبُونَهُ وَيَتَعَاوَرُونَهُ فِي مِهَنٍ شَتَّى وَمُشَادَّةٍ، وَإِذَا عَنَّتْ لَهُ حَاجَةٌ تَدَافَعُوهُ، فَهُوَ مُتَحَيِّرٌ فِي أَمْرِهِ سَادِرٌ، قَدْ تَشَعَّبَتِ الْهُمُومُ قَلْبَهُ وَتَوَزَّعَتْ أَفْكَارَهُ، لَا يَدْرِي أَيَّهُمْ يَرْضَى بِخِدْمَتِهِ؟ وَعَلَى أَيِّهِمْ يَعْتَمِدُ فِي حَاجَاتِهِ؟ وَفِي آخَرِ: قَدْ سَلَّمَ لِمَالِكٍ وَاحِدٍ وَخَلُصَ لَهُ، فَهُوَ مُعْتَنِقٌ لِمَا لَزِمَهُ مِنْ خِدْمَتِهِ، مُعْتَمِدٌ عَلَيْهِ فِيمَا يُصْلِحُهُ، فَهْمُهُ وَاحِدٌ وَقَلْبُهُ مُجْتَمِعٌ، أَيْ: هَذَيْنِ الْعَبْدَيْنِ أَحْسَنُ حَالًا وَأَجْمَلُ شَأْنًا؟

وَالْمُرَادُ: تَمْثِيلُ حَالِ مَنْ يُثْبِتُ آلِهَةً شَتَّى، وَمَا يَلْزَمُهُ عَلَى قَضِيَّةِ مَذْهَبِهِ مِنْ أَنْ يَدَّعِيَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ عُبُودِيَّتَهُ، وَيَتَشَاكَسُوا فِي ذَلِكَ وَيَتَغَالَبُوا، كَمَا قَالَ –تَعَالَى–: ﴿وَلَعَلا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾[4]، وَيَبْقَى هُوَ مُتَحَيِّرًا ضَائِعًا لَا يَدْرِي أَيَّهُمْ يَعْبُدُ؟ وَعَلَى رُبُوبِيَّةِ أَيِّهِمْ يَعْتَمِدُ؟ وَمِمَّنْ يَطْلُبُ رِزْقَهُ؟ وَمِمَّنْ يَلْتَمِسُ رِفْقَهُ؟ فَهْمُهُ شُعَاعٌ، وَقَلْبُهُ أَوْزَاعٌ، وَحَالُ مَنْ لَمْ

---

[1] سورة الزُّمَر، الآية .

[2] سورة الْكَهْفُ، الآية 1.

[3] سورة الزُّمَر، الآية .

[4] سورة الْمُؤْمِنُونَ، الآية 91.

يُثْبِتْ إِلَّا إِلَهًا وَاحِدًا، فَهُوَ قَائِمٌ بِمَا كَلَّفَهُ، عَارِفٌ بِمَا أَرْضَاهُ وَمَا أَسْخَطَهُ، مُتَفَضِّلٌ عَلَيْهِ فِي عَاجِلِهِ، مُؤَمِّلٌ لِلثَّوَابِ مِنْ أَجْلِهِ.

وَ﴿فِيهِ﴾[1] صِلَةُ شُرَكَاءَ، كَمَا تَقُولُ: اشْتَرَكُوا فِيهِ. وَالتَّشَاكُسُ وَالتَّشَاخُسُ: الِاخْتِلَافُ، تَقُولُ: تَشَاكَسَتْ أَحْوَالُهُ، وَتَشَاخَسَتْ أَسْنَانُهُ.

﴿سَلَمًا لِرَجُلٍ﴾[2] خَالِصًا. وَقُرِئَ: (سَلَمًا) بِفَتْحِ الْفَاءِ وَالْعَيْنِ، وَفَتْحِ الْفَاءِ وَكَسْرِهَا مَعَ سُكُونِ الْعَيْنِ، وَهِيَ مَصَادِرُ سَلِمَ. وَالْمَعْنَى: ذَا سَلَامَةٍ لِرَجُلٍ، أَيْ: ذَا خُلُوصٍ لَهُ مِنَ الشِّرْكَةِ، مِنْ قَوْلِهِمْ: سَلَّمْتُ لَهُ الضَّيْعَةَ. وَقُرِئَ بِالرَّفْعِ عَلَى الِابْتِدَاءِ، أَيْ: وَهُنَاكَ رَجُلٌ سَالِمٌ لِرَجُلٍ، وَإِنَّمَا جَعَلَهُ رَجُلًا، لِيَكُونَ أَقْطَعَ لِمَا شَقِيَ بِهِ أَوْ سَعِدَ، فَإِنَّ الْمَرْأَةَ وَالصَّبِيَّ قَدْ يَغْفُلَانِ عَنْ ذَلِكَ، ﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلا﴾[3]؟ هَلْ يَسْتَوِيَانِ: صِفَةٌ عَلَى التَّمْيِيزِ، وَالْمَعْنَى: هَلْ يَسْتَوِي صِفَتَاهُمَا وَحَالَاهُمَا، وَإِنَّمَا اقْتَصَرَ فِي التَّمْيِيزِ عَلَى الْوَاحِدِ لِبَيَانِ الْجِنْسِ. وَقُرِئَ: (مَثَلَيْنِ) كَقَوْلِهِ –تَعَالَى–: ﴿وَأَكْثَرَ أَمْوَالا وَأَوْلادًا﴾[4] مَعَ قَوْلِهِ: (أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ) وَيَجُوزُ فِيمَنْ قَرَأَ: (مَثَلَيْنِ)، أَنْ يَكُونَ الضَّمِيرُ فِي "يَسْتَوِيَانِ" لِلْمَثَلَيْنِ، لِأَنَّ التَّقْدِيرَ: مِثْلُ رَجُلٍ وَمِثْلُ رَجُلٍ.

وَالْمَعْنَى: هَلْ يَسْتَوِيَانِ فِيمَا يَرْجِعُ إِلَى الْوَصْفِيةِ، كَمَا تَقُولُ: كَفى بِهِمَا رَجُلَيْنِ.

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾[5] الْوَاحِدُ الَّذِي لَا شَرِيكَ لَهُ دُونَ كُلِّ مَعْبُودٍ سِوَاهُ، أَيْ: يَجِبُ أَنْ يَكُونَ الْحَمْدُ مُتَوَجِّهًا إِلَيْهِ وَحْدَهُ وَالْعِبَادَةُ، فَقَدْ ثَبَتَ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ.

﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾[6]، فيشْرِكُونَ بِهِ غَيْرَهُ.

﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْكَافِرِينَ﴾[7]

---

1 سورة الزُّمَر، الآية .

2 سورة الزُّمَر، الآية .

3 سورة الزُّمَر، الآية .

4 سورة التَّوْبَة، الآية 69.

5 سورة الزُّمَر، الآية .

6 سورة الزُّمَر، الآية .

7 سورة الزُّمَر، الآية .

كَانُوا يَتَرَبَّصُونَ بِرَسُولِ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– مَوْتِهِ، فَأَخْبَرَ أَنَّ الْمَوْتَ يَعُمُّهُمْ، فَلَا مَعْنَى لِلتَّرَبُّصِ، وَشَمَاتَةِ الْبَاقِي بِالْفَانِي.

وَعَنْ قَتَادَةَ: نَعَى إِلَى نَبِيِّهِ نَفْسِهِ، وَنَعَى إِلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ. وَقُرِئَ: (مَائِتٌ وَمَائِتُونَ)، وَالْفَرْقُ بَيْنَ الْمَيِّتِ وَالْمَائِتِ: أَنَّ الْمَيِّتَ صِفَةٌ لَازِمَةٌ كَالسَّيِّدِ، وَأَمَّا الْمَائِتُ فَصِفَةٌ حَادِثَةٌ، تَقُولُ: زَيْدٌ مَائِتٌ غَدًا، كَمَا تَقُولُ: سَائِدٌ غَدًا، أَيْ سَيَمُوتُ وَسَيَسُودُ.

وَإِذَا قُلْتَ: زَيْدٌ مَيِّتٌ، فَكَمَا تَقُولُ: حَيٌّ فِي نَقِيضِهِ، فِيمَا يَرْجِعُ إِلَى اللُّزُومِ وَالثُّبُوتِ.

وَالْمَعْنَى فِي قَوْلِهِ: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾[1] إِنَّكَ وَإِيَّاهُمْ، وَإِنْ كُنْتُمْ أَحْيَاءً فَأَنْتُمْ فِي عِدَادِ الْمَوْتَى، لِأَنَّ مَا هُوَ كَائِنٌ، فَكَأَنَّ قَدْ كَانَ.

﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ﴾[2]: ثُمَّ إِنَّكَ وَإِيَّاهُمْ، فَغَلَبَ ضَمِيرُ الْمُخَاطَبِ عَلَى ضَمِيرِ الْغَيْبِ.

"تَخْتَصِمُونَ" فَتَحْتَجُّ أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِأَنَّكَ بَلَّغْتَ فَكَذَّبُوا، فَاجْتَهَدْتَ فِي الدَّعْوَةِ فَلَجُّوا فِي الْعِنَادِ، وَيَعْتَذِرُونَ بِمَا لَا طَائِلَ تَحْتَهُ، تَقُولُ الْأَتْبَاعُ: أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا، وَتَقُولُ السَّادَاتُ: أَغْوَتْنَا الشَّيَاطِينُ وَآبَاؤُنَا الْأَقْدَمُونَ، وَقَدْ حُمِلَ عَلَى اخْتِصَامِ الْجَمِيعِ، وَأَنَّ الْكُفَّارَ يُخَاصِمُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، حَتَّى يُقَالَ لَهُمْ: ﴿لا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ﴾[3]، وَالْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ يُبَكِّتُونَهُمْ بِالْحُجَجِ، وَأَهْلُ الْقِبْلَةِ يَكُونُ بَيْنَهُمُ الْخِصَامُ.

قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ: لَقَدْ عِشْنَا بُرْهَةً مِنْ دَهْرِنَا وَدِينِنَا، وَنَحْنُ نَرَى أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ أُنْزِلَتْ فِينَا وَفِي أَهْلِ الْكِتَابِ؟ قُلْنَا: كَيْفَ نَخْتَصِمُ وَنَبِيُّنَا وَاحِدٌ وَدِينُنَا وَاحِدٌ وَكِتَابُنَا وَاحِدٌ؟ حَتَّى رَأَيْتُ بَعْضَنَا يَضْرِبُ وُجُوهَ بَعْضٍ بِالسَّيْفِ، فَعَرَفْتُ أَنَّهَا أُنْزِلَتْ فِينَا.

وَقَالَ أَبُو سَعِيدٍ الْخُدْرِيُّ: كُنَّا نَقُولُ: رَبُّنَا وَاحِدٌ وَنَبِيُّنَا وَاحِدٌ وَدِينُنَا وَاحِدٌ، فَمَا هَذِهِ الْخُصُومَةُ؟ فَلَمَّا كَانَ يَوْمُ صِفِينَ وَشَدَّ بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ بِالسُّيُوفِ، قُلْنَا: نَعَمْ هُوَ هَذَا.

وَعَنْ إِبْرَاهِيمَ النَّخْعِيِّ قَالَتِ الصَّحَابَةُ: مَا خُصُومَتُنَا وَنَحْنُ إِخْوَانٌ؟

فَلَمَّا قُتِلَ عُثْمَانُ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ– قَالُوا: هَذِهِ خُصُومَتُنَا.

وَعَنْ أَبِي الْعَالِيَةِ: نَزَلَتْ فِي أَهْلِ الْقِبْلَةِ. وَالْوَجْهُ الَّذِي يَدُلُّ عَلَيْهِ كَلَامُ اللَّهِ هُوَ مَا قَدَّمْتُ أَوَّلًا.

---

[1] سورة الزُّمَر، الآية .

[2] سورة الزُّمَر، الآية .

[3] سورة ق، الآية 28.

أَلَا تَرَى إِلَى قَوْلِهِ –تَعَالَى–: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ﴾[1]، وَقَوْلُهُ –تَعَالَى–: ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ﴾[2]، وَمَا هُوَ إِلَّا بَيَانٌ وَتَفْسِيرٌ لِلَّذِينِ يَكُونُ بَيْنَهُمُ الْخُصُومَةُ؟!

﴿كَذَبَ عَلَى اللَّهِ﴾[3] افْتَرَى عَلَيْهِ بِإِضَافَةِ الْوَلَدِ وَالشَّرِيكِ إِلَيْهِ.

﴿وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ﴾[4] بِالْأَمْرِ الَّذِي هُوَ الصِّدْقُ بِعَيْنِهِ، وَهُوَ مَا جَاءَ بِهِ مُحَمَّدٌ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–.

﴿إِذْ جَاءَهُ﴾[5]: فَاجَأَهُ بِالتَّكْذِيبِ، لَمَّا سَمِعَ بِهِ مِنْ غَيْرِ وَقْفَةٍ، لِإِعْمَالِ رَوِيَّةٍ وَاهْتِمَامٍ بِتَمْيِيزٍ بَيْنَ حَقٍّ وَبَاطِلٍ، كَمَا يَفْعَلُ أَهْلُ النَّصَفَةِ فِيمَا يَسْمَعُونَ

﴿مَثْوًى لِلْكَافِرِينَ﴾[6]، أَيْ: لِهَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبُوا بِالصِّدْقِ، وَاللَّامِ فِي ﴿لِلْكَافِرِينَ﴾[7] إِشَارَةٌ إِلَيْهِمْ.

﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[8]

﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ﴾[9] هُوَ رَسُولُ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: جَاءَ بِالصِّدْقِ وَآمَنَ بِهِ، وَأَرَادَ بِهِ إِيَّاهُ وَمَنْ تَبِعَهُ، كَمَا أَرَادَ بِمُوسَى إِيَّاهُ وَقَوْمُهُ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾[10]؛ فَلِذَلِكَ قَالَ: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾[11] إِلَّا أَنَّ هَذَا

---

1 سورة الزُّمَر، الآية .

2 سورة الزُّمَر، الآية 33.

3 سورة الزُّمَر، الآية .

4 سورة الزُّمَر، الآية .

5 سورة الزُّمَر، الآية .

6 سورة الزُّمَر، الآية .

7 سورة الزُّمَر، الآية .

8 سورة الزُّمَر، الآية .

9 سورة الزُّمَر، الآية .

10 سورة الْمُؤْمِنُونَ، الآية 49.

فِي الصِّفَةِ وَذَاكَ فِي الِاسْمِ. وَيَجُوزُ أَنْ يُرِيدَ: وَالْفَوْجُ أَوِ الْفَرِيقُ الَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ، وَهُمُ الرَّسُولُ الَّذِي جَاءَنَا بِالصِّدْقِ، وَصَحَابَتُهُ الَّذِي صَدَّقُوا بِهِ.

وَفِي قِرَاءَةِ ابْنِ مَسْعُودٍ: (وَالَّذِينَ جَاءُوا بِالصِّدْقِ وَصَدَّقُوا بِهِ) وَقُرِئَ: (وَصَدَّقَ بِهِ) بِالتَّخْفِيفِ، أَيْ: صَدَّقَ بِهِ النَّاسُ وَلَمْ يُكَذِّبُهُمْ بِهِ، يَعْنِي: أَدَّاهُ إِلَيْهِمْ كَمَا نَزَلَ عَلَيْهِ مِنْ غَيْرِ تَحْرِيفٍ. وَقِيلَ: صَارَ صَادِقًا بِهِ، أَيْ: بِسَبَبِهِ، لِأَنَّ الْقُرْآنَ مُعْجِزَةٌ، وَالْمُعْجِزَةُ تَصْدِيقٌ مِنَ الْحَكِيمِ الَّذِي لَا يَفْعَلُ الْقَبِيحَ لِمَنْ يُجْرِيهَا عَلَى يَدِهِ، وَلَا يَجُوزُ أَنْ يُصَدَّقَ إِلَّا الصَّادِقُ، فَيَصِيرُ لِذَلِكَ صَادِقًا بِالْمُعْجِزَةِ، وَقُرِئَ: (وَصَدَّقَ بِهِ).

فَإِنْ قُلْتَ: مَا مَعْنَى إِضَافَةِ الْأَسْوَأِ وَالْأَحْسَنِ إِلَى الَّذِي عَمِلُوا؟ وَمَا مَعْنَى التَّفْضِيلِ فِيهِمَا؟

قُلْتُ: أَمَّا الْإِضَافَةُ فَمَا هِيَ مِنْ إِضَافَةُ أَفْعَلَ إِلَى الْجُمْلَةِ الَّتِي يُفَضِّلُ عَلَيْهَا، وَلَكِنَّ مِنْ إِضَافَةِ الشَّيْءِ إِلَى مَا هُوَ بَعْضُهُ مِنْ غَيْرِ تَفْضِيلٍ، كَقَوْلِكَ: الْأَشَجُّ أَعْدَلُ بَنِي مَرْوَانَ.

وَأَمَّا التَّفْضِيلُ فَإِيذَانٌ بِأَنَّ السَّيِّءَ الَّذِي يَفْرِطُ مِنْهُمْ مَنِ الصَّغَائِرِ وَالزَّلَّاتِ الْمُكَفِّرَةِ، هُوَ عِنْدَهُمُ الْأَسْوَأُ لِاسْتِعْظَامِهِمُ الْمَعْصِيَةَ، وَالْحُسْنُ الَّذِي يَعْلَمُونَهُ هُوَ عِنْدَ اللَّهِ الْأَحْسَنُ، لِحُسْنِ إِخْلَاصِهِمْ فِيهِ، فَلِذَلِكَ ذَكَرَ سَيِّئَهُمْ بِالْأَسْوَأِ وَحَسَنَهُمْ بِالْأَحْسَنِ. وَقُرِئَ: (أَسْوَأُ) الَّذِي عَمِلُوا جَمْعُ سُوءٍ.

## ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انْتِقَامٍ﴾[1]

﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾[2] أُدْخِلَتْ هَمْزَةُ الْإِنْكَارِ عَلَى كَلِمَةِ النَّفْيِ، فَأُفِيدَ مَعْنَى إِثْبَاتِ الْكِفَايَةِ وَتَقْرِيرِهَا. وَقُرِئَ: (بِكَافٍ عَبْدَهُ) وَهُوَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، وَ (بِكَافٍ عِبَادَهُ) وَهُمُ الْأَنْبِيَاءُ، وَذَلِكَ: أَنَّ قُرَيْشًا قَالَتْ لِرَسُولِ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: إِنَّا نَخَافُ أَنْ تَخْبِلَكَ آلِهَتُنَا، وَإِنَّا نَخْشَى عَلَيْكَ مَعَرَّتَهَا لِعَيْبِكَ إِيَّاهَا.

---

11 سورة الزُّمَر، الآية .

1 سورة الزُّمَر، الآية .

2 سورة الزُّمَر، الآية .

وَيُرْوَى: أَنَّهُ بَعَثَ خَالِدًا إِلَى الْعُزَّى لِيَكْسِرَهَا، فَقَالَ لَهُ سَادِنُهَا: أُحَذِّرُكَهَا يَا خَالِدُ، إِنَّ لَهَا لَشِدَّةٌ لَا يَقُومُ لَهَا شَيْءٌ، فَعَمَدَ خَالِدٌ إِلَيْهَا فَهَشَّمَ أَنْفَهَا. فَقَالَ اللَّهُ –عَزَّ وَجَلَّ–: أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ نَبِيَّهُ أَنْ يَعْصِمَهُ مِنْ كُلِّ سِوَى وَيَدْفَعَ عَنْهُ كُلَّ بَلَاءٍ فِي مَوَاطِنِ الْخَوْفِ. وَفِي هَذَا تَهَكُّمٌ بِهِمْ، لِأَنَّهُمْ خَوَّفُوهُ مَا لَا يَقْدِرُ عَلَى نَفْعٍ وَلَا ضُرٍّ. أَوْ أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ أَنْبِيَاءَهُ، وَلَقَدْ قَالَتْ أُمَمُهُمْ نَحْوَ ذَلِكَ، فَكَفَاهُمُ اللَّهُ، وَذَلِكَ قَوْلُ قَوْمِ هُودٍ: ﴿إِنْ نَقُولُ إِلا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ﴾[1].

وَيَجُوزُ أَنْ يُرِيدَ: الْعَبْدَ وَالْعِبَادَ عَلَى الْإِطْلَاقِ، لِأَنَّهُ كَافِيهِمْ فِي الشَّدَائِدِ وَكَافِلُ مَصَالِحِهِمْ. وَقُرِئَ: (بِكَافِي عِبَادِهِ) عَلَى الْإِضَافَةِ. وَ(يُكَافِي عِبَادَهُ). وَيُكَافِي: يُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ غَيْرَ مَهْمُوزٍ مُفَاعِلُهُ مِنَ الْكِفَايَةِ، كَقَوْلِكَ: يُجَازِي فِي يُجْزَى، وَهُوَ أَبْلَغُ مِنْ كَفَى، لِبِنَائِهِ عَلَى لَفْظِ الْمُبَالَغَةِ، وَالْمُبَارَاةِ: أَنْ يَكُونَ مَهْمُوزًا مِنَ الْمُكَافَأَةِ وَهِيَ الْمُجَازَاةُ، لِمَا تَقَدَّمَ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ﴾[2].

﴿بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ﴾[3] أَرَادَ: الْأَوْثَانَ الَّتِي اتَّخَذُوهَا آلِهَةً مِنْ دُونِهِ.

﴿بِعَزِيزٍ﴾[4] بِغَالِبٍ مَنِيعٍ.

﴿ذِي انْتِقَامٍ﴾[5] يَنْتَقِمُ مِنْ أَعْدَائِهِ، وَفِيهِ وَعِيدٌ لِقُرَيْشٍ، وَوَعْدٌ لِلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّهُ يَنْتَقِمُ لَهُمْ مِنْهُمْ وَيَنْصُرُهُمْ عَلَيْهِمْ .

﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مَنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾[6]

قُرِئَ: (كَاشِفَاتٌ ضُرَّهُ) وَ(مُمْسِكَاتٌ رَحْمَتَهُ) بِالتَّنْوِينِ عَلَى الْأَصْلِ، وَبِالْإِضَافَةِ لِلتَّخْفِيفِ.

---

1 سورة هُودُ، الآية 54.

2 سورة الزُّمَرِ، الآية .

3 سورة الزُّمَرِ، الآية .

4 سورة الزُّمَرِ، الآية .

5 سورة الزُّمَرِ، الآية .

6 سورة الزُّمَرِ، الآية .

فَإِنْ قُلْتَ: لِمَ فَرَضَ الْمَسْأَلَةَ فِي نَفْسِهِ دُونَهُمْ؟

قُلْتُ: لِأَنَّهُمْ خَوَّفُوهُ مَعَرَّةَ الْأَوْثَانِ وَتَخْبِيلَهَا، فَأَمَرَ بِأَنْ يُقَرِّرَهُمْ أَوَّلًا بِأَنَّ خَالِقَ الْعَالَمِ هُوَ اللَّهُ وَحْدَهُ.

ثُمَّ يَقُولُ لَهُمْ بَعْدَ التَّقْرِيرِ: فَإِذَا أَرَادَنِي خَالِقُ الْعَالَمِ الَّذِي أَقْرَرْتُمْ بِهِ بِضُرٍّ مِنْ مَرَضٍ أَوْ فَقْرٍ أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ النَّوَازِلِ، أَوْ بِرَحْمَتِهِ مِنْ صِحَّةٍ أَوْ غِنًى أَوْ نَحْوِهِمَا، هَلْ هَؤُلَاءِ اللَّاتِي خَوَّفْتُمُونِي إِيَّاهُنَّ كَاشِفَاتٌ عَنِّي ضُرَّهُ أَوْ مُمْسِكَاتٌ رَحْمَتَهُ؟ حَتَّى إِذَا أَلْقَمَهُمُ الْحَجَرَ وَقَطَّعَهُمْ حَتَّى لَا يُحَيِّرُوا بِبِنْتِ شَفَةٍ قَالَ: ﴿حَسْبِيَ اللَّهُ﴾[1] كَافِيًا لِمَعَرَّةِ أَوْثَانِكُمْ.

﴿عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾[2]، وَفِيهِ تَهَكُّمٌ.

وَيُرْوَى أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَأَلَهُمْ فَسَكَتُوا، فَنَزَلَ: ﴿قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ﴾[3].

فَإِنْ قُلْتَ: لِمَ قِيلَ: كَاشِفَاتٌ، وَمُمْسِكَاتٌ، عَلَى التَّأْنِيثِ بَعْدَ قَوْلِهِ -تَعَالَى-: ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ﴾[4]؟

قُلْتُ: أَنَّثَهُنَّ وَكُنْ إِنَاثًا وَهُنَّ اللَّاتُ وَالْعُزَّى وَمَنَاةُ، قَالَ اللَّهُ -تَعَالَى-: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللاتَ وَالْعُزَّى وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَى أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الأُنْثَى﴾[5]، لِيُضْعِفَهَا وَيُعْجِزَهَا زِيَادَةُ تَضْعِيفٍ وَتَعْجِيزٍ عَمَّا طَالَبَهُمْ بِهِ مِنْ كَشْفِ الضُّرِّ وَإِمْسَاكِ الرَّحْمَةِ، لِأَنَّ الْأُنُوثَةَ مِنْ بَابِ اللِّينِ وَالرَّخَاوَةِ، كَمَا أَنَّ الذُّكُورَةَ مِنْ بَابِ الشِّدَّةِ وَالصَّلَابَةِ، كَأَنَّهُ قَالَ: الْإِنَاثُ اللَّاتِي هُنَّ اللَّاتُ وَالْعُزَّى وَمَنَاةُ أَضْعَفُ مِمَّا تَدْعُونَ لَهُنَّ وَأَعْجَزُ. وَفِيهِ تَهَكُّمٌ أَيْضًا.

﴿قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ﴾[6]

---

[1] سورة الزُّمَر، الآية .

[2] سورة الزُّمَر، الآية .

[3] سورة الزُّمَر، الآية .

[4] سورة الزُّمَر، الآية .

[5] سورة النَّجْمُ، الآيات 19 إلى 21.

[6] سورة الزُّمَر، الآية .

﴿عَلَى مَكَانَتِكُمْ﴾[1] عَلَى حَالِكُمُ الَّتِي أَنْتُمْ عَلَيْهَا وَجِهَتِكُمْ مِنَ الْعَدَاوَةِ الَّتِي تَمَكَّنْتُمْ مِنْهَا، وَالْمَكَانَةُ بِمَعْنَى الْمَكَانِ، فَاسْتُعِيرَتْ عَنِ الْعَيْنِ لِلْمَعْنَى كَمَا يُسْتَعَارُ هُنَا، وَحَيْثُ لِلزَّمَانِ، وَهُمَا لِلْمَكَانِ.

فَإِنْ قُلْتَ: حَقُّ الْكَلَامِ: فَإِنِّي عَامِلٌ عَلَى مَكَانَتِي، فَلِمَ حُذِفَ؟

قُلْتُ: لِلِاخْتِصَارِ، وَلِمَا فيهِ مِنْ زِيَادَةِ الْوَعِيدِ، وَالْإِيذَانُ بِأَنَّ حَالَهُ لَا تَقِفُ، وَتَزْدَادُ كُلَّ يَوْمٍ قُوَّةً وَشِدَّةً، لِأَنَّ اللَّهَ نَاصِرُهُ وَمُعِينُهُ وَمُظْهِرُهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ.

أَلَا تَرَى إِلَى قَوْلِهِ: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ﴾[2] كَيْفَ تَوَعَّدَهُمْ بِكَوْنِهِ مَنْصُورًا عَلَيْهِمْ غَالِيًا عَلَيْهِمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، لِأَنَّهُمْ إِذَا أَتَاهُمُ الْخِزْيُ وَالْعَذَابُ فَذَاكَ عِزُّهُ وَغَلَبَتُهُ، مِنْ حَيْثُ أَنَّ الْغَلَبَةَ تَتِمُّ لَهُ بِعِزِّ عَزِيزٍ مِنْ أَوْلِيَائِهِ، وَبُذُلِّ ذَلِيلٍ مِنْ أَعْدَائِهِ؟

"يُخْزِيهِ" مِثْلُ مُقِيمٍ فِي وُقُوعِهِ صِفَةٌ لِلْعَذَابِ، أَيْ: عَذَابٌ مُخْزٍ لَهُ، وَهُوَ يَوْمُ بَدْرٍ، وَعَذَابٌ دَائِمٌ وَهُوَ عَذَابُ النَّارِ. وَقُرِئَ: (مَكَانَاتِكُمْ).

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَدَى فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾[3]

﴿لِلنَّاسِ﴾[4] لِأَجْلِهِمْ وَلِأَجْلِ حَاجَتِهِمْ إِلَيْهِ، لِيُبَشِّرُوا وَيُنْذِرُوا، فَتَقْوَى دَوَاعِيهُمْ إِلَى اخْتِيَارِ الطَّاعَةِ عَلَى الْمَعْصِيَةِ. وَلَا حَاجَةَ إِلَى ذَلِكَ فَأَنَا الْغَنِيُّ، فَمَنِ اخْتَارَ الْهَدْيَ فَقَدْ نَفَعَ نَفْسَهُ، وَمَنِ اخْتَارَ الضَّلَالَةَ فَقَدْ ضَرَّهَا. وَمَا وُكِلَتْ عَلَيْهِمْ لِتُجْبِرَهُمْ عَلَى الْهُدَى، فَإِنَّ التَّكْلِيفَ مَبْنِيٌّ عَلَى الِاخْتِيَارِ دُونَ الْإِجْبَارِ.

---

1 سورة الزُّمَر، الآية .

2 سورة الزُّمَر، الآية .

3 سورة الزُّمَر، الآية .

4 سورة الزُّمَر، الآية .

﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[1]

﴿الْأَنْفُسَ﴾[2] الْجُمَلُ كَمَا هِيَ، وَتَوَفيها: إِمَاتَتُهَا، وَهُوَ أَنْ يَسْلُبَ مَا هِيَ بِهِ حَيَّةٌ حَسَّاسَةٌ دَرَّاكَةٌ مِنْ: صِحَّةِ أَجْزَائِهَا وَسَلَامَتِهَا، لِأَنَّهَا عِنْدَ سَلْبِ الصِّحَّةِ كَأَنَّ ذَاتَهَا قَدْ سُلِبَتْ.

﴿وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا﴾[3]، يُرِيدُ: وَيَتَوَفى الْأَنْفُسَ الَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا، أَيْ: يَتَوَفَّاهَا حِينَ تَنَامُ، تَشْبِيهًا لِلنَّائِمِينَ بِالْمَوْتَى. وَمِنْهُ قَوْلُهُ –تَعَالَى–: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ﴾[4]، حَيْثُ لَا يُمَيِّزُونَ وَلَا يَتَصَرَّفُونَ، كَمَا أَنَّ الْمَوْتَى كَذَلِكَ.

﴿فيمْسِكُ﴾[5] الْأَنْفُسَ ﴿الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ﴾[6] الْحَقِيقِيُّ، أَيْ: لَا يَرُدُّهَا فِي وَقْتِهَا حَيَّةً.

﴿وَيُرْسِلُ الأُخْرَى﴾[7] النَّائِمَةَ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى إِلَى وَقْتِ ضَرْبِهِ لِمَوْتِهَا. وَقِيلَ: يَتَوَفى الْأَنْفُسَ يَسْتَوْفيها وَيَقْضِيهَا، وَهِيَ الْأَنْفُسُ الَّتِي تَكُونُ مَعَهَا الْحَيَاةُ وَالْحَرَكَةُ، وَيَتَوَفى الْأَنْفُسَ الَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا، وَهِيَ أَنْفُسُ التَّمْيِيزِ. قَالُوا: فَالَّتِي تُتَوَفى فِي النَّوْمِ هِيَ نَفْسُ التَّمْيِيزِ لَا نَفْسُ الْحَيَاةِ، لِأَنَّ نَفْسَ الْحَيَاةِ إِذَا زَالَتْ زَالَ مَعَهَا النَّفَسُ، وَالنَّائِمُ يَتَنَفَّسُ.

وَرَوَوْا عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا–: فِي ابْنِ آدَمَ نَفْسٌ وَرُوحٌ بَيْنَهُمَا شُعَاعُ الشَّمْسِ، فَالنَّفْسُ الَّتِي بِهَا الْعَقْلُ وَالتَّمْيِيزُ، وَالرُّوحُ الَّتِي بِهَا النَّفْسُ وَالتَّحَرُّكُ، فَإِذَا نَامَ الْعَبْدُ قَبَضَ اللَّهُ نَفْسَهُ وَلَمْ يَقْبِضْ رُوحَهُ. وَالصَّحِيحُ مَا ذَكَرْتُ أَوَّلًا، لِأَنَّ اللَّهَ –عَزَّ وَعَلَا– عَلَّقَ التَّوَفى وَالْمَوْتَ وَالْمَنَامَ جَمِيعًا بِالْأَنْفُسِ، وَمَا عَنَوْا بِنَفْسِ الْحَيَاةِ وَالْحَرَكَةِ وَنَفْسِ الْعَقْلِ وَالتَّمْيِيزِ غَيْرَ مُتَّصِفٍ بِالْمَوْتِ وَالنَّوْمِ، وَإِنَّمَا الْجُمْلَةُ هِيَ الَّتِي تَمُوتُ وَهِيَ الَّتِي تَنَامُ.

---

1 سورة الزُّمَر، الآية .
2 سورة الزُّمَر، الآية .
3 سورة الزُّمَر، الآية .
4 سورة الْأَنْعَامُ، الآية 6.
5 سورة الزُّمَر، الآية .
6 سورة الزُّمَر، الآية .
7 سورة الزُّمَر، الآية .

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾[1]: إِنَّ في تُوَفى الْأَنْفُسِ مَائِتَةً وَنَائِمَةً وَإِمْسَاكَهَا وَإِرْسَالَهَا إِلَى أَجَلٍ لَآيَاتٍ عَلَى قُدْرَةِ اللَّهِ وَعِلْمِهِ، لِقَوْمٍ يَجِيلُونَ فيهِ أَفْكَارَهُمْ وَيَعْتَبِرُونَ. وَقُرِئَ: (قُضِيَ عَلَيْهَا الْمَوْتُ) عَلَى الْبِنَاءِ لِلْمَفْعُولِ.

﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلا يَعْقِلُونَ قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[2]

﴿أَمِ اتَّخَذُوا﴾[3]، بَلِ اتَّخَذَ قُرَيْشٌ، وَالْهَمْزَةُ لِلْإِنْكَارِ، ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾[4] مِنْ دُونِ إِذْنِهِ ﴿شُفَعَاءَ﴾[5] حِينَ قَالُوا : ﴿هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ﴾[6]، وَلَا يَشْفَعُ عِنْدَهُ أَحَدٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ.

أَلَا تَرَى إِلَى قَوْلِهِ –تَعَالَى–: ﴿قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا﴾[7]، أَيْ: هُوَ مَالِكُهَا، فَلَا يَسْتَطِيعُ أَحَدٌ شَفَاعَةً إِلَّا بِشَرْطَيْنِ: أَنْ يَكُونَ الْمَشْفُوعُ لَهُ مُرْتَضًى، وَأَنْ يَكُونَ الشَّفِيعُ مَأْذُونًا لَهُ. وَهَهُنَا الشَّرْطَانِ مَفْقُودَانِ جَمِيعًا؟

﴿أَوَلَوْ كَانُوا﴾[8]، مَعْنَاهُ: أَيَشْفَعُونَ، وَلَوْ كَانُوا ﴿لا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلا يَعْقِلُونَ﴾[9]، أَيْ: وَلَوْ كَانُوا عَلَى هَذِهِ الصِّفَةِ لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا قَطُّ، حَتَّى يَمْلِكُوا الشَّفَاعَةَ وَلَا عَقْلَ لَهُمْ.

﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾[10]: تَقْرِيرٌ لِقَوْلِهِ –تَعَالَى–: ﴿لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا﴾[11]، لِأَنَّهُ إِذَا كَانَ لَهُ الْمُلْكُ كُلُّهُ وَالشَّفَاعَةُ مِنَ الْمُلْكِ، كَانَ مَالِكًا لَهَا.

---

1 سورة الزُّمَرِ، الآية .
2 سورة الزُّمَرِ، الآية .
3 سورة الزُّمَرِ، الآية .
4 سورة الزُّمَرِ، الآية .
5 سورة الزُّمَرِ، الآية .
6 سورة يُونُسُ، الآية 18.
7 سورة الزُّمَرِ، الآية .
8 سورة الزُّمَرِ، الآية .
9 سورة الزُّمَرِ، الآية .
10 سورة الزُّمَرِ، الآية .
11 سورة الزُّمَرِ، الآية .

فَإِنْ قُلْتَ: بِمَ يَتَّصِلُ قَوْلُهُ: ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[1]؟

قُلْتُ: بِمَا يَلِيهِ، مَعْنَاهُ: لَهُ مَلَكَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ الْيَوْمَ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَلَا يَكُونُ الْمُلْكُ في ذَلِكَ الْيَوْمِ إِلَّا لَهُ، فَلَهُ مُلْكُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

## ﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾[2]

مَدَارُ الْمَعْنَى عَلَى قَوْلِهِ: ﴿وَحْدَهُ﴾[3]، أَيْ: إِذَا أَفْرَدَ اللَّهَ بِالذِّكْرِ وَلَمْ يَذْكُرْ مَعَهُ آلِهَتَهُمُ اشْمَأَزُّوا، أَيْ: نَفَرُوا وَانْقَبَضُوا.

﴿وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ﴾[4]، وَهُمْ آلِهَتُهُمْ ذُكِرَ اللَّهُ مَعَهُمْ أَوْ لَمْ يَذْكُرُوا اسْتَبْشَرُوا، لِافْتِتَانِهِمْ بِهَا وَنِسْيَانِهِمْ حَقَّ اللَّهِ إِلَى هَوَاهُمْ فيها.

وَقِيلَ: إِذَا قِيلَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ نَفَرُوا، لِأَنَّ فيهِ نَفيا لِآلِهَتِهِمْ. وَقِيلَ: أَرَادَ اسْتِبْشَارَهُمْ بِمَا سَبَقَ إِلَيْهِ لِسَانُ رَسُولِ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– مِنْ ذِكْرِ آلِهَتِهِمْ حِينَ قَرَأَ (وَالنَّجْمِ) عِنْدَ بَابِ الْكَعْبَةِ، فَسَجَدُوا مَعَهُ لِفَرَحِهِمْ، وَلَقَدْ تَقَابَلَ الِاسْتِبْشَارُ وَالِاشْمِئْزَازُ، إِذْ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا غَايَةٌ في بَابِهِ، لِأَنَّ الِاسْتِبْشَارَ أَنْ يَمْتَلِئَ قَلْبُهُ سُرُورًا حَتَّى تَنْبَسِطَ لَهُ بَشَرَةُ وَجْهِهِ وَيَتَهَلَّلَ.

وَالِاشْمِئْزَازُ: أَنْ يَمْتَلِئَ غَمًّا وَغَيْظًا حَتَّى يَظْهَرَ الِانْقِبَاضُ في أَدِيمِ وَجْهِهِ.

فَإِنْ قُلْتَ: مَا الْعَامِلُ في (إِذَا ذُكِرَ)؟

قُلْتُ: الْعَامِلُ في إِذَا الْمُفَاجَأَةُ، تَقْدِيرُهُ وَقْتَ ذِكْرِ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ، فَاجْأَوْا وَقْتَ الِاسْتِبْشَارِ.

---

1 سورة الزُّمَر، الآية .

2 سورة الزُّمَر، الآية .

3 سورة الزُّمَر، الآية .

4 سورة الزُّمَر، الآية .

﴿قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾[1]

بَعِلَ رَسُولُ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– بِهِمْ، وَبِشِدَّةِ شَكِيمَتِهِمْ فِي الْكُفْرِ وَالْعِنَادِ، فَقِيلَ لَهُ: ادْعُ اللَّهَ بِأَسْمَائِهِ الْعُظْمَى، وَقُلْ: أَنْتَ وَحْدَكَ تَقْدِرُ عَلَى الْحُكْمِ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ، وَلَا حِيلَةَ لِغَيْرِكَ فِيهِمْ. وَفِيهِ وَصْفٌ لِحَالِهِمْ وَإِعْذَارٌ لِرَسُولِ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– وَتَسْلِيَةٌ لَهُ وَوَعِيدٌ لَهُمْ.

وَعَنِ الرَّبِيعِ بْنِ خَثِيمٍ، وَكَانَ قَلِيلَ الْكَلَامِ، أَنَّهُ أَخْبَرَ بِقَتْلِ الْحُسَيْنِ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ–، وَسَخِطَ عَلَى قَاتِلِهِ، وَقَالُوا: الْآنَ يَتَكَلَّمُ، فَمَا زَادَ عَلَى أَنْ قَالَ: آهْ أَوَقَدْ فَعَلُوا؟ وَقَرَأَ هَذِهِ الْآيَةَ.

وَرُوِيَ أَنَّهُ قَالَ عَلَى أَثَرِهِ: قُتِلَ مَنْ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– يُجْلِسُهُ فِي حِجْرِهِ وَيَضَعُ فَاهُ عَلَى فِيهِ.

﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لافْتَدَوْا بِهِ مِنْ سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾[2]

﴿وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ﴾[3]: وَعِيدٌ لَهُمْ لَا كُنْهَ لِفَظَاعَتِهِ وَشِدَّتِهِ، وَهُوَ نَظِيرُ قَوْلِهِ –تَعَالَى– فِي الْوَعْدِ: ﴿فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ﴾[4].

وَالْمَعْنَى: وَظَهَرَ لَهُمْ مِنْ سُخْطِ اللَّهِ وَعَذَابِهِ مَا لَمْ يَكُنْ قَطُّ فِي حِسَابِهِمْ وَلَمْ يُحَدِّثُوا بِهِ نُفُوسَهُمْ. وَقِيلَ: عَمِلُوا أَعْمَالًا حَسِبُوهَا حَسَنَاتٍ، فَإِذَا هِيَ سَيِّئَاتٌ.

وَعَنْ سُفيانَ الثَّوْرِيِّ أَنَّهُ قَرَأَهَا فَقَالَ: وَيْلٌ لِأَهْلِ الرِّيَاءِ، وَيْلٌ لِأَهْلِ الرِّيَاءِ.

---

[1] سورة الزُّمَر، الآية .

[2] سورة الزُّمَر، الآية .

[3] سورة الزُّمَر، الآية .

[4] سورة السَّجْدَةُ، الآية 17.

وَجَزَعَ مُحَمَّدُ بْنُ الْمُنْكَدِرِ عِنْدَ مَوْتِهِ فَقِيلَ لَهُ، فَقَالَ: أَخْشَى آيَةً مِنْ كِتَابِ اللَّهِ، وَتَلَاهَا، فَأَنَا أَخْشَى أَنْ يَبْدُوَ لِي مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ أَحْتَسِبْهُ.

﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا﴾[1]، أَيْ: سَيِّئَاتُ أَعْمَالِهِمُ الَّتِي كَسَبُوهَا، أَوْ سَيِّئَاتُ كَسْبِهِمْ، حِينَ تُعْرَضُ صَحَائِفُهُمْ، وَكَانَتْ خَافِيَةً عَلَيْهِمْ، كَقَوْلِهِ -تَعَالَى-: ﴿أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ﴾[2].

وَأَرَادَ بِالسَّيِّئَاتِ: أَنْوَاعَ الْعَذَابِ الَّتِي يُجَازَوْنَ بِهَا عَلَى مَا كَسَبُوا، فَسَمَّاهَا سَيِّئَاتٍ، كَمَا قَالَ: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا﴾[3].

﴿وَحَاقَ بِهِمْ﴾[4]: وَنَزَلَ بِهِمْ وَأَحَاطَ جَزَاءَ هُزْئِهِمْ.

## ﴿فَإِذَا مَسَّ الإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾[5]

التَّخْوِيلُ: مُخْتَصٌّ بِالتَّفَضُّلِ. وَيُقَالُ: خَوَّلَنِي، إِذَا أَعْطَاكَ عَلَى غَيْرِ جَزَاءٍ .

﴿عَلَى عِلْمٍ﴾[6]، أَيْ: عَلَى عِلْمٍ مِنِّي أَنِّي سَأُعْطَاهُ، لِمَا فِي مِنْ فَضْلٍ وَاسْتِحْقَاقٍ، أَوْ عَلَى عِلْمٍ مِنَ اللَّهِ بِي وَبِاسْتِحْقَاقِي، أَوْ عَلَى عِلْمٍ مِنِّي بِوُجُوهِ الْكَسْبِ، كَمَا قَالَ قَارُونُ: ﴿عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي﴾[7].

فَإِنْ قُلْتَ: لِمَ ذُكِرَ الضَّمِيرُ فِي "أُوتِيتُهُ" وَهُوَ لِلنِّعْمَةِ؟

قُلْتُ: ذِهَابًا بِهِ إِلَى الْمَعْنَى، لِأَنَّ قَوْلَهُ: ﴿نِعْمَةً مِنَّا﴾[8] شَيْئًا مِنَ النِّعَمِ وَقِسْمًا مِنْهَا.

وَيُحْتَمَلُ أَنْ تَكُونَ "مَا" فِي إِنَّمَا مَوْصُولَةٌ لَا كَافَّةٌ، فيرْجِعُ إِلَيْهَا الضَّمِيرُ. عَلَى مَعْنَى: أَنَّ الَّذِي أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ.

---

1 سورة الزُّمَرِ، الآية .

2 سورة الْمُجَادَلَةُ، الآية 66.

3 سورة الشُّورَى، الآية 40.

4 سورة الزُّمَرِ، الآية .

5 سورة الزُّمَرِ، الآية .

6 سورة الزُّمَرِ، الآية .

7 سورة الزُّمَرِ، الآية .

8 سورة الزُّمَرِ، الآية .

﴿بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ﴾[1]: إِنْكَارٌ لِقَوْلِهِ كَأَنَّهُ قَالَ: مَا خَوَّلْنَاكَ مِنَ النِّعْمَةِ لِمَا تَقُولُ، بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ، أَيِ: ابْتِلَاءٌ وَامْتِحَانٌ لَكَ، أَتَشْكُرُ أَمْ تَكْفُرُ؟

فَإِنْ قُلْتَ: كَيْفَ ذَكَرَ الضَّمِيرَ ثُمَّ أَنَّثَهُ؟

قُلْتُ: حَمْلًا عَلَى الْمَعْنَى أَوَّلًا، وَعَلَى اللَّفْظِ آخِرًا، وَلِأَنَّ الْخَبَرَ لَمَّا كَانَ مُؤَنَّثًا أَعْنِي "فِتْنَةً": سَاغَ تَأْنِيثُ الْمُبْتَدَإِ لِأَجْلِهِ، لِأَنَّهُ فِي مَعْنَاهُ، كَقَوْلِهِمْ: مَا جَاءَتْ حَاجَتُكَ.

وَقُرِئَ: (بَلْ هُوَ فِتْنَةٌ) عَلَى وَفْقِ ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ﴾[2].

فَإِنْ قُلْتَ: مَا السَّبَبُ فِي عَطْفِ هَذِهِ الْآيَةِ بِالْفَاءِ وَعَطْفِ مِثْلِهَا فِي أَوَّلِ السُّورَةِ بِالْوَاوِ؟

قُلْتُ: السَّبَبُ فِي ذَلِكَ أَنَّ هَذِهِ وَقَعَتْ مُسَبَّبَةً عَنْ قَوْلِهِ: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ﴾[3]، عَلَى مَعْنَى أَنَّهُمْ يَشْمَئِزُّونَ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِذِكْرِ الْآلِهَةِ، فَإِذَا مَسَّ أَحَدَهُمْ ضُرٌّ دَعَا مَنِ اشْمَأَزَّ مِنْ ذِكْرِهِ، دُونَ مَنِ اسْتَبْشَرَ بِذِكْرِهِ، وَمَا بَيْنَهُمَا مِنَ الْآيِ اعْتِرَاضٌ.

فَإِنْ قُلْتَ: حَقُّ الِاعْتِرَاضِ أَنْ يُؤَكِّدَ الْمُعْتَرِضُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ.

قُلْتُ: مَا فِي الِاعْتِرَاضِ مِنْ دُعَاءِ رَسُولِ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- رَبَّهُ بِأَمْرٍ مِنْهُ وَقَوْلُهُ: (أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَهُمْ)، ثُمَّ مَا عَقِبَهُ مِنَ الْوَعِيدِ الْعَظِيمِ: تَأْكِيدٌ لِإِنْكَارِ اشْمِئْزَازِهِمْ وَاسْتِبْشَارِهِمْ وَرُجُوعِهِمْ إِلَى اللَّهِ فِي الشَّدَائِدِ دُونَ آلِهَتِهِمْ، كَأَنَّهُ قِيلَ: رَبِّ لَا يَحْكُمُ بَيْنِي وَبَيْنَ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَجْتَرِئُونَ عَلَيْكَ مِثْلَ هَذِهِ الْجَرَاءَةِ، وَيَرْتَكِبُونَ مِثْلَ هَذَا الْمُنْكَرِ إِلَّا أَنْتَ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾[4] مُتَنَاوِلٌ لَهُمْ وَلِكُلِّ ظَالِمٍ إِنْ جُعِلَ مُطْلَقًا، وَإِيَّاهُمْ خَاصَّةً إِنْ عَنَيْتَهُمْ بِهِ، كَأَنَّهُ قِيلَ: وَلَوْ أَنَّ لِهَؤُلَاءِ الظَّالِمِينَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ. حِينَ أَحْكُمُ عَلَيْهِمْ بِسُوءِ الْعَذَابِ، وَهَذِهِ الْأَسْرَارُ وَالنُّكَتُ لَا يُبْرِزُهَا إِلَّا عِلْمُ النَّظْمِ، وَإِلَّا بَقِيَتْ مُحْتَجِبَةً فِي أَكْمَامِهَا.

وَأَمَّا الْآيَةُ الْأُولَى، فَلَمْ تَقَعْ مُسَبَّبَةً وَمَا هِيَ إِلَّا جُمْلَةٌ نَاسَبَتْ جُمْلَةً قَبْلَهَا فَعُطِفَتْ عَلَيْهَا بِالْوَاوِ، كَقَوْلِكَ: قَامَ زَيْدٌ وَقَعَدَ عَمْرٌو.

---

[1] سورة الزُّمَر، الآية .

[2] سورة الزُّمَر، الآية .

[3] سورة الزُّمَر، الآية 45.

[4] سورة الزُّمَر، الآية 47.

فَإِنْ قُلْتَ: مِنْ أَيِّ وَجْهٍ وَقَعَتْ مُسَبِّبَةً؟ وَالِاشْمِئْزَازُ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ لَيْسَ بِمُقْتَضٍ لِالْتِجَائِهِمْ إِلَيْهِ، بَلْ هُوَ مُقْتَضٍ لِصُدُوفِهِمْ عَنْهُ.

قُلْتُ: في هَذَا التَّسْبِيبِ لُطْفٌ، وَبَيَانُهُ أَنْ تَقُولَ: زَيْدٌ مُؤْمِنٌ بِاللَّهِ، فَإِذَا مَسَّهُ ضُرٌّ الْتَجَأَ إِلَيْهِ، فَهَذَا تَسْبِيبٌ ظَاهِرٌ لَا لَبْسَ فيهِ، ثُمَّ تَقُولُ: زَيْدٌ كَافِرٌ بِاللَّهِ، فَإِذَا مَسَّهُ ضُرٌّ الْتَجَأَ إِلَيْهِ، فَتَجِيءُ بِالْفَاءِ مَجِيئُكَ بِهِ ثَمَّةَ، كَأَنَّ الْكَافِرَ حِينَ الْتَجَأَ إِلَى اللَّهِ الْتِجَاءَ الْمُؤْمِنُ إِلَيْهِ، مُقِيمٌ كُفْرَهُ مَقَامَ الْإِيمَانِ، وَمُجْرِيهِ مَجْرَاهُ في جَعْلِهِ سَبَبًا في الِالْتِجَاءِ، فَأَنْتَ تَحْكِي مَا عَكَسَ فيهِ الْكَافِرُ.

أَلَا تَرَى أَنَّكَ تَقْصِدُ بِهَذَا الْكَلَامِ الْإِنْكَارَ وَالتَّعَجُّبَ مِنْ فِعْلِهِ؟

﴿قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَؤُلَاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[1]

الضَّمِيرُ في ﴿قَالَهَا﴾[2] رَاجِعٌ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ﴾[3]، لِأَنَّهَا كَلِمَةٌ أَوْ جُمْلَةٌ مِنَ الْقَوْلِ. وَقُرِئَ: (قَدْ قَالَهُ) عَلَى مَعْنَى الْقَوْلِ وَالْكَلَامِ، وَذَلِكَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ: هُمْ قَارُونُ وَقَوْمُهُ، حَيْثُ قَالَ: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي﴾[4]، وَقَوْمُهُ رَاضُونَ بِهَا، فَكَأَنَّهُمْ قَالُوهَا، وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ في الْأُمَمِ الْخَالِيَةِ آخَرُونَ قَائِلُونَ مِثْلَهَا.

﴿فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾[5] مِنْ مَتَاعِ الدُّنْيَا وَيَجْمَعُونَ مِنْهُ

---

1 سورة الزُّمَر، الآية .

2 سورة الزُّمَر، الآية .

3 سورة الزُّمَر، الآية .

4 سورة الْقِصَصُ، الآية 78.

5 سورة الزُّمَر، الآية .

﴿مِنْ هَؤُلاءِ﴾[1]: مِنْ مُشْرِكِي قَوْمِكَ "سَيُصِيبُهُمْ" مِثْلَ مَا أَصَابَ أُولَئِكَ، فَقُتِلَ صَنَادِيدُهُمْ بِبَدْرٍ، وَحُبِسَ عَنْهُمُ الرِّزْقَ، فَقَحَطُوا سَبْعَ سِنِينَ، ثُمَّ بُسِطَ لَهُمْ فَمُطِرُوا سَبْعَ سِنِينَ، فَقِيلَ لَهُمْ: ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمُوا﴾[2] أَنَّهُ لَا قَابِضَ وَلَا بَاسِطَ إِلَّا اللَّهُ –عَزَّ وَجَلَّ–.

## ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾[3]

﴿أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ﴾[4]: جَنَوْا عَلَيْهَا بِالْإِسْرَافِ فِي الْمَعَاصِي وَالْغُلُوِّ فيها.

﴿لا تَقْنَطُواْ﴾[5] قُرِئَ: بِفَتْحِ النُّونِ وَكَسْرِهَا وَضَمِّهَا.

﴿إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾[6]، يَعْنِي بِشَرْطِ التَّوْبَةِ، وَقَدْ تَكَرَّرَ ذِكْرُ هَذَا الشَّرْطِ فِي الْقُرْآنِ، فَكَانَ ذِكْرُهُ فِيمَا ذُكِرَ فِيهِ ذِكْرًا لَهُ فِيمَا لَمْ يُذْكَرْ فِيهِ، لِأَنَّ الْقُرْآنَ فِي حُكْمِ كَلَامٍ وَاحِدٍ، وَلَا يَجُوزُ فِيهِ التَّنَاقُضُ.

وَفِي قِرَاءَةِ ابْنِ عَبَّاسٍ وَابْنِ مَسْعُودٍ: (يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا لِمَنْ يَشَاءُ). وَالْمُرَادُ بِمَنْ يَشَاءُ: مَنْ تَابَ، لِأَنَّ مَشِيئَةَ اللَّهِ تَابِعَةٌ لِحِكْمَتِهِ وَعَدْلِهِ، لَا لِمِلْكِهِ وَجَبَرُوتِهِ. وَقِيلَ: فِي قِرَاءَةِ النَّبِيِّ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– وَفَاطِمَةَ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا–: (يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا وَلَا يُبَالِي).

وَنَظِيرُ نَفْيِ الْمُبَالَاةِ نَفْيُ الْخَوْفِ فِي قَوْلِهِ –تَعَالَى–: ﴿وَلا يَخَافُ عُقْبَاهَا﴾[7].

وَقِيلَ: قَالَ أَهْلُ مَكَّةَ: يَزْعُمُ مُحَمَّدٌ أَنَّ مَنْ عَبَدَ الْأَوْثَانَ وَقَتَلَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ لَمْ يُغْفَرْ لَهُ، فَكَيْفَ وَلَمْ نُهَاجِرْ، وَقَدْ عَبَدْنَا الْأَوْثَانَ، وَقَتَلْنَا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ؟ فَنَزَلَتْ.

وَرُوِيَ أَنَّهُ أَسْلَمَ عَيَّاشُ بْنُ أَبِي رَبِيعَةَ وَالْوَلِيدُ بْنُ الْوَلِيدِ وَنَفَرٌ مَعَهُمَا، ثُمَّ فُتِنُوا وَعُذِّبُوا، فَافْتَتَنُوا، فَكُنَّا نَقُولُ: لَا يَقْبَلُ اللَّهُ لَهُمْ صَرْفًا وَلَا عَدْلًا أَبَدًا، فَنَزَلَتْ. فَكَتَبَ بِهَا عُمَرُ –

---

1 سورة الزُّمَر، الآية .
2 سورة الزُّمَر، الآية .
3 سورة الزُّمَر، الآية .
4 سورة الزُّمَر، الآية .
5 سورة الزُّمَر، الآية .
6 سورة الزُّمَر، الآية .
7 سورة الشَّمْس، الآية 15.

رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ– إِلَيْهِمْ، فَأَسْلَمُوا وَهَاجَرُوا، وَقِيلَ: نَزَلَتْ فِي وَحْشِيٍّ قَاتِلِ حَمْزَةَ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ–.

وَعَنْ رَسُولِ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: "مَا أُحِبُّ أَنَّ لِي الدُّنْيَا وَمَا فيها بِهَذِهِ الْآيَةِ"، فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَمَنْ أَشْرَكَ؟ فَسَكَتَ سَاعَةً ثُمَّ قَالَ: "أَلَا وَمَنْ أَشْرَكَ" ثَلَاثَ مَرَّاتٍ.

﴿وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لا تُنْصَرُونَ وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لا تَشْعُرُونَ أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَا عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ بَلَى قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾[1]

﴿وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ﴾[2]، وَتُوبُوا إِلَيْهِ.

﴿وَأَسْلِمُوا لَهُ﴾[3]: وَأَخْلِصُوا لَهُ الْعَمَلَ، إِنَّمَا ذَكَرَ الْإِنَابَةَ عَلَى أَثَرِ الْمَغْفِرَةِ لِئَلَّا يَطْمَعَ طَامِعٌ فِي حُصُولِهَا بِغَيْرِ تَوْبَةٍ، وَلِلدَّلَالَةِ عَلَى أَنَّهَا شَرْطٌ فيها لَازِمٌ لَا تَحْصُلُ بِدُونِهِ.

﴿وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾[4]، مِثْلُ قَوْلِهِ: ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾[5].

﴿وَأَنْتُمْ لا تَشْعُرُونَ﴾[6]، أَيْ: يَفْجَؤُكُمْ وَأَنْتُمْ غَافِلُونَ، كَأَنَّكُمْ لَا تَخْشَوْنَ شَيْئًا لِفَرْطِ غَفْلَتِكُمْ وَسَهْوِكُمْ

---

1 سورة الزُّمَر، الآية .
2 سورة الزُّمَر، الآية .
3 سورة الزُّمَر، الآية .
4 سورة الزُّمَر، الآية .
5 سورة الزُّمَر، الآية 188.
6 سورة الزُّمَر، الآية .

﴿أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ﴾[1] كَرَاهَةَ أَنْ تَقُولَ.

فَإِنْ قُلْتَ: لِمَ نَكَّرْتَ؟

قُلْتُ: لِأَنَّ الْمُرَادَ بِهَا بَعْضُ الْأَنْفُسِ، وَهِيَ نَفْسُ الْكَافِرِ.

وَيَجُوزُ أَنْ يُرَادَ: نَفْسٌ مُتَمَيِّزَةٌ مِنَ الْأَنْفُسِ: إِمَّا بِلَجَاجٍ فِي الْكُفْرِ شَدِيدٍ، أَوْ بِعَذَابٍ عَظِيمٍ.

وَيَجُوزُ أَنْ يُرَادَ التَّكْثِيرُ، كَمَا قَالَ الْأَعْشَى:

وَرُبَّ بَقِيعٍ لَوْ هَتَفْتُ بِحَوِّهِ أَتَانِي كَرِيمٌ يَنْفُضُ الرَّأْسَ مُغْضَبَا

وَهُوَ يُرِيدُ: أَفْوَاجًا مِنَ الْكِرَامِ يَنْصُرُونَهُ، لَا كَرِيمًا وَاحِدًا. وَنَظِيرُهُ: رُبَّ بَلَدٍ قُطِّعَتْ، وَرُبَّ بَطَلٍ قَارَعَتْ. وَقَدِ اخْتَلَسَ الطَّعْنَةَ وَلَا يَقْصِدُ إِلَّا التَّكْسِيرَ. وَقُرِئَ: (يَا حَسْرَتِي) عَلَى الْأَصْلِ. وَيَا حَسْرَتَايَ، عَلَى الْجَمْعِ بَيْنَ الْعِوَضِ وَالْمُعَوَّضِ مِنْهُ.

وَالْجَنْبُ: الْجَانِبُ، يُقَالُ: أَنَا فِي جَنْبِ فُلَانٍ وَجَانِبِهِ وَنَاحِيَتِهِ، وَفُلَانٌ لَيِّنُ الْجَنْبِ وَالْجَانِبِ، ثُمَّ قَالُوا: فَرَّطَ فِي جَنْبِهِ وَفِي جَانِبِهِ، يُرِيدُونَ فِي حَقِّهِ.

قَالَ سَابِقٌ الْبَرْبَرِيُّ:

أَمَا تَتَّقِينَ اللَّهَ فِي جَنْبِ وَامِقٍ لَهُ كَبِدٌ حَرَّى عَلَيْكِ تَقَطَّعُ

وَهَذَا مِنْ بَابِ الْكِنَايَةِ، لِأَنَّكَ إِذَا أَثْبَتَّ الْأَمْرَ فِي مَكَانِ الرَّجُلِ وَحَيِّزِهِ، فَقَدْ أَثْبَتَّهُ فِيهِ.

أَلَا تَرَى إِلَى قَوْلِهِ:

إِنَّ السَّمَاحَةَ وَالْمُرُوءَةَ وَالنَّدَى فِي قُبَّةٍ ضُرِبَتْ عَلَى ابْنِ الْحَشْرَجِ

وَمِنْهُ قَوْلُ النَّاسِ: لِمَكَانِكَ فَعَلْتُ كَذَا، يُرِيدُونَ: لِأَجْلِكَ. وَفِي الْحَدِيثِ: "مِنَ الشِّرْكِ الْخَفِي أَنْ يُصَلِّيَ الرَّجُلُ لِمَكَانِ الرَّجُلِ"، وَكَذَلِكَ: فَعَلْتُ هَذَا مِنْ جِهَتِكَ، فَمِنْ حَيْثُ لَمْ يَبْقَ فَرْقٌ فِيمَا يَرْجِعُ إِلَى أَدَاءِ الْغَرَضِ بَيْنَ ذِكْرِ الْمَكَانِ وَتَرْكِهِ، قِيلَ: ﴿فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ﴾[2] عَلَى مَعْنَى: فَرَّطْتُ فِي ذَاتِ اللَّهِ.

فَإِنْ قُلْتَ: فَمَرْجِعُ كَلَامِكَ إِلَى أَنَّ ذِكْرَ الْجَنْبِ كَلَا ذِكْرَ سِوَى مَا يُعْطَى مِنْ حُسْنِ الْكِنَايَةِ وَبَلَاغَتِهَا، فَكَأَنَّهُ قِيلَ: فَرَّطْتُ فِي اللَّهِ. فَمَا مَعْنَى فَرَّطْتُ فِي اللَّهِ؟

قُلْتُ: لَا بُدَّ مِنْ تَقْدِيرِ مُضَافٍ مَحْذُوفٍ، سَوَاءٌ ذَكَرَ الْجَنْبَ أَوْ لَمْ يَذْكُرْ.

---

[1] سورة الزُّمَر، الآية .

[2] سورة الزُّمَر، الآية .

وَالْمَعْنَى: فَرَّطْتُ فِي طَاعَةِ اللَّهِ وَعِبَادَةِ اللَّهِ، وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ. وَفِي حَرْفِ عَبْدِ اللَّهِ وَحَفْصَةَ: فِي ذِكْرِ اللَّهِ.

وَ"مَا" فِي ﴿مَا فَرَّطْتُ﴾[1] مَصْدَرِيَّةٌ مِثْلُهَا فِي (بِمَا رَحُبَتْ)[2].

﴿وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ﴾[3]، قَالَ قَتَادَةُ: لَمْ يَكْفِهِ أَنْ ضَيَّعَ طَاعَةَ اللَّهِ حَتَّى سَخِرَ مِنْ أَهْلِهَا، وَمَحَلُّ.

﴿وَإِنْ كُنْتُ﴾[4] عَلَى النَّصْبِ عَلَى الْحَالِ، كَأَنَّهُ قَالَ: فَرَّطْتُ وَأَنَا سَاخِرٌ، أَيْ: فَرَّطْتُ فِي حَالِ سُخْرِيَتِي.

وَرُوِيَ: أَنَّهُ كَانَ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ عَالِمٌ تَرَكَ عِلْمَهُ وَفَسَقَ. وَأَتَاهُ إِبْلِيسُ، وَقَالَ لَهُ: تَمَتَّعْ مِنَ الدُّنْيَا ثُمَّ تُبْ، فَأَطَاعَهُ، وَكَانَ لَهُ مَالٌ فَأَنْفَقَهُ فِي الْفُجُورِ، فَأَتَاهُ مَلَكُ الْمَوْتِ فِي أَلَذِّ مَا كَانَ فَقَالَ: يَا حَسْرَتَاهُ عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ، ذَهَبَ عُمْرِي فِي طَاعَةِ الشَّيْطَانِ، وَأَسْخَطْتُ رَبِّي فَنَدِمَ حِينَ لَمْ يَنْفَعْهُ النَّدَمُ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ خَبَرَهُ فِي الْقُرْآنِ.

﴿لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي﴾[5] لَا يَخْلُو: إِمَّا أَنْ يُرِيدَ الْهِدَايَةَ بِالْإِلْجَاءِ أَوْ بِالْإِلْطَافِ أَوْ بِالْوَحْيِ، فَالْإِلْجَاءُ خَارِجٌ عَنِ الْحِكْمَةِ، وَلَمْ يَكُنْ مِنْ أَهْلِ الْإِلْطَافِ فَلْيَلْطُفْ بِهِ.

وَأَمَّا الْوَحْيُ فَقَدْ كَانَ، وَلَكِنَّهُ أَعْرَضَ وَلَنْ يَتَّبِعَهُ حَتَّى يَهْتَدِيَ، وَإِنَّمَا يَقُولُ هَذَا تَحَيُّرًا فِي أَمْرِهِ وَتَعَلُّلًا بِمَا لَا يُجْدِي عَلَيْهِ، كَمَا حَكَى عَنْهُمُ التَّعَلُّلُ بِإِغْوَاءِ الرُّؤَسَاءِ وَالشَّيَاطِينِ وَنَحْوِ ذَلِكَ، وَنَحْوُهُ: ﴿لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ﴾[6].

وَقَوْلُهُ: ﴿بَلَى قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي﴾[7] رَدٌّ مِنَ اللَّهِ عَلَيْهِ، مَعْنَاهُ: بَلَى قَدْ هُدِيتَ بِالْوَحْيِ فَكَذَّبْتَ بِهِ وَاسْتَكْبَرْتَ عَنْ قَبُولِهِ، وَآثَرْتَ الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ، وَالضَّلَالَةَ عَلَى الْهُدَى. وَقُرِئَ بِكَسْرِ التَّاءِ عَلَى مُخَاطَبَةِ النَّفْسِ.

---

1 سورة التَّوْبَةُ، الآية 25 والآية 118.

2 سورة الزُّمَرِ، الآية .

3 سورة الزُّمَرِ، الآية .

4 سورة الزُّمَرِ، الآية .

5 سورة الزُّمَرِ، الآية .

6 سورة إِبْرَاهِيمُ، الآية 21.

7 سورة الزُّخْرُفُ، الآية 20.

فَإِنْ قُلْتَ: هَلَّا قَرَنَ الْجَوَابَ بِمَا هُوَ جَوَابٌ لَهُ، وَهُوَ قَوْلُهُ: ﴿لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي﴾[1] وَلَمْ يَفْصِلْ بَيْنَهُمَا بِآيَةٍ؟

قُلْتُ: لِأَنَّهُ لَا يَخْلُو: إِمَّا أَنْ يُقَدِّمَ عَلَى أُخْرَى الْقَرَائِنَ الثَّلَاثَ فيفَرِّقُ بَيْنَهُنَّ، وَإِمَّا أَنْ تُؤَخِّرَ الْقَرِينَةَ الْوُسْطَى، فَلَمْ يَحْسُنِ الْأَوَّلُ لِمَا فيهِ مِنْ تَبْتِيرِ النَّظْمِ بِالْجَمْعِ بَيْنَ الْقَرَائِنِ، وَأَمَّا الثَّانِي: فَلِمَا فيهِ مِنْ نَقْصِ التَّرْتِيبِ وَهُوَ التَّحَسُّرُ عَلَى التَّفْرِيطِ في الطَّاعَةِ، ثُمَّ التَّعَلُّلُ بِفَقْدِ الْهِدَايَةِ، ثُمَّ تَمَنِّي الرَّجْعَةَ فَكَانَ الصَّوَابُ مَا جَاءَ عَلَيْهِ، وَهُوَ أَنَّهُ حَكَى أَقْوَالَ النَّفْسِ عَلَى تَرْتِيبِهَا وَنَظْمِهَا، ثُمَّ أَجَابَ مِنْ بَيْنِهَا عَمَّا اقْتَضَى الْجَوَابَ.

فَإِنْ قُلْتَ: كَيْفَ صَحَّ أَنْ تَقَعَ بَلَى جَوَابًا بِالْغَيْرِ مَنْفي؟

قُلْتُ: ﴿لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي﴾[2] فيهِ مَعْنَى: مَا هُدِيتُ.

## ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْمُتَكَبِّرِينَ﴾[3]

﴿كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ﴾[4]، أَيْ وَصَفُوهُ بِمَا لَا يَجُوزُ عَلَيْهِ –تَعَالَى–، وَهُوَ مُتَعَالٍ عَنْهُ، فَأَضَافُوا إِلَيْهِ الْوَلَدَ وَالشَّرِيكَ، وَقَالُوا: هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا، وَقَالُوا: ﴿لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ﴾[5]، وَقَالُوا: ﴿وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾[6].

وَلَا يَبْعُدُ عَنْهُمْ قَوْمٌ يُسَفِّهُونَهُ بِفِعْلِ الْقَبَائِحِ، وَتَجْوِيزِ أَنْ يَخْلُقَ خَلْقًا لَا لِغَرَضٍ، وَيُؤْلِمَ لَا لِعِوَضٍ، وَيَظْلِمُونَهُ بِتَكْلِيفٍ يُطَاقُ، وَيُجَسِّمُونَهُ بِكَوْنِهِ مَرْئِيًّا مُعَايِنًا مُدْرِكًا بِالْحَاسَّةِ، وَيُثْبِتُونَ لَهُ يَدًا وَقَدَمًا وَجَنْبًا مُتَسَتِّرِينَ بِالْبَلْكَفَةِ، وَيَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا بِإِثْبَاتِهِمْ مَعَهُ قُدَمَاءَ.

﴿وُجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ﴾[7] جُمْلَةٌ في مَوْضِعِ الْحَالِ، إِنْ كَانَ "تَرَى" مِنْ رُؤْيَةِ الْبَصَرِ، وَمَفْعُولٌ ثَانٍ إِنْ كَانَ مِنْ رُؤْيَةِ الْقَلْبِ.

---

1 سورة الْأَعْرَافُ، الآية 28.

2 سورة الزُّمَرِ، الآية .

3 سورة الزُّمَرِ، الآية .

4 سورة الزُّمَرِ، الآية .

5 سورة الزُّمَرِ، الآية .

6 سورة الزُّمَرِ، الآية .

7 سورة الزُّمَرِ، الآية .

﴿وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[1]

قُرِئَ: (يُنْجِي) وَ(يُنْجِي) ﴿بِمَفَازَتِهِمْ﴾[2] بِفَلَاحِهِمْ، يُقَالُ: فَازَ بِكَذَا إِذَا أَفْلَحَ بِهِ وَظَفَرَ بِمُرَادِهِ مِنْهُ.

وَتَفْسِيرُ الْمَفَازَةِ قَوْلُهُ: ﴿لا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[3]، كَأَنَّهُ قِيلَ: مَا مَفَازَتُهُمْ؟ فَقِيلَ: لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ، أَيْ يُنْجِيهِمْ بِنَفْيِ السُّوءِ وَالْحُزْنِ عَنْهُمْ. أَوْ بِسَبَبِ مَنْجَاتِهِمْ، مِنْ قَوْلِهِ –تَعَالَى–: ﴿فَلا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ﴾[4]، أَيْ بِمَنْجَاةٍ مِنْهُ، لِأَنَّ النَّجَاةَ مِنْ أَعْظَمِ الْفَلَاحِ، وَسَبَبُ مَنْجَاتِهِمُ الْعَمَلُ الصَّالِحُ.

وَلِهَذَا فَسَّرَ ابْنُ عَبَّاسٍ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا– الْمَفَازَةَ بِالْأَعْمَالِ الْحَسَنَةِ، وَيَجُوزُ: بِسَبَبِ فَلَاحِهِمْ، لِأَنَّ الْعَمَلَ الصَّالِحَ سَبَبُ الْفَلَاحِ، وَهُوَ دُخُولُ الْجَنَّةِ. وَيَجُوزُ أَنْ يُسَمَّى الْعَمَلُ الصَّالِحُ فِي نَفْسِهِ: مَفَازَةً، لِأَنَّهُ سَبَبُهَا. وَقُرِئَ: (بِمَفَازَاتِهِمْ) عَلَى أَنَّ لِكُلِّ مُتَّقٍ مَفَازَةً.

فَإِنْ قُلْتَ: ﴿لا يَمَسُّهُمُ﴾[5] مَا مَحَلُّهُ مِنَ الْإِعْرَابِ عَلَى التَّفْسِيرَيْنِ؟

قُلْتُ: أَمَّا عَلَى التَّفْسِيرِ الْأَوَّلِ فَلَا مَحَلَّ لَهُ، لِأَنَّهُ كَلَامٌ مُسْتَأْنَفٌ. وَأَمَّا عَلَى الثَّانِي فَمَحَلُّهُ النَّصْبُ عَلَى الْحَالِ .

﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾[6]

---

1 سورة الزُّمَر، الآية .

2 سورة الزُّمَر، الآية .

3 سورة الزُّمَر، الآية .

4 سورة آلُ عِمْرَانَ، الآية 188.

5 سورة الزُّمَر، الآية .

6 سورة الزُّمَر، الآية .

﴿لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾[1]، أَيْ هُوَ مَالِكُ أَمْرِهَا وَحَافِظُهَا، وَهُوَ مِنْ بَابِ الْكِنَايَةِ، لِأَنَّ حَافِظَ الْخَزَائِنِ مُدَبِّرُ أَمْرِهَا هُوَ الَّذِي يَمْلِكُ مَقَالِيدَهَا، وَمِنْهُ قَوْلُهُمْ: فُلَانٌ أَلْقَيْتُ إِلَيْهِ مَقَالِيدَ الْمُلْكِ وَهِيَ مَفَاتِيحُ، وَلَا وَاحِدَ لَهَا مِنْ لَفْظِهَا. وَقِيلَ: مَقْلِيدٌ. وَيُقَالُ: إِقْلِيدٌ وَأَقَالِيدُ، وَالْكَلِمَةُ أَصْلُهَا فَارِسِيَّةٌ.

فَإِنْ قُلْتَ: مَا لِلْكِتَابِ الْعَرَبِيِّ الْمُبِينِ بِالْفَارِسِيَّةِ؟

قُلْتُ: التَّعْرِيبُ أَحَالَهَا عَرَبِيَّةً، كَمَا أَخْرَجَ الِاسْتِعْمَالَ الْمُهْمَلَ مِنْ كَوْنِهِ مُهْمَلًا.

فَإِنْ قُلْتَ: بِمَا اتَّصَلَ قَوْلُهُ: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾[2].

قُلْتُ: بِقَوْلِهِ: ﴿وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾[3]، أَيْ يُنَجِّي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ بِمَفَازَتِهِمْ، وَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْخَاسِرُونَ. وَاعْتِرَاضٌ بَيْنِهِمَا بِأَنَّهُ خَالِقُ الْأَشْيَاءِ كُلِّهَا. وَهُوَ مُهَيْمِنٌ عَلَيْهَا فَلَا يَخْفى عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْ أَعْمَالِ الْمُكَلَّفِينَ فيها وَمَا يَسْتَحِقُّونَ عَلَيْهَا مِنَ الْجَزَاءِ، وَقَدْ جَعَلَ مُتَّصِلًا بِمَا يَلِيهِ عَلَى أَنَّ كُلَّ شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَاللَّهُ خَالِقُهُ وَفَاتِحُ بَابِهِ، وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَجَحَدُوا أَنْ يَكُونَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ، وَقِيلَ: سَأَلَ عُثْمَانُ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ– رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ تَفْسِيرِ قَوْلِهِ –تَعَالَى–: ﴿لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾[4]، فَقَالَ: "يَا عُثْمَانُ، مَا سَأَلَنِي عَنْهَا أَحَدٌ قَبْلَكَ، تَفْسِيرُهَا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاللَّهُ أَكْبَرُ، وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ، وَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ، هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ، بِيَدِهِ الْخَيْرُ، يُحْيِي وَيُمِيتُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ".

وَتَأْوِيلُهُ عَلَى هَذَا: أَنَّ لِلَّهِ هَذِهِ الْكَلِمَاتُ يُوَحَّدُ بِهَا وَيُمَجَّدُ، وَهِيَ مَفَاتِيحُ خَيْرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، مَنْ تَكَلَّمَ بِهَا مِنَ الْمُتَّقِينَ أَصَابَهُ، وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَلِمَاتِ تَوْحِيدِهِ وَتَمْجِيدِهِ، أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ.

## ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ﴾[5]

---

1 سورة الزُّمَر، الآية .

2 سورة الزُّمَر، الآية .

3 سورة الزُّمَر، الآية .

4 سورة الزُّمَر، الآية .

5 سورة الزُّمَر، الآية .

﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ﴾[1] مَنْصُوبٌ بِأَعْبُدُ.

و﴿تَأْمُرُونِّي﴾[2] اعْتِرَاضٌ. وَمَعْنَاهُ: أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَعْبُدُ بِأَمْرِكُمْ؟! وَذَلِكَ حِينَ قَالَ لَهُ الْمُشْرِكُونَ: اسْتَلِمْ بَعْضَ آلِهَتِنَا وَنُؤْمِنُ بِإِلَهِكَ، أَوْ يُنْصَبُ بِمَا يَدُلُّ عَلَيْهِ جُمْلَةُ قَوْلِهِ: ﴿تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ﴾[3]، لِأَنَّهُ فِي مَعْنَى تَعْبُدُونَنِي وَتَقُولُونَ لِي: اعْبُدْ، وَالْأَصْلُ: تَأْمُرُونَنِي أَنْ أَعْبُدَ، فَحَذَفَ "أَنْ" وَرَفَعَ الْفِعْلَ، كَمَا فِي قَوْلِهِ:

أَلَا أَيُّهَذَا الزَّاجِرِيُّ أَحْضُرُ الْوَغَى

أَلَا تَرَاكَ تَقُولُ: أَفَغَيَّرَ اللَّهِ تَقُولُونَ لِي: أَعْبُدُ، وَأَفَغَيْرَ اللَّهِ تَقُولُونَ لِي: أَعْبُدُ، فَكَذَلِكَ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونَنِي أَنْ أَعْبُدَهُ. وَأَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونَنِي أَنْ أَعْبُدَ؟

وَالدَّلِيلُ عَلَى صِحَّةِ هَذَا الْوَجْهِ: قِرَاءَةُ مَنْ قَرَأَ (أَعْبُدُ) بِالنَّصْبِ. وَقُرِئَ: (تَأْمُرُونَنِي) عَلَى الْأَصْلِ، وَ (تَأْمُرُونِي) عَلَى إِدْغَامِ النُّونِ أَوْ حَذْفِهَا.

## ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾[4]

قُرِئَ: (لَيَحْبَطْنَّ عَمَلُكَ) وَلَيُحْبَطَنَّ: عَلَى الْبِنَاءِ لِلْمَفْعُولِ. وَ(لِنُحْبِطَنَّ)، بِالنُّونِ وَالْيَاءِ، أَيْ: لِيُحْبِطَنَّ اللَّهُ، أَوِ الشِّرْكُ.

فَإِنْ قُلْتَ: الْمُوحَى إِلَيْهِمْ جَمَاعَةٌ، فَكَيْفَ قَالَ: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ﴾[5] عَلَى التَّوْحِيدِ؟

قُلْتُ: مَعْنَاهُ أَوْحَى إِلَيْكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ، وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ مِثْلُهُ، أَوْ أَوْحَى إِلَيْكَ وَإِلَى كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ: لَئِنْ أَشْرَكْتَ كَمَا تَقُولُ: كَسَانَا حُلَّةً، أَيْ: كُلُّ وَاحِدٍ مِنَّا.

فَإِنْ قُلْتَ: مَا الْفَرْقُ بَيْنَ اللَّامَيْنِ؟

قُلْتُ:

---

[1] سورة الزُّمَر، الآية .

[2] سورة الزُّمَر، الآية .

[3] سورة الزُّمَر، الآية .

[4] سورة الزُّمَر، الآية .

[5] سورة الزُّمَر، الآية .

– الْأُولَى: مُوطِئَةً لِلْقَسَمِ الْمَحْذُوفِ.

– وَالثَّانِية: لَامُ الْجَوَابِ، وَهَذَا الْجَوَابُ سَادٌّ مَسَدَّ الْجَوَابَيْنِ، أَعْنِي: جَوَابَيِ الْقَسَمِ وَالشَّرْطِ،

فَإِنْ قُلْتَ: كَيْفَ صَحَّ هَذَا الْكَلَامُ مَعَ عِلْمِ اللَّهِ أَنَّ رُسُلَهُ لَا يُشْرِكُونَ وَلَا تُحْبَطُ أَعْمَالُهُمْ؟

قُلْتُ: هُوَ عَلَى سَبِيلِ الْفَرْضِ، وَالْمُحَالَاتُ يَصِحُّ فَرْضُهَا لِأَغْرَاضٍ، فَكَيْفَ بِمَا لَيْسَ بِمُحَالٍ؟

أَلَا تَرَى إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لآمَنَ مَنْ فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا﴾[1]، يَعْنِي عَلَى سَبِيلِ الْإِلْجَاءِ، وَلَنْ يَكُونَ ذَلِكَ لِامْتِنَاعِ الدَّاعِي إِلَيْهِ وَوُجُودِ الصَّارِفِ عَنْهُ.

فَإِنْ قُلْتَ: مَا مَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾[2]؟

قُلْتُ: يُحْتَمَلُ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ بِسَبَبِ حُبُوطِ الْعَمَلِ. وَيُحْتَمَلُ: وَلَتَكُونَنَّ فِي الْآخِرَةِ مِنْ جُمْلَةِ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ إِنْ مِتَّ عَلَى الرِّدَّةِ.

وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ غَضَبُ اللَّهِ عَلَى الرَّسُولِ أَشَدَّ، فَلَا يُمْهِلُهُ بَعْدَ الرِّدَّةِ.

أَلَا تَرَى إِلَى قَوْلِهِ –تَعَالَى–: ﴿إِذًا لأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ﴾[3].

﴿بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ﴾[4]: رَدٌّ لَمَّا أَمَرُوهُ بِهِ مِنَ اسْتِلَامِ بَعْضِ آلِهَتِهِمْ، كَأَنَّهُ قَالَ: لَا تَعْبُدُ مَا أَمَرُوكَ بِعِبَادَتِهِ، بَلْ إِنْ كُنْتَ عَاقِلًا فَاعْبُدِ اللَّهَ، فَحَذَفَ الشَّرْطَ وَجَعَلَ تَقْدِيمَ الْمَفْعُولِ عِوَضًا مِنْهُ.

﴿وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾[5] عَلَى مَا أَنْعَمَ بِهِ عَلَيْكَ، مِنْ أَنْ جَعَلَكَ سَيِّدَ وَلَدِ آدَمَ، وَجَوَّزَ الْفَرَّاءُ نَصْبَهُ بِفِعْلٍ مُضْمَرٍ هَذَا فَمَعْطُوفٌ عَلَيْهِ، تَقْدِيرُهُ: بَلِ اللَّهُ أَعْبُدُ فَاعْبُدْ.

## ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[6]

---

[1] سورة يُونُسُ، الآية 99.

[2] سورة الزُّمَرِ، الآية .

[3] سورة الْإِسْرَاءُ، الآية 75.

[4] سورة الزُّمَرِ، الآية .

[5] سورة الزُّمَرِ، الآية .

[6] سورة الزُّمَرِ، الآية .

لَمَّا كَانَ الْعَظِيمُ مِنَ الْأَشْيَاءِ إِذَا عَرَفَهُ الْإِنْسَانُ حَقَّ مَعْرِفَتِهِ وَقَدَّرَهُ فِي نَفْسِهِ حَقَّ تَقْدِيرِهِ وَعَظَّمَهُ حَقَّ تَعْظِيمِهِ قِيلَ: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾[1]، وَقُرِئَ بِالتَّشْدِيدِ عَلَى مَعْنَى: وَمَا عَظَّمُوهُ كُنْهَ تَعْظِيمِهِ.

ثُمَّ نَبَّهَهُمْ عَلَى عَظَمَتِهِ وَجَلَالَةِ شَأْنِهِ عَلَى طَرِيقَةِ التَّخْيِيلِ، فَقَالَ: ﴿وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾[2].

وَالْغَرَضُ مِنْ هَذَا الْكَلَامِ إِذَا أَخَذْتَهُ كَمَا هُوَ بِجُمْلَتِهِ وَمَجْمُوعِهِ تَصْوِيرُ عَظَمَتِهِ وَالتَّوْقِيفُ عَلَى كُنْهِ جَلَالِهِ لَا غَيْرُ، مِنْ غَيْرِ ذَهَابٍ بِالْقَبْضَةِ وَلَا بِالْيَمِينِ إِلَى جِهَةِ حَقِيقَةٍ أَوْ جِهَةِ مَجَازٍ.

وَكَذَلِكَ حُكْمُ مَا يُرْوَى: أَنَّ جِبْرِيلَ جَاءَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–، فَقَالَ: يَا أَبَا الْقَاسِمِ، إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى أُصْبُعٍ وَالْأَرْضِينَ عَلَى أُصْبُعٍ وَالْجِبَالَ عَلَى أُصْبُعٍ وَالشَّجَرَ عَلَى أُصْبُعٍ وَالثَّرَى عَلَى الْأُصْبُعِ وَسَائِرُ الْخَلْقِ عَلَى أُصْبُعٍ، ثُمَّ يَهُزُّهُنَّ فيقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ، فَضَحِكَ رَسُولُ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– تَعَجُّبًا مِمَّا قَالَ، ثُمَّ قَرَأَ تَصْدِيقًا لَهُ: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾[3] ...الْآيَةُ.

وَإِنَّمَا ضَحِكَ: أَفْصَحُ الْعَرَبِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– وَتَعَجَّبَ، لِأَنَّهُ لَمْ يُفْهَمْ مِنْهُ إِلَّا مَا يَفْهَمُهُ عُلَمَاءُ الْبَيَانِ مِنْ غَيْرِ تَصَوُّرِ إِمْسَاكٍ وَلَا أُصْبُعٍ وَلَا هَزٍّ وَلَا شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ، وَلَكِنَّ فَهْمَهُ وَقَعَ أَوَّلُ شَيْءٍ وَآخِرُهُ عَلَى الزُّبْدَةِ وَالْخُلَاصَةِ الَّتِي هِيَ الدَّلَالَةُ عَلَى الْقُدْرَةِ الْبَاهِرَةِ، وَأَنَّ الْأَفْعَالَ الْعِظَامَ الَّتِي تَتَحَيَّرُ فيها الْأَفْهَامُ وَالْأَذْهَانُ وَلَا تَكْتَنِهُهَا الْأَوْهَامُ هَيِّنَةً عَلَيْهِ هَوَانًا لَا يُوصَلُ السَّامِعُ إِلَى الْوُقُوفِ عَلَيْهِ، إِلَّا إِجْرَاءَ الْعِبَارَةِ فِي مِثْلِ هَذِهِ الطَّرِيقَةِ مِنَ التَّخْيِيلِ.

وَلَا تَرَى بَابًا فِي عِلْمِ الْبَيَانِ أَدَقَّ وَلَا أَرَقَّ وَلَا أَلْطَفَ مِنْ هَذَا الْبَابِ، وَلَا أَنْفَعَ وَأَعْوَنَ عَلَى تَعَاطِي تَأْوِيلِ الْمُشْتَبِهَاتِ مِنْ كَلَامِ اللَّهِ –تَعَالَى– فِي الْقُرْآنِ وَسَائِرِ الْكُتُبِ السَّمَاوِيَّةِ وَكَلَامِ الْأَنْبِيَاءِ، فَإِنَّ أَكْثَرَهُ وَعَلِّيَّتَهُ تَخْيِيلَاتٌ قَدْ زَلَّتْ فيها الْأَقْدَامُ قَدِيمًا، وَمَا أُوتِيَ الزَّالُّونَ إِلَّا مِنْ قِلَّةِ عِنَايَتِهِمْ بِالْبَحْثِ وَالتَّنْقِيرِ، حَتَّى يَعْلَمُوا أَنَّ فِي عِدَادِ الْعُلُومِ الدَّقِيقَةِ عِلْمًا لَوْ قَدَّرَهُ حَقَّ قَدْرِهِ، لَمَا خَفِيَ عَلَيْهِمْ أَنَّ الْعُلُومَ كُلَّهَا مُفْتَقِرَةٌ إِلَيْهِ وَعِيَالٌ عَلَيْهِ، إِذْ لَا يَحِلُّ عُقَدَهَا الْمُورِبَةَ وَلَا يَفُكُّ قُيُودَهَا الْمُكْرِبَةَ إِلَّا هُوَ، وَكَمْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ التَّنْزِيلِ وَحَدِيثٍ مِنْ أَحَادِيثِ

---

[1] سورة الزُّمَر، الآية .

[2] سورة الزُّمَر، الآية .

[3] سورة الزُّمَر، الآية .

الرَّسُولِ، وَقَدْ ضِيمَ وَسِيمَ الْخَسْفُ بِالتَّأْوِيلَاتِ الْغَثَّةِ، وَالْوُجُوهِ الرَّثَّةِ، لِأَنَّ مَنْ تَأَوَّلَ لَيْسَ مِنْ هَذَا الْعِلْمِ فِي عِيرٍ وَلَا نَفِيرٍ، وَلَا يُعْرَفُ قَبِيلًا مِنْهُ مِنْ دَبِيرٍ.

وَالْمُرَادُ بِالْأَرْضِ: الْأَرْضُونَ السَّبْعُ، يَشْهَدُ لِذَلِكَ شَاهِدَانِ: قَوْلُهُ: ﴿جَمِيعًا﴾[1]، وَقَوْلُهُ: ﴿وَالسَّمَاوَاتِ﴾[2]، وَلِأَنَّ الْمَوْضِعَ مَوْضِعُ تَفْخِيمٍ وَتَعْظِيمٍ، فَهُوَ مُقْتَضٍ لِلْمُبَالَغَةِ، وَمَعَ الْقَصْدِ إِلَى الْجَمْعِ وَتَأْكِيدِهِ بِالْجَمِيعِ أَتْبَعَ الْجَمِيعَ مُؤَكِّدَةً قَبْلَ مَجِيءِ الْخَبَرِ، لِيَعْلَمَ أَوَّلَ الْأَمْرِ أَنَّ الْخَبَرَ الَّذِي يَرِدُ لَا يَقَعُ عَنْ أَرْضٍ وَاحِدَةٍ، وَلَكِنْ عَنِ الْأَرَاضِي كُلِّهِنَّ.

وَالْقَبْضَةُ: الْمَرَّةُ مِنَ الْقَبْضِ ﴿فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ﴾[3]، وَالْقَبْضَةُ بِالضَّمِّ-: الْمِقْدَارُ الْمَقْبُوضُ بِالْكَفِّ، وَيُقَالُ أَيْضًا: أَعْطِنِي قَبْضَةً مِنْ كَذَا تُرِيدُ: مَعْنَى الْقَبْضَةِ تَسْمِيَةً بِالْمَصْدَرِ، كَمَا رَوَى: أَنَّهُ نَهَى عَنْ خَطْفَةِ السَّبْعِ، وَكِلَا الْمَعْنَيَيْنِ مُحْتَمَلٌ.

وَالْمَعْنَى: الْأَرْضُونَ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ، أَيْ: ذَوَاتُ قَبْضَتِهِ يَقْبِضُهُنَّ قَبْضَةً وَاحِدَةً، يَعْنِي أَنَّ الْأَرْضِينَ مَعَ عِظَمِهِنَّ وَبَسْطَتِهِنَّ لَا يَبْلُغُهُنَّ إِلَّا قَبْضَةٌ وَاحِدَةٌ مِنْ قَبْضَاتِهِ، كَأَنَّهُ يَقْبِضُهَا قَبْضَةً بِكَفٍّ وَاحِدَةٍ، كَمَا تَقُولُ: الْجَزُورُ أَكْلَةُ لُقْمَانَ، وَالْقِلَّةُ جُرْعَتُهُ، أَيْ: ذَاتُ أَكْلَتِهِ وَذَاتُ جُرْعَتِهِ، تُرِيدُ: أَنَّهُمَا لَا يَفِيانِ إِلَّا بِأَكْلَةٍ فَذَّةٍ مِنْ أَكَلَاتِهِ، وَجُرْعَةٍ فَرْدَةٍ مِنْ جُرْعَاتِهِ.

وَإِذَا أُرِيدَ مَعْنَى الْقَبْضَةِ فَظَاهِرٌ، لِأَنَّ الْمَعْنَى: أَنَّ الْأَرْضِينَ بِجُمْلَتِهَا مِقْدَارُ مَا يَقْبِضُهُ بِكَفٍّ وَاحِدَةٍ.

فَإِنْ قُلْتَ: مَا وَجْهُ قِرَاءَةِ مَنْ قَرَأَ (قَبْضَتَهُ) بِالنَّصْبِ؟

قُلْتُ: جَعَلَهَا ظَرْفًا مُشَبَّهًا لِلْمُؤَقَّتِ بِالْمُبْهَمِ: ﴿مَطْوِيَّاتٌ﴾[4] مِنَ الطَّيِّ الَّذِي هُوَ ضِدُّ النَّشْرِ، كَمَا قَالَ -تَعَالَى-: ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾[5]؛ وَعَادَةُ طَاوِي السِّجِلِّ أَنْ يَطْوِيَهُ بِيَمِينِهِ، وَقِيلَ: قَبَضَتُهُ: مَلَكَهُ بِلَا مُدَافِعٍ وَلَا مُنَازِعٍ، وَبِيَمِينِهِ: بِقُدْرَتِهِ، وَقِيلَ: مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ مُفْنِيَاتٌ بِقَسَمِهِ، لِأَنَّهُ أَقْسَمَ أَنْ يُفْنِيَهَا، وَمَنِ اشْتَمَّ رَائِحَةً مِنْ عِلْمِنَا هَذَا فَلْيَعْرِضْ عَلَيْهِ هَذَا التَّأْوِيلَ، لِيَتَلَهَّى بِالتَّعَجُّبِ مِنْهُ وَمِنْ قَائِلِهِ، ثُمَّ يَبْكِي حَمِيهِ لِكَلَامِ اللَّهِ الْمُعْجِزِ بِفَصَاحَتِهِ، وَمَا مُنِيَ بِهِ مِنْ أَمْثَالِهِ، وَأَثْقَلَ مِنْهُ عَلَى الرُّوحِ، وَأَصْدَعَ لِلْكَبِدِ تَدْوِينُ الْعُلَمَاءِ قَوْلَهُ، وَاسْتِحْسَانُهُمْ لَهُ، وَحِكَايَتُهُ عَلَى فُرُوعِ الْمَنَابِرِ، وَاسْتِجْلَابُ الِاهْتِزَازِ بِهِ مِنَ

---

[1] سورة الزُّمَر، الآية .

[2] سورة الزُّمَر، الآية .

[3] سورة طه، الآية 96.

[4] سورة الزُّمَر، الآية .

[5] سورة الْأَنْبِيَاءُ، الآية 104.

السَّامِعِينَ. وَقُرِئَ: (مَطْوِيَّاتٌ) عَلَى نَظْمِ السَّمَاوَاتِ فِي حُكْمِ الْأَرْضِ، وَدُخُولُهَا تَحْتَ الْقَبْضَةِ، وَنُصِبَ مَطْوِيَّاتٍ عَلَى الْحَالِ.

﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى﴾[1] مَا أَبْعَدَ مَنْ هَذِهِ قُدْرَتُهُ وَعَظَمَتُهُ، وَمَا أَعْلَاهُ عَمَّا يُضَافُ إِلَيْهِ مِنَ الشُّرَكَاءِ.

﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ﴾[2]

فَإِنْ قُلْتَ: "أُخْرَى" مَا مَحَلُّهَا مِنَ الْإِعْرَابِ؟

قُلْتُ: يُحْتَمَلُ الرَّفْعُ وَالنَّصْبُ: أَمَّا الرَّفْعُ فَعَلَى قَوْلِهِ: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ﴾[3].

وَأَمَّا النَّصْبُ فَعَلَى قِرَاءَةِ مَنْ قَرَأَ: ﴿نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ﴾[4].

وَالْمَعْنَى: وَنُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ، ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى، وَإِنَّمَا حُذِفَتْ لِدَلَالَةِ أُخْرَى عَلَيْهَا، وَلِكَوْنِهَا مَعْلُومَةً بِذِكْرِهَا فِي غَيْرِ مَكَانٍ. وَقُرِئَ: (قِيَامًا يَنْظُرُونَ): يُقَلِّبُونَ أَبْصَارَهُمْ فِي الْجِهَاتِ نَظَرَ الْمَبْهُوتِ إِذَا فَاجَأَهُ خَطْبٌ. وَقِيلَ: يَنْظُرُونَ مَاذَا يَفْعَلُ بِهِمْ.

وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الْقِيَامُ بِمَعْنَى الْوُقُوفِ وَالْجُمُودِ فِي مَكَانٍ لِتَحَيُّرِهِمْ .

﴿وَأَشْرَقَتِ الأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾[5]

---

[1] سورة الزُّمَر، الآية .

[2] سورة الزُّمَر، الآية .

[3] سورة الْحَاقَّةُ، الآية 13.

[4] سورة الْحَاقَّةُ، الآية 13.

[5] سورة الزُّمَر، الآية .

قَدِ اسْتَعَارَ اللَّهُ –عَزَّ وَجَلَّ– النُّورَ لِلْحَقِّ وَالْقُرْآنَ وَالْبُرْهَانَ في مَوَاضِعَ مِنَ التَّنْزِيلِ، وَهَذَا مِنْ ذَاكَ.

وَالْمَعْنَى: ﴿وَأَشْرَقَتِ الأَرْضُ﴾[1] بِمَا يُقِيمُهُ فيها مِنَ الْحَقِّ وَالْعَدْلِ، وَيَبْسُطُهُ مِنَ الْقِسْطِ في الْحِسَابِ وَوَزْنِ الْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ، وَيُنَادِي عَلَيْهِ بِأَنَّهُ مُسْتَعَارٌ إِضَافَتُهُ إِلَى اسْمِهِ، لِأَنَّهُ هُوَ الْحَقُّ الْعَدْلُ. وَإِضَافَةُ اسْمِهِ إِلَى الْأَرْضِ، لِأَنَّهُ يُزَيِّنُهَا حَيْثُ يَنْشُرُ فيها عَدْلَهُ، وَيَنْصِبُ فيها مَوَازِينَ قِسْطِهِ، وَيَحْكُمُ بِالْحَقِّ بَيْنَ أَهْلِهَا، وَلَا تَرَى أَزْيَنَ لِلْبِقَاعِ مِنَ الْعَدْلِ، وَلَا أَعْمَرَ لَهَا مِنْهُ.

وَفى هَذِهِ الْإِضَافَةِ أَنَّ رَبَّهَا وَخَالِقَهَا هُوَ الَّذِي يَعْدِلُ فيها، وَإِنَّمَا يَجُوزُ فيها غَيْرُ رَبِّهَا، ثُمَّ مَا عُطِفَ عَلَى إِشْرَاقِ الْأَرْضِ مِنْ وَضْعِ الْكِتَابِ وَالْمَجِيءِ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالْقَضَاءِ بِالْحَقِّ وَهُوَ النُّورُ الْمَذْكُورُ. وَتَرَى النَّاسَ يَقُولُونَ لِلْمَلِكِ الْعَادِلِ: أَشْرَقَتِ الْآفَاقُ بِعَدْلِكَ، وَأَضَاءَتِ الدُّنْيَا بِقِسْطِكَ، كَمَا تَقُولُ: أَظْلَمَتِ الْبِلَادُ بِجَوْرِ فُلَانٍ.

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: "الظُّلْمُ ظُلُمَاتٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ"، وَكَمَا فَتَحَ الْآيَةَ بِإِثْبَاتِ الْعَدْلِ، خَتَمَهَا بِنَفى الظُّلْمِ. وَقُرِئَ: (وَأَشْرَقَتْ) عَلَى الْبِنَاءِ لِلْمَفْعُولِ، مَنْ شَرَقَتْ بِالضَّوْءِ تَشْرُقُ: إِذَا امْتَلَأَتْ بِهِ وَاغْتَصَّتْ. وَأَشْرَقَهَا اللَّهُ، كَمَا تَقُولُ: مَلَأَ الْأَرْضَ عَدْلًا وَطَبَّقَهَا عَدْلًا.

وَ﴿الْكِتَابُ﴾[2] صَحَائِفُ الْأَعْمَالِ، وَلَكِنَّهُ اكْتَفى بِاسْمِ الْجِنْسِ، وَقِيلَ: اللَّوْحُ الْمَحْفُوظُ.

"وَالشُّهَدَاءُ" الَّذِينَ يَشْهَدُونَ لِلْأُمَمِ وَعَلَيْهِمْ مِنَ الْحَفَظَةِ وَالْأَخْيَارِ. وَقِيلَ: الْمُسْتَشْهِدُونَ في سَبِيلِ اللَّهِ.

﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَى وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾[3]

---

[1] سورة الزُّمَر، الآية .

[2] سورة الزُّمَر، الآية .

[3] سورة الزُّمَر، الآية .

الزُّمَرُ: الْأَفْوَاجُ الْمُتَفَرِّقَةُ بَعْضُهَا فِي أَثَرِ بَعْضٍ، وَقَدْ تُزَمِّرُوا، قَالَ:

حَتَى احْزَأَلَّتْ زُمَرٌ بَعْدَ زُمَرٍ

وَقِيلَ فِي زُمَرِ الَّذِينَ اتَّقَوْا: هِيَ الطَّبَقَاتُ الْمُخْتَلِفَةُ: الشُّهَدَاءُ، وَالزُّهَّادُ، وَالْعُلَمَاءُ، وَالْقُرَّاءُ وَغَيْرُهُمْ. وَقُرِئَ: (نُذُرٌ مِنْكُمْ).

فَإِنْ قُلْتَ: لِمَ أُضِيفَ إِلَيْهِمُ الْيَوْمَ؟

قُلْتُ: أَرَادُوا لِقَاءَ وَقْتِكُمْ هَذَا، وَهُوَ وَقْتُ دُخُولِهِمُ النَّارَ لَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ. وَقَدْ جَاءَ اسْتِعْمَالُ الْيَوْمِ وَالْأَيَّامِ مُسْتَفِيضًا فِي أَوْقَاتِ الشِّدَّةِ.

﴿قَالُوا بَلَى﴾[1] أَتَوْنَا وَتَلَوْا عَلَيْنَا، وَلَكِنْ وَجَبَتْ عَلَيْنَا كَلِمَةُ اللَّهِ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ، لِسُوءِ أَعْمَالِنَا، كَمَا قَالُوا: غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ. فَذَكَرُوا عَمَلَهُمُ الْمُوجِبَ لِكَلِمَةِ الْعَذَابِ وَهُوَ الْكُفْرُ وَالضَّلَالُ.

وَاللَّامُ فِي الْمُتَكَبِّرِينَ لِلْجِنْسِ، لِأَنَّ ﴿مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾[2] فَاعِلُ بِئْسَ، وَبِئْسَ فَاعِلُهَا: اسْمٌ مُعَرَّفٌ بِلَامِ الْجِنْسِ، أَوْ مُضَافٌ إِلَى مِثْلِهِ، وَالْمَخْصُوصُ بِالذَّمِّ مَحْذُوفٌ، تَقْدِيرُهُ: فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ جَهَنَّمُ.

﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾[3]

﴿حَتَّى﴾[4] هِيَ الَّتِي تُحْكَى بَعْدَهَا الْجُمَلُ، وَالْجُمْلَةُ الْمَحْكِيَّةُ بَعْدَهَا هِيَ الشَّرْطِيَّةُ، إِلَّا أَنَّ جَزَاءَهَا مَحْذُوفٌ، وَإِنَّمَا حُذِفَ، لِأَنَّهُ صِفَةُ ثَوَابِ أَهْلِ الْجَنَّةِ، فَدَلَّ بِحَذْفِهِ عَلَى أَنَّهُ

---

[1] سورة الزُّمَرِ، الآية .

[2] سورة الزُّمَرِ، الآية .

[3] سورة الزُّمَرِ، الآية .

[4] سورة الزُّمَرِ، الآية .

شَيْءٌ لَا يُحِيطُ بِهِ الْوَصْفُ، وَحَقُّ مَوْقِعِهِ مَا بَعْدَ خَالِدِينَ. وَقِيلَ: حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا، وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا، أَيْ: مَعَ فَتْحِ أَبْوَابِهَا. وَقِيلَ: أَبْوَابُ جَهَنَّمَ لَا تُفْتَحُ إِلَّا عِنْدَ دُخُولِ أَهْلِهَا فيها.

وَأَمَّا أَبْوَابُ الْجَنَّةِ فَمُتَقَدِّمٌ فَتْحُهَا، بِدَلِيلِ قَوْلِهِ: ﴿جَنَّاتِ عَدْنٍ مُفَتَّحَةً لَهُمُ الأَبْوَابُ﴾[1]، فَلِذَلِكَ جِيءَ بِالْوَاوِ، كَأَنَّهُ قِيلَ: حَتَّى إِذَا جَاؤُوهَا وَقَدْ فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا.

فَإِنْ قُلْتَ: كَيْفَ عَبَّرَ عَنِ الذَّهَابِ بِالْفَرِيقَيْنِ جَمِيعًا بِلَفْظُ السُّوقِ؟

قُلْتُ: الْمُرَادُ بِسُوقِ أَهْلِ النَّارِ: طَرْدُهُمْ إِلَيْهَا بِالْهَوَانِ وَالْعُنْفِ، كَمَا يَفْعَلُ بِالْأَسَارَى وَالْخَارِجِينَ عَلَى السُّلْطَانِ إِذَا سِيقُوا إِلَى حَبْسٍ أَوْ قَتْلٍ.

وَالْمُرَادُ بِسُوقِ أَهْلِ الْجَنَّةِ: سَوْقُ مَرَاكِبِهِمْ، لِأَنَّهُ لَا يَذْهَبُ بِهِمْ إِلَّا رَاكِبِينَ، وَحَثُّهَا إِسْرَاعًا بِهِمْ إِلَى دَارِ الْكَرَامَةِ وَالرِّضْوَانِ، كَمَا يَفْعَلُ بِمَنْ يُشَرِّفُ وَيُكْرَمُ مِنَ الْوَافِدِينَ عَلَى بَعْضِ الْمُلُوكِ، فَشَتَّانَ مَا بَيْنَ السُّوقَيْنِ.

﴿طِبْتُمْ﴾[2] مِنْ دَنَسِ الْمَعَاصِي. وَطُهِّرْتُمْ مِنْ خُبْثِ الْخَطَايَا، "فَادْخُلُوهَا" جَعَلَ دُخُولَ الْجَنَّةِ مُسَبَّبًا عَنِ الطِّيبِ وَالطَّهَارَةِ، فَمَا هِيَ إِلَّا دَارُ الطَّيِّبِينَ وَمَثْوَى الطَّاهِرِينَ، لِأَنَّهَا دَارٌ طَهَّرَهَا اللَّهُ مَنْ كُلِّ دَنَسٍ، وَطَيَّبَهَا مِنْ كُلِّ قَذَرٍ، فَلَا يَدْخُلُهَا إِلَّا مُنَاسِبٌ لَهَا مَوْصُوفٌ بِصِفَتِهَا، فَمَا أَبْعَدَ أَحْوَالَنَا مِنْ تِلْكَ الْمُنَاسَبَةِ، وَمَا أَضْعَفَ سَعْيَنَا فِي اكْتِسَابِ تِلْكَ الصِّفَةِ، إِلَّا أَنْ يَهَبَ لَنَا الْوَهَّابُ الْكَرِيمُ تَوْبَةً نَصُوحًا، تَقِي أَنْفُسَنَا مِنْ دَرَنِ الذُّنُوبِ، وَتُمِيطُ وَضَرَ هَذِهِ الْقُلُوبِ.

﴿خَالِدِينَ﴾[3] مُقَدِّرِينَ الْخُلُودَ.

﴿الْأَرْضِ﴾[4] عِبَارَةٌ عَنِ الْمَكَانِ الَّذِي أَقَامُوا فيها كَمَا يَشَاءُونَ، تَشَبُّهًا بِحَالِ الْوَارِثِ وَتَصَرُّفِهِ فِيمَا يَرِثُهُ وَاتِّسَاعِهِ فيهِ، وَذَهَابِهِ فِي إِنْفَاقِهِ طُولًا وَعَرْضًا.

فَإِنْ قُلْتَ: مَا مَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿حَيْثُ نَشَاءُ﴾[5]؟ وَهَلْ يَتَبَوَّأُ أَحَدُهُمْ مَكَانَ غَيْرِهِ؟

قُلْتُ: يَكُونُ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ جَنَّةٌ لَا تُوصَفُ سِعَةً وَزِيَادَةً عَلَى الْحَاجَةِ، فَيَتَبَوَّأُ مِنْ جَنَّتِهِ حَيْثُ يَشَاءُ وَلَا يَحْتَاجُ إِلَى جَنَّةِ غَيْرِهِ.

---

[1] سورة الزُّمَر، الآية .

[2] سورة الزُّمَر، الآية .

[3] سورة الزُّمَر، الآية .

[4] سورة الزُّمَر، الآية .

[5] سورة الزُّمَر، الآية .

﴿وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[1]

﴿حَافِينَ﴾[2]، مُحَدِّقِينَ مِنْ حَوْلِهِ.

﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾[3]: يَقُولُونَ: سُبْحَانَ اللَّهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، مُتَلَذِّذِينَ لَا مُتَعَبِّدِينَ.

فَإِنْ قُلْتَ: إِلَامَ يَرْجِعُ الضَّمِيرُ فِي قَوْلِهِ: ﴿بَيْنَهُمْ﴾[4]؟

قُلْتُ: يَجُوزُ أَنْ يَرْجِعَ إِلَى الْعِبَادِ كُلِّهِمْ، وَأَنَّ إِدْخَالَ بَعْضِهِمُ النَّارَ وَبَعْضِهُمُ الْجَنَّةَ لَا يَكُونُ إِلَّا قَضَاءً بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَالْعَدْلِ، وَأَنْ يَرْجِعَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ عَلَى أَنَّ ثَوَابَهُمْ –وَإِنْ كَانُوا مَعْصُومِينَ جَمِيعًا– لَا يَكُونُ عَلَى سَنَنٍ وَاحِدٍ، وَلَكِنْ يُفَاضِلُ بَيْنَ مَرَاتِبِهِمْ عَلَى حَسَبِ تَفَاضُلِهِمْ فِي أَعْمَالِهِمْ، فَهُوَ الْقَضَاءُ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ.

فَإِنْ قُلْتَ: قَوْلُهُ: ﴿وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾[5] مِنَ الْقَائِلِ ذَلِكَ؟

قُلْتُ: الْمَقْضِيُّ بَيْنَهُمْ إِمَّا جَمِيعُ الْعِبَادِ وَإِمَّا الْمَلَائِكَةُ، كَأَنَّهُ قِيلَ: وَقَضَى بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ، وَقَالُوا: الْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى قَضَائِهِ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ، وَإِنْزَالُ كُلٍّ مِنَّا مَنْزِلَتَهُ الَّتِي هِيَ حَقُّهُ.

عَنْ رَسُولِ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: "مَنْ قَرَأَ سُورَةَ الزُّمَرِ لَمْ يَقْطَعِ اللَّهُ رَجَاءَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَأَعْطَاهُ اللَّهُ ثَوَابَ الْخَائِفِينَ الَّذِي خَافُوا".

عَنْ عَائِشَةَ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا–: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَقْرَأُ كُلَّ لَيْلَةٍ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَالزُّمَرَ.

---

[1] سورة الزُّمَرِ، الآية .

[2] سورة الزُّمَرِ، الآية .

[3] سورة الزُّمَرِ، الآية .

[4] سورة الزُّمَرِ، الآية .

[5] سورة الزُّمَرِ، الآية .

# سورة المؤمنون

# سورة المؤمنون

مَكِّيَّةٌ. [قَالَ الْحَسَنُ :إِلَّا قَوْلَهُ: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾[1]
لِأَنَّ الصَّلَوَاتِ نَزَلَتْ بِالْمَدِينَةِ، وَقَدْ قِيلَ فِي الْحَوَامِيمِ كُلِّهَا: إِنَّهَا
مَكِّيَّاتٌ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ وَابْنِ الْحَنَفِيَّةِ ]
وَهِيَ خَمْسٌ وَثَمَانُونَ آيَةً، وَقِيلَ: ثِنْتَانِ وَثَمَانُونَ
[نَزَلَتْ بَعْدَ الزُّمَرِ]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿حم تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ
ذِي الطَّوْلِ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾[2]

قُرِئَ بِإِمَالَةِ أَلِفِ "حا" وَتَفْخِيمِهَا، وَبِتَسْكِينِ الْمِيمِ وَفَتْحِهَا. وَوَجْهُ الْفَتْحِ: التَّحْرِيكُ لِالْتِقَاءِ السَّاكِنَيْنِ، وَإِيثَارِ أَخَفِّ الْحَرَكَاتِ، وَنَحْوُ أَيْنَ وَكَيْفَ، أَوِ النَّصْبِ بِإِضْمَارِ اقْرَأْ، وَمَنْعِ الصَّرْفِ، لِلتَّأْنِيثِ وَالتَّعْرِيفِ أَوْ لِلتَّعْرِيفِ، وَأَنَّهَا عَلَى زِنَةِ أَعْجَمِيٍّ نَحْوُ قَابِيلَ وَهَابِيلَ.

﴿التَّوْبِ﴾[3] وَالثَّوْبِ وَالْأَوْبِ: أَخَوَاتٌ فِي مَعْنَى الرُّجُوعِ.

وَ﴿الطَّوْلِ﴾[4]: وَالْفَضْلُ وَالزِّيَادُ. يُقَالُ: لِفُلَانٍ عَلَى فُلَانٍ طَوْلٌ، وَالْإِفْضَالُ. يُقَالُ: طَالَ عَلَيْهِ وَتَطَوَّلَ، إِذَا تَفَضَّلَ.

---

1 سورة الْمُؤْمِنِ، الآية .
2 سورة الْمُؤْمِنِ، الآية .
3 سورة الْمُؤْمِنِ، الآية .
4 سورة الْمُؤْمِنِ، الآية .

فَإِنْ قُلْتَ: كَيْفَ اخْتَلَفَتْ هَذِهِ الصِّفَاتُ تَعْرِيفًا وَتَنْكِيرًا، وَالْمَوْصُوفُ مَعْرِفَةٌ يَقْتَضِي أَنْ يَكُونَ مِثْلُهُ مَعَارِفَ؟

قُلْتُ: أَمَّا ﴿غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ﴾[1] فَمَعْرِفَتَانِ، لِأَنَّهُ لَمْ يَرِدْ بِهِمَا حُدُوثُ الْفِعْلَيْنِ، وَأَنَّهُ يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَقْبَلُ التَّوْبَ الْآنَ، أَوْ غَدًا، حَتَّى يَكُونَا فِي تَقْدِيرِ الِانْفِصَالِ، فَتَكُونُ إِضَافَتُهُمَا غَيْرَ حَقِيقِيَّةٍ، وَإِنَّمَا أُرِيدَ ثُبُوتُ ذَلِكَ وَدَوَامُهُ، فَكَانَ حُكْمُهُمَا حُكْمَ إِلَهِ الْخَلْقِ وَرَبِّ الْعَرْشِ، وَأَمَّا شَدِيدُ الْعِقَابِ فَأَمْرُهُ مُشْكِلٌ، لِأَنَّهُ فِي تَقْدِيرِ: شَدِيدٌ عِقَابُهُ لَا يَنْفَكُّ مِنْ هَذَا التَّقْدِيرِ، وَقَدْ جَعَلَهُ الزَّجَّاجُ بَدَلًا، وَفِي كَوْنِهِ بَدَلًا وَحْدَهُ بَيْنَ الصِّفَاتِ نُبُوٌّ ظَاهِرٌ.

وَالْوَجْهُ أَنْ يُقَالَ: لَمَّا صُودِفَ بَيْنَ هَؤُلَاءِ الْمَعَارِفِ هَذِهِ النَّكِرَةُ الْوَاحِدَةُ، فَقَدْ آذَنَتْ بِأَنَّ كُلَّهَا أَبْدَالٌ غَيْرُ أَوْصَافٍ، وَمِثَالُ ذَلِكَ قَصِيدَةٌ جَاءَتْ تَفَاعِيلُهَا كُلُّهَا عَلَى مُسْتَفْعِلُنْ، فَهِيَ مَحْكُومٌ عَلَيْهَا بِأَنَّهَا مِنْ بَحْرِ الرَّجَزِ، فَإِنْ وَقَعَ فيها جُزْءٌ وَاحِدٌ عَلَى مُتَفَاعِلُنْ كَانَتْ مِنَ الْكَامِلِ.

وَلِقَائِلٍ أَنْ يَقُولَ: هِيَ صِفَاتٌ، وَإِنَّمَا مَحْذُوفُ الْأَلِفِ وَاللَّامِ مِنْ ﴿شَدِيدِ الْعِقَابِ﴾[2] لِيُزَاوِجَ مَا قَبْلَهُ وَمَا بَعْدَهُ لَفْظًا، فَقَدْ غَيَّرُوا كَثِيرًا مِنْ كَلَامِهِمْ عَنْ قَوَانِينِهِ لِأَجْلِ الِازْدِوَاجِ، حَتَّى قَالُوا: مَا يُعْرَفُ سَحَادِلِيهِ مِنْ عَنَادِلِيهِ، فَثَنَّوا مَا هُوَ وِتْرٌ لِأَجْلِ مَا هُوَ شَفْعٌ، عَلَى أَنَّ الْخَلِيلَ قَالَ –فِي قَوْلِهِمْ: مَا يَحْسُنُ بِالرَّجُلِ مِثْلُكَ أَنْ يَفْعَلَ ذَلِكَ، وَمَا يَحْسُنُ بِالرَّجُلِ خَيْرٌ مِنْكَ أَنْ يَفْعَلَ–: أَنَّهُ عَلَى نِيَّةِ الْأَلِفِ وَاللَّامِ، كَمَا كَانَ الْجَمَاءُ الْغَفِيرُ عَلَى نِيَّةِ طَرْحِ الْأَلِفِ وَاللَّامِ، وَمِمَّا سَهَّلَ ذَلِكَ الْأَمْنُ مِنَ اللَّبْسِ وَجَهَالَةُ الْمَوْصُوفِ.

وَيَجُوزُ أَنْ يُقَالَ: قَدْ تَعَمَّدَ تَنْكِيرَهُ، وَإِبْهَامَهُ لِلدَّلَالَةِ عَلَى فَرْطِ الشِّدَّةِ وَعَلَى مَا لَا شَيْءَ أَدْهَى مِنْهُ وَأَمَرَّ لِزِيَادَةِ الْإِنْذَارِ. وَيَجُوزُ أَنْ يُقَالَ: هَذِهِ النُّكْتَةُ هِيَ الدَّاعِيَةُ إِلَى اخْتِيَارِ الْبَدَلِ عَلَى الْوَصْفِ إِذَا سَلَكَتْ طَرِيقَةَ الْإِبْدَالِ.

فَإِنْ قُلْتَ: مَا بَالُ الْوَاوِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَقَابِلِ التَّوْبِ﴾؟

قُلْتُ: فيها نُكْتَةٌ جَلِيلَةٌ، وَهِيَ إِفَادَةُ الْجَمْعِ لِلْمُذْنِبِ التَّائِبِ بَيْنَ رَحْمَتَيْنِ: بَيْنَ أَنْ يَقْبَلَ تَوْبَتَهُ فيكْتُبُهَا لَهُ طَاعَةً مِنَ الطَّاعَاتِ. وَأَنْ يَجْعَلَهَا مَحَاءَةً لِلذُّنُوبِ، كَأَنْ لَمْ يُذْنِبْ، كَأَنَّهُ قَالَ: جَامِعُ الْمَغْفِرَةِ وَالْقَبُولِ.

---

[1] سورة الْمُؤْمِن، الآية .

[2] سورة الْمُؤْمِن، الآية .

وَرُوِيَ أَنَّ عُمَرَ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ– افْتَقَدَ رَجُلًا ذَا بَأْسٍ شَدِيدٍ مِنْ أَهْلِ الشَّامِ، فَقِيلَ لَهُ: تُتَابِعُ فِي هَذَا الشَّرَابِ، فَقَالَ عُمَرُ لِكَاتِبِهِ: اكْتُبْ، مِنْ عُمَرَ إِلَى فُلَانٍ: سَلَامٌ عَلَيْكَ، وَأَنَا أَحْمَدُ إِلَيْكَ اللَّهَ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿حَمْ﴾[1] إِلَى قَوْلِهِ: ﴿إِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾[2].

وَخَتَمَ الْكِتَابَ، وَقَالَ لِرَسُولِهِ: لَا تَدْفَعْهُ إِلَيْهِ حَتَّى تَجِدَهُ صَاحِيًا، ثُمَّ أَمَرَ مِنْ عِنْدَهُ بِالدُّعَاءِ لَهُ بِالتَّوْبَةِ، فَلَمَّا أَتَتْهُ الصَّحِيفَةُ جَعَلَ يَقْرَؤُهَا وَيَقُولُ: قَدْ وَعَدَنِي اللَّهُ أَنْ يَغْفِرَ لِي، وَحَذَّرَنِي عِقَابَهُ، فَلَمْ يَبْرَحْ يُرَدِّدُهَا حَتَّى بَكَى ثُمَّ نَزَعَ فَأَحْسَنَ النُّزُوعَ وَحَسُنَتْ تَوْبَتُهُ، فَلَمَّا بَلَغَ عُمَرَ أَمْرُهُ قَالَ: هَكَذَا فَاصْنَعُوا، إِذَا رَأَيْتُمْ أَخَاكُمْ قَدْ زَلَّ فَسَدِّدُوهُ وَوَقِّفُوهُ، وَادْعُوا لَهُ اللَّهَ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِ، وَلَا تَكُونُوا أَعْوَانًا لِلشَّيَاطِينِ عَلَيْهِ.

## ﴿مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلادِ﴾[3]

سَجَّلَ عَلَى الْمُجَادِلِينَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِالْكُفْرِ، وَالْمُرَادُ: الْجِدَالُ بِالْبَاطِلِ، مِنَ الطَّعْنِ فِيهَا، وَالْقَصْدِ إِلَى إِدْحَاضِ الْحَقِّ وَإِطْفَاءِ نُورِ اللَّهِ، وَقَدْ دَلَّ عَلَى ذَلِكَ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ﴾[4].

أَمَّا الْجِدَالُ فِيهَا لِإِيضَاحِ مُلْتَبِسِهَا وَحَلِّ مُشْكِلِهَا وَمُقَادَحَةِ أَهْلِ الْعِلْمِ فِي اسْتِنْبَاطِ مَعَانِيهَا وَرَدِّ أَهْلِ الزَّيْغِ بِهَا وَعَنْهَا، فَأَعْظَمُ جِهَادٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَقَوْلُهُ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: "إِنَّ جِدَالًا فِي الْقُرْآنِ كُفْرٌ"، وَإِيرَادُهُ مُنْكَرًا، وَإِنْ لَمْ يَقُلْ: إِنَّ الْجِدَالَ ، تَمْيِيزٌ مِنْهُ بَيْنَ جِدَالٍ وَجِدَالٍ.

فَإِنْ قُلْتَ: مِنْ أَيْنَ تُسَبِّبَ لِقَوْلِهِ: ﴿فَلا يَغْرُرْكَ﴾[5] مَا قَبْلَهُ؟

---

1 سورة الْمُؤْمِنِ، الآية .

2

3 سورة الْمُؤْمِنِ، الآية .

4 سورة الْمُؤْمِنِ، الآية .

5 سورة الْمُؤْمِنِ، الآية .

قُلْتُ: مِنْ حَيْثُ إِنَّهُمْ لَمَّا كَانُوا مَشْهُودًا عَلَيْهِمْ مِنْ قِبَلِ اللَّهِ بِالْكُفْرِ، وَالْكَافِرُ لَا أَحَدَ أَشْقَى مِنْهُ عِنْدَ اللَّهِ؛ وَجَبَ عَلَى مَنْ تَحَقَّقَ ذَلِكَ أَنْ لَا تُرَجَّحَ أَحْوَالُهُمْ فِي عَيْنِهِ، وَلَا يُغْرِهِ إِقْبَالُهُمْ فِي دُنْيَاهُمْ وَتَقَلُّبِهِمْ فِي الْبِلَادِ بِالتِّجَارَاتِ النَّافِقَةِ وَالْمَكَاسِبِ الْمُرْبِحَةِ، وَكَانَتْ قُرَيْشٌ كَذَلِكَ يَتَقَلَّبُونَ فِي بِلَادِ الشَّامِ وَالْيَمَنِ، وَلَهُمُ الْأَمْوَالُ يَتَّجِرُونَ فِيهَا وَيَتَرَبَّحُونَ، فَإِنَّ مَصِيرَ ذَلِكَ وَعَاقِبَتَهُ إِلَى الزَّوَالِ، وَوَرَاءَهُ شَقَاوَةُ الْأَبَدِ. ثُمَّ ضَرَبَ لِتَكْذِيبِهِمْ وَعَدَاوَتِهِمْ لِلرُّسُلِ وَجِدَالِهِمْ بِالْبَاطِلِ وَمَا ادَّخَرَ لَهُمْ مِنْ سُوءِ الْعَاقِبَةِ مَثَلًا: مَا كَانَ مِنْ نَحْوِ ذَلِكَ مِنَ الْأُمَمِ، وَمَا أَخَذَهُمْ بِهِ مِنْ عِقَابِهِ وَأَحَلَّهُ بِسَاحَتِهِمْ مِنِ انْتِقَامِهِ. وَقُرِئَ: (فَلَا يَغُرُّكَ).

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾[1]

﴿الْأَحْزَابُ﴾[2] الَّذِينَ تَحَزَّبُوا عَلَى الرُّسُلِ وَنَاصَبُوهُمْ وَهُمْ عَادٌ وَثَمُودُ وَفِرْعَوْنُ وَغَيْرُهُمْ.

﴿وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ﴾[3] مِنْ هَذِهِ الْأُمَمِ الَّتِي هِيَ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ.

﴿بِرَسُولِهِمْ﴾[4]، وَقُرِئَ: (بِرَسُولِهَا).

﴿لِيَأْخُذُوهُ﴾[5] لِيَتَمَكَّنُوا مِنْهُ، وَمِنَ الْإِيقَاعِ بِهِ وَإِصَابَتِهِ بِمَا أَرَادُوا مِنْ تَعْذِيبٍ أَوْ قَتْلٍ. وَيُقَالُ لِلْأَسِيرِ: أَخِيذٌ.

﴿فَأَخَذْتُهُمْ﴾[6]، يَعْنِي: أَنَّهُمْ قَصَدُوا أَخْذَهُ، فَجَعَلْتُ جَزَاءَهُمْ عَلَى إِرَادَةِ أَخْذِهِ أَنْ أَخَذْتُهُمْ.

---

1 سورة الْمُؤْمِن، الآية .
2 سورة الْمُؤْمِن، الآية .
3 سورة الْمُؤْمِن، الآية .
4 سورة الْمُؤْمِن، الآية .
5 سورة الْمُؤْمِن، الآية .
6 سورة الْمُؤْمِن، الآية .

﴿فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾[1]، فَإِنَّكُمْ تَمُرُّونَ عَلَى بِلَادِهِمْ وَمَسَاكِنِهِمْ فَتُعَايِنُونَ أَثَرَ ذَلِكَ، وَهَذَا تَقْرِيرٌ فيهِ مَعْنَى التَّعْجِيبِ.

﴿وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾[2]

(مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ) في مَحَلِّ الرَّفْعِ بَدَلٌ مِنْ ﴿كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾[3]، أَيْ: مِثْلُ ذَلِكَ الْوُجُوبِ وَجَبَ عَلَى الْكَفَرَةِ كَوْنَهُمْ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ.

وَمَعْنَاهُ: كَمَا وَجَبَ إِهْلَاكُهُمْ في الدُّنْيَا بِالْعَذَابِ الْمُسْتَأْصَلِ، كَذَلِكَ وَجَبَ إِهْلَاكُهُمْ بِعَذَابِ النَّارِ في الْآخِرَةِ، أَوْ في مَحَلِّ النَّصْبِ بِحَذْفِ لَامِ التَّعْلِيلِ وَإِيصَالِ الْفِعْلِ.

وَالَّذِينَ كَفَرُوا: قُرَيْشٌ، وَمَعْنَاهُ، كَمَا وَجَبَ إِهْلَاكُ أُولَئِكَ الْأُمَمِ، كَذَلِكَ وَجَبَ إِهْلَاكُ هَؤُلَاءِ، لِأَنَّ عِلَّةً وَاحِدَةً تَجْمَعُهُمْ أَنَّهُمْ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ. وَقُرِئَ: (كَلِمَاتُ).

﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾[4]

رُوِيَ: أَنَّ حَمَلَةَ الْعَرْشِ أَرْجُلُهُمْ في الْأَرْضِ السُّفْلَى وَرُءُوسُهُمْ قَدْ خَرَقَتِ الْعَرْشَ، وَهُمْ خُشُوعٌ لَا يَرْفَعُونَ طَرْفَهُمْ.

وَعَنِ النَّبِيِّ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: "لَا تَتَفَكَّرُوا في عِظَمِ رَبِّكُمْ وَلَكِنْ تَفَكَّرُوا فيمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنَ الْمَلَائِكَةِ، فَإِنَّ خَلْقًا مِنَ الْمَلَائِكَةِ يُقَالُ لَهُ: إِسْرَافِيلُ، زَاوِيَةٌ مِنْ زَوَايَا الْعَرْشِ

---

[1] سورة الْمُؤْمِن، الآية .

[2] سورة الْمُؤْمِن، الآية .

[3] سورة الْمُؤْمِن، الآية .

[4] سورة الْمُؤْمِن، الآية .

عَلَى كَاهِلِهِ، وَقَدَمَاهُ فِي الْأَرْضِ السُّفْلَى، وَقَدْ مَرَقَ رَأْسُهُ مِنْ سَبْعِ سَمَاوَاتٍ، وَإِنَّهُ لَيَتَضَاءَلُ مِنْ عَظَمَةِ اللَّهِ حَتَّى يَصِيرَ كَأَنَّهُ الْوَصْعُ".

وَفِي الْحَدِيثِ: "إِنَّ اللَّهَ –تَعَالَى– أَمَرَ جَمِيعِ الْمَلَائِكَةِ أَنْ يَغْدُوا وَيَرُوحُوا بِالسَّلَامِ عَلَى حَمَلَةِ الْعَرْشِ تَفْضِيلًا لَهُمْ عَلَى سَائِرِ الْمَلَائِكَةِ".

وَقِيلَ: خَلَقَ اللَّهُ الْعَرْشَ مِنْ جَوْهَرَةٍ خَضْرَاءَ، وَبَيْنَ الْقَائِمَتَيْنِ مِنْ قَوَائِمِهِ خَفَقَانُ الطَّيْرِ الْمُسْرِعِ ثَمَانِينَ أَلْفَ عَامٍ. وَقِيلَ: حَوْلَ الْعَرْشِ سَبْعُونَ أَلْفَ صِنْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ، يَطُوفُونَ بِهِ مُهَلِّلِينَ مُكَبِّرِينَ، وَمِنْ وَرَائِهِمْ سَبْعُونَ أَلْفَ صَفٍّ قِيَامٌ قَدْ وَضَعُوا أَيْدِيَهُمْ عَلَى عَوَاتِقِهِمْ رَافِعِينَ أَصْوَاتَهُمْ بِالتَّهْلِيلِ وَالتَّكْبِيرِ، وَمِنْ وَرَائِهِمْ مِائَةُ أَلْفِ صَفٍّ قَدْ وَضَعُوا الْأَيْمَانَ عَلَى الشَّمَائِلِ، مَا مِنْهُمْ أَحَدٌ إِلَّا وَهُوَ يَسْبَحُ بِمَا لَا يَسْبَحُ بِهِ الْآخَرُ.

وَقَرَأَ ابْنُ عَبَّاسٍ: (الْعُرْشِ) بِضَمِّ الْعَيْنِ.

فَإِنْ قُلْتَ: مَا فَائِدَةُ قَوْلِهِ: ﴿وَيُؤْمِنُونَ بِهِ﴾[1]، وَلَا يَخْفى عَلَى أَحَدٍ أَنَّ حَمَلَةَ الْعَرْشِ وَمَنْ حَوْلَهُ مِنَ الْمَلَائِكَةِ الَّذِينَ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ مُؤْمِنُونَ؟

قُلْتُ: فَائِدَتُهُ إِظْهَارُ شَرَفِ الْإِيمَانِ وَفَضْلِهِ، وَالتَّرْغِيبِ فيهِ، كَمَا وَصَفَ الْأَنْبِيَاءَ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ مِنْ كِتَابِهِ بِالصَّلَاحِ لِذَلِكَ، وَكَمَا عَقَّبَ أَعْمَالَ الْخَيْرِ بِقَوْلِهِ –تَعَالَى–: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾[2]، فَأَبَانَ بِذَلِكَ فَضْلَ الْإِيمَانِ.

وَفَائِدَةٌ أُخْرَى: وَهِيَ التَّنْبِيهُ عَلَى أَنَّ الْأَمْرَ لَوْ كَانَ كَمَا تَقُولُ الْمُجَسِّمَةُ لَكَانَ حَمَلَةُ الْعَرْشِ وَمَنْ حَوْلَهُ مُشَاهِدِينَ مُعَايِنِينَ، وَلَمَا وُصِفُوا بِالْإِيمَانِ، لِأَنَّهُ إِنَّمَا يُوصَفُ بِالْإِيمَانِ: الْغَائِبُ، فَلَمَّا وُصِفُوا بِهِ عَلَى سَبِيلِ الثَّنَاءِ عَلَيْهِمْ عُلِمَ أَنَّ إِيمَانَهُمْ وَإِيمَانَ مَنْ فِي الْأَرْضِ وَكُلَّ مَنْ غَابَ عَنْ ذَلِكَ الْمَقَامِ سَوَاءٌ: فِي أَنَّ إِيمَانَ الْجَمِيعِ بِطَرِيقِ النَّظَرِ وَالِاسْتِدْلَالِ لَا غَيْرُ، وَأَنَّهُ لَا طَرِيقَ إِلَى مَعْرِفَتِهِ إِلَّا هَذَا، وَأَنَّهُ مُنَزَّهٌ عَنْ صِفَاتِ الْإِجْرَامِ.

وَقَدْ رُوعِيَ التَّنَاسُبُ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَيُؤْمِنُونَ بِهِ ، وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾[3]، كَأَنَّهُ قِيلَ: وَيُؤْمِنُونَ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي مِثْلِ حَالِهِمْ وَصِفَتِهِمْ. وَفِيهِ تَنْبِيهٌ عَلَى أَنَّ الِاشْتِرَاكَ فِي الْإِيمَانِ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ أَدْعَى شَيْءٍ إِلَى النَّصِيحَةِ، وَأَبْعَثُهُ عَلَى إِمْحَاضِ الشَّفَقَةِ وَإِنْ تَفَاوَتَتِ الْأَجْنَاسُ وَتَبَاعَدَتِ الْأَمَاكِنُ. فَإِنَّهُ لَا تَجَالُسَ بَيْنَ مَلَكٍ وَإِنْسَانٍ، وَلَا بَيْنَ سَمَاوِيٍّ وَأَرْضِيٍّ

---

[1] سورة الْمُؤْمِن، الآية .

[2] سورة الْبَلَدُ، الآية 17.

[3] سورة الْمُؤْمِن، الآية .

قَطُّ، ثُمَّ لَمَّا جَاءَ الْإِيمَانُ جَاءَ مَعَهُ التَّجَانُسُ الْكُلِّيُّ وَالتَّنَاسُبُ الْحَقِيقِيُّ، حَتَّى اسْتَغْفَرَ مَنْ حَوْلَ الْعَرْشِ لِمَنْ فَوْقَ الْأَرْضِ.

قَالَ اللَّهُ -تَعَالَى-: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الأَرْضِ﴾[1]، أَيْ: يَقُولُونَ: ﴿رَبَّنَا﴾[2]. وَهَذَا الْمُضْمَرُ يُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ بَيَانًا لِيَسْتَغْفِرُونَ مَرْفُوعٌ مِثْلَهُ، وَأَنْ يَكُونَ حَالًا.

فَإِنْ قُلْتَ: تَعَالَى اللَّهُ عَنِ الْمَكَانِ، فَكَيْفَ صَحَّ أَنْ يُقَالَ: وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ؟

قُلْتُ: الرَّحْمَةُ وَالْعِلْمُ هُمَا اللَّذَانِ وَسِعَا كُلَّ شَيْءٍ فِي الْمَعْنَى. وَالْأَصْلُ: وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَتُكَ وَعِلْمُكَ، وَلَكِنْ أُزِيلَ الْكَلَامُ عَنْ أَصْلِهِ بِأَنْ أَسْنَدَ الْفِعْلَ إِلَى صَاحِبِ الرَّحْمَةِ وَالْعِلْمِ، وَأُخْرِجَا مَنْصُوبَيْنِ عَلَى التَّمْيِيزِ لِلْإِغْرَاقِ فِي وَصْفِهِ بِالرَّحْمَةِ وَالْعِلْمِ، كَأَنَّ ذَاتَهُ رَحْمَةٌ وَعِلْمٌ وَاسِعَانِ كُلَّ شَيْءٍ.

فَإِنْ قُلْتَ: قَدْ ذَكَرَ الرَّحْمَةَ وَالْعِلْمَ؛ فَوَجَبَ أَنْ يَكُونَ مَا بَعْدَ الْفَاءِ مُشْتَمِلًا عَلَى حَدِيثِهِمَا جَمِيعًا، وَمَا ذَكَرَ إِلَّا الْغُفْرَانَ وَحْدَهُ؟

قُلْتُ: مَعْنَاهُ: فَاغْفِرْ لِلَّذِينِ عَلِمْتَ مِنْهُمُ التَّوْبَةَ وَاتِّبَاعَ سَبِيلِكَ. وَسَبِيلُ اللَّهِ: سَبِيلُ الْحَقِّ الَّتِي نَهَجَهَا لِعِبَادِهِ وَدَعَا إِلَيْهَا.

﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[3]، أَيِ: الْمَلِكُ الَّذِي لَا يَغْلِبُ، وَأَنْتَ مَعَ مُلْكِكَ وَعِزَّتِكَ لَا تَفْعَلُ شَيْئًا إِلَّا بِدَاعِي الْحِكْمَةِ، وَمُوجِبِ حِكْمَتِكَ أَنْ تَفِي بِوَعْدِكَ.

﴿وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ﴾[4]، أَيِ: الْعُقُوبَاتُ، أَوْ جَزَاءَ السَّيِّئَاتِ. فَحَذَفَ الْمُضَافَ عَلَى أَنَّ السَّيِّئَاتِ، هِيَ الصَّغَائِرُ أَوِ الْكَبَائِرُ الْمَتُوبُ عَنْهَا. وَالْوِقَايَةُ مِنْهَا: التَّكْفِيرُ أَوْ قَبُولُ التَّوْبَةِ.

فَإِنْ قُلْتَ: مَا الْفَائِدَةُ فِي اسْتِغْفَارِهِمْ لَهُمْ وَهُمْ تَائِبُونَ صَالِحُونَ مَوْعُودُونَ الْمَغْفِرَةِ وَاللَّهُ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ؟

قُلْتُ: هَذَا بِمَنْزِلَةِ الشَّفَاعَةِ، وَفَائِدَتُهُ زِيَادَةُ الْكَرَامَةِ وَالثَّوَابِ. وَقُرِئَ: (جَنَّةَ عَدْنٍ) وَ(صُلُحَ) بِضَمِّ اللَّامِ، وَالْفَتْحُ أَفْصَحُ. يُقَالُ: صَلَحَ فَهُوَ صَالِحٌ، وَصَلَحَ فَهُوَ صَلِيحٌ، وَ(ذُرِّيَّتَهُمْ).

---

[1] سورة الشُّورَى، الآية 55.

[2] سورة الْمُؤْمِن، الآية .

[3] سورة الْمُؤْمِن، الآية .

[4] سورة الْمُؤْمِن، الآية .

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ ذَلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ﴾[1]

أَيْ: يُنَادُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فيقَالُ لَهُمْ: ﴿لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾[2]، وَالتَّقْدِيرِ: لَمَقْتُ اللَّهِ أَنْفُسَكُمْ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ، فَاسْتَغْنَى بِذِكْرِهَا مَرَّةً.

وَ﴿إِذْ تُدْعَوْنَ﴾[3] مَنْصُوبٌ بِالْمَقْتِ الْأَوَّلِ. وَالْمَعْنَى: أَنَّهُ يُقَالُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: كَأَنَّ اللَّهَ يَمْقُتُ أَنْفُسَكُمُ الْأَمَّارَةَ بِالسُّوءِ وَالْكُفْرِ، حِينَ كَانَ الْأَنْبِيَاءُ يَدْعُونَكُمْ إِلَى الْإِيمَانِ، فَتَأْبَوْنَ قَبُولَهُ وَتَخْتَارُونَ عَلَيْهِ الْكُفْرَ أَشَدَّ مِمَّا تَمْقُتُونَهُنَّ الْيَوْمَ وَأَنْتُمْ فِي النَّارِ إِذَا أَوْقَعَتْكُمْ فيها بِاتِّبَاعِكُمْ هَوَاهُنَّ.

وَعَنِ الْحَسَنِ: لَمَّا رَأَوْا أَعْمَالَهُمُ الْخَبِيثَةَ مَقَتُوا أَنْفُسَهُمْ، فَنُودُوا لَمَقْتُ اللَّهِ.

وَقِيلَ: مَعْنَاهُ: لَمَقْتُ اللَّهِ إِيَّاكُمُ الْآنَ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ، كَقَوْلِهِ –تَعَالَى– : ﴿يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا﴾[4].

وَ﴿إِذْ تُدْعَوْنَ﴾[5]: تَعْلِيلٌ، وَالْمَقْتُ: أَشَدُّ الْبُغْضِ، فَوُضِعَ فِي مَوْضِعٍ أَبْلَغَ الْإِنْكَارَ وَأَشَدَّهُ.

﴿اثْنَتَيْنِ﴾[6] إِمَاتَتَيْنِ وَإِحْيَاءَتَيْنِ، أَوْ مَوْتَتَيْنِ وَحَيَاتَيْنِ، وَأَرَادَ بِالْإِمَاتَتَيْنِ: خَلْقَهُمْ أَمْوَاتًا أَوَّلًا، وَإِمَاتَتَهُمْ عِنْدَ انْقِضَاءِ آجَالِهِمْ، وَبِالْإِحْيَاءَةِ الْإِحْيَاءَةُ الْأُولَى وَإِحْيَاءَهُ الْبَعْثِ. وَنَاهِيكَ تَفْسِيرًا لِذَلِكَ قَوْلُهُ –تَعَالَى–: ﴿وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾[7].

وَكَذَا عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا–.

فَإِنْ قُلْتَ: كَيْفَ صَحَّ أَنْ يُسَمَّى خَلْقَهُمْ أَمْوَاتًا: إِمَاتَةً؟

---

1 سورة الْمُؤْمِن، الآية .

2 سورة الْمُؤْمِن، الآية .

3 سورة الْمُؤْمِن، الآية .

4 سورة الْعَنْكَبُوت، الآية 25.

5 سورة الْمُؤْمِن، الآية .

6 سورة الْمُؤْمِن، الآية .

7 سورة الْبَقَرَة، الآية 28.

قُلْتُ: كَمَا صَحَّ أَنْ تَقُولَ: سُبْحَانَ مَنْ صَغَّرَ جِسْمَ الْبَعُوضَةِ وَكَبَّرَ جِسْمَ الْفِيلِ! وَقَوْلُكَ لِلْحَفَّارِ: ضَيِّقْ فَمَ الرَّكِيَّةِ وَوَسِّعْ أَسْفَلَهَا، وَلَيْسَ ثَمَّ نَقْلٌ مِنْ كِبَرٍ إِلَى صِغَرٍ وَلَا مِنْ صِغَرٍ إِلَى كِبَرٍ، وَلَا مِنْ ضَيِّقٍ إِلَى سِعَةٍ، وَلَا مِنْ سِعَةٍ إِلَى ضَيِّقٍ، وَإِنَّمَا أَرَدْتُ الْإِنْشَاءَ عَلَى تِلْكَ الصِّفَاتِ، وَالسَّبَبُ فِي صِحَّتِهِ أَنَّ الصِّغَرَ وَالْكِبْرَ جَائِزٌ مَعًا عَلَى الْمَصْنُوعِ الْوَاحِدِ، مِنْ غَيْرِ تَرَجُّحٍ لِأَحَدِهِمَا، وَكَذَلِكَ الضِّيقُ وَالسِّعَةُ.

فَإِذَا اخْتَارَ الصَّانِعُ أَحَدَ الْجَائِزَيْنِ، وَهُوَ مُتَمَكِّنٌ مِنْهُمَا عَلَى السَّوَاءِ فَقَدْ صَرَفَ الْمَصْنُوعَ عَنِ الْجَائِزِ الْآخَرِ، فَجَعَلَ صَرْفَهُ عَنْهُ كَنَقْلِهِ مِنْهُ، وَمَنْ جَعَلَ الْإِمَاتَتَيْنِ الَّتِي بَعْدَ حَيَاةِ الدُّنْيَا وَالَّتِي بَعْدَ حَيَاةِ الْقَبْرِ لَزِمَهُ ثَلَاثُ إِحْيَاآتٍ، وَهُوَ خِلَافُ مَا فِي الْقُرْآنِ، إِلَّا أَنْ يَتَمَحَّلَ فيجْعَلَ إِحْدَاهَا غَيْرَ مُعْتَدٍّ بِهَا، أَوْ يَزْعُمُ أَنَّ اللَّهَ –تَعَالَى– يُحْيِيهِمْ فِي الْقُبُورِ، وَتَسْتَمِرُّ بِهِمْ تِلْكَ الْحَيَاةُ فَلَا يَمُوتُونَ بَعْدَهَا، وَيَعُدُّهُمْ فِي الْمُسْتَثْنَيَيْنِ مِنَ الصَّعْقَةِ فِي قَوْلِهِ –تَعَالَى– : ﴿إِلا مَنْ شَاءَ اللَّهُ﴾[1].

فَإِنْ قُلْتَ: كَيْفَ تُسَبِّبَ هَذَا لِقَوْلِهِ –تَعَالَى–: ﴿فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا﴾[2]؟

قُلْتُ: قَدْ أَنْكَرُوا الْبَعْثَ فَكَفَرُوا، وَتَبِعَ ذَلِكَ مِنَ الذُّنُوبِ مَا لَا يُحْصَى، لِأَنَّ مَنْ لَمْ يَخْشَ الْعَاقِبَةَ تَخْرُقُ فِي الْمَعَاصِي، فَلَمَّا رَأَوُا الْإِمَاتَةَ وَالْإِحْيَاءَ قَدْ تَكَرَّرَا عَلَيْهِمْ، عَلِمُوا بِأَنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى الْإِعَادَةِ قُدْرَتُهُ عَلَى الْإِنْشَاءِ، فَاعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمُ الَّتِي اقْتَرَفُوهَا مِنْ إِنْكَارِ الْبَعْثِ وَمَا تَبِعَهُ مِنْ مَعَاصِيهِمْ.

﴿فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ﴾[3]، أَيْ: إِلَى نَوْعٍ مِنَ الْخُرُوجِ سَرِيعٍ أَوْ بَطِيءٍ.

﴿مِنْ سَبِيلٍ﴾[4] قَطُّ، أَمِ الْيَأْسُ وَاقِعٌ دُونَ ذَلِكَ، فَلَا خُرُوجَ وَلَا سَبِيلَ إِلَيْهِ. وَهَذَا كَلَامُ مَنْ غُلِبَ عَلَيْهِ الْيَأْسُ وَالْقُنُوطُ، وَإِنَّمَا يَقُولُونَ ذَلِكَ تَعْلُّلًا وَتَحَيُّرًا، وَلِهَذَا جَاءَ الْجَوَابُ عَلَى حَسَبِ ذَلِكَ، وَهُوَ قَوْلُهُ: "ذَلِكُمْ" أَيْ: ذَلِكُمُ الَّذِي أَنْتُمْ فيهِ، وَأَنْ لَا سَبِيلَ لَكُمْ أَيْ خُرُوجٌ قَطُّ بِسَبَبِ كُفْرِكُمْ بِتَوْحِيدِ اللَّهِ وَإِيمَانِكُمْ بِالْإِشْرَاكِ بِهِ.

﴿فَالْحُكْمُ لِلَّهِ﴾[5] حَيْثُ حُكِمَ عَلَيْكُمْ بِالْعَذَابِ السَّرْمَدِ.

---

[1] سورة النَّمْلُ، الآية 78.

[2] سورة الْمُؤْمِنِ، الآية .

[3] سورة الْمُؤْمِنِ، الآية .

[4] سورة الْمُؤْمِنِ، الآية .

[5] سورة الْمُؤْمِنِ، الآية .

وَقَوْلُهُ: ﴿الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ﴾[1] دَلَالَةٌ عَلَى الْكِبْرِيَاءِ وَالْعَظَمَةِ، وَعَلَى أَنَّ عِقَابَ مِثْلِهِ لَا يَكُونُ إِلَّا كَذَلِكَ، وَهُوَ الَّذِي يُطَابِقُ كِبْرِيَاءَهُ وَيُنَاسِبُ جَبَرُوتَهُ. وَقِيلَ: كَأَنَّ الْحَرُورِيَّةَ أَخَذُوا قَوْلَهُمْ: لَا حُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ، مِنْ هَذَا.

﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلا مَنْ يُنِيبُ فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾[2]

﴿يُرِيكُمْ آيَاتِهِ﴾[3] مِنَ الرِّيحِ وَالسَّحَابِ وَالرَّعْدِ وَالْبَرْقِ وَالصَّوَاعِقِ وَنَحْوِهَا.

وَالرِّزْقُ: الْمَطَرُ، لِأَنَّهُ سَبَبُهُ.

﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلا مَنْ يُنِيبُ﴾[4]: وَمَا يَتَّعِظُ وَمَا يَعْتَبِرُ بِآيَاتِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ يَتُوبُ مِنَ الشِّرْكِ وَيَرْجِعُ إِلَى اللَّهِ، فَإِنَّ الْمُعَانِدَ لَا سَبِيلَ إِلَى تَذَكُّرِهِ وَاتِّعَاظِهِ، ثُمَّ قَالَ لِلْمُنِيبِينَ: ﴿فَادْعُوا اللَّهَ﴾[5]، أَيِ: اعْبُدُوهُ.

﴿مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾[6] مِنَ الشِّرْكِ، وَأَنْ غَاظَ ذَلِكَ أَعْدَاءَكُمْ مِمَّنْ لَيْسَ عَلَى دِينِكُمْ.

﴿رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ﴾[7] ثَلَاثَةُ أَخْبَارٍ، لِقَوْلِهِ: ﴿هُوَ﴾[8] مُتَرَتِّبَةٌ عَلَى قَوْلِهِ: ﴿الَّذِي يُرِيكُمْ﴾[9] أَوْ أَخْبَارُ مُبْتَدَأٍ مَحْذُوفٍ، وَهِيَ مُخْتَلِفَةٌ تَعْرِيفًا وَتَنْكِيرًا. وَقُرِئَ:

---

1 سورة الْمُؤْمِن، الآية .
2 سورة الْمُؤْمِن، الآية .
3 سورة الْمُؤْمِن، الآية .
4 سورة الْمُؤْمِن، الآية .
5 سورة الْمُؤْمِن، الآية .
6 سورة الْمُؤْمِن، الآية .
7 سورة الْمُؤْمِن، الآية .
8 سورة الْمُؤْمِن، الآية .
9 سورة الْمُؤْمِن، الآية .

(رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ) بِالنَّصْبِ عَلَى الْمَدْحِ. وَرَفِيعُ الدَّرَجَاتِ، كَقَوْلِهِ -تَعَالَى-: ﴿ذِي الْمَعَارِجِ﴾[1]، وَهِيَ مَصَاعِدُ الْمَلَائِكَةِ إِلَى أَنْ تَبْلُغَ الْعَرْشَ، وَهِيَ دَلِيلٌ عَلَى عِزَّتِهِ وَمَلَكُوتِهِ.

وَعَنِ ابْنِ جُبَيْرٍ: سَمَاءٌ فَوْقَ سَمَاءٍ، وَالْعَرْشِ فَوْقَهُنَّ. وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ عِبَارَةً عَنْ رِفْعَةِ شَأْنِهِ وَعُلُوِّ سُلْطَانِهِ، كَمَا أَنَّ ذَا الْعَرْشِ عِبَارَةٌ عَنْ مِلْكِهِ. وَقِيلَ: هِيَ دَرَجَاتُ ثَوَابِهِ الَّتِي يَنْزِلُهَا أَوْلِيَاءَهُ فِي الْجَنَّةِ.

﴿الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ﴾[2] الَّذِي هُوَ سَبَبُ الْحَيَاةِ مِنْ أَمْرِهِ، يُرِيدُ: الْوَحْيُ الَّذِي هُوَ أَمْرٌ بِالْخَيْرِ وَبَعْثٌ عَلَيْهِ، فَاسْتَعَارَ لَهُ الرُّوحَ، كَمَا قَالَ -تَعَالَى-: ﴿أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ﴾[3]، ﴿لِيُنْذِرَ﴾[4] اللَّهُ. أَوِ الْمُلْقَى عَلَيْهِ: وَهُوَ الرَّسُولُ أَوِ الرُّوحُ. وَقُرِئَ: (لِتُنْذِرَ) أَيْ: لِتُنْذِرَ الرُّوحُ لِأَنَّهَا تُؤَنَّثُ، أَوْ عَلَى خِطَابِ الرَّسُولِ. وَقُرِئَ: (لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ) عَلَى الْبِنَاءِ لِلْمَفْعُولِ.

﴿يَوْمَ التَّلَاقِ﴾[5] يَوْمَ الْقِيَامَةِ، لِأَنَّ الْخَلَائِقَ تَلْتَقِي فِيهِ. وَقِيلَ: يَلْتَقِي فِيهِ أَهْلُ السَّمَاءِ وَأَهْلُ الْأَرْضِ. وَقِيلَ: الْمَعْبُودُ وَالْعَابِدُ.

﴿يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ﴾[6]: ظَاهِرُونَ لَا يَسْتُرُهُمْ شَيْءٌ مِنْ جَبَلٍ أَوْ أَكَمَةٍ أَوْ بِنَاءٍ، لِأَنَّ الْأَرْضَ بَارِزَةٌ قَاعَ صَفْصَفٍ، وَلَا عَلَيْهِمْ ثِيَابٌ، إِنَّمَا هُمْ عُرَاةٌ مَكْشُوفُونَ، كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ: "يَحْشُرُونَ عُرَاةً حُفَاةً غُرْلًا".

﴿لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ﴾[7]، أَيْ: أَنَّ أَعْمَالَهُمْ وَأَحْوَالَهُمْ.

وَعَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-: لَا يَخْفى عَلَيْهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ.

فَإِنْ قُلْتَ: قَوْلُهُ: ﴿لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ﴾[8]: بَيَانٌ وَتَقْرِيرٌ لِبُرُوزِهِمْ، وَاللَّهُ -تَعَالَى- لَا يَخْفى عَلَيْهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ بَرَزُوا أَوْ لَمْ يَبْرُزُوا، فَمَا مَعْنَاهُ؟

---

1 سورة الْمَعَارِجُ، الآية 3.

2 سورة الْمُؤْمِنِ، الآية .

3 سورة الْأَنْعَامُ، الآية 122.

4 سورة الْمُؤْمِنِ، الآية .

5 سورة الْمُؤْمِنِ، الآية .

6 سورة الْمُؤْمِنِ، الآية .

7 سورة الْمُؤْمِنِ، الآية .

8 سورة الْمُؤْمِنِ، الآية .

قُلْتُ: مَعْنَاهُ: أَنَّهُمْ كَانُوا يَتَوَهَّمُونَ –فِي الدُّنْيَا إِذَا اسْتَتَرُوا بِالْحِيطَانِ وَالْحُجُبِ– أَنَّ اللَّهَ لَا يَرَاهُمْ وَيَخْفَى عَلَيْهِ أَعْمَالُهُمْ، فَهُمُ الْيَوْمَ صَائِرُونَ مِنَ الْبُرُوزِ وَالِانْكِشَافِ إِلَى حَالٍ لَا يَتَوَهَّمُونَ فِيهَا مِثْلَ مَا كَانُوا يَتَوَهَّمُونَهُ.

قَالَ اللَّهُ –تَعَالَى–: ﴿وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾[1]. وَقَالَ – تَعَالَى–: ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ﴾[2]، وَذَلِكَ لِعِلْمِهِمْ أَنَّ النَّاسَ يُبْصِرُونَهُمْ، وَظَنِّهِمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يُبْصِرُهُمْ، وَهُوَ مَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾[3].

﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾[4] حِكَايَةٌ لَمَّا يُسْأَلُ عَنْهُ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلِمَا يُجَابُ بِهِ.

وَمَعْنَاهُ: أَنَّهُ يُنَادِي مُنَادٍ فَيَقُولُ: لِمَنِ الْمَلِكُ الْيَوْمَ؟ فَيُجِيبُهُ أَهْلُ الْمَحْشَرِ: ﴿لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾[5].

وَقِيلَ: يَجْمَعُ اللَّهُ الْخَلَائِقَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ بِأَرْضٍ بَيْضَاءَ كَأَنَّهَا سَبِيكَةُ فِضَّةٍ لَمْ يُعْصَ اللَّهُ فِيهَا قَطُّ، فَأَوَّلُ مَا يَتَكَلَّمُ بِهِ أَنْ يُنَادِيَ مُنَادٍ: "لِمَنِ الْمَلِكُ الْيَوْمَ؟ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ. الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ..." الْآيَةُ.

فَهَذَا يَقْتَضِي أَنْ يَكُونَ الْمُنَادِي هُوَ الْمُجِيبُ.

## ﴿الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾[6]

لَمَّا قَرَّرَ أَنَّ الْمُلْكَ لِلَّهِ وَحْدَهُ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ عَدَّدَ نَتَائِجَ ذَلِكَ، وَهِيَ أَنَّ كُلَّ نَفْسٍ تَجْزِي مَا كَسَبَتْ، وَأَنَّ الظُّلْمَ مَأْمُونٌ، لِأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ، وَأَنَّ الْحِسَابَ لَا يُبْطِئُ، لِأَنَّ اللَّهَ لَا يَشْغَلُهُ حِسَابٌ عَلَى حِسَابٍ، فَيُحَاسِبُ الْخَلْقَ كُلَّهُ فِي وَقْتٍ وَاحِدٍ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ.

---

1 سورة فُصِّلَتْ، الآية 32.

2 سورة النِّسَاءُ، الآية 108.

3 سورة إِبْرَاهِيمُ، الآية 48.

4 سورة الْمُؤْمِنِ، الآية .

5 سورة الْمُؤْمِنِ، الآية .

6 سورة الْمُؤْمِنِ، الآية .

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا–: إِذَا أَخَذَ فِي حِسَابِهِمْ لَمْ يَقِلْ أَهْلُ الْجَنَّةِ إِلَّا فيها وَلَا أَهْلُ النَّارِ إِلَّا فيها.

## ﴿وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾[1]

الْآزِفَةُ: الْقِيَامَةُ، سُمِّيَتْ بِذَلِكَ لِأُزُوفِهَا، أَيْ: لِقُرْبِهَا.

وَيَجُوزُ أَنْ يُرِيدَ بِـ "يَوْمِ الْآزِفَةِ": وَقْتَ الْخُطَّةِ الْآزِفَةِ، وَهِيَ مُشَارَفَتُهُمْ دُخُولَ النَّارِ، فَعِنْدَ ذَلِكَ تَرْتَفِعُ قُلُوبُهُمْ عَنْ مَقَارِّهَا فَتُلْصَقُ بِحَنَاجِرِهِمْ، فَلَا هِيَ تَخْرُجُ فيمُوتُوا، وَلَا تَرْجِعُ إِلَى مَوَاضِعِهَا فيتَنَفَّسُوا وَيَتَرَوَّحُوا، وَلَكِنَّهَا مُعْتَرِضَةٌ كَالشَّجَا، كَمَا قَالَ –تَعَالَى–: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾[2].

فَإِنْ قُلْتَ: ﴿كَاظِمِينَ﴾[3] بِمَا انْتَصَبَ؟

قُلْتُ: هُوَ حَالٌ عَنْ أَصْحَابِ الْقُلُوبِ عَلَى الْمَعْنَى، لِأَنَّ الْمَعْنَى: إِذْ قُلُوبُهُمْ لَدَى حَنَاجِرِهِمْ كَاظِمِينَ عَلَيْهَا.

وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ حَالًا عَنِ الْقُلُوبِ، وَأَنَّ الْقُلُوبَ كَاظِمَةٌ عَلَى غَمٍّ وَكَرْبٍ فيها مَعَ بُلُوغِهَا الْحَنَاجِرَ، وَإِنَّمَا جَمْعُ الْكَاظِمِ جَمْعُ السَّلَامَةِ، لِأَنَّهُ وَصَفَهَا بِالْكَظْمِ الَّذِي هُوَ مِنْ أَفْعَالِ الْعُقَلَاءِ، كَمَا قَالَ –تَعَالَى–: ﴿رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾[4]، وَقَالَ: ﴿فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ﴾[5]، وَتُعَضِّدُهُ قِرَاءَةُ مَنْ قَرَأَ: (كَاظِمُونَ).

وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ حَالًا عَنْ قَوْلِهِ: وَأَنْذِرْهُمْ، أَيْ: وَأَنْذِرْهُمْ مُقَدِّرِينَ أَوْ مُشَارِفِينَ الْكَظْمَ، كَقَوْلِهِ –تَعَالَى–: ﴿فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾[6].

الْحَمِيمُ: الْمُحِبُّ الْمُشْفِقُ. وَالْمُطَاعُ: مَجَازٌ فِي الْمُشَفَّعِ، لِأَنَّ حَقِيقَةَ الطَّاعَةِ نَحْوَ حَقِيقَةِ الْأَمْرِ فِي أَنَّهَا لَا تَكُونُ إِلَّا لِمَنْ فَوْقَكَ.

---

1 سورة الْمُؤْمِن، الآية .

2 سورة الْمُلْكُ، الآية 27.

3 سورة الْمُؤْمِن، الآية .

4 سورة يُوسُف، الآية 4.

5 سورة الشُّعَرَاءُ، الآية 4.

6 سورة الزُّمَرُ، الآية 73.

فَإِنْ قُلْتَ: مَا مَعْنَى قَوْلِهِ –تَعَالَى–: ﴿وَلا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾[1]؟

قُلْتُ: يُحْتَمَلُ أَنْ يَتَنَاوَلَ النَّفي الشَّفَاعَةَ وَالطَّاعَةَ مَعًا، وَأَنْ يَتَنَاوَلَ الطَّاعَةَ دُونَ الشَّفَاعَةِ، كَمَا تَقُولُ: مَا عِنْدِي كِتَابٌ يُبَاعُ، فَهُوَ مُحْتَمَلُ نَفي الْبَيْعِ وَحْدَهُ، وَأَنَّ عِنْدَكَ كِتَابًا إِلَّا أَنَّكَ لَا تَبِيعُهُ، وَنَفيهُمَا جَمِيعًا، وَأَنْ لَا كِتَابَ عِنْدَكَ، وَلَا كَوْنُهُ مَبِيعًا.

وَنَحْوُهُ:

وَلا تَرَى الضَّبَّ بِهَا يَنْحَجِـــــرُ

يُرِيدُ: نَفي الضَّبِّ وَانْجِحَارِهِ.

فَإِنْ قُلْتَ: فِعْلُ أَيِّ الِاحْتِمَالَيْنِ يَجِبُ حَمْلُهُ؟

قُلْتُ: عَلَى نَفي الْأَمْرَيْنِ جَمِيعًا، مِنْ قِبَلِ أَنَّ الشُّفَعَاءَ هُمْ أَوْلِيَاءُ اللَّهِ، وَأَوْلِيَاءُ اللَّهِ لَا يُحِبُّونَ وَلَا يَرْضَوْنَ إِلَّا مَنْ أَحَبَّهُ اللَّهُ وَرَضِيَهُ، وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ، فَلَا يُحِبُّونَهُمْ، وَإِذَا لَمْ يُحِبُّوهُمْ لَمْ يَنْصُرُوهُمْ وَلَمْ يَشْفَعُوا لَهُمْ.

قَالَ اللَّهُ –تَعَالَى–: ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾[2]، وَقَالَ: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلا يَشْفَعُونَ إِلا لِمَنِ ارْتَضَى﴾[3]، وَلِأَنَّ الشَّفَاعَةَ لَا تَكُونُ إِلَّا في زِيَادَةِ التَّفَضُّلِ، وَأَهْلُ التَّفَضُّلِ وَزِيَادَتُهُ إِنَّمَا هُمْ أَهْلُ الثَّوَابِ، بِدَلِيلِ قَوْلِهِ –تَعَالَى–: ﴿وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾[4].

وَعَنِ الْحَسَنِ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ–: وَاللَّهِ مَا يَكُونُ لَهُمْ شَفيعٌ الْبَتَّةَ.

فَإِنْ قُلْتَ: الْغَرَضُ حَاصِلٌ بِذِكْرِ الشَّفيعِ وَنَفيهِ، فَمَا الْفَائِدَةُ في ذِكْرِ هَذِهِ الصِّفَةِ وَنَفيها؟

قُلْتُ: في ذِكْرِهَا فَائِدَةٌ جَلِيلَةٌ، وَهِيَ أَنَّهَا ضُمَّتْ إِلَيْهِ، لِيُقَامَ انْتِفَاءُ الْمَوْصُوفِ مَقَامَ الشَّاهِدِ عَلَى انْتِفَاءِ الصِّفَةِ، لِأَنَّ الصِّفَةَ لَا تَتَأَتَّى بِدُونِ مَوْصُوفِهَا، فيكُونُ ذَلِكَ إِزَالَةً لِتَوَهُّمِ وُجُودِ الْمَوْصُوفِ.

بَيَانُهُ: أَنَّكَ إِذَا عُوتِبْتَ عَلَى الْقُعُودِ عَنِ الْغَزْوِ فَقُلْتَ: مَا لِي فَرَسٌ أَرْكَبُهُ، وَلَا مَعِي سِلَاحٌ أُحَارِبُ بِهِ، فَقَدْ جَعَلْتَ عَدَمَ الْفَرَسِ وَفَقْدَ السِّلَاحِ عِلَّةً مَانِعَةً مِنَ الرُّكُوبِ وَالْمُحَارَبَةِ، كَأَنَّكَ تَقُولُ: كَيْفَ يَتَأَتَّى مِنِّي الرُّكُوبُ وَالْمُحَارَبَةُ وَلَا فَرَسَ لِي وَلَا سِلَاحَ مَعِي؟

---

[1] سورة الْمُؤْمِن، الآية .

[2] سورة الْبَقَرَة، الآية 270.

[3] سورة الْأَنْبِيَاء، الآية 28.

[4] سورة النِّسَاء، الآية 174.

فَكَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿وَلا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾[1]، مَعْنَاهُ: كَيْفَ يَتَأَتَّى التَّشْفِيعُ وَلَا شَفِيعَ، فَكَانَ ذِكْرُ التَّشْفِيعِ وَالِاسْتِشْهَادِ عَلَى عَدَمِ تَأْتِيهِ بِعَدَمِ الشَّفِيعِ وَضْعًا لِانْتِفَاءِ الشَّفِيعِ مَوْضِعَ الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ غَيْرِ الْمُنْكَرِ الَّذِي لَا يَنْبَغِي أَنْ يُتَوَهَّمَ خِلَافُهُ.

## ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾[2]

الْخَائِنَةُ: صِفَةٌ لِلنَّظْرَةِ، أَوْ مَصْدَرٌ بِمَعْنَى الْخِيَانَةِ، كَالْعَافِيَةِ بِمَعْنَى الْمُعَافَاةِ، وَالْمُرَادُ: اسْتِرَاقُ النَّظَرِ إِلَى مَا لَا يَحِلُّ، كَمَا يَفْعَلُ أَهْلُ الرِّيَبِ، وَلَا يَحْسُنُ أَنْ يُرَادَ الْخَائِنَةَ مِنَ الْأَعْيُنِ، لِأَنَّ قَوْلَهُ: ﴿وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾[3] لَا يُسَادُ عَلَيْهِ.

فَإِنْ قُلْتَ: بِمَ اتَّصَلَ قَوْلُهُ: ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ﴾[4]؟

قُلْتُ: هُوَ خَبَرٌ مِنْ أَخْبَارٍ هُوَ فِي قَوْلِهِ: ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ﴾[5] مِثْلُ ﴿يُلْقِي الرُّوحَ﴾[6]، وَلَكِنْ ﴿يُلْقِي الرُّوحَ﴾[7] قَدْ عَلَّلَ بِقَوْلِهِ: ﴿لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلاقِ﴾[8].

ثُمَّ اسْتَطْرَدَ ذِكْرَ أَحْوَالِ يَوْمِ التَّلَاقِ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَلا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾[9]، فَبَعُدَ لِذَلِكَ عَنْ أَخَوَاتِهِ.

## ﴿وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾[10]

---

1 سورة الْمُؤْمِن، الآية .
2 سورة الْمُؤْمِن، الآية .
3 سورة الْمُؤْمِن، الآية .
4 سورة الْمُؤْمِن، الآية .
5 سورة الْمُؤْمِن، الآية .
6 سورة الْمُؤْمِن، الآية .
7 سورة الْمُؤْمِن، الآية .
8 سورة الْمُؤْمِن، الآية .
9 سورة الْمُؤْمِن، الآية .
10 سورة الْمُؤْمِن، الآية .

﴿وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ﴾[1]، يَعْنِي: وَالَّذِي هَذِهِ صِفَاتُهُ وَأَحْوَالُهُ لَا يَقْضِي إِلَّا بِالْحَقِّ وَالْعَدْلِ، لِاسْتِغْنَائِهِ عَنِ الظُّلْمِ، وَآلِهَتُكُمْ لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ. وَهَذَا تَهَكُّمٌ بِهِمْ، لِأَنَّ مَا لَا يُوصَفُ بِالْقُدْرَةِ لَا يُقَالُ فِيهِ: يَقْضِي، أَوْ لَا يَقْضِي.

﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾[2]: تَقْرِيرٌ لِقَوْلِهِ: ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾[3]، وَوَعِيدٌ لَهُمْ بِأَنَّهُ يَسْمَعُ مَا يَقُولُونَ وَيُبْصِرُ مَا يَعْمَلُونَ، وَأَنَّهُ يُعَاقِبُهُمْ عَلَيْهِ وَتَعْرِيضٌ بِمَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ، وَأَنَّهَا لَا تَسْمَعُ وَلَا تُبْصِرُ، وَقُرِئَ: (يَدْعُونَ) بِالتَّاءِ وَالْيَاءِ .

﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾[4]

﴿هُمْ﴾[5] فِي ﴿كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ﴾[6] فَصْلٌ.

فَإِنْ قُلْتَ: مِنْ حَقِّ الْفَصْلِ أَنْ لَا يَقَعَ إِلَّا بَيْنَ مَعْرِفَتَيْنِ فَمَا بَالُهُ وَاقِعًا بَيْنَ مَعْرِفَةٍ وَغَيْرِ مَعْرِفَةٍ؟ وَهُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ.

قُلْتُ: قَدْ ضَارَعَ الْمَعْرِفَةَ فِي أَنَّهُ لَا تَدْخُلُهُ الْأَلِفُ وَاللَّامُ، فَأُجْرِيَ مَجْرَاهَا. وَقُرِئَ: (مِنْكُمْ) وَهِيَ فِي مَصَاحِفِ أَهْلِ الشَّامِ.

﴿وَآثَارًا﴾[7] يُرِيدُ حُصُونَهُمْ وَقُصُورَهُمْ وَعَدَدَهُمْ، وَمَا يُوصَفُ بِالشِّدَّةِ مِنْ آثَارِهِمْ، أَوْ: أَرَادُوا أَكْثَرَ آثَارًا، كَقَوْلِهِ:

مُتَقَلِّدًا سَيْفًا وَرُمْحَـــــــا

---

1 سورة الْمُؤْمِنِ، الآية .
2 سورة الْمُؤْمِنِ، الآية .
3 سورة الْمُؤْمِنِ، الآية .
4 سورة الْمُؤْمِنِ، الآية .
5 سورة الْمُؤْمِنِ، الآية .
6 سورة الْمُؤْمِنِ، الآية .
7 سورة الْمُؤْمِنِ، الآية .

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾[1]

﴿وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾[2]، وَحُجَّةٌ ظَاهِرَةٌ، وَهِيَ الْمُعْجِزَاتُ، فَقَالُوا: هُوَ سَاحِرٌ كَذَّابٌ، فَسَمَّوُا السُّلْطَانَ الْمُبِينَ سِحْرًا وَكَذَّابًا.

﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ﴾[3]: بِالنُّبُوَّةِ.

فَإِنْ قُلْتَ: أَمَا كَانَ قَتْلُ الْأَبْنَاءِ وَاسْتِحْيَاءُ النِّسَاءِ مِنْ قَبْلُ خِيفَةً أَوْ يُولَدُ الْمَوْلُودُ الَّذِي أَنْذَرَتْهُ الْكَهَنَةُ بِظُهُورِهِ وَزَوَالِ مُلْكِهِ عَلَى يَدِهِ؟

قُلْتُ: قَدْ كَانَ ذَلِكَ الْقَتْلُ حِينَئِذٍ، وَهَذَا قَتْلٌ آخَرُ.

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا– في قَوْلِهِ: ﴿قَالُوا اقْتُلُوا﴾[4]: أَعِيدُوا عَلَيْهِمُ الْقَتْلَ كَالَّذِي كَانَ أَوَّلًا، يُرِيدُ: أَنَّ هَذَا قَتْلٌ غَيْرُ الْقَتْلِ الْأَوَّلِ: ﴿فِي ضَلَالٍ﴾[5] في ضَيَاعٍ وَذَهَابٍ، بَاطِلًا لَمْ يَجِدْ عَلَيْهِمْ، يَعْنِي: أَنَّهُمْ بَاشَرُوا قَتْلَهُمْ أَوَّلًا فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ، وَنَفَّذَ قَضَاءَ اللَّهِ بِإِظْهَارِ مَنْ خَافُوهُ، فَمَا يُغْنِي عَنْهُمْ هَذَا الْقَتْلَ الثَّانِي، وَكَانَ فِرْعَوْنُ قَدْ كَفَّ عَنْ قَتْلِ الْوِلْدَانِ.

فَلَمَّا بَعَثَ مُوسَى وَأَحَسَّ بِأَنَّهُ قَدْ وَقَعَ: أَعَادَهُ عَلَيْهِمْ غَيْظًا وَحَنَقًا، وَظَنًّا مِنْهُ أَنَّهُ يَصُدُّهُمْ بِذَلِكَ عَنْ مُظَاهَرَةِ مُوسَى، وَمَا عَلِمَ أَنَّ كَيْدَهُ ضَائِعٌ في الْكَرَّتَيْنِ جَمِيعًا.

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾[6]

---

1 سورة الْمُؤْمِن، الآية .
2 سورة الْمُؤْمِن، الآية .
3 سورة الْمُؤْمِن، الآية .
4 سورة الْمُؤْمِن، الآية .
5 سورة الْمُؤْمِن، الآية .
6 سورة الْمُؤْمِن، الآية .

﴿ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى﴾[1] كَانُوا إِذَا هَمَّ بِقَتْلِهِ كَفَوْهُ بِقَوْلِهِمْ: لَيْسَ بِالَّذِي تَخَافُهُ، وَهُوَ أَقَلُّ مِنْ ذَلِكَ وَأَضْعَفُ، وَمَا هُوَ إِلَّا بَعْضُ السَّحَرَةِ، وَمِثْلُهُ لَا يُقَاوِمُ إِلَّا سَاحِرًا مِثْلَهُ، وَيَقُولُونَ: إِذَا قَتَلْتَهُ أَدْخَلْتَ الشُّبْهَةَ عَلَى النَّاسِ، وَاعْتَقَدُوا أَنَّكَ قَدْ عَجَزْتَ عَنْ مُعَارَضَتِهِ بِالْحُجَّةِ.

وَالظَّاهِرُ أَنَّ فِرْعَوْنَ لَعَنَهُ اللَّهُ كَانَ قَدِ اسْتَيْقَنَ أَنَّهُ نَبِيٌّ، وَأَنَّ مَا جَاءَ بِهِ وَمَا هُوَ بِسِحْرٍ، وَلَكِنَّ الرَّجُلَ كَانَ فِيهِ خِبٌّ وَجَرْبَزَةٌ، وَكَانَ قَتَّالًا سَفَّاكًا لِلدِّمَاءِ فِي أَهْوَنِ شَيْءٍ، فَكَيْفَ لَا يَقْتُلُ مَنْ أَحَسَّ مِنْهُ بِأَنَّهُ هُوَ الَّذِي يَثِلُ عَرْشَهُ وَيَهْدِمُ مُلْكَهُ، وَلَكِنَّهُ كَانَ يَخَافُ إِنْ هَمَّ بِقَتْلِهِ أَنْ يُعَاجِلَ بِالْهَلَاكِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَلْيَدْعُ رَبَّهُ﴾[2] شَاهِدُ صِدْقٍ عَلَى فَرْطِ خَوْفِهِ مِنْهُ وَمِنْ دَعْوَتِهِ رَبَّهُ، وَكَانَ قَوْلُهُ: ﴿ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى﴾[3] تَمْوِيهًا عَلَى قَوْمِهِ، وَإِيهَامًا أَنَّهُمْ هُمُ الَّذِينَ يَكْفُونَهُ، وَمَا كَانَ يَكُفُّهُ إِلَّا مَا فِي نَفْسِهِ مِنْ هَوْلِ الْفَزَعِ.

﴿أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ﴾[4]: أَنْ يُغَيِّرَ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ، وَكَانُوا يَعْبُدُونَهُ وَيَعْبُدُونَ الْأَصْنَامَ، بِدَلِيلِ قَوْلِهِ: ﴿وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ﴾[5]، وَالْفَسَادُ فِي الْأَرْضِ: التَّفَاتُنُ وَالتَّهَارُجُ الَّذِي يَذْهَبُ مَعَهُ الْأَمْنُ وَتَتَعَطَّلُ الْمَزَارِعُ وَالْمَكَاسِبُ وَالْمَعَايِشُ، وَيَهْلَكُ النَّاسُ قَتْلًا وَضَيَاعًا، كَأَنَّهُ قَالَ: إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُفْسِدَ عَلَيْكُمْ دِينَكُمْ بِدَعْوَتِكُمْ إِلَى دِينِهِ، أَوْ يُفْسِدَ عَلَيْكُمْ دُنْيَاكُمْ بِمَا يُظْهِرُ مِنَ الْفِتَنِ بِسَبَبِهِ.

وَفِي مَصَاحِفِ أَهْلِ الْحِجَازِ: "وَأَنْ يُظْهِرَ" بِالْوَاوِ، وَمَعْنَاهُ: إِنِّي أَخَافُ فَسَادَ دِينِكُمْ وَدُنْيَاكُمْ مَعًا.

وَقُرِئَ: (يُظْهِرَ) مِنْ أَظْهَرَ، وَ(الْفَسَادَ) مَنْصُوبٌ، أَيْ: يُظْهِرُ مُوسَى الْفَسَادَ. وَقُرِئَ: (يَظَّهَّرَ) بِتَشْدِيدِ الظَّاءِ وَالْهَاءِ، مِنْ تَظْهَرُ بِمَعْنَى تَظَاهَرَ، أَيْ: تَتَابَعَ وَتَعَاوَنَ .

## ﴿وَقَالَ مُوسَى إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾[6]

---

1 سورة الْمُؤْمِن، الآية .

2 سورة الْمُؤْمِن، الآية .

3 سورة الْمُؤْمِن، الآية .

4 سورة الْمُؤْمِن، الآية .

5 سورة الْأَعْرَافُ، الآية 127.

6 سورة الْمُؤْمِن، الآية .

لَمَّا سَمِعَ مُوسَى -عَلَيْهِ السَّلَامُ- بِمَا أَجْرَاهُ فِرْعَوْنُ مِنْ حَدِيثِ قَتْلِهِ: قَالَ لِقَوْمِهِ: ﴿إِنِّي عُذْتُ﴾[1] بِاللَّهِ الَّذِي هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَرَبِّكُمْ﴾[2] فِيهِ بَعْثٌ لَهُمْ عَلَى أَنْ يَقْتَدُوا بِهِ، فيعَوِّذُوا بِاللَّهِ عِيَاذَهُ، وَيَعْتَصِمُوا بِالتَّوَكُّلِ عَلَيْهِ اعْتِصَامَهُ.

وَقَالَ: ﴿مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ﴾[3] لِتَشْمَلَ اسْتِعَاذَتَهُ فِرْعَوْنَ وَغَيْرَهُ مِنَ الْجَبَابِرَةِ، وَلِيَكُونَ عَلَى طَرِيقَةِ التَّعْرِيضِ، فيكُونُ أَبْلَغَ، وَأَرَادَ بِالتَّكَبُّرِ: الِاسْتِكْبَارُ عَنِ الْإِذْعَانِ لِلْحَقِّ، وَهُوَ أَقْبَحُ اسْتِكْبَارٍ وَأَدُلُّهُ عَلَى دَنَاءَةِ صَاحِبِهِ وَمَهَانَةِ نَفْسِهِ، وَعَلَى فَرْطِ ظُلْمِهِ وَعَسْفِهِ.

وَقَالَ: ﴿لا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾[4]، لِأَنَّهُ إِذَا اجْتَمَعَ فِي الرَّجُلِ التَّجَبُّرُ وَالتَّكْذِيبُ بِالْجَزَاءِ وَقِلَّةُ الْمُبَالَاةِ بِالْعَاقِبَةِ، فَقَدِ اسْتَكْمَلَ أَسْبَابَ الْقَسْوَةِ وَالْجَرَاءَةِ عَلَى اللَّهِ وَعِبَادِهِ، وَلَمْ يَتْرُكْ عَظِيمَةً إِلَّا ارْتَكَبَهَا.

وَ﴿عُذْتُ﴾[5]: وَلُذْتُ أَخَوَانِ. وَقُرِئَ: (عَتُّ)، بِالْإِدْغَامِ.

﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾[6]

﴿رَجُلٌ مُؤْمِنٌ﴾[7]: وَقُرِئَ: (رَجْلٌ) بِسُكُونِ الْجِيمِ، كَمَا يُقَالُ: عَضَّدَ فِي عَضُدَ، وَكَانَ قِبْطِيًّا ابْنُ عَمٍّ لِفِرْعَوْنَ، آمَنَ بِمُوسَى سِرًّا، وَقِيلَ: كَانَ إِسْرَائِيلِيًّا.

---

1 سورة الْمُؤْمِنِ، الآية .
2 سورة الْمُؤْمِنِ، الآية .
3 سورة الْمُؤْمِنِ، الآية .
4 سورة الْمُؤْمِنِ، الآية .
5 سورة الْمُؤْمِنِ، الآية .
6 سورة الْمُؤْمِنِ، الآية .
7 سورة الْمُؤْمِنِ، الآية .

وَ﴿مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ﴾[1] صِفَةٌ لِرَجُلٍ. أَوْ صِلَةٌ لِيَكْتُمَ، أَيْ: يَكْتُمُ إِيمَانَهُ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ، وَاسْمُهُ سَمْعَانُ أَوْ حَبِيبٌ، وَقِيلَ :حِزْبِيلُ أَوْ حَزْبِيلُ، وَالظَّاهِرُ أَنَّهُ كَانَ مِنْ آلِفِرْعَوْنَ، فَإِنَّ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَمْ يَقِلُّوا وَلَمْ يَعِزُّوا.

وَالدَّلِيلُ عَلَيْهِ قَوْلُ فِرْعَوْنَ: ﴿أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ﴾[2] ]غَافِرُ: 25].

وَقَوْلُ الْمُؤْمِنِ: ﴿فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا﴾[3]. ]غَافِرُ: 29] دَلِيلٌ ظَاهِرٌ عَلَى أَنَّهُ يَنْتَصِحُ لِقَوْمِهِ.

﴿ أَنْ يَقُولَ﴾[4]، لِأَنْ يَقُولَ، وَهَذَا إِنْكَارٌ مِنْهُ عَظِيمٌ وَتَبْكِيتٌ شَدِيدٌ، كَأَنَّهُ قَالَ: أَتَرْتَكِبُونَ الْفَعْلَةَ الشَّنْعَاءَ الَّتِي هِيَ قَتْلُ نَفْسٍ مُحَرَّمَةٍ، وَمَا لَكُمْ عِلَّةٌ قَطُّ فِي ارْتِكَابِهَا إِلَّا كَلِمَةُ الْحَقِّ الَّتِي نَطَقَ بِهَا، وَهِيَ قَوْلُهُ: ﴿رَبِّيَ اللَّهُ﴾[5] مَعَ أَنَّهُ لَمْ يَحْضُرْ لِتَصْحِيحِ قَوْلِهِ بِبَيِّنَةٍ وَاحِدَةٍ، وَلَكِنْ بَيِّنَاتٍ عِدَّةٍ مِنْ عِنْدِ مَنْ نُسِبَ إِلَيْهِ الرُّبُوبِيَّةُ، وَهُوَ رَبُّكُمْ لَا رَبُّهُ وَحْدَهُ، وَهُوَ اسْتِدْرَاجٌ لَهُمْ إِلَى الِاعْتِرَافِ بِهِ، وَلِيَلِينَ بِذَلِكَ جِمَاحُهُمْ وَيَكْسِرَ مِنْ سُورَتِهِمْ، وَلَكَ أَنْ تُقَدِّرَ مُضَافًا مَحْذُوفًا، أَيْ: وَقْتَ أَنْ تَقُولَ.

وَالْمَعْنَى: أَتَقْتُلُونَهُ سَاعَةَ سَمِعْتُمْ مِنْهُ هَذَا الْقَوْلَ مِنْ غَيْرِ رَوِيَّةٍ وَلَا فِكْرٍ فِي أَمْرِهِ؟

وَقَوْلُهُ: ﴿بِالْبَيِّنَاتِ﴾[6]، يُرِيدُ: بِالْبَيِّنَاتِ الْعَظِيمَةِ الَّتِي عَهِدْتُمُوهَا وَشَهِدْتُمُوهَا، ثُمَّ أَخَذَهُمْ بِالِاحْتِجَاجِ عَلَى طَرِيقَةِ التَّقْسِيمِ، فَقَالَ: لَا يَخْلُو مِنْ أَنْ يَكُونَ كَاذِبًا أَوْ صَادِقًا.

﴿وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ﴾[7]، أَيْ: يَعُودُ عَلَيْهِ كَذِبُهُ وَلَا يَتَخَطَّاهُ ضَرَرُهُ.

﴿وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُمْ بَعْضُ﴾[8]: مَا يَعِدُكُمْ إِنْ تَعَرَّضْتُمْ لَهُ.

فَإِنْ قُلْتَ: لِمَ قَالَ: بَعْضُ ﴿الَّذِي يَعِدُكُمْ﴾[9]، وَهُوَ نَبِيٌّ صَادِقٌ، لَا بُدَّ لِمَا بَعْدَهُمْ أَنْ يُصِيبَهُمْ كُلُّهُ لَا بَعْضُهُ؟

---

1 سورة الْمُؤْمِنِ، الآية .

2 سورة غَافِرُ، الآية 25.

3 سورة غَافِرُ، الآية 29.

4 سورة الْمُؤْمِنِ، الآية .

5 سورة الْمُؤْمِنِ، الآية .

6 سورة الْمُؤْمِنِ، الآية .

7 سورة الْمُؤْمِنِ، الآية .

8 سورة الْمُؤْمِنِ، الآية .

9 سورة الْمُؤْمِنِ، الآية .

قُلْتُ: لِأَنَّهُ احْتَاجَ فِي مُقَاوَلَةِ خُصُومِ مُوسَى وَمِنَّا كَرِيهٌ إِلَى أَنْ يُلَاوِصَهُمْ وَيُدَارِيهِمْ، وَيَسْلُكَ مَعَهُمْ طَرِيقَ الْأَنْصَافِ فِي الْقَوْلِ، وَيَأْتِيهِمْ مِنْ وُجْهَةِ الْمُنَاصَحَةِ، فَجَاءَ بِمَا عَلِمَ أَنَّهُ أَقْرَبُ إِلَى تَسْلِيمِهِمْ لِقَوْلِهِ، وَأَدْخَلُ فِي تَصْدِيقِهِمْ لَهُ وَقَبُولِهِمْ مِنْهُ، فَقَالَ: ﴿وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ﴾[1]، وَهُوَ كَلَامُ الْمُنْصِفِ فِي مَقَالِهِ غَيْرِ الْمُشْتَطِّ فِيهِ، لِيَسْمَعُوا مِنْهُ وَلَا يَرُدُّوا عَلَيْهِ.

وَذَلِكَ أَنَّهُ حِينَ فَرَضَهُ صَادِقًا، فَقَدْ أَثْبَتَ أَنَّهُ صَادِقٌ فِي جَمِيعِ مَا يُعَدُّ، وَلَكِنَّهُ أَرْدَفَهُ: ﴿يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ﴾[2] لِيَهْضِمَهُ بَعْضَ حَقِّهِ فِي ظَاهِرِ الْكَلَامِ، فيريهِمْ أَنَّهُ لَيْسَ بِكَلَامِ مَنْ أَعْطَاهُ حَقَّهُ وَافيا، فَضْلًا أَنْ يَتَعَصَّبَ لَهُ، أَوْ يَرْمِيَ بِالْحَصَا مِنْ وَرَائِهِ، وَتَقْدِيمُ الْكَاذِبِ عَلَى الصَّادِقِ أَيْضًا مِنْ هَذَا الْقَبِيلِ، وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾[3].

فَإِنْ قُلْتَ: فَعَنْ أَبِي عُبَيْدَةَ أَنَّهُ فَسَّرَ الْبَعْضَ بِالْكُلِّ، وَأَنْشَدَ بَيْتَ لَبِيدٍ:

تَرَّاكُ أَمْكِنَةٍ إِذَا لَمْ أَرْضَهَا أَوْ يَرْتَبِطْ بَعْضُ النُّفُوسِ حِمَامَهَا

قُلْتُ: إِنْ صَحَّتِ الرِّوَايَةُ عَنْهُ، فَقَدْ حَقَّ فِيهِ قَوْلُ الْمَازِنِيِّ فِي مَسْأَلَةِ الْعِلْقِيِّ: كَانَ أَجْفى مِنْ أَنْ يَفْقَهَ مَا أَقُولُ لَهُ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ﴾[4] يُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ مُسْرِفًا كَذَّابًا خَذَلَهُ اللَّهُ وَأَهْلَكَهُ وَلَمْ يَسْتَقِمْ لَهُ أَمْرٌ، فيتَخَلَّصُونَ مِنْهُ، وَأَنَّهُ لَوْ كَانَ مُسْرِفًا كَذَّابًا لَمَا هَدَاهُ اللَّهُ لِلنُّبُوَّةِ، وَلَمَّا عَضَّدَهُ بِالْبَيِّنَاتِ.

وَقِيلَ: مَا تَوَلَّى أَبُو بَكْرٍ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ أَشَدَّ مِنْ ذَلِكَ، طَافَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالْبَيْتِ، فَلَقُوهُ حِينَ فَرَغَ، فَأَخَذُوا بِمَجَامِعِ رِدَائِهِ فَقَالُوا لَهُ: أَنْتَ الَّذِي تَنْهَانَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا، فَقَالَ: أَنَا ذَاكَ، فَقَامَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- فَالْتَزَمَهُ مِنْ وَرَائِهِ، وَقَالَ: أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ، وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ، رَافِعًا صَوْتَهُ بِذَلِكَ، وَعَيْنَاهُ تَسْفَحَانِ، حَتَّى أَرْسَلُوهُ.

وَعَنْ جَعْفَرٍ الصَّادِقِ: أَنَّ مُؤْمِنَ آلِ فِرْعَوْنَ قَالَ ذَلِكَ سِرًّا، وَأَبُو بَكْرٍ قَالَهُ ظَاهِرًا.

---

[1] سورة الْمُؤْمِن، الآية .

[2] سورة الْمُؤْمِن، الآية .

[3] سورة الْمُؤْمِن، الآية .

[4] سورة الْمُؤْمِن، الآية .

﴿يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾[1]

﴿ظَاهِرِينَ فِي الأَرْضِ﴾[2] في أَرْضِ مِصْرَ عَالِينَ فيها عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ، يَعْنِي: أَنَّ لَكُمْ مُلْكَ مِصْرَ، وَقَدْ عَلَوْتُمُ النَّاسَ، وَقَهَرْتُمُوهُمْ، فَلَا تُفْسِدُوا أَمْرَكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ، وَلَا تَتَعَرَّضُوا لِبَأْسِ اللَّهِ وَعَذَابِهِ، فَإِنَّهُ لَا قِبَلَ لَكُمْ بِهِ إِنْ جَاءَكُمْ، وَلَا يَمْنَعُكُمْ مِنْهُ أَحَدٌ.

وَقَالَ: ﴿يَنْصُرُنَا﴾[3] وَ﴿جَاءَنَا﴾[4]، لِأَنَّهُ مِنْهُمْ فِي الْقَرَابَةِ، وَلِيُعْلِمَهُمْ بِأَنَّ الَّذِي يَنْصَحُهُمْ بِهِ هُوَ مُسَاهِمٌ لَهُمْ فيه.

﴿مَا أُرِيكُمْ إِلا مَا أَرَى﴾[5]، أَيْ: مَا أُشِيرَ عَلَيْكُمْ بِرَأْيٍ إِلَّا بِمَا أَرَى مِنْ قَتْلِهِ، يَعْنِي: لَا أَسْتَصْوِبُ إِلَّا قَتْلَهُ، وَهَذَا الَّذِي تَقُولُونَهُ غَيْرُ صَوَابٍ

﴿وَمَا أَهْدِيكُمْ﴾[6] بِهَذَا الرَّأْيِ.

﴿إِلاّ سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾[7]، يُرِيدُ: سَبِيلَ الصَّوَابِ وَالصَّلَاحِ. أَوْ مَا أُعْلِمُكُمْ إِلَّا مَا أَعْلَمُ مِنَ الصَّوَابِ، وَلَا أَدَّخِرُ مِنْهُ شَيْئًا، وَلَا أُسِرُّ عَنْكُمْ خِلَافَ مَا أُظْهِرُ، يَعْنِي: أَنَّ لِسَانَهُ وَقَلْبَهُ مُتَوَاطِئَانِ عَلَى مَا يَقُولُ، وَقَدْ كَذَبَ، فَقَدْ كَانَ مُسْتَشْعِرًا لِلْخَوْفِ الشَّدِيدِ مِنْ جِهَةِ مُوسَى، وَلَكِنَّهُ كَانَ يَتَجَلَّدُ، وَلَوْلَا اسْتِشْعَارُهُ لَمْ يَسْتَشِرْ أَحَدًا وَلَمْ يَقِفِ الْأَمْرُ عَلَى الْإِشَارَةِ. وَقُرِئَ: (الرَّشَادُ) فَعَالَ مِنْ رَشِدَ بِالْكَسْرِ، كَعَلَّامٍ، أَوْ مِنْ رَشَدَ بِالْفَتْحِ كَعِبَادٍ، وَقِيلَ: هُوَ مِنْ أَرْشَدَ كَجَبَّارٍ مِنْ أَجْبَرَ، وَلَيْسَ بِذَلِكَ، لِأَنَّ فِعَالًا مِنْ أَفْعَلَ لَمْ يَجِيءْ إِلَّا فِي عِدَّةِ أَحْرُفٍ، نَحْوُ: دَرَّاكَ وَسَارَّ وَقَصَّارَ وَحَبَّارَ، وَلَا يَصِحُّ الْقِيَاسُ عَلَى الْقَلِيلِ. وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ نِسْبَةً إِلَى الرُّشْدِ، كَعَوَّاجٍ وَبَتَاتٍ، غَيْرَ مَنْظُورٍ فيه إِلَى فِعْلٍ.

---

1 سورة الْمُؤْمِنِ، الآية .
2 سورة الْمُؤْمِنِ، الآية .
3 سورة الْمُؤْمِنِ، الآية .
4 سورة الْمُؤْمِنِ، الآية .
5 سورة الْمُؤْمِنِ، الآية .
6 سورة الْمُؤْمِنِ، الآية .
7 سورة الْمُؤْمِنِ، الآية .

﴿وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الأَحْزَابِ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ﴾[1]

﴿مِثْلَ يَوْمِ الأَحْزَابِ﴾[2] مِثْلُ أَيَّامِهِمْ، لِأَنَّهُ لَمَّا أَضَافَهُ إِلَى الْأَحْزَابِ وَفَسَّرَهُمْ بِقَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ، وَلَمْ يَلْبَسْ أَنَّ كُلَّ حِزْبٍ مِنْهُمْ كَانَ لَهُ يَوْمُ دَمَارٍ، اقْتَصَرَ عَلَى الْوَاحِدِ مِنَ الْجَمْعِ، لِأَنَّ الْمُضَافَ إِلَيْهِ أَغْنَى عَنْ ذَلِكَ كَقَوْلِهِ:

كُلُوا فِي بَعْضِ بَطْنِكُمُو تَعِفُّـــــوا

وَقَالَ الزَّجَّاجُ: مِثْلَ يَوْمِ حَزَبَ حِزْبٌ، وَدَأَبَ هَؤُلَاءِ: دُؤُوبَهُمْ فِي عَمَلِهِمْ مِنَ الْكُفْرِ وَالتَّكْذِيبِ وَسَائِرِ الْمَعَاصِي، وَكَوْنُ ذَلِكَ دَائِبًا دَائِمًا مِنْهُمْ لَا يَفْتَرُونَ عَنْهُ، وَلَا بُدَّ مِنْ حَذْفِ مُضَافٍ، يُرِيدُ: مِثْلَ جَزَاءِ دَأْبِهِمْ.

فَإِنْ قُلْتَ: بِمَ انْتَصَبَ ﴿مِثْلَ﴾[3] الثَّانِي؟

قُلْتُ: بِأَنَّهُ عَطْفُ بَيَانٍ لِمِثْلِ الْأَوَّلِ، لِأَنَّ آخِرَ مَا تَنَاوَلَهُ الْإِضَافَةُ قَوْمَ نُوحٍ، وَلَوْ قُلْتَ: أَهْلَكَ اللَّهُ الْأَحْزَابَ: قَوْمَ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ، لَمْ يَكُنْ إِلَّا عَطْفَ بَيَانٍ لِإِضَافَةِ قَوْمٍ إِلَى أَعْلَامٍ، فَسَرَى ذَلِكَ الْحُكْمُ إِلَى أَوَّلِ مَا تَنَاوَلَتْهُ الْإِضَافَةُ.

﴿وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ﴾[4]، يَعْنِي: أَنَّ تَدْمِيرَهُمْ كَانَ عَدْلًا وَقِسْطًا، لِأَنَّهُمُ اسْتَوْجَبُوهُ بِأَعْمَالِهِمْ، وَهُوَ أَبْلَغُ مِنْ قَوْلِهِ –تَعَالَى–: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾[5]، حَيْثُ جَعَلَ الْمَنْفِي إِرَادَةَ الظُّلْمِ، لِأَنَّ مَنْ كَانَ عَنْ أَرَادَةِ الظُّلْمِ بَعِيدًا، كَانَ عَنِ الظُّلْمِ أَبْعَدُ. وَحَيْثُ نَكَّرَ الظُّلْمَ، كَأَنَّهُ نَفَى أَنْ يُرِيدَ ظُلْمًا مَا لِعِبَادِهِ.

وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مَعْنَاهُ كَمَعْنَى قَوْلِهِ –تَعَالَى–: ﴿وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ﴾[6]، أَيْ: لَا يُرِيدُ لَهُمْ أَنْ يَظْلِمُوا، يَعْنِي أَنَّهُ دَمَّرَهُمْ لِأَنَّهُمْ كَانُوا ظَالِمِينَ.

---

1 سورة الْمُؤْمِن، الآية .

2 سورة الْمُؤْمِن، الآية .

3 سورة الْمُؤْمِن ، الآية .

4 سورة الْمُؤْمِن، الآية .

5 سورة فُصِّلَتْ، الآية 46.

6 سورة الْمُؤْمِن، الآية .

﴿وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾[1]

"التَّنَادِي": مَا حَكَى اللَّهُ –تَعَالَى– في سُورَةِ الْأَعْرَافِ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ﴾[2]، ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ﴾[3].

وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ تَصَايُحَهُمْ بِالْوَيْلِ وَالثُّبُورِ. وَقُرِئَ بِالتَّشْدِيدِ، وَهُوَ أَنْ يَنِدَّ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ، كَقَوْلِهِ –تَعَالَى–: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ﴾[4].

وَعَنِ الضَّحَّاكِ: إِذَا سَمِعُوا زَفِيرَ النَّارِ نَدُّوا هَرَبًا، فَلَا يَأْتُونَ قُطْرًا مِنَ الْأَقْطَارِ إِلَّا وَجَدُوا مَلَائِكَةً صُفُوفًا، فَبَيْنَا هُمْ يَمُوجُ بَعْضُهُمْ في بَعْضٍ إِذْ سَمِعُوا مُنَادِيًا: أَقْبِلُوا إِلَى الْحِسَابِ.

﴿ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ﴾[5] عَنْ قَتَادَةَ: مُنْصَرِفِينَ عَنْ مَوْقِفِ الْحِسَابِ إِلَى النَّارِ.

وَعَنْ مُجَاهِدٍ: فَارِّينَ عَنِ النَّارِ غَيْرِ مُعْجِزِينَ.

﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾[6]

هُوَ يُوسُفُ بْنُ يَعْقُوبَ –عَلَيْهِمَا السَّلَامُ–. وَقِيلَ: هُوَ يُوسُفُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ بْنِ يُوسُفَ بْنِ يَعْقُوبَ: أَقَامَ فِيهِمْ نَبِيًّا عِشْرِينَ سَنَةً. وَقِيلَ: إِنَّ فِرْعَوْنَ مُوسَهُوَ فِرْعَوْنُ يُوسُفَ، عَمَّرَ إِلَى زَمَنِهِ، وَقِيلَ: هُوَ فِرْعَوْنُ آخَرُ. وَبَّخَهُمْ بِأَنْ يُوسُفَ أَتَاكُمْ بِالْمُعْجِزَاتِ فَشَكَكْتُمْ فيها وَلَمْ تَزَالُوا شَاكِّينَ كَافِرِينَ.

---

[1] سورة الزُّمَرُ، الآية 77.

[2] سورة الْأَعْرَافُ، الآية 44.

[3] سورة الْأَعْرَافُ، الآية 50.

[4] سورة عَبَسَ، الآية 5.

[5] سورة الْمُؤْمِنِ، الآية .

[6] سورة الْمُؤْمِنِ، الآية .

﴿حَتَّى إِذَا هَلَكَ﴾[1]: قُبِضَ.

﴿قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولا﴾[2] حَكَمًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ مِنْ غَيْرِ بُرْهَانٍ وَتَقْدِمَةِ عَزْمٍ مِنْكُمْ عَلَى تَكْذِيبِ الرُّسُلِ، فَإِذَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ جَحَدْتُمْ وَكَذَّبْتُمْ بِنَاءً عَلَى حُكْمِكُمُ الْبَاطِلِ الَّذِي أَسَّسْتُمُوهُ.

وَلَيْسَ قَوْلُهُمْ: ﴿لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولا﴾[3] بِتَصْدِيقٍ لِرِسَالَةِ يُوسُفَ، وَكَيْفَ وَقَدْ شَكُّوا فيها وَكَفَرُوا بِهَا، وَإِنَّمَا هُوَ تَكْذِيبٌ لِرِسَالَةِ مَنْ بَعْدَهُ مَضْمُومٌ إِلَى تَكْذِيبِ رِسَالَتِهِ؟

وَقُرِئَ: (أَلَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ) عَلَى إِدْخَالِ هَمْزَةِ الِاسْتِفْهَامِ عَلَى حَرْفِ النَّفي، كَأَنَّ بَعْضَهُمْ يُقَرِّرُ بَعْضًا بِنَفى الْبَعْثِ.

ثُمَّ قَالَ: ﴿كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ﴾[4]، أَيْ: مِثْلُ هَذَا الْخُذْلَانِ الْمُبِينِ يَخْذُلُ اللَّهُ كُلَّ مُسْرِفٍ في عِصْيَانِهِ مُرْتَابٍ في دِينِهِ.

﴿ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ﴾[5] بَدَلٌ مِنْ ﴿مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ﴾[6].

فَإِنْ قُلْتَ: كَيْفَ جَازَ إِبْدَالُهُ مِنْهُ وَهُوَ جَمْعٌ وَذَاكَ مُوَحَّدٌ؟

قُلْتُ: لِأَنَّهُ لَا يُرِيدُ مُسْرِفًا وَاحِدًا، فَكَأَنَّهُ قَالَ: كُلُّ مُسْرِفٍ.

فَإِنْ قُلْتَ: فَمَا فَاعِلُ ﴿كَبُرَ﴾[7]؟

قُلْتُ: ضَمِيرُ ﴿مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ﴾[8].

فَإِنْ قُلْتَ: أَمَا قُلْتَ: هُوَ جَمْعٌ، وَلِهَذَا أُبْدِلَتْ مِنْهُ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ؟

قُلْتُ: بَلَى هُوَ جَمْعٌ في الْمَعْنَى.

وَأَمَّا اللَّفْظُ فَمُوَحَّدٌ، فَحَمَلَ الْبَدَلَ عَلَى أَنَّ مَعْنَاهُ، وَالضَّمِيرُ الرَّاجِعُ إِلَيْهِ عَلَى لَفْظِهِ، وَلَيْسَ بِبِدَعٍ أَنْ يُحْمَلَ عَلَى اللَّفْظِ تَارَةً وَعَلَى الْمَعْنَى أُخْرَى، وَلَهُ نَظَائِرُ، وَيَجُوزُ أَنْ

---

1 سورة الْمُؤْمِن، الآية .

2 سورة الْمُؤْمِن، الآية .

3 سورة الْمُؤْمِن، الآية .

4 سورة الْمُؤْمِن، الآية .

5 سورة الْمُؤْمِن، الآية .

6 سورة الْمُؤْمِن، الآية .

7 سورة الْمُؤْمِن، الآية .

8 سورة الْمُؤْمِن، الآية .

يَرْفَعَ ﴿الَّذِينَ يُجَادِلُونَ﴾[1] عَلَى الِابْتِدَاءِ، وَلَا بُدَّ فِي هَذَا الْوَجْهِ مِنْ حَذْفِ مُضَافٍ يَرْجِعُ إِلَيْهِ الضَّمِيرُ فِي كَبُرَ، تَقْدِيرُهُ: جِدَالُ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ كَبُرَ مَقْتًا.

وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ ﴿الَّذِينَ يُجَادِلُونَ﴾[2] مُبْتَدَأً، وَ﴿بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ﴾[3] خَبَرًا، وَفَاعِلُ كَبُرَ قَوْلُهُ: ﴿كَذَلِكَ﴾[4]، أَيْ: كَبُرَ مَقْتًا مِثْلُ ذَلِكَ الْجِدَالِ.

وَ﴿يَطْبَعُ اللَّهُ﴾[5] كَلَامٌ مُسْتَأْنَفٌ، وَمَنْ قَالَ: كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ جِدَالُهُمْ، فَقَدْ حَذَفَ الْفَاعِلَ، وَالْفَاعِلُ لَا يَصِحُّ حَذْفُهُ.

وَفِي ﴿كَبُرَ مَقْتًا﴾[6]: ضَرْبٌ مِنَ التَّعَجُّبِ وَالِاسْتِعْظَامِ لِجِدَالِهِمْ، وَالشَّهَادَةُ عَلَى خُرُوجِهِ مِنْ حَدِّ إِشْكَالِهِ مِنَ الْكَبَائِرِ. وَقُرِئَ: (سُلْطَانُ) بِضَمِّ اللَّامِ. وَقُرِئَ: (قَلْبٍ) بِالتَّنْوِينِ، وَوَصَفَ الْقَلْبَ بِالتَّكَبُّرِ وَالتَّجَبُّرِ، لِأَنَّهُ مَرْكَزُهُمَا وَمَنْبَعُهُمَا، كَمَا تَقُولُ: رَأَتِ الْعَيْنُ، وَسَمِعَتِ الْأُذُنُ.

وَنَحْوُهُ قَوْلُهُ -عَزَّ وَجَلَّ-: ﴿فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ﴾[7]، وَإِنْ كَانَ الْآثِمُ هُوَ الْجُمْلَةُ.

وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ عَلَى حَذْفِ الْمُضَافِ، أَيْ: عَلَى كُلِّ ذِي قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ، تَجْعَلُ الصِّفَةَ لِصَاحِبِ الْقَلْبِ.

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ﴾[8]

---

1 سورة الْمُؤْمِن، الآية .

2 سورة الْمُؤْمِن، الآية .

3 سورة الْمُؤْمِن، الآية .

4 سورة الْمُؤْمِن، الآية .

5 سورة الْمُؤْمِن، الآية .

6 سورة الْمُؤْمِن، الآية .

7 سورة الْبَقَرَة، الآية 283.

8 سورة الْمُؤْمِن، الآية .

قِيلَ: الصَّرْحُ: الْبِنَاءُ الظَّاهِرُ الَّذِي لَا يَخْفى عَلَى النَّاظِرِ وَإِنَّ بَعُدَ، اشْتَقُّوهُ مِنْ صَرْحِ الشَّيْءِ إِذَا ظَهَرَ، وَ﴿أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ﴾[1] طُرُقُهَا وَأَبْوَابُهَا وَمَا يُؤَدِّي إِلَيْهَا، وَكُلُّ مَا أَدَّاكَ إِلَى شَيْءٍ فَهُوَ سَبَبٌ إِلَيْهِ، كَالرِّشَاءِ وَنَحْوِهِ.

فَإِنْ قُلْتَ: مَا فَائِدَةُ هَذَا التَّكْرِيرِ، وَلَوْ قِيلَ: لَعَلِّي أَبْلُغُ أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ لَأَجْزَأَ؟

قُلْتُ: إِذَا أَبْهَمَ الشَّيْءَ ثُمَّ أَوْضَحَ كَانَ تَفْخِيمًا لِشَأْنِهِ، فَلَمَّا أَرَادَ تَفْخِيمَ مَا أَمَلَ بُلُوغَهُ مِنْ أَسْبَابِ السَّمَاوَاتِ أَبْهَمَهَا ثُمَّ أَوْضَحَهَا، وَلِأَنَّهُ لَمَّا كَانَ بُلُوغُهَا أَمْرًا عَجِيبًا أَرَادَ أَنْ يُورِدَهُ عَلَى نَفْسٍ مُتَشَوِّقَةٍ إِلَيْهِ، لِيُعْطِيَهُ السَّامِعُ حَقَّهُ مِنَ التَّعَجُّبِ، فَأَبْهَمَهُ لِيَشُوفَ إِلَيْهِ نَفْسُ هَامَانَ، ثُمَّ أَوْضَحَهُ. وَقُرِئَ: (فَأَطَّلِعَ) بِالنَّصْبِ عَلَى جَوَابِ التَّرَجِّي، تَشْبِيهًا لِلتَّرَجِّي بِالتَّمَنِّي.

وَمِثْلُ ذَلِكَ التَّزْيِينِ وَذَلِكَ الصَّدِّ ﴿زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ﴾[2]، وَالْمُزَيِّنُ: إِمَّا الشَّيْطَانُ بِوَسْوَسَتِهِ، كَقَوْلِهِ –تَعَالَى–: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ﴾[3] أَوِ اللَّهُ –تَعَالَى– عَلَى وَجْهِ التَّسْبِيبِ، لِأَنَّهُ مَكَّنَ الشَّيْطَانَ وَأَمْهَلَهُ. وَمِثْلُهُ: ﴿زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ﴾[4].

وَقُرِئَ: (وَزُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ عَمَلِهِ) عَلَى الْبِنَاءِ لِلْفَاعِلِ وَالْفِعْلُ لِلَّهِ –عَزَّ وَجَلَّ–، دَلَّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ: ﴿إِلَى إِلَهِ مُوسَى﴾[5] وَصَدَّ، بِفَتْحِ الصَّادِ وَضَمِّهَا وَكَسْرِهَا، عَلَى نَقْلِ حَرَكَةِ الْعَيْنِ إِلَى الْفَاءِ، كَمَا قِيلَ: قِيلَ. وَالتَّبَابُ: الْخُسْرَانُ وَالْهَلَاكُ. وَصَدٌّ: مَصْدَرٌ مَعْطُوفٌ عَلَى سُوءِ عَمَلِهِ وَصَدُّوا هُوَ وَقَوْمُهُ .

﴿وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ﴾[6]

---

[1] سورة الْمُؤْمِن، الآية .

[2] سورة الْمُؤْمِن، الآية .

[3] سورة النَّمْل، الآية 34.

[4] سورة النَّمْل، الآية 44.

[5] سورة الْمُؤْمِن، الآية .

[6] سورة الْمُؤْمِن، الآية .

قَالَ: ﴿أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾[1]، فَأَجْمَلَ لَهُمْ، ثُمَّ فَسَّرَ فَافْتُتِحَ بِذَمِّ الدُّنْيَا وَتَصْغِيرِ شَأْنِهَا، لِأَنَّ الْإِخْلَادَ إِلَيْهَا هُوَ أَصْلُ الشَّرِّ كُلِّهِ، وَمِنْهُ يَتَشَعَّبُ جَمِيعُ مَا يُؤَدِّي إِلَى سَخَطِ اللَّهِ وَيَجْلِبُ الشَّقَاوَةَ في الْعَاقِبَةِ. وَثَنَّى بِتَعْظِيمِ الْآخِرَةِ وَالِاطِّلَاعِ عَلَى حَقِيقَتِهَا، وَأَنَّهَا هِيَ الْوَطَنُ وَالْمُسْتَقَرُّ. وَذِكْرُ الْأَعْمَالِ سَيِّئِهَا وَحَسَنِهَا وَعَاقِبَةِ كُلٍّ مِنْهُمَا، لِيُثَبِّطَ عَمَّا يَتْلَفُ وَيَنْشَطُ لِمَا يَزْلُفُ، ثُمَّ وَازَنَ بَيْنَ الدَّعْوَتَيْنِ: دَعْوَةٍ إِلَى دِينِ اللَّهِ الَّذِي ثَمَرَتُهُ النَّجَاةُ، وَدَعْوَتِهِمْ إِلَى اتِّخَاذِ الْأَنْدَادِ الَّذِي عَاقِبَتُهُ النَّارُ، وَحَذَّرَ وَأَنْذَرَ، وَاجْتَهَدَ في ذَلِكَ وَاحْتَشَدَ، لَا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ اسْتَثْنَاهُ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ، وَجَعَلَهُ حُجَّةً عَلَيْهِمْ وَعِبْرَةً لِلْمُعْتَبِرِينَ، وَهُوَ قَوْلُهُ –تَعَالَى–: ﴿فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ﴾[2].

وَفِي هَذَا أَيْضًا دَلِيلٌ بَيِّنٌ عَلَى أَنَّ الرَّجُلَ كَانَ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ. وَالرَّشَادُ نَقِيضُ الْغَيِّ. وَفِيهِ تَعْرِيضٌ شَبِيهٌ بِالتَّصْرِيحِ أَنَّ مَا عَلَيْهِ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ هُوَ سَبِيلُ الْغَيِّ.

## ﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[3]

﴿فَلا يُجْزَى إِلا مِثْلَهَا﴾[4]، لِأَنَّ الزِّيَادَةَ عَلَى مِقْدَارِ جَزَاءِ السَّيِّئَةِ قَبِيحَةٌ، لِأَنَّهَا ظُلْمٌ. وَأَمَّا الزِّيَادَةُ عَلَى مِقْدَارِ جَزَاءِ الْحَسَنَةِ فَحَسَنَةٌ، لِأَنَّهَا فَضْلٌ. قُرِئَ: (يَدْخُلُونَ) وَيُدْخَلُونَ.

﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[5] وَاقِعٌ في مُقَابَلَةِ إِلَّا مِثْلَهَا، يَعْنِي: أَنَّ جَزَاءَ السَّيِّئَةِ لَهَا حِسَابٌ وَتَقْدِيرٌ، لِئَلَّا يَزِيدَ عَلَى الِاسْتِحْقَاقِ، فَأَمَّا جَزَاءُ الْعَمَلِ الصَّالِحِ فَبِغَيْرِ تَقْدِيرٍ وَحِسَابٍ، بَلْ مَا شِئْتَ مِنَ الزِّيَادَةِ عَلَى الْحَقِّ وَالْكَثْرَةِ وَالسِّعَةِ.

---

1 سورة الْمُؤْمِنِ، الآية .
2 سورة الْمُؤْمِنِ، الآية .
3 سورة الْمُؤْمِنِ، الآية .
4 سورة الْمُؤْمِنِ، الآية .
5 سورة الْمُؤْمِنِ، الآية .

﴿وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ﴾[1]

فَإِنْ قُلْتَ: لِمَ كَرَّرَ نِدَاءَ قَوْمِهِ؟ وَلِمَ جَاءَ بِالْوَاوِ فِي النِّدَاءِ الثَّالِثِ دُونَ الثَّانِي؟ قُلْتُ: أَمَّا تَكْرِيرُ النِّدَاءِ فَفِيهِ زِيَادَةُ تَنْبِيهٍ لَهُمْ وَإِيقَاظٍ عَنْ سَنَةِ الْغَفْلَةِ. وَفِيهِ: أَنَّهُمْ قَوْمُهُ وَعَشِيرَتُهُ وَهُمْ فِيمَا يُوبِقُهُمْ، وَهُوَ يَعْلَمُ وَجْهَ خَلَاصِهِمْ، وَنَصِيحَتُهُمْ عَلَيْهِ وَاجِبَةٌ، فَهُوَ يَتَحَزَّنُ لَهُمْ وَيَتَلَطَّفُ بِهِمْ، وَيَسْتَدْعِي بِذَلِكَ أَنْ لَا يَتَّهِمُوهُ، فَإِنَّ سُرُورَهُمْ سُرُورُهُ، وَغَمَّهُمْ غَمُّهُ، وَيَنْزِلُوا عَلَى تَنْصِيحِهِ لَهُمْ، كَمَا كَرَّرَ إِبْرَاهِيمُ –عَلَيْهِ السَّلَامُ– فِي نَصِيحَةِ أَبِيهِ: "يَا أَبَتِ".

وَأَمَّا الْمَجِيءُ بِالْوَاوِ الْعَاطِفَةِ، فَلِأَنَّ الثَّانِي دَاخِلٌ عَلَى كَلَامٍ، وَهُوَ بَيَانٌ لِلْمُجْمَلِ وَتَفْسِيرٌ لَهُ، فَأَعْطَى الدَّاخِلُ عَلَيْهِ حُكْمَهُ فِي امْتِنَاعِ دُخُولِ الْوَاوِ، وَأَمَّا الثَّالِثُ: فَدَاخِلٌ عَلَى كَلَامٍ لَيْسَ بِتِلْكَ الْمَثَابَةِ. يُقَالُ: دَعَاهُ إِلَى كَذَا وَدَعَاهُ لَهُ، كَمَا تَقُولُ: هَدَاهُ إِلَى الطَّرِيقِ وَهَدَاهُ لَهُ.

﴿مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ﴾[2]، أَيْ: بِرُبُوبِيَّتِهِ، وَالْمُرَادُ بِنَفْيِ الْعِلْمِ: نَفْيُ الْمَعْلُومِ، كَأَنَّهُ قَالَ: وَأُشْرِكُ بِهِ مَا لَيْسَ بِإِلَهٍ، وَمَا لَيْسَ بِإِلَهٍ كَيْفَ يَصِحُّ أَنْ يَعْلَمَ إِلَهًا.

﴿لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾[3]

﴿لَا جَرَمَ" سِيَاقُهُ عَلَى مَذْهَبِ الْبَصْرِيِّينَ: أَنْ يَجْعَلَ "لَا" رَدًّا لِمَا دَعَاهُ إِلَيْهِ قَوْمُهُ. وَجَرَمَ: فِعْلٌ بِمَعْنَى حُقَّ، وَأَنَّ مَعَ مَا فِي حَيِّزِهِ فَاعِلِهِ، أَيْ: حَقٌّ وَوَجَبَ بُطْلَانُ دَعْوَتِهِ، أَوْ بِمَعْنَى: كَسَبَ، مِنْ قَوْلِهِ –تَعَالَى–: ﴿وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ

---

[1] سورة الْمُؤْمِن، الآية .

[2] سورة الْمُؤْمِن، الآية .

[3] سورة الْمُؤْمِن، الآية .

الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا﴾[1]، أَيْ: كَسَبَ ذَلِكَ الدُّعَاءُ إِلَيْهِ بُطْلَانَ دَعْوَتِهِ، عَلَى مَعْنَى أَنَّهُ مَا حَصَلَ مِنْ ذَلِكَ إِلَّا ظُهُورُ بُطْلَانِ دَعْوَتِهِ.

وَيَجُوزُ أَنْ يُقَالَ: أَنَّ لَا جَرَمَ، نَظِيرُ: لَا بُدَّ، فِعْلٌ مِنَ الْجَرْمِ، وَهُوَ الْقَطْعُ، كَمَا أَنَّ بُدًّا فِعْلٌ مِنَ التَّبْدِيدِ وَهُوَ التَّفْرِيقُ، فَكَمَا أَنَّ مَعْنَى: لَا بُدَّ أَنَّكَ تَفْعَلُ كَذَا، بِمَعْنَى: لَا بُعْدَ لَكَ مِنْ فِعْلِهِ، فَكَذَلِكَ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ، أَيْ: لَا قَطْعَ لِذَلِكَ، بِمَعْنَى أَنَّهُمْ أَبَدًا يَسْتَحِقُّونَ النَّارَ لَا انْقِطَاعَ لِاسْتِحْقَاقِهِمْ وَلَا قَطْعَ، لِبُطْلَانِ دَعْوَةِ الْأَصْنَامِ، أَيْ: لَا تَزَالُ بَاطِلَةً لَا يَنْقَطِعُ ذَلِكَ فَيَنْقَلِبُ حَقًّا.

وَرُوِيَ عَنِ الْعَرَبِ: لَا جَرَمَ أَنَّهُ يَفْعَلُ بِضَمِّ الْجِيمِ وَسُكُونِ الرَّاءِ، بِزِنَةِ بُدٍّ، وَفَعَلَ وَفُعْلَ: أَخَوَانِ. كَرَشَدَ وَرُشْدَ، وَعَدَمَ وَعُدْمَ.

﴿لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ﴾[2]، مَعْنَاهُ: أَنَّ مَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ إِلَى نَفْسِهِ قَطُّ، أَيْ: مِنْ حَقِّ الْمَعْبُودِ بِالْحَقِّ أَنْ يَدْعُوَ إِلَى طَاعَتِهِ، ثُمَّ يَدْعُو الْعِبَادَ إِلَيْهَا إِظْهَارًا لِدَعْوَةِ رَبِّهِمْ وَمَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ وَإِلَى عِبَادَتِهِ، لَا يَدْعُو هُوَ إِلَى ذَلِكَ وَلَا يَدَّعِي الرُّبُوبِيَّةَ، وَلَوْ كَانَ حَيَوَانًا نَاطِقًا لَضَجَّ مِنْ دُعَائِكُمْ.

وَقَوْلُهُ: ﴿فِي الدُّنْيَا وَلا فِي الآخِرَةِ﴾[3]، يَعْنِي أَنَّهُ فِي الدُّنْيَا جَمَادٌ لَا يَسْتَطِيعُ شَيْئًا مِنْ دُعَاءِ غَيْرِهِ، وَفِي الْآخِرَةِ: إِذَا أَنْشَأَهُ اللَّهُ حَيَوَانًا، تَبَرَّأَ مِنَ الدُّعَاةِ إِلَيْهِ وَمِنْ عَبَدَتِهِ . وَقِيلَ: مَعْنَاهُ لَيْسَ لَهُ اسْتِجَابَةُ دَعْوَةٍ تَنْفَعُ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ. أَوْ دَعْوَةٍ مُسْتَجَابَةٍ، جَعَلَتِ الدَّعْوَةَ الَّتِي لَا اسْتِجَابَةَ لَهَا وَلَا مَنْفَعَةَ فِيهَا كَلَا دَعْوَةَ، أَوْ سُمِّيَتِ الِاسْتِجَابَةُ بِاسْمِ الدَّعْوَةِ، كَمَا سَمَّى الْفِعْلَ الْمُجَازِيَّ عَلَيْهِ بِاسْمِ الْجَزَاءِ فِي قَوْلِهِمْ: كَمَا تَدِينُ تُدَانُ. قَالَ اللَّهُ – تَعَالَى–: ﴿لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ﴾[4].

﴿الْمُسْرِفِينَ﴾[5] عَنْ قَتَادَةَ: الْمُشْرِكِينَ. وَعَنْ مُجَاهِدٍ: السَّفَّاكِينَ لِلدِّمَاءِ بِغَيْرِ حَلِّهَا. وَقِيلَ: الَّذِينَ غَلَبَ شَرُّهُمْ خَيْرَهُمْ هُمُ الْمُسْرِفُونَ. وَقُرِئَ: (فَسَتَذْكُرُونَ). أَيْ: فَسَيَذْكُرُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا.

---

[1] سورة الْمَائِدَةُ، الآية 22.

[2] سورة الْمُؤْمِنِ، الآية .

[3] سورة الْمُؤْمِنِ، الآية .

[4] سورة الرَّعْدُ، الآية 14.

[5] سورة الْمُؤْمِنِ، الآية .

﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ﴾[1]، لِأَنَّهُمْ تَوَعَّدُوهُ.

## ﴿فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾[2]

﴿فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا﴾[3] شَدَائِدَ مَكْرِهِمْ وَمَا هَمُّوا بِهِ مِنْ إِلْحَاقِ أَنْوَاعِ الْعَذَابِ بِمَنْ خَالَفَهُمْ. وَقِيلَ: نَجَا مَعَ مُوسَى.

﴿وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ﴾[4] مَا هَمُّوا بِهِ مِنْ تَعْذِيبِ الْمُسْلِمِينَ، وَرَجَعَ عَلَيْهِمْ كَيْدُهُمْ.

﴿النَّارُ﴾[5] بَدَلٌ مِنْ سُوءِ الْعَذَابِ. أَوْ خَبَرٌ مُبْتَدَأٍ مَحْذُوفٍ، كَأَنَّ قَائِلًا قَالَ: مَا سِوَى الْعَذَابِ؟ فَقِيلَ: هُوَ النَّارُ. أَوْ مُبْتَدَأٌ خَبَرِهِ ﴿يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا﴾[6].

وَفِي هَذَا الْوَجْهِ تَعْظِيمٌ لِلنَّارِ وَتَهْوِيلٌ مِنْ عَذَابِهَا، وَعَرْضِهِمْ عَلَيْهَا: إِحْرَاقُهُمْ بِهَا. يُقَالُ: عَرَضَ الْإِمَامُ الْأَسَارَى عَلَى السَّيْفِ إِذَا قَتَلَهُمْ بِهِ، وَقُرِئَ: (النَّارَ) بِالنَّصْبِ، وَهِيَ تُعَضِّدُ الْوَجْهَ الْأَخِيرَ. وَتَقْدِيرُهُ: يَدْخُلُونَ النَّارَ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا، وَيَجُوزُ أَنْ يَنْتَصِبَ عَلَى الِاخْتِصَاصِ.

﴿غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾[7] فِي هَذَيْنِ الْوَقْتَيْنِ يُعَذَّبُونَ بِالنَّارِ، وَفِي مَا بَيْنَ ذَلِكَ اللَّهُ أَعْلَمُ بِحَالِهِمْ، فَإِمَّا أَنْ يُعَذَّبُوا بِجِنْسٍ آخَرَ مِنَ الْعَذَابِ، أَوْ يُنَفَّسَ عَنْهُمْ.

---

1 سورة الْمُؤْمِنِ، الآية .
2 سورة الْمُؤْمِنِ، الآية .
3 سورة الْمُؤْمِنِ، الآية .
4 سورة الْمُؤْمِنِ، الآية .
5 سورة الْمُؤْمِنِ، الآية .
6 سورة الْمُؤْمِنِ، الآية .
7 سورة الْمُؤْمِنِ، الآية .

وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ ﴿غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾[1] عِبَارَةٌ عَنِ الدَّوَامِ، هَذَا مَا دَامَتِ الدُّنْيَا، فَإِذَا قَامَتِ السَّاعَةُ قِيلَ لَهُمْ: "ادْخُلُوا" يَا ﴿آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ﴾[2] عَذَابَ جَهَنَّمَ. وَقُرِئَ: (أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ) أَيْ: يُقَالُ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ: أَدْخِلُوهُمْ.

فَإِنْ قُلْتَ: قَوْلُهُ: ﴿وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ﴾[3]، مَعْنَاهُ: أَنَّهُ رَجَعَ عَلَيْهِمْ مَا هَمُّوا بِهِ مِنَ الْمَكْرِ بِالْمُسْلِمِينَ، كَقَوْلِ الْعَرَبِ: مِنْ حَفَرٍ لِأَخِيهِ جُبًّا وَقَعَ فيهِ مُنْكَبًّا، فَإِذَا فَسَّرَ سُوءَ الْعَذَابِ بِنَارِ جَهَنَّمَ؛ لَمْ يَكُنْ مَكْرُهُمْ رَاجِعًا عَلَيْهِمْ، لِأَنَّهُمْ لَا يُعَذَّبُونَ بِجَهَنَّمَ.

قُلْتُ: يَجُوزُ أَنْ يَهِمَّ الْإِنْسَانُ بِأَنْ يُغْرِقَ قَوْمًا فيحْرَقُ بِالنَّارِ، وَيُسَمَّى ذَلِكَ حَيْقًا، لِأَنَّهُ هَمَّ بِسُوءٍ فَأَصَابَهُ مَا يَقَعُ عَلَيْهِ اسْمُ السُّوءِ. وَلَا يُشْتَرَطُ في الْحَيْقِ أَنْ يَكُونَ الْحَائِقُ ذَلِكَ السُّوءَ بِعَيْنِهِ، وَيَجُوزُ أَنْ يَهِمَّ فِرْعَوْنُ –لَمَّا سَمِعَ إِنْذَارَ الْمُسْلِمِينَ بِالنَّارِ، وَقَوْلُ الْمُؤْمِنِ: ﴿وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾[4]، فيفْعَلُ نَحْوَ مَا فَعَلَ نَمْرُودُ وَيُعَذِّبُهُمْ بِالنَّارِ، فَحَاقَ بِهِ مِثْلَ مَا أَضْمَرَهُ بِفِعْلِهِ. وَيُسْتَدَلُّ بِهَذِهِ الْآيَةِ عَلَى إِثْبَاتِ عَذَابِ الْقَبْرِ.

﴿وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِنَ النَّارِ﴾[5]

وَاذْكُرْ وَقْتَ يَتَحَاجُّونَ "تَبَعًا" تِبَاعًا، كَخَدَمٍ في جَمْعِ خَادِمٍ، أَوْ ذَوِي تَبَعٍ، أَيْ: أَتْبَاعٍ، أَوْ وَصْفًا بِالْمَصْدَرِ.

﴿قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ﴾[6]

---

1 سورة الْمُؤْمِن، الآية .

2 سورة الْمُؤْمِن، الآية .

3 سورة الْمُؤْمِن، الآية .

4 سورة غَافِر، الآية 43.

5 سورة الْمُؤْمِن، الآية .

6 سورة الْمُؤْمِن، الآية .

وَقُرِئَ:(كُلًّا) عَلَى التَّأْكِيدِ لِاسْمِ إِنَّ، وَهُوَ مَعْرِفَةٌ، وَالتَّنْوِينُ عِوَضٌ مِنَ الْمُضَافِ إِلَيْهِ، يُرِيدُ: إِنَّا كُلَّنَا، أَوْ كُلَّنَا فيها.

فَإِنْ قُلْتَ: هَلْ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ "كُلًّا" حَالًا قَدْ عَمِلَ ﴿فيها﴾[1] فيها؟

قُلْتُ: لَا لِأَنَّ الظَّرْفَ لَا يَعْمَلُ فِي الْحَالِ مُتَقَدِّمَةً كَمَا يَعْمَلُ فِي الظَّرْفِ مُتَقَدِّمًا تَقُولُ: كُلُّ يَوْمٍ لَكَ ثَوْبٌ، وَلَا تَقُولُ: قَائِمًا فِي الدَّارِ زَيْدٌ.

﴿قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ﴾[2] قَضَى بَيْنَهُمْ وَفَصَلَ بِأَنْ أُدْخِلَ أَهْلَ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ وَأَهْلَ النَّارِ النَّارَ.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِنَ الْعَذَابِ قَالُوا أَوَ لَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَى قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾[3]

﴿لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ﴾[4] لِلْقُوَّامِ بِتَعْذِيبِ أَهْلِهَا.

فَإِنْ قُلْتَ: هَلَّا قِيلَ: الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَتِهَا؟

قُلْتُ: لِأَنَّ فِي ذِكْرِ جَهَنَّمَ تَهْوِيلًا وَتَفْظِيعًا، وَيُحْتَمَلُ أَنَّ جَهَنَّمَ هِيَ أَبْعَدُ النَّارِ قَعْرًا، مِنْ قَوْلِهِمْ: بِئْرٌ جِهْنَامَ بَعِيدَةُ الْقَعْرِ، وَقَوْلُهُمْ فِي النَّابِغَةِ: جِهْنَامُ، تَسْمِيَةٌ بِهَا، لِزَعْمِهِمْ أَنَّهُ يُلْقِي الشِّعْرَ عَلَى لِسَانِ الْمُنْتَسِبِ إِلَيْهِ، فَهُوَ بَعِيدُ الْغَوْرِ فِي عِلْمِهِ بِالشِّعْرِ، كَمَا قَالَ أَبُو نُوَاسٍ فِي خَلَفٍ الْأَحْمَرِ:

قُلَيْذَمٌ مِنَ الْعَيَالِيمِ الْخُسُـــــــفْ

وَفِيهَا أَعْتَى الْكُفَّارِ وَأَطْغَاهُمْ، فَلَعَلَّ الْمَلَائِكَةَ الْمُوَكَّلِينَ بِعَذَابِ أُولَئِكَ أَجْوَبُ دَعْوَةً لِزِيَادَةِ قُرْبِهِمْ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى، فَلِهَذَا تَعَمَّدَهُمْ أَهْلُ النَّارِ بِطَلَبِ الدَّعْوَةِ مِنْهُمْ.

---

1 سورة الْمُؤْمِن، الآية .

2 سورة الْمُؤْمِن، الآية .

3 سورة الْمُؤْمِن، الآية .

4 سورة الْمُؤْمِن، الآية .

﴿أَوَ لَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ﴾[1] إِلْزَامٌ لِلْحُجَّةِ وَتَوْبِيخٌ، وَأَنَّهُمْ خَلَّفُوا وَرَاءَهُمْ أَوْقَاتَ الدُّعَاءِ وَالتَّضَرُّعِ، وَعَطَّلُوا الْأَسْبَابَ الَّتِي يَسْتَجِيبُ اللَّهُ لَهَا الدَّعَوَاتِ.

﴿قَالُوا فَادْعُوا﴾[2] أَنْتُمْ، فَإِنَّا لَا نَجْتَرِئُ عَلَى ذَلِكَ وَلَا نَشْفَعُ إِلَّا بِشَرْطَيْنِ: كَوْنُ الْمَشْفُوعِ لَهُ غَيْرَ ظَالِمٍ، وَالْإِذْنُ فِي الشَّفَاعَةِ مَعَ مُرَاعَاةِ وَقْتِهَا، وَذَلِكَ قَبْلَ الْحُكْمِ الْفَاصِلِ بَيْنَ الْفَرِيقَيْنِ، وَلَيْسَ قَوْلُهُمْ "فَادْعُواْ" لِرَجَاءِ الْمَنْفَعَةِ، وَلَكِنْ لِلدَّلَالَةِ عَلَى الْخَيْبَةِ، فَإِنَّ الْمَلِكَ الْمُقَرَّبَ إِذَا لَمْ يُسْمَعْ دُعَاؤُهُ، فَكَيْفَ يُسْمَعُ دُعَاءُ الْكَافِرِ.

## ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ يَوْمَ لا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾[3]

﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾[4]، أَيْ: فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، يَعْنِي: أَنَّهُ يَغْلِبُهُمْ فِي الدَّارَيْنِ جَمِيعًا بِالْحُجَّةِ وَالظَّفَرِ عَلَى مُخَالِفِيهِمْ، وَإِنْ غَلَبُوا فِي الدُّنْيَا فِي بَعْضِ الْأَحَايِينِ امْتِحَانًا مِنَ اللَّهِ، فَالْعَاقِبَةُ لَهُمْ، وَيُتِيحُ اللَّهُ مَنْ يَقْتَصُّ مِنْ أَعْدَائِهِمْ وَلَوْ بَعْدَ حِينٍ.

وَالْأَشْهَادُ: جَمْعُ شَاهِدٍ، كَصَاحِبٍ وَأَصْحَابٍ، يُرِيدُ: الْحَفَظَةَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ وَالْأَنْبِيَاءِ وَالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–، ﴿لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾[5].

وَالْيَوْمُ الثَّانِي بَدَلٌ مِنَ الْأَوَّلِ، يُحْتَمَلُ أَنَّهُمْ يَعْتَذِرُونَ بِمَعْذِرَةٍ وَلَكِنَّهَا لَا تَنْفَعُ لِأَنَّهَا بَاطِلَةٌ، وَأَنَّهُمْ لَوْ جَاءُوا بِمَعْذِرَةٍ لَمْ تَكُنْ مَقْبُولَةً لِقَوْلِهِ –تَعَالَى–: ﴿وَلا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾[6].

﴿وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ﴾[7] الْبُعْدُ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ.

---

1 سورة الْمُؤْمِنِ، الآية .
2 سورة الْمُؤْمِنِ، الآية .
3 سورة الْمُؤْمِنِ، الآية .
4 سورة الْمُؤْمِنِ، الآية .
5 سورة الْبَقَرَةُ، الآية 143.
6 سورة الْمُرْسَلَاتُ، الآية 36.
7 سورة الْمُؤْمِنِ، الآية .

﴿وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾[1]، أَيْ: سُوءُ دَارِ الْآخِرَةِ، وَهُوَ عَذَابُهَا. وَقُرِئَ: (تَقُومُ)، وَ(لَا تَنْفَعُ)، بِالتَّاءِ وَالْيَاءِ.

## ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَى وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ هُدًى وَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾[2]

يُرِيدُ بِالْهُدَى: جَمِيعُ مَا آتَاهُ فِي بَابِ الدِّينِ مِنَ الْمُعْجِزَاتِ وَالتَّوْرَاةِ وَالشَّرَائِعِ. "وَأَوْرَثْنَا" وَتَرَكْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ "الْكِتَابِ" أَيِ: التَّوْرَاةُ.

﴿هُدًى وَذِكْرَى﴾[3] إِرْشَادًا وَتَذْكِرَةً، وَانْتِصَابُهُمَا عَلَى الْمَفْعُولِ لَهُ أَوْ عَلَى الْحَالِ. وَأُولُو الْأَلْبَابِ: الْمُؤْمِنُونَ بِهِ الْعَامِلُونَ بِمَا فِيهِ.

## ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾[4]

﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾[5]، يَعْنِي أَنَّ نُصْرَةَ الرُّسُلِ فِي ضَمَانِ اللَّهِ، وَضَمَانِ اللَّهِ لَا يُخْلَفُ، وَاسْتَشْهَدَ بِمُوسَى وَمَا آتَاهُ مِنْ أَسْبَابِ الْهُدَى وَالنُّصْرَةِ عَلَى فِرْعَوْنَ وَجُنُودِهِ، وَإِبْقَاءِ آثَارِ هُدَاهُ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَاللَّهُ نَاصِرُكَ كَمَا نَصَرَهُمْ، وَمُظْهِرُكَ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ، وَمَبْلَغُ مُلْكِ أُمَّتِكَ مَشَارِقُ الْأَرْضِ وَمَغَارِبُهَا، فَاصْبِرْ عَلَى مَا يُجَرِّعُكَ قَوْمُكَ مِنَ الْغَصَصِ، فَإِنَّ الْعَاقِبَةَ لَكَ، وَمَا سَبَقَ بِهِ وَعْدِيَ مِنْ نُصْرَتِكَ وَإِعْلَاءِ كَلِمَتِكَ حَقٌّ، وَأَقْبَلَ عَلَى التَّقْوَى وَاسْتَدْرَكَ الْفُرُطَاتِ بِالِاسْتِغْفَارِ، وَدُمْ عَلَى عِبَادَةِ رَبِّكَ وَالثَّنَاءِ عَلَيْهِ ﴿بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾[6]، وَقِيلَ: هُمَا صَلَاتَا الْعَصْرِ وَالْفَجْرِ.

---

1 سورة الْمُؤْمِن، الآية .
2 سورة الْمُؤْمِن، الآية .
3 سورة الْمُؤْمِن، الآية .
4 سورة الْمُؤْمِن، الآية .
5 سورة الْمُؤْمِن، الآية .
6 سورة الْمُؤْمِن، الآية .

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾[1]

﴿إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلا كِبْرٌ﴾[2] إِلَّا تَكَبُّرٌ وَتَعَظُّمٌ، وَهُوَ إِرَادَةُ التَّقَدُّمِ وَالرِّيَاسَةِ، وَأَنْ لَا يَكُونُ أَحَدٌ فَوْقَهُمْ، وَلِذَلِكَ عَادُوكَ وَدَفَعُوا آيَاتِكَ خِيفَةَ أَنْ تَتَقَدَّمَهُمْ وَيَكُونُوا تَحْتَ يَدِكَ وَأَمْرِكَ وَنَهْيِكَ، لِأَنَّ النُّبُوَّةَ تَحْتَهَا كُلُّ مَلِكٍ وَرِيَاسَةٍ، أَوْ إِرَادَةِ أَنْ تَكُونَ لَهُمُ النُّبُوَّةُ دُونَكَ حَسَدًا وَبَغْيًا.

وَيَدُلُّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ –تَعَالَى–: ﴿لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ﴾[3] أَوْ إِرَادَةُ دَفْعِ الْآيَاتِ بِالْجِدَالِ.

﴿مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ﴾[4]، أَيْ: بِبَالِغِي مُوجِبَ الْكِبَرِ وَمُقْتَضِيهِ، وَهُوَ مُتَعَلِّقُ إِرَادَتِهِمْ مِنَ الرِّيَاسَةِ أَوِ النُّبُوَّةِ أَوْ دَفْعِ الْآيَاتِ.

وَقِيلَ: الْمُجَادِلُونَ هُمُ الْيَهُودُ، وَكَانُوا يَقُولُونَ: يَخْرُجُ صَاحِبُنَا الْمَسِيحُ بْنُ دَاوُدَ، يُرِيدُونَ الدَّجَّالَ، وَيَبْلُغُ سُلْطَانُهُ الْبَرَّ وَالْبَحْرَ، وَتَسِيرُ مَعَهُ الْأَنْهَارُ، وَهُوَ آيَةٌ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ فَيَرْجِعُ إِلَيْنَا الْمُلْكُ، فَسَمَّى اللَّهُ تَمَنِّيَهُمْ ذَلِكَ كِبْرًا، وَنَفَى أَنْ يَبْلُغُوا مُتَمَنَّاهُمْ.

﴿أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ﴾[5]، فَالْتَجَأَ إِلَيْهِ مِنْ كَيْدِ مَنْ يَحْسُدُكَ وَيَبْغِي عَلَيْكَ.

﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ﴾[6] لِمَا تَقُولُ، وَيَقُولُونَ: ﴿الْبَصِيرُ﴾[7] بِمَا تَعْمَلُ وَيَعْمَلُونَ، فَهُوَ نَاصِرُكَ عَلَيْهِمْ وَعَاصِمُكَ مِنْ شَرِّهِمْ.

---

1 سورة الْمُؤْمِن، الآية .
2 سورة الْمُؤْمِن، الآية .
3 سورة الْأَحْقَافُ، الآية 11.
4 سورة الْمُؤْمِن، الآية .
5 سورة الْمُؤْمِن، الآية .
6 سورة الْمُؤْمِن، الآية .
7 سورة الْمُؤْمِن، الآية .

﴿لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾[1]

فَإِنْ قُلْتَ: كَيْفَ اتَّصَلَ قَوْلُهُ: ﴿لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾[2] بِمَا قَبْلَهُ؟

قُلْتُ: إِنَّ مُجَادَلَتَهُمْ في آيَاتِ اللَّهِ كَانَتْ مُشْتَمِلَةً عَلَى إِنْكَارِ الْبَعْثِ، وَهُوَ أَصْلُ الْمُجَادَلَةِ وَمَدَارُهَا، فَحَجُّوا بِخَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، لِأَنَّهُمْ كَانُوا مُقِرِّينَ بِأَنَّ اللَّهَ خَالِقُهَا وَبِأَنَّهَا خُلُقٌ عَظِيمٌ لَا يُقَادِرُ قَدْرَهُ، وَخَلْقُ النَّاسِ بِالْقِيَاسِ إِلَيْهِ شَيْءٌ قَلِيلٌ مُهِينٌ، فَمَنْ قَدَرَ عَلَى خَلْقِهَا مَعَ عِظَمِهَا كَانَ عَلَى خَلْقِ الْإِنْسَانِ مَعَ مَهَانَتِهِ أَقْدَرُ، وَهُوَ أَبْلَغُ مِنَ الِاسْتِشْهَادِ بِخَلْقِ مِثْلِهِ.

﴿لا يَعْلَمُونَ﴾[3]، لِأَنَّهُمْ لَا يَنْظُرُونَ وَلَا يَتَأَمَّلُونَ لِغَلَبَةِ الْغَفْلَةِ عَلَيْهِمْ وَاتِّبَاعِهِمْ أَهْوَاءَهُمْ.

﴿وَمَا يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلا الْمُسِيءُ قَلِيلًا مَا تَتَذَكَّرُونَ﴾[4]

ضَرَبَ الْأَعْمَى وَالْبَصِيرَ مَثَلًا لِلْمُحْسِنِ وَالْمُسِيءِ.

وَقُرِئَ: (يَتَذَكَّرُونَ) بِالْيَاءِ وَالتَّاءِ، وَالتَّاءُ أَعَمُّ .

﴿إِنَّ السَّاعَةَ لآتِيَةٌ لا رَيْبَ فِيهَا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يُؤْمِنُونَ﴾[5]

---

1 سورة الْمُؤْمِنِ، الآية .

2 سورة الْمُؤْمِنِ، الآية .

3 سورة الْمُؤْمِنِ، الآية .

4 سورة الْمُؤْمِنِ، الآية .

5 سورة الْمُؤْمِنِ ، الآية .

﴿[1]لا رَيْبَ فِيهَا﴾[2] لَا بُدَّ مِنْ مَجِيئِهَا وَلَا مَحَالَةَ، وَلَيْسَ بِمُرْتَابٍ فيها، لِأَنَّهُ لَا بُدَّ مِنْ جَزَاءٍ.

﴿لا يُؤْمِنُونَ﴾[3] لَا يُصَدِّقُونَ بِهَا.

## ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾[4]

﴿ادْعُونِي﴾[5]: اعْبُدُونِي، وَالدُّعَاءُ بِمَعْنَى الْعِبَادَةِ كَثِيرٌ فِي الْقُرْآنِ، وَيَدُلُّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ –تَعَالَى–: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي﴾[6].

وَالِاسْتِجَابَةُ: الْإِثَابَةُ، وَفِي تَفْسِيرِ مُجَاهِدٍ: اعْبُدُونِي أُثِبْكُمْ.

وَعَنِ الْحَسَنِ –وَقَدْ سُئِلَ عَنْهَا–: اعْمَلُوا وَأَبْشِرُوا، فَإِنَّهُ حَقٌّ عَلَى اللَّهِ أَنْ يَسْتَجِيبَ لِلَّذِينِ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ.

وَعَنِ الثَّوْرِيِّ أَنَّهُ قِيلَ لَهُ: ادْعُ اللَّهَ، فَقَالَ: إِنَّ تَرْكَ الذُّنُوبِ هُوَ الدُّعَاءُ.

وَفِي الْحَدِيثِ: "إِذَا شَغَلَ عَبْدِي طَاعَتِي عَنِ الدُّعَاءِ، أَعْطَيْتُهُ أَفْضَلَ مَا أُعْطِي السَّائِلِينَ".

وَرَوَى النُّعْمَانُ بْنُ بَشِيرٍ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ–، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: "الدُّعَاءُ هُوَ الْعِبَادَةُ"، وَقَرَأَ هَذِهِ الْآيَةَ.

وَيَجُوزُ أَنْ يُرِيدَ الدُّعَاءَ وَالِاسْتِجَابَةَ عَلَى ظَاهِرِهِمَا، وَيُرِيدُ بِعِبَادَتِي: دُعَائِي، لِأَنَّ الدُّعَاءَ بَابٌ مِنَ الْعِبَادَةِ وَمِنْ أَفْضَلِ أَبْوَابِهَا، يُصَدِّقُهُ قَوْلُ ابْنِ عَبَّاسٍ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا–: أَفْضَلُ الْعِبَادَةِ الدُّعَاءُ.

---

1 سورة الْمُؤْمِن، الآية .
2 سورة الْمُؤْمِن، الآية .
3 سورة الْمُؤْمِن، الآية .
4 سورة الْمُؤْمِن، الآية .
5 سورة الْمُؤْمِن، الآية .
6 سورة الْمُؤْمِن، الآية .

وَعَنْ كَعْبٍ: أَعْطَى اللَّهُ هَذِهِ الْأُمَّةَ ثَلَاثَ خِلَالٍ لَمْ يُعْطَهُنَّ إِلَّا نَبِيًّا مُرْسَلًا كَانَ يَقُولُ لِكُلِّ نَبِيٍّ: أَنْتَ شَاهِدِي عَلَى خَلْقِي، وَقَالَ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ: ﴿لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾[1]، وَكَانَ يَقُولُ: مَا عَلَيْكَ مِنْ حَرَجٍ، وَقَالَ لَنَا: ﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ﴾[2]، وَكَانَ يَقُولُ: أُدْعُنِي أَسْتَجِبْ لَكَ، وَقَالَ لَنَا: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾[3].

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: وَحِّدُونِي أَغْفِرْ لَكُمْ، وَهَذَا تَفْسِيرٌ لِلدُّعَاءِ بِالْعِبَادَةِ، ثُمَّ لِلْعِبَادَةِ بِالتَّوْحِيدِ.

﴿دَاخِرِينَ﴾[4]: صَاغِرِينَ.

## ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ﴾[5]

﴿مُبْصِرًا﴾[6] مِنَ الْإِسْنَادِ الْمَجَازِيِّ، لِأَنَّ الْإِبْصَارَ فِي الْحَقِيقَةِ لِأَهْلِ النَّهَارِ.

فَإِنْ قُلْتَ: لِمَ قُرِنَ اللَّيْلُ بِالْمَفْعُولِ لَهُ، وَالنَّهَارُ بِالْحَالِ؟ وَهَلَّا كَانَا حَالَيْنِ أَوْ مَفْعُولًا لَهُمَا فيرَاعِي حَقَّ الْمُقَابَلَةِ؟

قُلْتُ: هُمَا مُتَقَابِلَانِ مِنْ حَيْثُ الْمَعْنَى، لِأَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا يُؤَدِّي مُؤَدَّى الْآخَرِ، لِأَنَّهُ لَوْ قِيلَ: لِتُبْصِرُوا فيهِ، فَاتَتِ الْفَصَاحَةُ الَّتِي فِي الْإِسْنَادِ الْمَجَازِيِّ، وَلَوْ قِيلَ: سَاكِنًا – وَاللَّيْلُ يَجُوزُ أَنْ يُوصَفَ بِالسُّكُونِ عَلَى الْحَقِيقَةِ.

أَلَا تَرَى إِلَى قَوْلِهِمْ: لَيْلٌ سَاجٍ، وَسَاكِنٌ لَا رِيحَ فيهِ، لَمْ تَتَمَيَّزِ الْحَقِيقَةُ مِنَ الْمَجَازِ؟

فَإِنْ قُلْتَ: فَهَلَّا قِيلَ: لِمُفَضَّلٍ، أَوْ لِمُتَفَضِّلٍ؟

قُلْتُ: لِأَنَّ الْغَرَضَ تَنْكِيرُ الْفَضْلِ، وَأَنْ يَجْعَلَ فَضْلًا لَا يُوَازِيهِ فَضْلٌ، وَذَلِكَ إِنَّمَا يَسْتَوِي بِالْإِضَافَةِ.

فَإِنْ قُلْتَ: فَلَوْ قِيلَ: وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ، فَلَا يَتَكَرَّرُ ذِكْرُ النَّاسِ؟

---

[1] سورة الْبَقَرَةُ، الآية 143.

[2] سورة الْمَائِدَةُ، الآية 6.

[3] سورة الْمُؤْمِنِ، الآية .

[4] سورة الْمُؤْمِنِ، الآية .

[5] سورة الْمُؤْمِنِ، الآية .

[6] سورة الْمُؤْمِنِ، الآية .

قُلْتُ: في هَذَا التَّكْرِيرِ تَخْصِيصٌ لِكُفْرَانِ النِّعْمَةِ بِهِمْ، وَأَنَّهُمْ هُمُ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ فَضْلَ اللَّهِ وَلَا يَشْكُرُونَهُ، كَقَوْلِهِ: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ﴾[1]، ﴿إِنَّ الإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ﴾[2]، ﴿إِنَّ الإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾[3].

## ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَا إِلَهَ إِلا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ الَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾[4]

﴿ذَلِكُمُ﴾[5] الْمَعْلُومُ الْمُتَمَيِّزُ بِالْأَفْعَالِ الْخَاصَّةِ الَّتِي لَا يُشَارِكُهُ فيها أَحَدٌ هُوَ ﴿اللَّهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لا إِلَهَ إِلا هُوَ﴾[6] أَخْبَارٌ مُتَرَادِفَةٌ، أَيْ: هُوَ الْجَامِعُ لِهَذِهِ الْأَوْصَافِ مِنَ الْإِلَاهِيَّةِ وَالرُّبُوبِيَّةِ وَخَلْقِ كُلِّ شَيْءٍ، وَإِنْشَائِهِ لَا يَمْتَنِعُ عَلَيْهِ شَيْءٌ، وَالْوَحْدَانِيَّةُ: لَا ثَانِيَ لَهُ.

﴿فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾[7]: فَكَيْفَ وَمِنْ أَيِّ وَجْهٍ تُصْرَفُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ إِلَى عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ.

ثُمَّ ذَكَرَ أَنَّ كُلَّ مَنْ جَحَدَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَلَمْ يَتَأَمَّلْهَا وَلَمْ يَكُنْ فيهِ هِمَّةُ طَلَبِ الْحَقِّ وَخَشْيَةُ الْعَاقِبَةِ أَفِكَ كَمَا أَفِكُوا.

وَقُرِئَ: (خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ) نَصْبًا عَلَى الِاخْتِصَاصِ. وَتُؤْفَكُونَ: بِالتَّاء وَالْيَاءِ.

## ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[8]

---

[1] سورة الْحَجُّ، الآية 22؛ سورة الزُّخْرُفُ، الآية 15.

[2] سورة الْعَادِيَّاتُ، الآية 6.

[3] سورة إِبْرَاهِيمُ، الآية 34.

[4] سورة الْمُؤْمِنِ، الآية .

[5] سورة الْمُؤْمِنِ، الآية .

[6] سورة الْمُؤْمِنِ، الآية .

[7] سورة الْمُؤْمِنِ، الآية .

[8] سورة الْمُؤْمِنِ، الآية .

هَذِهِ أَيْضًا دَلَالَةٌ أُخْرَى عَلَى تَمْيِيزِهِ بِأَفْعَالٍ خَاصَّةٍ، وَهِيَ أَنَّهُ جَعَلَ الْأَرْضَ مُسْتَقَرًّا ﴿وَالسَّمَاءَ بِنَاءً﴾[1]، أَيْ: قُبَّةً. وَمِنْهُ: أَبْنِيَةُ الْعَرَبِ لِمَضَارِبِهِمْ، لِأَنَّ السَّمَاءَ فِي مَنْظَرِ الْعَيْنِ كَقُبَّةٍ مَضْرُوبَةٍ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ، ﴿فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾[2]؛ وَقُرِئَ: بِكَسْرِ الصَّادِ، وَالْمَعْنَى وَاحِدٌ. قِيلَ: لَمْ يَخْلُقْ حَيَوَانًا أَحْسَنَ صُورَةً مِنَ الْإِنْسَانِ. وَقِيلَ: لَمْ يَخْلُقْهُمْ مَنْكُوسِينَ كَالْبَهَائِمِ، كَقَوْلِهِ -تَعَالَى-: ﴿فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾[3].

"فَادْعُوهُ" فَاعْبُدُوهُ ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾[4]، أَيِ: الطَّاعَةُ مِنَ الشِّرْكِ وَالرِّيَاءِ، قَائِلِينَ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[5].

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا-: مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، فَلْيَقُلْ عَلَى أَثَرِهَا: الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

## ﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِيَ الْبَيِّنَاتُ مِنْ رَبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[6]

فَإِنْ قُلْتَ: أَمَا نَهَى رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- عَنْ عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ بِأَدِلَّةِ الْعَقْلِ حَتَّى جَاءَتْهُ الْبَيِّنَاتُ مِنْ رَبِّهِ؟

قُلْتُ: بَلَى، وَلَكِنَّ الْبَيِّنَاتِ لَمَّا كَانَتْ مُقَوِّيَةً لِأَدِلَّةِ الْعَقْلِ وَمُؤَكِّدَةً لَهَا وَمُضَمِّنَةً ذِكْرَهَا نَحْوَ قَوْلِهِ -تَعَالَى-: ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾[7]، وَأَشْبَاهُ ذَلِكَ مِنَ التَّنْبِيهِ عَلَى أَدِلَّةِ الْعَقْلِ كَانَ ذِكْرُ الْبَيِّنَاتِ ذِكْرًا لِأَدِلَّةِ الْعَقْلِ وَالسَّمْعِ جَمِيعًا.

وَإِنَّمَا ذَكَرَ مَا يَدُلُّ عَلَى الْأَمْرَيْنِ جَمِيعًا، لِأَنَّ ذِكْرَ تَنَاصُرِ الْأَدِلَّةِ الْعَقْلِ وَأَدِلَّةِ السَّمْعِ أَقْوَى فِي إِبْطَالِ مَذْهَبِهِمْ وَإِنْ كَانَتْ أَدِلَّةُ الْعَقْلِ وَحْدَهَا كَافِيَةً.

---

1 سورة الْبَقَرَةُ، الآية 22.

2 سورة التَّغَابُنُ، الآية 33.

3 سورة التِّينُ، الآية 44.

4 سورة الْمُؤْمِنِ، الآية .

5 سورة الْفَاتِحَةُ، الآية 2.

6 سورة الْمُؤْمِنِ، الآية .

7 سورة الصَّافَّاتُ، الآيتان 95-96.

## ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنْكُمْ مِنْ يُتَوَفَّى مِنْ قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلًا مُسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾[1]

﴿لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ﴾[2] مُتَعَلِّقٌ بِفِعْلٍ مَحْذُوفٍ تَقْدِيرُهُ: ثُمَّ يُبْقِيكُمْ لِتَبْلُغُوا. وَكَذَلِكَ لِتَكُونُوا.

وَأَمَّا ﴿وَلِتَبْلُغُوا أَجَلا مُسَمًّى﴾[3]، فَمَعْنَاهُ: وَنَفْعَلُ ذَلِكَ لِتَبْلُغُوا أَجَلًا مُسَمًّى، وَهُوَ وَقْتُ الْمَوْتِ. وَقِيلَ: يَوْمُ الْقِيَامَةِ.

وَقُرِئَ: (شِيُوخًا) بِكَسْرِ الشِّينِ. وَشَيْخًا، عَلَى التَّوْحِيدِ، كَقَوْلِهِ: ﴿طِفْلًا﴾[4]، وَالْمَعْنَى: كُلُّ وَاحِدٍ مِنْكُمْ. أَوِ اقْتَصَرَ عَلَى الْوَاحِدِ، لِأَنَّ الْغَرَضَ بَيَانُ الْجِنْسِ.

﴿مِنْ قَبْلُ﴾[5] مِنْ قَبْلِ الشَّيْخُوخَةِ أَوْ مِنْ قَبْلِ هَذِهِ الْأَحْوَالِ إِذَا خَرَجَ سَقْطًا.

﴿وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾[6] مَا فِي ذَلِكَ فِي الْعِبَرِ وَالْحُجَجِ.

## ﴿هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾[7]

﴿فَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا﴾[8] يُكَوِّنُهُ مِنْ غَيْرِ كُلْفَةٍ وَلَا مُعَانَاةَ. جَعَلَ هَذَا نَتِيجَةً مِنْ قُدْرَتِهِ عَلَى الْإِحْيَاءِ وَالْإِمَاتَةِ، وَسَائِرِ مَا ذَكَرَ مِنْ أَفْعَالِهِ الدَّالَّةِ عَلَى أَنَّ مَقْدُورًا لَا يَمْتَنِعُ عَلَيْهِ، كَأَنَّهُ قَالَ: فَلِذَلِكَ مِنَ الِاقْتِدَارِ إِذَا قَضَى أَمْرًا كَانَ أَهْوَنَ شَيْءٍ وَأَسْرَعَهُ.

---

1 سورة الْمُؤْمِن، الآية .
2 سورة الْمُؤْمِن، الآية .
3 سورة الْمُؤْمِن، الآية .
4 سورة الْحَجُّ، الآية 5.
5 سورة الْمُؤْمِن، الآية .
6 سورة الْمُؤْمِن، الآية .
7 سورة الْمُؤْمِن، الآية .
8 سورة الْمُؤْمِن، الآية .

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ أَنَّى يُصْرَفُونَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ إِذِ الأَغْلالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلاسِلُ يُسْحَبُونَ فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُو مِنْ قَبْلُ شَيْئًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ ذَلِكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾[1]

﴿بِالْكِتَابِ﴾[2] بِالْقُرْآنِ ﴿وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا﴾[3] مِنَ الْكُتُبِ.

فَإِنْ قُلْتَ: وَهَلْ قَوْلُهُ: ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ إِذِ الأَغْلالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ﴾[4] إِلَى مِثْلِ قَوْلِكَ: سَوْفَ أَصُومُ أَمْسُ؟

قُلْتُ: الْمَعْنَى عَلَى إِذَا: إِلَّا أَنَّ الْأُمُورَ الْمُسْتَقْبَلَةَ لَمَّا كَانَتْ فِي أَخْبَارِ اللَّهِ -تَعَالَى- مُتَيَقَّنَةً مَقْطُوعًا بِهَا: عَبَّرَ عَنْهَا بِلَفْظِ مَا كَانَ وَوُجِدَ، وَالْمَعْنَى عَلَى الِاسْتِقْبَالِ.

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ بِالنَّصْبِ وَفَتْحِ الْيَاءِ عَلَى عَطْفِ الْجُمْلَةِ الْفِعْلِيَّةِ عَلَى الِاسْمِيَّةِ. وَعَنْهُ: وَالسَّلَاسِلُ يَسْحَبُونَ بِحَرِّ السَّلَاسِلِ.

وَوَجْهُهُ أَنَّهُ لَوْ قِيلَ: إِذَا أَعْنَاقُهُمْ فِي الْأَغْلَالِ مَكَانُ قَوْلِهِ: ﴿إِذِ الأَغْلالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ﴾[5]، لَكَانَ صَحِيحًا مُسْتَقِيمًا.

فَلَمَّا كَانَتَا عِبَارَتَيْنِ مُعْتَقِبَتَيْنِ: حَمَلَ قَوْلَهُ: ﴿وَالسَّلَاسِلُ﴾[6] عَلَى الْعِبَارَةِ الْأُخْرَى.

وَنَظِيرُهُ:

مَشَائِيمُ لَيْسُوا مُصْلِحِينَ عَشِيرَةً وَلا نَاعِبٍ إِلَّا بِبَيْنِ غُرَابِهَـــا

كَأَنَّهُ قِيلَ: بِمُصْلِحِينَ.

---

1 سورة الْمُؤْمِن، الآية .

2 سورة الْمُؤْمِن، الآية .

3 سورة الْمُؤْمِن، الآية .

4 سورة الْمُؤْمِن، الآية .

5 سورة الْمُؤْمِن، الآية .

6 سورة الْمُؤْمِن، الآية .

وَقُرِئَ: (وَبِالسَّلَاسِلِ يُسْحَبُونَ) ﴿فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ﴾[1] مِنْ سَجْرِ التَّنُّورِ إِذَا مَلَأَهُ بِالْوَقُودِ. وَمِنْهُ: السَّجِيرُ، كَأَنَّهُ سَجَّرَ بِالْحُبِّ، أَيْ: مَلِيءٌ.

وَمَعْنَاهُ: أَنَّهُمْ فِي النَّارِ فَهِيَ مُحِيطَةٌ بِهِمْ، وَهُمْ مَسْجُورُونَ بِالنَّارِ مَمْلُوءَةٌ بِهَا أَجْوَافُهُمْ. وَمِنْهُ قَوْلُهُ –تَعَالَى–: ﴿نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الأَفْئِدَةِ﴾[2].

اللَّهُمَّ أَجِرْنَا مِنْ نَارِكَ فَإِنَّا عَائِذُونَ بِجِوَارِكَ.

﴿ضَلُّوا عَنَّا﴾:[3] غَابُوا عَنْ عُيُونِنَا، فَلَا نَرَاهُمْ وَلَا نَنْتَفِعُ بِهِمْ.

فَإِنْ قُلْتَ: أَمَا ذَكَرْتَ فِي تَفْسِيرِ قَوْلِهِ –تَعَالَى–: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾[4]: أَنَّهُمْ مَقْرُونُونَ بِآلِهَتِهِمْ، فَكَيْفَ يَكُونُونَ مَعَهُمْ وَقَدْ ضَلُّوا عَنْهُمْ؟

قُلْتُ: يَجُوزُ أَنْ يَضِلُّوا عَنْهُمْ إِذَا وُبِّخُوا وَقِيلَ لَهُمْ: أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فيغِيثُوكُمْ وَيَشْفَعُوا لَكُمْ، وَأَنْ يَكُونُوا مَعَهُمْ فِي سَائِرِ الْأَوْقَاتِ، وَأَنْ يَكُونُوا مَعَهُمْ فِي جَمِيعِ أَوْقَاتِهِمْ، إِلَّا أَنَّهُمْ لَمَّا لَمْ يَنْفَعُوهُمْ فَكَأَنَّهُمْ ضَالُّونَ عَنْهُمْ.

﴿بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُو مِنْ قَبْلُ شَيْئًا﴾[5]، أَيْ: تَبَيَّنَ لَنَا أَنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا شَيْئًا، وَمَا كَانَ نَعْبُدُ بِعِبَادَتِهِمْ شَيْئًا كَمَا تَقُولُ: حَسِبْتَ أَنَّ فُلَانًا شَيْءٍ فَإِذَا هُوَ لَيْسَ بِشَيْءٍ إِذَا خَبَّرْتَهُ فَلَمْ تَرَ عِنْدَهُ خَيْرًا.

﴿كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ﴾[6] مِثْلُ ضَلَالِ آلِهَتِهِمْ عَنْهُمْ يُضِلُّهُمْ عَنْ آلِهَتِهِمْ، حَتَّى لَوْ طَلَبُوا الْآلِهَةَ أَوْ طَلَبَتْهُمُ الْآلِهَةُ لَمْ يَتَصَادَفُوا.

﴿ذَلِكُمْ﴾[7] الْإِضْلَالُ بِسَبَبِ مَا كَانَ لَكُمْ مِنَ الْفَرَحِ وَالْمَرَحِ

﴿بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾[8]، وَهُوَ الشِّرْكُ وَعِبَادَةُ الْأَوْثَانِ.

---

1 سورة الْمُؤْمِن، الآية .

2 سورة الْهُمَزَة، الآيتان 6–7.

3 سورة الْمُؤْمِن، الآية .

4 سورة الْأَنْبِيَاء، الآية 98.

5 سورة الْمُؤْمِن، الآية .

6 سورة الْمُؤْمِن، الآية .

7 سورة الْمُؤْمِن، الآية .

8 سورة الْمُؤْمِن، الآية .

﴿ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ﴾[1] السَّبْعَةُ الْمَقْسُومَةُ لَكُمْ. قَالَ اللَّهُ –تَعَالَى–: ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ﴾[2].

﴿خَالِدِينَ﴾[3]: مُقَدِّرِينَ لِخُلُودِ.

﴿فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾[4] عَنِ الْحَقِّ الْمُسْتَخِفِينَ بِهِ مَثْوَاكُمْ أَوْ جَهَنَّمُ.

فَإِنْ قُلْتَ: أَلَيْسَ قِيَاسُ النَّظْمِ أَنْ يُقَالَ: فَبِئْسَ مَدْخَلُ الْمُتَكَبِّرِينَ، كَمَا تَقُولُ: زُرْ بَيْتَ اللَّهِ فَنِعْمَ الْمَزَارِ، وَصَلِّ فِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَنِعْمَ الْمُصَلَّى؟

قُلْتُ: الدُّخُولُ الْمُؤَقَّتُ بِالْخُلُودِ فِي مَعْنَى الثَّوَاءِ.

## ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾[5]

﴿فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ﴾[6] أَصْلُهُ: فَإِنْ نَرَكَ.

وَ"مَا" مَزِيدَةٌ لِتَأْكِيدِ مَعْنَى الشَّرْطِ، وَلِذَلِكَ أُلْحِقَتِ النُّونُ بِالْفِعْلِ.

أَلَا تَرَاكَ لَا تَقُولُ: إِنْ تُكْرِمْنِي أَكْرَمْكَ، وَلَكِنْ: إِمَّا تُكْرِمْنِي أُكْرِمْكَ.

فَإِنْ قُلْتَ: لَا يَخْلُو إِمَّا أَنْ تَعْطِفَ ﴿أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾[7] عَلَى ﴿نُرِيَنَّكَ﴾[8] وَتُشْرِكُهُمَا فِي جَزَاءٍ وَاحِدٍ، وَهُوَ قَوْلُهُ –تَعَالَى–: ﴿فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾[9]؛ فَقَوْلُكَ: فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ: غَيْرُ صَحِيحٍ؛ وَإِنْ جَعَلْتَ: ﴿فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾[10] مُخْتَصًّا بِالْمَعْطُوفِ الَّذِي هُوَ نَتَوَفِّيَنَّكَ، بَقِيَ الْمَعْطُوفُ عَلَيْهِ بِغَيْرِ جَزَاءٍ.

---

1 سورة الْمُؤْمِن، الآية .

2 سورة الْحِجْر، الآية 44.

3 سورة الْمُؤْمِن، الآية .

4 سورة الْمُؤْمِن، الآية .

5 سورة الْمُؤْمِن، الآية .

6 سورة الْمُؤْمِن، الآية .

7 سورة الْمُؤْمِن، الآية .

8 سورة الْمُؤْمِن، الآية .

9 سورة الْمُؤْمِن، الآية .

10 سورة الْمُؤْمِن، الآية .

قُلْتُ: ﴿فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾[1] مُتَعَلِّقٌ بِنَتَوَفِّيَنَّكَ، وَجَزَاءُ ﴿نُرِيَنَّكَ﴾[2] مَحْذُوفٌ، تَقْدِيرُهُ: فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ مِنَ الْعَذَابِ وَهُوَ الْقَتْلُ وَالْأَسْرُ يَوْمَ بَدْرٍ فَذَاكَ، أَوْ أَنْ نَتَوَفِّيَنَّكَ قَبْلَ يَوْمِ بَدْرٍ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَنَنْتَقِمُ مِنْهُمْ أَشَدَّ الِانْتِقَامِ. وَنَحْوُهُ قَوْلُهُ -تَعَالَى-: ﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُقْتَدِرُونَ﴾[3].

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ﴾[4]

﴿وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾[5]، قِيلَ: بَعَثَ اللَّهُ ثَمَانِيَةَ آلَافِ نَبِيٍّ: أَرْبَعَةُ آلَافٍ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَأَرْبَعَةُ آلَافٍ مِنْ سَائِرِ النَّاسِ.

وَعَنْ عَلِيٍّ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-: أَنَّ اللَّهَ -تَعَالَى- بَعَثَ نَبِيًّا أَسْوَدَ، فَهُوَ مِمَّنْ لَمْ يَقْصُصْ عَلَيْهِ.

وَهَذَا فِي اقْتِرَاحِهِمُ الْآيَاتِ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- عِنَادًا، يَعْنِي: إِنَّا قَدْ أَرْسَلْنَا كَثِيرًا مِنَ الرُّسُلِ، وَمَا كَانَ لِوَاحِدٍ مِنْهُمْ ﴿أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾[6]؛ فَمَنْ لِي بِأَنْ آتِيَ بِآيَةٍ مِمَّا تَقْتَرِحُونَهُ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَيَأْذَنَ فِي الْإِتْيَانِ بِهَا؟!

﴿فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ﴾[7]: وَعِيدٌ وَرَدٌّ عُقَيْبَ اقْتِرَاحِ الْآيَاتِ.

وَأَمْرُ اللَّهِ: الْقِيَامَةُ.

---

1 سورة الْمُؤْمِن، الآية .

2 سورة الْمُؤْمِن، الآية .

3 سورة الزُّخْرُف، الآيتان 41-42.

4 سورة الْمُؤْمِن، الآية .

5 سورة الْمُؤْمِن، الآية .

6 سورة الْمُؤْمِن، الآية .

7 سورة الْمُؤْمِن، الآية .

﴿الْمُبْطِلُونَ﴾[1] هُمُ الْمُعَانِدُونَ الَّذِينَ اقْتَرَحُوا الْآيَاتِ وَقَدِ أَتَتْهُمُ الْآيَاتُ فَأَنْكَرُوهَا وَسَمُّوهَا سِحْرًا.

﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنْكِرُونَ﴾[2]

الْأَنْعَامُ: الْإِبِلُ خَاصَّةً.

فَإِنْ قُلْتَ: لِمَ قَالَ: ﴿لِتَرْكَبُوا مِنْهَا﴾[3] وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا، وَلَمْ يَقُلْ: لِتَأْكُلُوا مِنْهَا، وَلِتَصِلُوا إِلَى مَنَافِعَ؟ أَوْ هَلَّا قَالَ: مِنْهَا تَرْكَبُونَ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ وَتَبْلُغُونَ عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ؟

قُلْتُ فِي الرُّكُوبِ: الرُّكُوبُ فِي الْحَجِّ وَالْغَزْوِ، وَفِي بُلُوغِ الْحَاجَةِ: الْهِجْرَةُ مِنْ بَلَدٍ إِلَى بَلَدٍ لِإِقَامَةِ دِينٍ أَوْ طَلَبِ عِلْمٍ، وَهَذِهِ أَغْرَاضٌ دِينِيَّةٌ إِمَّا وَاجِبَةٌ أَوْ مَنْدُوبٌ إِلَيْهَا مِمَّا يَتَعَلَّقُ بِهِ إِرَادَةُ الْحَكِيمِ. وَأَمَّا الْأَكْلُ وَإِصَابَةُ الْمَنَافِعِ: فَمِنْ جِنْسِ الْمُبَاحِ الَّذِي لَا يَتَعَلَّقُ بِهِ إِرَادَتُهُ.

وَمَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾[4] وَعَلَى الْأَنْعَامِ وَحْدَهَا لَا تَحْمِلُونَ، وَلَكِنَّ عَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ.

فَإِنْ قُلْتَ: هَلَّا قِيلَ: وَفِي الْفُلْكِ، كَمَا قَالَ: ﴿قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾[5]؟

قُلْتُ: مَعْنَى الْإِيعَاءِ وَمَعْنَى الِاسْتِعْلَاءِ: كِلَاهُمَا مُسْتَقِيمٌ، لِأَنَّ الْفُلْكَ وِعَاءٌ لِمَنْ يَكُونُ فِيهَا حُمُولَةً لَهُ يَسْتَعْلِيهَا، فَلَمَّا صَحَّ الْمَعْنَيَانِ صَحَّتِ الْعِبَارَتَانِ.

---

1 سورة الْمُؤْمِن، الآية .

2 سورة الْمُؤْمِن، الآية .

3 سورة الْمُؤْمِن، الآية .

4 سورة الْمُؤْمِن، الآية .

5 سورة هُودٌ، الآية 40.

وَأَيْضًا، فَلْيُطَابِقْ قَوْلُهُ: ﴿وَعَلَيْهَا﴾[1] وَيُزَاوِجُهُ ﴿وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَأَيَّ﴾[2] جَاءَتْ عَلَى اللُّغَةِ الْمُسْتَفِيضَةِ. وَقَوْلُكَ: فَأَيَّةُ آيَاتِ اللَّهِ قَلِيلٌ، لِأَنَّ التَّفْرِقَةَ بَيْنَ الْمُذَكَّرِ وَالْمُؤَنَّثِ فِي الْأَسْمَاءِ غَيْرِ الصِّفَاتِ نَحْوَ حِمَارٍ وَحِمَارَةٍ غَرِيبٍ. وَهِيَ فِي "أَيٍّ" أَغْرَبُ لِإِبْهَامِهِ.

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾[3]

﴿وَآثَارًا﴾[4] قُصُورُهُمْ وَمَصَانِعُهُمْ. وَقِيلَ: مَشْيُهُمْ بِأَرْجُلِهِمْ لِعِظَمِ إِجْرَامِهِمْ.

﴿فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ﴾[5] مَا نَافِيَةٌ أَوْ مُضَمِّنَةٌ مَعْنَى الِاسْتِفْهَامِ، وَمَحِلُّهَا النَّصْبُ، وَالثَّانِيَةُ: مَوْصُولَةٌ أَوْ مَصْدَرِيَّةٌ وَمَحِلُّهَا الرَّفْعُ، يَعْنِي أَيَّ شَيْءٍ أَغْنَى عَنْهُمْ مَكْسُوبُهُمْ أَوْ كَسْبُهُمْ.

﴿فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ﴾[6] فيهِ وُجُوهٌ: مِنْهَا أَنَّهُ أَرَادَ الْعِلْمَ الْوَارِدَ عَلَى طَرِيقِ التَّهَكُّمِ فِي قَوْلِهِ –تَعَالَى–: ﴿بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الآخِرَةِ﴾[7]: وَعِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ أَنَّهُمْ كَانُوا يَقُولُونَ: لَا نُبْعَثُ وَلَا نُعَذَّبُ، ﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَى﴾[8]، ﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا﴾[9]، وَكَانُوا يَفْرَحُونَ بِذَلِكَ وَيَدْفَعُونَ بِهِ الْبَيِّنَاتِ وَعِلْمَ الْأَنْبِيَاءِ، كَمَا قَالَ –عَزَّ وَجَلَّ–: ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾[10].

---

1 سورة الْمُؤْمِن، الآية .
2 سورة الْمُؤْمِن، الآية .
3 سورة الْمُؤْمِن، الآية .
4 سورة الْمُؤْمِن، الآية .
5 سورة الْمُؤْمِن، الآية .
6 سورة الْمُؤْمِن، الآية .
7 سورة النَّمْل، الآية 66.
8 سورة فُصِّلَتْ، الآية 50.
9 سورة الْكَهْف، الآية 36.
10 سورة الرُّوم، الآية 32.

وَمِنْهَا: أَنْ يُرِيدَ عِلْمَ الْفَلَاسِفَةِ وَالدَّهْرِيِّينَ مِنْ بَنِي يُونَانَ، وَكَانُوا إِذْ سَمِعُوا بِوَحْيِ اللَّهِ: دَفَعُوهُ وَصَغَّرُوا عِلْمَ الْأَنْبِيَاءِ إِلَى عِلْمِهِمْ.

وَعَنْ سُقْرَاطَ: أَنَّهُ سَمِعَ بِمُوسَى -صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَسَلَامُهُ-، وَقِيلَ لَهُ: لَوْ هَاجَرَتْ إِلَيْهِ فَقَالَ: نَحْنُ قَوْمٌ مُهَذَّبُونَ فَلَا حَاجَةَ بِنَا إِلَى مَنْ يُهَذِّبُنَا.

وَمِنْهَا: أَنْ يُوضَعَ قَوْلُهُ: ﴿فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ﴾[1]، وَلَا عِلْمَ عِنْدِهِمُ الْبَتَّةَ، مَوْضِعَ قَوْلِهِ: لَمْ يَفْرَحُوا بِمَا جَاءَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ، مُبَالَغَةً فِي نَفْيِ فَرَحِهِمْ بِالْوَحْيِ الْمُوجِبِ لِأَقْصَى الْفَرَحِ وَالْمَسَرَّةِ، مَعَ تَهَكُّمٍ بِفَرْطِ جَهْلِهِمْ وَخُلُوِّهِمْ مِنَ الْعُلَمَاءِ. وَمِنْهَا أَنْ يُرَادَ: فَرِحُوا بِمَا عِنْدَ الرُّسُلِ مِنَ الْعِلْمِ فَرَحَ ضَحِكٍ مِنْهُ وَاسْتِهْزَاءٍ بِهِ، كَأَنَّهُ قَالَ: اسْتَهْزِءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَبِمَا جَاءُوا بِهِ مِنْ عِلْمِ الْوَحْيِ فَرِحِينَ مَرِحِينَ. وَيَدُلُّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ -تَعَالَى-: ﴿وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾[2].

وَمِنْهَا: أَنْ يَجْعَلَ الْفَرَحَ لِلرُّسُلِ. وَمَعْنَاهُ: أَنَّ الرُّسُلَ لَمَّا رَأَوْا جَهْلَهُمُ الْمُتَمَادِيَ وَاسْتِهْزَاءَهُمْ بِالْحَقِّ وَعَلِمُوا سُوءَ عَاقِبَتِهِمْ وَمَا يَلْحَقُهُمْ مِنَ الْعُقُوبَةِ عَلَى جَهْلِهِمْ وَاسْتِهْزَائِهِمْ: فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا مِنَ الْعِلْمِ وَشَكَرُوا اللَّهَ عَلَيْهِ. وَحَاقَ بِالْكَافِرِينَ جَزَاءَ جَهْلِهِمْ وَاسْتِهْزَائِهِمْ.

وَيَجُوزُ أَنْ يُرِيدَ بِمَا فَرِحُوا بِهِ مِنَ الْعِلْمِ: عِلْمَهُمْ بِأُمُورِ الدُّنْيَا وَمَعْرِفَتَهُمْ بِتَدْبِيرِهَا، كَمَا قَالَ -تَعَالَى-: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾[3]، ﴿ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ﴾[4].

فَلَمَّا جَاءَهُمُ الرُّسُلُ بِعُلُومِ الدِّيَانَاتِ -وَهِيَ أَبْعَدُ شَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِمْ لِبُعْدِهَا عَلَى رَفْضِ الدُّنْيَا وَالظَّلْفِ عَنِ الْمَلَاذِ وَالشَّهَوَاتِ- لَمْ يَلْتَفِتُوا إِلَيْهَا وَصَغَّرُوهَا وَاسْتَهْزَءُوا بِهَا، وَاعْتَقَدُوا أَنَّهُ لَا عِلْمَ أَنْفَعُ وَأَجْلَبُ لِلْفَوَائِدِ مِنْ عِلْمِهِمْ، فَفَرِحُوا بِهِ.

---

[1] سورة غَافِرٍ، الآية 83.

[2] سورة الْمُؤْمِنِ، الآية .

[3] سورة الرُّومُ، الآية 7.

[4] سورة النَّجْمُ، الآية 30.

﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ﴾[1]

الْبَأْسُ: شِدَّةُ الْعَذَابِ. وَمِنْهُ قَوْلُهُ –تَعَالَى–: ﴿بِعَذَابٍ بَئِيسٍ﴾[2].

فَإِنْ قُلْتَ: أَيُّ فَرْقٍ بَيْنَ قَوْلِهِ –تَعَالَى–: ﴿فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ﴾[3] وَبَيْنَهُ لَوْ قِيلَ: فَلِمَ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ؟

قُلْتُ: هُوَ مَنْ كَانَ فِي نَحْوِ قَوْلِهِ: ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ﴾[4]، وَالْمَعْنَى: فَلَمْ يَصِحَّ وَلَمْ يَسْتَقِمْ أَنْ يَنْفَعَهُمْ إِيمَانُهُمْ.

فَإِنْ قُلْتَ: كَيْفَ تَرَادَفَتْ هَذِهِ الْفَاآتُ؟

قُلْتُ: أَمَّا قَوْلُهُ –تَعَالَى–: ﴿فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ﴾[5]، فَهُوَ نَتِيجَةُ قَوْلِهِ: ﴿كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ﴾[6].

وَأَمَّا قَوْلُهُ: ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾[7]، فَجَارٍ مَجْرَى الْبَيَانِ وَالتَّفْسِيرِ، لِقَوْلِهِ –تَعَالَى–: ﴿فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ﴾[8]، كَقَوْلِكَ: رُزِقَ زَيْدٌ الْمَالَ فَمَنَعَ الْمَعْرُوفَ فَلَمْ يُحْسِنْ إِلَى الْفُقَرَاءِ.

---

1 سورة ، الآية .
2 سورة الْأَعْرَافُ، الآية 165.
3 سورة ، الآية .
4 سورة مَرْيَمُ، الآية 35.
5 سورة غَافِرُ، الآية 82.
6 سورة غَافِرُ، الآية 82.
7 سورة غَافِرُ، الآية 83.
8 سورة غَافِرُ، الآية 82.

وَقَوْلُهُ: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا﴾[1] تَابِعٌ لِقَوْلِهِ: ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ﴾[2]، كَأَنَّهُ قَالَ: فَكَفَرُوا فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا آمَنُوا، وَكَذَلِكَ: ﴿فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ﴾[3] تَابِعٌ لِإِيمَانِهِمْ لَمَّا رَأَوْا بِأْسَ اللَّهِ.

﴿سُنَّتَ اللَّهِ﴾[4] بِمَنْزِلَةِ ﴿وَعَدَ اللَّهُ﴾[5]، وَمَا أَشْبَهَهُ مِنَ الْمَصَادِرِ الْمُؤَكَّدَةِ.

وَ﴿هُنَالِكَ﴾[6] مَكَانٌ مُسْتَعَارٌ لِلزَّمَانِ، أَيْ: وَخَسِرُوا وَقْتَ رُؤْيَةِ الْبَأْسِ، وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ﴾[7] بَعْدَ قَوْلِهِ: ﴿جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ﴾[8]، أَيْ: وَخَسِرُوا وَقْتَ مَجِيءِ أَمْرِ اللَّهِ، أَوْ وَقْتَ الْقَضَاءِ بِالْحَقِّ.

عَنْ رَسُولِ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: "مَنْ قَرَأَ سُورَةَ الْمُؤْمِنِ لَمْ يُبْقِ رُوحُ نَبِيٍّ وَلَا صَدِيقٍ وَلَا شَهِيدٍ وَلَا مُؤْمِنٍ إِلَّا صَلَّى عَلَيْهِ وَاسْتَغْفَرَ لَهُ".

---

[1] سورة الْمُؤْمِنِ، الآية .

[2] سورة غَافِرٍ، الآية 83.

[3] سورة الْمُؤْمِنِ، الآية .

[4] سورة الْمُؤْمِنِ، الآية .

[5] سورة النِّسَاءِ، الآية 95.

[6] سورة الْمُؤْمِنِ، الآية .

[7] سورة غَافِرٍ، الآية 78.

[8] سورة غَافِرٍ، الآية 78.

# سورة فصلت

# وتسمى السجدة

# سورة فصلت وهي السورة الحادية والأربعون

## مَكِّيَّةٌ، وَآيَاتُهَا 54، وَقِيلَ: 53 آيَةً
## [نَزَلَتْ بَعْدَ غَافِرٍ]

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿حم تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لا يَسْمَعُونَ﴾[1]

إِنْ جَعَلْتَ ﴿حم﴾[2] اسْمًا لِلسُّورَةِ كَانَتْ فِي مَوْضِعِ الْمُبْتَدَأِ. وَ﴿تَنْزِيلُ﴾[3] خَبَرُهُ. وَإِنْ جَعَلْتَهَا تَعْدِيدًا لِلْحُرُوفِ، وَكَانَ ﴿تَنْزِيلُ﴾[4] خَبَرًا لِمُبْتَدَأٍ مَحْذُوفٍ وَ﴿كِتَابٌ﴾[5] بَدَلٌ مِنْ تَنْزِيلٍ، أَوْ خَبَرٌ بَعْدَ خَبَرٍ، أَوْ خَبَرُ مُبْتَدَأٍ مَحْذُوفٍ، وَجَوَّزَ الزَّجَّاجُ أَنْ يَكُونَ "تَنْزِيلُ" مُبْتَدَأً، وَ﴿كِتَابٌ﴾[6] خَبَرُهُ. وَوَجْهُهُ أَنَّ تَنْزِيلًا تَخَصَّصَ بِالصِّفَةِ فَسَاغَ وُقُوعُهُ مُبْتَدَأً.

﴿فُصِّلَتْ آيَاتُهُ﴾[7] مَيَّزَتْ تَفَاصِيلَ فِي مَعَانٍ مُخْتَلِفَةٍ: مِنْ أَحْكَامٍ وَأَمْثَالٍ وَمَوَاعِظَ، وَوَعْدٍ وَوَعِيدٍ، وَغَيْرِ ذَلِكَ، وَقُرِئَ: (فَصَّلَتْ)، أَيْ: فَرَّقَتْ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ، أَوْ فَصَّلَ بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ بِاخْتِلَافِ مَعَانِيهَا، مِنْ قَوْلِكَ: فَصَلَ مِنَ الْبَلَدِ.

---

1 سورة فُصِّلَتْ، الآية .
2 سورة فُصِّلَتْ، الآية .
3 سورة فُصِّلَتْ، الآية .
4 سورة فُصِّلَتْ، الآية .
5 سورة فُصِّلَتْ، الآية .
6 سورة فُصِّلَتْ، الآية .
7 سورة فُصِّلَتْ، الآية .

﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾[1] نُصِبَ عَلَى الِاخْتِصَاصِ وَالْمَدْحِ، أَيْ: أُرِيدَ بِهَذَا الْكِتَابِ الْمُفَصَّلِ قُرْآنًا مِنْ صِفَتِهِ كَيْتَ وَكَيْتَ.

وَقِيلَ: هُوَ نُصِبَ عَلَى الْحَالِ، أَيْ: فُصِّلَتْ آيَاتُهُ فِي حَالِ كَوْنِهِ قُرْآنًا عَرَبِيًّا ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾[2]، أَيْ: لِقَوْمٍ عَرَبٍ يَعْلَمُونَ مَا نَزَلَ عَلَيْهِمْ مِنَ الْآيَاتِ الْمُفَصَّلَةِ الْمُبَيِّنَةِ بِلِسَانِهِمُ الْعَرَبِيِّ الْمُبِينِ، لَا يَلْتَبِسُ عَلَيْهِمْ شَيْءٌ مِنْهُ.

فَإِنْ قُلْتَ: بِمَ يَتَعَلَّقُ قَوْلُهُ: ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾؟

قُلْتُ: يَجُوزُ أَنْ يَتَعَلَّقَ بِتَنْزِيلٍ أَوْ بِفُصِّلَتْ، أَيْ: تَنْزِيلٌ مِنَ اللَّهِ لِأَجْلِهِمْ، أَوْ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ لَهُمْ. وَالْأَجْوَدُ أَنْ يَكُونَ صِفَةً مِثْلَ مَا قَبْلَهُ وَمَا بَعْدَهُ، أَيْ: قُرْآنًا عَرَبِيًّا كَائِنًا لِقَوْمٍ عَرَبٍ، لِئَلَّا يُفَرَّقُ بَيْنَ الصِّلَاتِ وَالصِّفَاتِ.

وَقُرِئَ: (بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ) صِفَةٌ لِلْكِتَابِ، أَوْ خَبَرُ مُبْتَدَأٍ مَحْذُوفٍ.

﴿فَهُمْ لا يَسْمَعُونَ﴾[3] لَا يَقْبَلُونَ وَلَا يُطِيعُونَ، وَمِنْ قَوْلِكَ: تَشَفَّعْتُ إِلَى فُلَانٍ فَلَمْ يَسْمَعْ قَوْلِي، وَلَقَدْ سَمِعَهُ، وَلَكِنَّهُ لَمَّا لَمْ يَقْبَلْهُ وَلَمْ يَعْمَلْ بِمُقْتَضَاهُ، فَكَأَنَّهُ لَمْ يَسْمَعْهُ.

﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ﴾[4]

وَالْأَكِنَّةُ: جَمْعُ كَنَانٍ. وَهُوَ الْغِطَاءُ، وَ"الْوَقْرَ" بِالْفَتْحِ: الثِّقْلُ. وَقُرِئَ: بِالْكَسْرِ. وَهَذِهِ تَمْثِيلَاتٌ لِنُبُوِّ قُلُوبِهِمْ عَنْ تَقَبُّلِ الْحَقِّ وَاعْتِقَادِهِ، كَأَنَّهَا فِي غُلْفٍ وَأَغْطِيَةٌ تَمْنَعُ مِنْ نُفُوذِهِ فِيهَا، كَقَوْلِهِ –تَعَالَى–: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾[5]، وَمَجَّ أَسْمَاعُهُمْ لَهُ كَأَنَّ بِهَا صَمَمًا عَنْهُ، وَلِتُبَاعِدِ الْمَذْهَبَيْنِ وَالدِّينَيْنِ كَأَنَّ بَيْنَهُمْ وَمَا هُمْ عَلَيْهِ، وَبَيْنَ رَسُولِ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– وَمَا هُوَ عَلَيْهِ: حِجَابًا سَاتِرًا وَحَاجِزًا مَنِيعًا مِنْ جَبَلٍ أَوْ نَحْوِهِ، فَلَا تَلَاقِيَ وَلَا تَرَائِيَ.

---

[1] سورة فُصِّلَتْ، الآية .

[2] سورة فُصِّلَتْ، الآية .

[3] سورة فُصِّلَتْ، الآية .

[4] سورة فُصِّلَتْ، الآية .

[5] سورة الْبَقَرَةُ، الآية 88.

﴿فَاعْمَلْ﴾[1] عَلَى دِينِكَ ﴿إِنَّنَا عَامِلُونَ﴾[2] عَلَى دِينِنَا، أَوْ فَاعْمَلْ فِي إِبْطَالِ أَمْرِنَا، إِنَّنَا عَامِلُونَ فِي إِبْطَالِ أَمْرِكَ. وَقُرِئَ: (إِنَّا عَامِلُونَ).

فَإِنْ قُلْتَ: هَلْ لِزِيَادَةِ "مِنْ" فِي قَوْلِهِ: ﴿ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾[3] فَائِدَةٌ؟

قُلْتُ: نَعَمْ، لِأَنَّهُ لَوْ قِيلَ: وَبَيْنَنَا وَبَيْنَكَ حِجَابٌ: لَكَانَ الْمَعْنَى: أَنْ حِجَابًا حَاصِلًا وَسَطَ الْجِهَتَيْنِ، وَأَمَّا بِزِيَادَةِ "مِنْ" فَالْمَعْنَى: أَنَّ حِجَابًا ابْتَدَأَ مِنَّا وَابْتَدَأَ مِنْكَ، فَالْمَسَافَةُ الْمُتَوَسِّطَةُ لِجِهَتِنَا وَجِهَتِكَ مُسْتَوْعِبَةٌ بِالْحِجَابِ لَا فَرَاغَ فيها.

فَإِنْ قُلْتَ: هَلَّا قِيلَ: عَلَى قُلُوبِنَا أَكِنَّةٌ، كَمَا قِيلَ: وَفِى آذَانِنَا وَقْرٌ، لِيَكُونَ الْكَلَامُ عَلَى نَمَطٍ وَاحِدٍ؟

قُلْتُ: هُوَ عَلَى نَمَطٍ وَاحِدٍ، لِأَنَّهُ لَا فَرْقَ فِي الْمَعْنَى بَيْنَ قَوْلِكَ: قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ. وَعَلَى قُلُوبِنَا أَكِنَّةٍ. وَالدَّلِيلُ عَلَيْهِ قَوْلُهُ –تَعَالَى–: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾[4].

وَلَوْ قِيلَ: إِنَّا جَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ فِي أَكِنَّةٍ: لَمْ يَخْتَلِفِ الْمَعْنَى، وَتَرَى الْمَطَابِيعَ مِنْهُمْ لَا يُرَاعُونَ الطِّبَاقَ وَالْمُلَاحَظَةَ إِلَّا فِي الْمَعَانِي.

﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ لا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾[5]

فَإِنْ قُلْتَ: مِنْ أَيْنَ كَانَ قَوْلُهُ: ﴿إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ﴾[6] جَوَابًا لِقَوْلِهِمْ: ﴿قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ﴾[7]؟

قُلْتُ: مِنْ حَيْثُ أَنَّهُ قَالَ لَهُمْ: إِنِّي لَسْتُ بِمَلَكٍ، وَإِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ، وَقَدْ أُوحِيَ إِلَيَّ دُونَكُمْ فَصِحْتُ –بِالْوَحْيِ إِلَيَّ وَأَنَا بَشَرٌ– نُبُوَّتِي، وَإِذَا صَحَّتْ نُبُوَّتِي وَجَبَ عَلَيْكُمُ

---

1 سورة فُصِّلَتْ، الآية .
2 سورة فُصِّلَتْ، الآية .
3 سورة فُصِّلَتْ، الآية .
4 سورة فُصِّلَتْ، الآية .
5 سورة فُصِّلَتْ، الآية .
6 سورة فُصِّلَتْ، الآية .
7 سورة فُصِّلَتْ، الآية .

اتِّبَاعِي، وَفِيمَا يُوحَى إِلَيَّ: أَنَّ إِلَهَكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ، ﴿فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ﴾[1]: فَاسْتَوُوا إِلَيْهِ بِالتَّوْحِيدِ وَإِخْلَاصِ الْعِبَادَةِ غَيْرِ ذَاهِبِينَ يَمِينًا وَشِمَالًا، وَلَا مُلْتَفِتِينَ إِلَى مَا يُسَوِّلُ لَكُمُ الشَّيْطَانُ مِنَ اتِّخَاذِ الْأَوْلِيَاءِ وَالشُّفَعَاءِ، وَتُوبُوا إِلَيْهِ مِمَّا سَبَقَ لَكُمْ مِنَ الشِّرْكِ، ﴿وَاسْتَغْفِرُوهُ﴾[2].

وَقُرِئَ: (قَالَ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ).

فَإِنْ قُلْتَ: لِمَ خَصَّ مِنْ بَيْنِ أَوْصَافِ الْمُشْرِكِينَ مَنْعَ الزَّكَاةِ مَقْرُونًا بِالْكُفْرِ بِالْآخِرَةِ؟

قُلْتُ: لِأَنَّ أَحَبَّ شَيْءٍ إِلَى الْإِنْسَانِ مَالُهُ، وَهُوَ شَقِيقُ رُوحِهِ، فَإِذَا بَذَلَهُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَذَلِكَ أَقْوَى دَلِيلٍ عَلَى ثَبَاتِهِ وَاسْتِقَامَتِهِ وَصِدْقِ نِيَّتِهِ وَنُصُوعِ طَوِيَّتِهِ.

أَلَا تَرَى إِلَى قَوْلِهِ –عَزَّ وَجَلَّ–: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾[3]، أَيْ: يُثْبِتُونَ أَنْفُسَهُمْ وَيَدُلُّونَ عَلَى ثَبَاتِهَا بِإِنْفَاقِ الْأَمْوَالِ، وَمَا خَدَعَ الْمُؤَلَّفَةَ قُلُوبُهُمْ إِلَّا بِلَمْظَةٍ مِنَ الدُّنْيَا فَقَرَّتْ عَصَبِيَّتُهُمْ وَلَانَتْ شَكِيمَتُهُمْ، وَأَهْلُ الرِّدَّةِ بَعْدَ رَسُولِ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– مَا تَظَاهَرُوا إِلَّا بِمَنْعِ الزَّكَاةِ، فَنَصَبَتْ لَهُمُ الْحَرْبَ، وَجُوهِدُوا. وَفِيهِ بَعَثَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى أَدَاءِ الزَّكَاةِ، وَتَخْوِيفٍ شَدِيدٍ مِنْ مَنْعِهَا، حَيْثُ جَعَلَ الْمَنْعَ مِنْ أَوْصَافِ الْمُشْرِكِينَ، وَقَرَنَ بِالْكُفْرِ بِالْآخِرَةِ.

وَقِيلَ: كَانَتْ قُرَيْشٌ يُطَعِّمُونَ الْحَاجَّ، وَيُحْرِمُونَ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِرَسُولِ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–. وَقِيلَ: لَا يَفْعَلُونَ مَا يَكُونُونَ بِهِ أَزْكِيَاءَ، وَهُوَ الْإِيمَانُ.

## ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾[4]

الْمَمْنُونُ: الْمَقْطُوعُ. وَقِيلَ: لَا يَمُنُّ عَلَيْهِمْ لِأَنَّهُ إِنَّمَا يَمُنُّ التَّفَضُّلَ. فَأَمَّا الْأَجْرُ فَحَقَّ أَدَاؤُهُ.

وَقِيلَ: نَزَلَتْ فِي الْمَرْضَى وَالزَّمْنَى وَالْهَرْمَى: إِذَا عَجَزُوا عَنِ الطَّاعَةِ كَتَبَ لَهُمُ الْأَجْرَ، كَأَصَحِّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ.

---

[1] سورة فُصِّلَتْ، الآية .

[2] سورة فُصِّلَتْ، الآية .

[3] سورة الْبَقَرَةُ، الآية 265.

[4] سورة فُصِّلَتْ، الآية .

﴿قُلْ أَإِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾[1]

"أَئِنَّكُمْ" بِهَمْزَتَيْنِ: الثَّانِيَةُ بَيْنَ بَيْنَ. وَ"آئِنَّكُمْ" بِأَلْفٍ وَبَيْنَ هَمْزَتَيْنِ.

﴿ذَلِكَ﴾[2] الَّذِي قَدَرَ عَلَى خَلْقِ الْأَرْضِ فِي مُدَّةِ يَوْمَيْنِ، وَهُوَ ﴿رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾[3].

﴿رَوَاسِيَ﴾[4]: جِبَالًا ثَوَابِتَ.

فَإِنْ قُلْتَ: مَا مَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿مِنْ فَوْقِهَا﴾[5]؟ وَهَلِ اخْتَصَرَ عَلَى قَوْلِهِ: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ﴾[6] كَقَوْلِهِ -تَعَالَى-: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ﴾[7]، ﴿وَجَعَلْنَا فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ﴾[8]، ﴿لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ﴾[9]؟

قُلْتُ: لَوْ كَانَتْ تَحْتَهَا كَالْأَسَاطِينِ لَهَا تَسْتَقِرُّ عَلَيْهَا، أَوْ مَرْكُوزَةً فيها كَالْمَسَامِيرِ: لَمَنَعَتْ مِنَ الْمَيْدَانِ أَيْضًا، وَإِنَّمَا اخْتَارَ إِرْسَاءَهَا فَوْقَ الْأَرْضِ، لِتَكُونَ الْمَنَافِعُ في الْجِبَالِ مُعَرَّضَةً لِطَالِبِيهَا، حَاضِرَةً لِمُحَصِّلِيهَا، وَلِيُبْصِرَ أَنَّ الْأَرْضَ وَالْجِبَالَ أَثْقَالٌ عَلَى أَثْقَالٍ، كُلُّهَا مُفْتَقِرَةٌ إِلَى مُمْسِكٍ لَا بُدَّ لَهَا مِنْهُ، وَهُوَ مُمْسِكُهَا عَزَّ وَعَلَا بِقُدْرَتِهِ.

﴿ وَبَارَكَ فِيهَا﴾:[10] وَأَكْثَرُ خَيْرِهَا وَأَنْمَاهُ.

---

1 سورة فُصِّلَتْ، الآية .

2 سورة فُصِّلَتْ، الآية .

3 سورة فُصِّلَتْ، الآية .

4 سورة فُصِّلَتْ، الآية .

5 سورة فُصِّلَتْ، الآية .

6 سورة فُصِّلَتْ، الآية .

7 سورة الْمُرْسَلَاتُ، الآية 27.

8 سورة الْأَنْبِيَاءُ، الآية 31.

9 سورة النَّمْلُ، الآية 61.

10 سورة فُصِّلَتْ، الآية .

﴿وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا﴾[1] أَرْزَاقُ أَهْلِهَا وَمَعَايِشُهُمْ وَمَا يُصْلِحُهُمْ.

وَفِي قِرَاءَةِ ابْنِ مَسْعُودٍ: وَقَسَّمَ فيها أَقْوَاتَهَا ﴿فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً﴾[2] فَذْلَكَةٌ لِمُدَّةِ خَلْقِ اللَّهِ الْأَرْضِ وَمَا فيها، كَأَنَّهُ قَالَ: كُلُّ ذَلِكَ في أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ كَامِلَةٍ مُسْتَوِيَةٍ بِلَا زِيَادَةٍ وَلَا نُقْصَانَ.

قِيلَ: خَلَقَ اللَّهُ الْأَرْضَ في يَوْمِ الْأَحَدِ وَيَوْمَ الْإِثْنَيْنِ، وَمَا فيها يَوْمُ الثُّلَاثَاءِ وَيَوْمُ الْأَرْبِعَاءِ.

وَقَالَ الزَّجَّاجُ: في أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ في تَتِمَّةِ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ، يُرِيدُ بِالتَّتِمَّةِ الْيَوْمَيْنِ. وَقُرِئَ: (سَوَاءً) بِالْحَرَكَاتِ الثَّلَاثِ: الْجَرُّ عَلَى الْوَصْفِ وَالنَّصْبُ عَلَى: اسْتَوَتْ سَوَاءً، أَيِ: اسْتِوَاءً: الرَّفْعُ عَلَى: هِيَ سَوَاءٌ.

فَإِنْ قُلْتَ: بِمَ تَعَلَّقَ قَوْلُهُ" :لِلسَّائِلِينَ"؟

قُلْتُ: بِمَحْذُوفٍ، كَأَنَّهُ قِيلَ: هَذَا الْحَصْرُ لِأَجْلِ مَنْ سَأَلَ: في كَمْ خُلِقَتِ الْأَرْضُ وَمَا فيها؟ أَوْ يَقْدِرُ: أَيْ: قُدِّرَ فيها الْأَقْوَاتُ لِأَجْلِ الطَّالِبِينَ لَهَا الْمُحْتَاجِينَ إِلَيْهَا مِنَ الْمُقْتَاتِينَ.

وَهَذَا الْوَجْهُ الْأَخِيرُ لَا يَسْتَقِيمُ إِلَّا عَلَى تَفْسِيرِ الزَّجَّاجِ.

فَإِنْ قُلْتَ: هَلَّا قِيلَ في يَوْمَيْنِ؟ وَأَيُّ فَائِدَةٍ في هَذِهِ الْفَذْلَكَةِ؟

قُلْتُ: إِذَا قَالَ في أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ وَقَدْ ذَكَرَ أَنَّ الْأَرْضَ خُلِقَتْ في يَوْمَيْنِ، عَلِمَ أَنَّ مَا فيها خُلِقَ في يَوْمَيْنِ، فَبَقِيَتِ الْمُخَايَرَةُ بَيْنَ أَنْ تَقُولَ: في يَوْمَيْنِ، وَأَنْ تَقُولَ: في أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً، فَكَانَتْ في أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً فَائِدَةً لَيْسَتْ في يَوْمَيْنِ، وَهِيَ الدَّلَالَةُ عَلَى أَنَّهَا كَانَتْ أَيَّامًا كَامِلَةً بِغَيْرِ زِيَادَةٍ وَلَا نُقْصَانٍ.

وَلَوْ قَالَ: في يَوْمَيْنِ –وَقَدْ يُطْلَقُ الْيَوْمَانِ عَلَى أَكْثَرِهِمَا–، لَكَانَ يَجُوزُ أَنْ يُرِيدَ بِالْيَوْمَيْنِ الْأَوَّلِينَ وَالْآخَرِينَ أَكْثَرُهُمَا.

﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ﴾[3] مِنْ قَوْلِكَ: اسْتَوَى إِلَى مَكَانِ كَذَا، إِذَا تَوَجَّهَ إِلَيْهِ تَوَجُّهًا لَا يَلْوِي عَلَى شَيْءٍ، وَهُوَ مِنَ الِاسْتِوَاءِ الَّذِي هُوَ ضِدُّ الِاعْوِجَاجِ، وَنَحْوُهُ قَوْلُهُمُ: اسْتَقَامَ إِلَيْهِ وَامْتَدَّ إِلَيْهِ.

---

[1] سورة فُصِّلَتْ، الآية .

[2] سورة فُصِّلَتْ، الآية .

[3] سورة فُصِّلَتْ، الآية 66.

وَمِنْهُ قَوْلُهُ –تَعَالَى–: ﴿فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ﴾[1]، وَالْمَعْنَى: ثُمَّ دَعَاهُ دَاعِي الْحِكْمَةِ إِلَى خَلْقِ السَّمَاءِ بَعْدَ خَلْقِ الْأَرْضِ وَمَا فيها مِنْ غَيْرِ صَارِفٍ يَصْرِفُهُ عَنْ ذَلِكَ.

قِيلَ: كَانَ عَرْشُهُ قَبْلَ خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ عَلَى الْمَاءِ، فَأَخْرَجَ مِنَ الْمَاءِ دُخَانًا، فَارْتَفَعَ فَوْقَ الْمَاءِ وَعَلَا عَلَيْهِ، فَأَيْبَسَ الْمَاءَ فَجَعَلَهُ أَرْضًا وَاحِدَةً، ثُمَّ فَتَقَهَا فَجَعَلَهَا أَرْضِينَ، ثُمَّ خَلَقَ السَّمَاءَ مِنَ الدُّخَّانِ الْمُرْتَفِعِ.

وَمَعْنَى أَمَرَ السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ بِالْإِتْيَانِ وَامْتِثَالِهِمَا: أَنَّهُ أَرَادَ تَكْوِينَهُمَا فَلَمَّا يَمْتَنِعَا عَلَيْهِ، وَوُجِدَتَا كَمَا أَرَادَهُمَا، وَكَانَتَا فِي ذَلِكَ كَالْمَأْمُورِ الْمُطِيعِ إِذَا وَرَدَ عَلَيْهِ فِعْلُ الْأَمْرِ الْمُطَاعِ، وَهُوَ مِنَ الْمَجَازِ الَّذِي يُسَمَّى التَّمْثِيلُ.

وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ تَخْيِيلًا وَيُبْنَى الْأَمْرُ فيهِ عَلَى أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى كَلَّمَ السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَقَالَ لَهُمَا: ائْتِيَا شِئْتُمَا ذَلِكَ أَوْ أَبَيْتُمَاهُ، فَقَالَتَا: أَتَيْنَا عَلَى الطَّوْعِ لَا عَلَى الْكُرْهِ. وَالْغَرَضُ تَصْوِيرُ أَثَرِ قُدْرَتِهِ فِي الْمَقْدُورَاتِ لَا غَيْرُ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يُحَقِّقَ شَيْءٌ مِنَ الْخِطَابِ وَالْجَوَابُ.

وَنَحْوُهُ قَوْلُ الْقَائِلِ: قَالَ الْجِدَارُ لِلْوَتَدِ: لِمَ تُشْقِنِي؟ قَالَ الْوَتَدُ: اسْأَلْ مَنْ يَدُقُّنِي، فَلَمْ يَتْرُكْنِي وَرَائِي الْحَجَرُ الَّذِي وَرَائِي.

فَإِنْ قُلْتَ: لِمَ ذَكَرَ الْأَرْضَ مَعَ السَّمَاءِ وَانْتَظَمَهَا فِي الْأَمْرِ بِالْإِتْيَانِ، وَالْأَرْضُ مَخْلُوقَةٌ قَبْلَ السَّمَاءِ بِيَوْمَيْنِ؟

قُلْتُ: قَدْ خَلَقَ جِرْمَ الْأَرْضِ أَوْ لَا غَيْرَ مَدْحُوَّةٌ، ثُمَّ دَحَاهَا بَعْدَ خَلْقِ السَّمَاءِ، كَمَا قَالَ –تَعَالَى–: ﴿وَالأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا﴾[2].

فَالْمَعْنَى: ائْتِيَا عَلَى مَا يَنْبَغِي أَنْ تَأْتِيَا عَلَيْهِ مِنَ الشَّكْلِ وَالْوَصْفِ: ائْتِي يَا أَرْضُ مَدْحُوَّةً قَرَارًا وَمِهَادًا لِأَهْلِكَ، وَائْتِي يَا سَمَاءُ مُقَبَّبَةً سَقْفًا لَهُمْ.

وَمَعْنَى الْإِتْيَانِ: الْحُصُولُ وَالْوُقُوعُ، كَمَا تَقُولُ: أَتَى عَمَلَهُ مَرْضِيًّا، وَجَاءَ مَقْبُولًا. وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الْمَعْنَى: لِتَأْتِ كُلُّ وَاحِدَةٍ مِنْكُمَا صَاحِبَتُهَا الْإِتْيَانَ الَّذِي أُرِيدُهُ وَتَقْتَضِيهِ الْحِكْمَةُ وَالتَّدْبِيرُ: مِنْ كَوْنِ الْأَرْضِ قَرَارًا لِلسَّمَاءِ، وَكَوْنُ السَّمَاءِ سَقْفًا لِلْأَرْضِ. وَتَنْصُرُهُ قِرَاءَةُ مَنْ قَرَأَ: (آتِيًا) وَآتَيْنَا: مِنَ الْمُؤَاتَاةِ وَهِيَ الْمُوَافَقَةُ: أَيْ: لِتُوَاتِ كُلَّ وَاحِدَةٍ أُخْتَهَا وَلِتُوَافِقَهَا. قَالَتَا: وَافَقْنَا وَسَاعِدْنَا. وَيُحْتَمَلُ وَافِقًا أَمْرِي وَمَشِيئَتِي وَلَا تَمْتَنِعَا.

فَإِنْ قُلْتَ: مَا مَعْنَى طَوْعًا أَوْ كَرْهًا؟

---

[1] سورة فُصِّلَتْ، الآية .

[2] سورة النَّازِعَاتُ، الآية 30.

قُلْتُ: هُوَ مَثَلٌ لِلُزُومِ وَتَأْثِيرِ قُدْرَتِهِ فيهِمَا، وَأَنَّ امْتِنَاعَهُمَا مِنْ تَأْثِيرِ قُدْرَتِهِ مُحَالٌ، كَمَا يَقُولُ الْجَبَّارُ لِمَنْ تَحْتَ يَدِهِ: لِتَفْعَلَنَّ هَذَا شِئْتَ أَوْ أَبَيْتَ، وَلَتَفْعَلَنَّهُ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا. وَانْتِصَابُهُمَا عَلَى الْحَالِ، بِمَعْنَى: طَائِعَتَيْنِ أَوْ مُكْرَهَتَيْنِ.

فَإِنْ قُلْتَ: هَلَّا قِيلَ: طَائِعَتَيْنِ عَلَى اللَّفْظِ؟ أَوْ طَائِعَاتٍ عَلَى الْمَعْنَى؟ لِأَنَّهَا سَمَاوَاتٌ وَأَرْضُونَ.

قُلْتُ: لَمَّا جُعِلْنَ مُخَاطَبَاتٍ وَمُجِيبَاتٍ، وَوُصِفْنَ بِالطَّوْعِ وَالْكُرْهِ قِيلَ: طَائِعِينَ، في مَوْضِعِ: طَائِعَاتٍ. نَحْوُ قَوْلِهِ: "سَاجِدِينَ".

﴿فَقَضَاهُنَّ﴾[1] يَجُوزُ أَنْ يَرْجِعَ الضَّمِيرُ فيهِ إِلَى السَّمَاءِ عَلَى الْمَعْنَى كَمَا قَالَ: ﴿طَائِعِينَ﴾[2]، وَنَحْوُهُ: ﴿أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾[3]، وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ ضَمِيرًا مُبْهَمًا مُفَسَّرًا بِسَبْعِ سَمَوَاتٍ، وَالْفَرْقُ بَيْنَ النَّصْبَيْنِ أَنَّ أَحَدَهُمَا عَلَى الْحَالِ، وَالثَّانِي :عَلَى التَّمْيِيزِ، قِيلَ: خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَمَا فيها في يَوْمَيْنِ: في يَوْمِ الْخَمِيسِ وَالْجُمْعَةِ، وَفَرَغَ في آخِرِ سَاعَةٍ مِنْ يَوْمِ الْجُمْعَةِ، فَخَلَقَ آدَمَ وَهِيَ السَّاعَةُ الَّتِي تَقُومُ فيها الْقِيَامَةُ.

وَفى هَذَا دَلِيلٌ عَلَى مَا ذَكَرْتُ، مِنْ أَنَّهُ لَوْ قِيلَ: في يَوْمَيْنِ في مَوْضِعِ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً، لَمْ يَعْلَمْ أَنَّهُمَا يَوْمَانِ كَامِلَانِ أَوْ نَاقِصَانِ.

فَإِنْ قُلْتَ: فَلَوْ قِيلَ: خَلَقَ الْأَرْضَ في يَوْمَيْنِ كَامِلَيْنِ وَقَدَّرَ فيها أَقْوَاتَهَا في يَوْمَيْنِ كَامِلَيْنِ، أَوْ قِيلَ: بَعْدَ ذِكْرِ الْيَوْمَيْنِ: تِلْكَ أَرْبَعَةٌ سَوَاءٌ؟

قُلْتُ: الَّذِي أَوْرَدَهُ –سُبْحَانَهُ– أَخْصَرُ وَأَفْصَحُ وَأَحْسَنُ طِبَاقًا لِمَا عَلَيْهِ التَّنْزِيلُ مِنْ مُغَاصَاةِ الْقَرَائِحِ وَمَصَاكِّ الرَّكْبِ، لِيَتَمَيَّزَ الْفَاضِلُ مِنَ النَّاقِصِ، وَالْمُتَقَدِّمُ مِنَ النَّاكِصِ، وَتَرْتَفِعُ الدَّرَجَاتُ، وَيَتَضَاعَفُ الثَّوَابُ.

﴿أَمْرُهَا﴾[4] مَا أَمَرَ بِهِ فيها وَدَبَّرَهُ مِنْ خَلْقِ الْمَلَائِكَةِ وَالنَّيِّرَاتِ وَغَيْرِ ذَلِكَ، أَوْ شَأْنِهَا وَمَا يُصْلِحُهَا.

﴿وَحِفْظًا﴾[5] وَحَفِظْنَاهَا حِفْظًا، يَعْنِي مِنَ الْمُسْتَرِقَةِ بِالثَّوَاقِبِ. وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مَفْعُولًا لَهُ عَلَى الْمَعْنَى، كَأَنَّهُ قَالَ: وَخَلَقْنَا الْمَصَابِيحَ زِينَةً وَحِفْظًا.

---

[1] سورة فُصِّلَتْ، الآية .

[2] سورة فُصِّلَتْ، الآية .

[3] سورة الْحَاقَّةُ، الآية 77.

[4] سورة فُصِّلَتْ، الآية .

[5] سورة فُصِّلَتْ، الآية .

﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ إِذْ جَاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾[1]

﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا﴾[2] بَعْدَ مَا تَتْلُو عَلَيْهِمْ مِنْ هَذِهِ الْحُجَجِ عَلَى وَحْدَانِيَّتِهِ وَقُدْرَتِهِ، فَحَذَّرَهُمْ أَنْ تُصِيبَهُمْ صَاعِقَةٌ، أَيْ: عَذَابٌ شَدِيدُ الْوَقْعِ كَأَنَّهُ صَاعِقَةٌ.

وَقُرِئَ: (صَعْقَةٌ) مِثْلُ صَعْقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ: وَهِيَ الْمَرَّةُ مِنَ الصَّعْقِ أَوِ الصُّعْقِ. يُقَالُ: صَعَقَتْهُ الصَّاعِقَةُ صَعْقًا فَصُعِقَ صَعْقًا، وَهُوَ مِنْ بَابِ: فَعَلْتُهُ فَفَعَلَ.

﴿مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾[3]، أَيْ: أَتَوْهُمْ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ، وَاجْتَهَدُوا بِهِمْ وَأَعْمَلُوا فِيهِمْ كُلَّ حِيلَةٍ، فَلَمْ يَرَوْا مِنْهُمْ إِلَّا الْعُتُوَّ وَالْإِعْرَاضَ، كَمَا حَكَى اللَّهُ -تَعَالَى- عَنِ الشَّيْطَانِ: ﴿لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾[4]، يَعْنِي لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ كُلِّ جِهَةٍ، وَلَأَعْمَلَنَّ فِيهِمْ كُلَّ حِيلَةٍ، وَتَقُولُ: اسْتَدَرْتُ بِفُلَانٍ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ، فَلَمْ يَكُنْ لِي فِيهِ حِيلَةٌ.

وَعَنِ الْحَسَنِ: أَنْذِرُوهُمْ مِنْ وَقَائِعِ اللَّهِ فِيمَنْ قَبْلَهُمْ مِنَ الْأُمَمِ وَعَذَابِ الْآخِرَةِ، لِأَنَّهُمْ إِذَا حَذَّرُوهُمْ ذَلِكَ فَقَدْ جَاؤُهُمْ بِالْوَعْظِ مِنْ جِهَةِ الزَّمَنِ الْمَاضِي وَمَا جَرَى فِيهِ عَلَى الْكُفَّارِ، وَمِنْ جِهَةِ الْمُسْتَقْبَلِ وَمَا سَيَجْرِي عَلَيْهِمْ.

وَقِيلَ: مَعْنَاهُ: إِذَا جَاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مَنْ قَبْلِهِمْ وَمِنْ بَعْدِهِمْ.

فَإِنْ قُلْتَ: الرُّسُلُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمِنْ بَعْدِهِمْ كَيْفَ يُوصَفُونَ بِأَنَّهُمْ جَاءُوهُمْ، وَكَيْفَ يُخَاطِبُونَهُمْ بِقَوْلِهِمْ: ﴿إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾[5]؟

قُلْتُ: قَدْ جَاءَهُمْ هُودٌ وَصَالِحٌ دَاعِيَيْنِ إِلَى الْإِيمَانِ بِهِمَا وَبِجَمِيعِ الرُّسُلِ مِمَّنْ جَاءَ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ، أَيْ: مَنْ قَبْلِهِمْ وَمِمَّنْ يَجِيءُ مِنْ خَلْفِهِمْ، أَيْ: مِنْ بَعْدِهِمْ، فَكَانَ الرُّسُلُ جَمِيعًا قَدْ جَاءُوهُمْ.

---

[1] سورة فُصِّلَتْ، الآية .

[2] سورة فُصِّلَتْ، الآية .

[3] سورة فُصِّلَتْ، الآية .

[4] سورة الْأَعْرَافُ، الآية 17.

[5] سورة فُصِّلَتْ، الآية .

وَقَوْلُهُمْ: ﴿إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾[1]: خِطَابٌ مِنْهُمْ لِهُودٍ وَصَالِحٍ وَلِسَائِرِ الْأَنْبِيَاءِ الَّذِينَ دَعَوْا إِلَى الْإِيمَانِ بِهِمْ.

"أَنْ" في ﴿أَلا تَعْبُدُوا﴾[2] بِمَعْنَى أَيْ، أَوْ مُخَفَّفَةً مِنَ الثَّقِيلَةِ، أَصْلُهُ: بِأَنَّهُ لَا تَعْبُدُوا، أَيْ: بِأَنَّ الشَّأْنَ وَالْحَدِيثَ قَوْلُنَا لَكُمْ: لَا تَعْبُدُوا، وَمَفْعُولُ شَاءَ مَحْذُوفٌ، أَيْ: ﴿لَوْ شَاءَ رَبُّنَا﴾[3] إِرْسَالُ الرُّسُلِ: ﴿لَأَنْزَلَ مَلائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾[4]، مَعْنَاهُ: فَإِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ وَلَسْتُمْ بِمَلَائِكَةٍ، فَإِنَّا لَا نُؤْمِنُ بِكُمْ وَبِمَا جِئْتُمْ بِهِ.

وَقَوْلُهُمْ: ﴿أُرْسِلْتُمْ بِهِ﴾[5] لَيْسَ بِإِقْرَارٍ بِالْإِرْسَالِ، وَإِنَّمَا هُوَ عَلَى كَلَامِ الرُّسُلِ، وَفِيهِ تَهَكُّمٌ، كَمَا قَالَ فِرْعَوْنُ: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾[6].

رُوِيَ: أَنَّ أَبَا جَهْلٍ قَالَ فِي مَلَأٍ مِنْ قُرَيْشٍ :قَدِ الْتَبَسَ عَلَيْنَا أَمْرُ مُحَمَّدٍ، فَلَوِ الْتَمَسْتُمْ لَنَا رَجُلًا عَالِمًا بِالشِّعْرِ وَالْكَهَانَةِ وَالسِّحْرِ فَكَلَّمَهُ ثُمَّ أَتَانَا بِبَيَانٍ عَنْ أَمْرِهِ، فَقَالَ عُتْبَةُ بْنُ رَبِيعَةَ :وَاللَّهُ لَقَدْ سَمِعْتُ الشِّعْرَ وَالْكَهَانَةَ وَالسِّحْرَ وَعَلِمْتَ مِنْ ذَلِكَ عِلْمًا، وَمَا يَخْفى عَلَيَّ، فَأَتَاهُ فَقَالَ: أَنْتَ يَا مُحَمَّدُ خَيْرٌ أَمْ هَاشِمٌ؟ أَنْتَ خَيْرٌ أَمْ عَبْدُ الْمُطَّلِبِ؟ أَنْتَ خَيْرٌ أَمْ عَبْدُ اللَّهِ ؟ فَبِمَ تَشْتُمُ آلِهَتَنَا وَتُضَلِّلُنَا، فَإِنْ كُنْتَ تُرِيدُ الرِّيَاسَةَ عَقَدْنَا لَكَ اللِّوَاءَ فَكُنْتَ رَئِيسَنَا، وَإِنْ تَكُ بِكَ الْبَاءَةُ زَوَّجْنَاكَ عَشْرَ نِسْوَةٍ تَخْتَارُ مِنْ أَيِّ بَنَاتِ قُرَيْشٍ شِئْتَ، وَإِنْ كَانَ بِكَ الْمَالُ جَمَعْنَا لَكَ مِنْ أَمْوَالِنَا مَا تَسْتَغْنِي بِهِ، وَرَسُولُ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– سَاكِتٌ، فَلَمَّا فَرَغَ قَالَ: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿حم﴾[7] إِلَى قَوْلِهِ: ﴿صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةَ عَادٍ وَثَمُودَ﴾[8]، فَأَمْسَكَ عُتْبَةُ عَلَى فِيهِ وَنَاشَدَهُ بِالرَّحِمِ، وَرَجَعَ إِلَى أَهْلِهِ وَلَمْ يَخْرُجْ إِلَى قُرَيْشٍ فَلَمَّا احْتَبَسَ عَنْهُمْ قَالُوا: مَا نَرَى عُتْبَةَ إِلَّا قَدْ صَبَأَ، فَانْطَلَقُوا إِلَيْهِ وَقَالُوا: يَا عُتْبَةَ مَا حَبَسَكَ عَنَّا إِلَّا أَنَّكَ قَدْ صَبَأْتَ، فَغَضِبَ وَأَقْسَمَ لَا يُكَلِّمُ مُحَمَّدًا أَبَدًا، ثُمَّ قَالَ: وَاللَّهِ لَقَدْ كَلَّمْتُهُ، فَأَجَابَنِي بِشَيْءٍ مِنَ اللَّهِ مَا هُوَ بِشِعْرٍ وَلَا كَهَانَةَ وَلَا سِحْرٍ، وَلَمَّا بَلَغَ صَاعِقَةَ

---

1 سورة فُصِّلَتْ، الآية .

2 سورة فُصِّلَتْ، الآية .

3 سورة فُصِّلَتْ، الآية .

4 سورة فُصِّلَتْ، الآية .

5 سورة فُصِّلَتْ، الآية .

6 سورة الشُّعَرَاءُ، الآية 27.

7 سورة فُصِّلَتْ، الآية .

8 سورة فُصِّلَتْ، الآية 13.

عَادٍ وَثَمُودَ: أَمْسَكَتْ بِفيهِ وَنَاشَدَتْهُ بِالرَّحِمِ أَنْ يَكُفَّ، وَقَدْ عَلَّمْتُمْ أَنَّ مُحَمَّدًا إِذَا قَالَ شَيْئًا لَمْ يَكْذِبْ، فَخِفْتُ أَنْ يَنْزِلَ بِكُمُ الْعَذَابُ.

﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَى وَهُمْ لا يُنْصَرُونَ﴾[1]

﴿فَاسْتَكْبَرُوا فِي الأَرْضِ﴾[2]، أَيْ: تُعَظِّمُوا فيها عَلَى أَهْلِهَا بِمَا لَا يَسْتَحِقُّونَ بِهِ التَّعْظِيمَ وَهُوَ الْقُوَّةُ وَعَظُمَ الْإِجْرَامِ، أَوِ اسْتَعْلَوْا فِي الْأَرْضِ وَاسْتَوْلَوْا عَلَى أَهْلِهَا بِغَيْرِ اسْتِحْقَاقٍ لِلْوِلَايَةِ.

﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾[3] كَانُوا ذَوِي أَجْسَامٍ طِوَالٍ وَخُلُقٍ عَظِيمٍ، وَبَلَّغَ مِنْ قُوَّتِهِمْ أَنَّ الرَّجُلَ كَانَ يَنْزِعُ الصَّخْرَةَ مِنَ الْجَبَلِ فيقْتَلِعُهَا بِيَدِهِ.

فَإِنْ قُلْتَ: الْقُوَّةُ هِيَ الشِّدَّةُ وَالصَّلَابَةُ فِي الْبِنْيَةِ، وَهِيَ نَقِيضَةُ الضَّعْفِ. وَأَمَّا الْقُدْرَةُ فَمَا لِأَجْلِهِ يَصِحُّ الْفِعْلُ مِنَ الْفَاعِلِ مِنْ تَمَيُّزٍ بِذَاتٍ أَوْ بِصِحَّةِ بَنِيهِ، وَهِيَ نَقِيضَةُ الْعَجْزِ، وَاللَّهُ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- لَا يُوصَفُ بِالْقُوَّةِ إِلَّا عَلَى مَعْنَى الْقُدْرَةِ، فَكَيْفَ صَحَّ قَوْلُهُ: ﴿هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾[4]، وَإِنَّمَا يَصِحُّ إِذَا أُرِيدَ بِالْقُوَّةِ فِي الْمَوْضِعَيْنِ شَيْءٌ وَاحِدٌ؟

قُلْتُ: الْقُدْرَةُ فِي الْإِنْسَانِ هِيَ صِحَّةُ الْبِنْيَةِ وَالِاعْتِدَالُ وَالْقُوَّةُ وَالشِّدَّةُ وَالصَّلَابَةُ فِي الْبِنْيَةِ، وَحَقِيقَتُهَا: زِيَادَةُ الْقُدْرَةِ، فَكَمَا صَحَّ أَنْ يُقَالَ: اللَّهُ أَقْدَرُ مِنْهُمْ، جَازَ أَنْ يُقَالَ أَقْوَى مِنْهُمْ، عَلَى مَعْنَى: أَنَّهُ يَقْدِرُ لِذَاتِهِ عَلَى مَا لَا يَقْدِرُونَ عَلَيْهِ بِازْدِيَادِ قَدْرِهِمْ.

﴿يَجْحَدُونَ﴾[5] كَانُوا يَعْرِفُونَ أَنَّهَا حَقٌّ، وَلَكِنَّهُمْ جَحَدُوهَا كَمَا يَجْحَدُ الْمُودِعُ الْوَدِيعَةَ، وَهُوَ مَعْطُوفٌ عَلَى فَاسْتَكْبَرُوا، أَيْ: كَانُوا كَفَرَةً فَسَقَةً. الصَّرْصَرُ: الْعَاصِفَةُ الَّتِي

---

[1] سورة فُصِّلَتْ، الآية .
[2] سورة فُصِّلَتْ، الآية .
[3] سورة فُصِّلَتْ، الآية .
[4] سورة فُصِّلَتْ، الآية .
[5] سورة فُصِّلَتْ، الآية .

تُصَرْصِرُ، أَيْ: تَصَوَّتْ في هُبُوبِهَا. وَقِيلَ: الْبَارِدَةُ الَّتِي تُحْرِقُ بِشِدَّةِ بَرْدِهَا، تَكْرِيرٌ لِبِنَاءِ الصَّرِّ وَهُوَ الْبَرْدُ الَّذِي يُصِرُّ، أَيْ: يَجْمَعُ وَيَقْبِضُ ﴿نَحِسَاتٍ﴾[1]، قُرِئَ بِكَسْرِ الْحَاءِ وَسُكُونِهَا. وَنُحِسٌ نَحْسًا: نَقِيضُ سَعِدَ سَعْدًا، وَهُوَ نَحْسٌ.

وَأَمَّا نَحْسٌ، فَإِمَّا مُخَفَّفُ نَحْسٍ، أَوْ صِفَةٌ عَلَى فِعْلٍ، كَالضَّخْمِ وَشَبَهِهِ، أَوْ وَصْفٍ بِمَصْدَرٍ. وَقُرِئَ: (لِنُذِيقَهُمْ) عَلَى أَنَّ الْإِذَاقَةَ لِلرِّيحِ أَوْ لِلْأَيَّامِ النَّحِسَاتِ.

وَأَضَافَ الْعَذَابَ إِلَى الْخِزْيِ، وَهُوَ الذُّلُّ وَالِاسْتِكَانَةُ عَلَى أَنَّهُ وَصْفٌ لِلْعَذَابِ، كَأَنَّهُ قَالَ: عَذَابُ خِزْيٍ، كَمَا تَقُولُ: فَعَلَ السُّوءَ، تُرِيدُ: الْفِعْلَ السَّيِّئَ، وَالدَّلِيلُ عَلَيْهِ قَوْلُهُ –تَعَالَى–: ﴿وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَخْزَى﴾[2]، وَهُوَ مِنَ الْإِسْنَادِ الْمَجَازِيِّ، وَوَصْفُ الْعَذَابِ بِالْخِزْيِ: أَبْلَغُ مِنْ وَصْفِهِمْ بِهِ.

أَلَا تَرَى إِلَى الْبَوْنِ بَيْنَ قَوْلَيْكَ: هُوَ شَاعِرٌ، وَلَهُ شِعْرُ شَاعِرٍ؟!

## ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾[3]

وَقُرِئَ: (ثَمُودُ) بِالرَّفْعِ وَالنَّصْبِ مُنَوَّنًا وَغَيْرَ مُنَوَّنٍ، وَالرَّفْعُ أَفْصَحُ لِوُقُوعِهِ بَعْدَ حَرْفِ الِابْتِدَاءِ. وَقُرِئَ بِضَمِّ الثَّاءِ. "فَهَدَيْنَاهُمْ" فَدَلَلْنَاهُمْ عَلَى طَرِيقَيِ الضَّلَالَةِ وَالرُّشْدِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى–﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾[4].

﴿فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى﴾[5]، فَاخْتَارُوا الدُّخُولَ في الضَّلَالَةِ عَلَى الدُّخُولِ في الرُّشْدِ.

فَإِنْ قُلْتُ: أَلَيْسَ مَعْنَى هَدِيَّتِهِ: حَصَلَتْ فيهِ الْهُدَى، وَالدَّلِيلُ عَلَيْهِ قَوْلُكَ: هَدِيَّتُهُ فَاهْتَدَى، بِمَعْنَى: تَحْصِيلُ الْبُغْيَةِ وَحُصُولُهَا، كَمَا تَقُولُ: رَدَعْتُهُ فَارْتَدَعَ، فَكَيْفَ سَاغَ اسْتِعْمَالُهُ في الدَّلَالَةِ الْمُجَرَّدَةِ؟

---

[1] سورة فُصِّلَتْ، الآية .

[2] سورة فُصِّلَتْ، الآية .

[3] سورة فُصِّلَتْ، الآية .

[4] سورة الْبَلَدُ، الآية **10**.

[5] سورة فُصِّلَتْ، الآية .

قُلْتُ: لِلدَّلَالَةِ عَلَى أَنَّهُ مَكَّنَهُمْ وَأَزَاحَ عِلَلَهُمْ وَلَمْ يُبْقِ لَهُ عُذْرًا وَلَا عِلَّةً، فَكَأَنَّهُ حَصَلَ الْبُغْيَةَ فيهِمْ بِتَحْصِيلِ مَا يُوجِبُهَا وَيَقْتَضِيهَا.

﴿صَاعِقَةُ الْعَذَابِ﴾[1] دَاهِيَةُ الْعَذَابِ وَقَارِعَةُ الْعَذَابِ.

وَ﴿الْهُونِ﴾[2] الْهَوَانِ، وَصَفَ بِهِ الْعَذَابَ مُبَالَغَةً، أَوْ أَبْدَلَهُ مِنْهُ، وَلَوْ لَمْ يَكُنْ في الْقُرْآنِ حُجَّةٌ عَلَى الْقَدَرِيَّةِ الَّذِينَ هُمْ مَجُوسُ هَذِهِ الْأُمَّةِ بِشَهَادَةِ نَبِيِّهَا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَكَفى بِهِ شَاهِدًا إِلَّا هَذِهِ الْآيَةُ، لَكَفى بِهَا حُجَّةً.

﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ حَتَّى إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[3]

قُرِئَ: (يَحْشُرُ) عَلَى الْبِنَاءِ لِلْمَفْعُولِ. وَنَحْشُرُ بِالنُّونِ وَضَمِّ الشِّينِ وَكَسْرِهَا، وَيَحْشُرُ: عَلَى الْبِنَاءِ لِلْفَاعِلِ، أَيْ: يَحْشُرُ اللَّهُ -عَزَّ وَجَلَّ- ﴿أَعْدَاءُ اللَّهِ﴾[4] الْكَفَّارَ مِنَ الْأَوَّلِينَ وَالْآخَرِينَ.

﴿يُوزَعُونَ﴾[5]، أَيْ: يَحْبِسُ أَوَّلُهُمْ عَلَى آخِرِهِمْ، أَيْ: يَسْتَوْقِفُ سَوَابِقُهُمْ حَتَّى يَلْحَقَ بِهِمْ تُوَالِيهِمْ، وَهِيَ عِبَارَةٌ عَنْ كَثْرَةِ أَهْلِ النَّارِ، نَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يُجِيرَنَا مِنْهَا بِسِعَةِ رَحْمَتِهِ.

فَإِنْ قُلْتَ: ﴿مَا﴾[6] في قَوْلِهِ: ﴿حَتَّى إِذَا مَا جَاءُوهَا﴾[7] مَا هِيَ؟

قُلْتُ: مَزِيدَةٌ لِلتَّأْكِيدِ، وَمَعْنَى التَّأْكِيدِ فيها: أَنَّ وَقْتَ مَجِيئِهِمُ النَّارَ لَا مَحَالَةَ أَنْ يَكُونَ وَقْتَ الشَّهَادَةِ عَلَيْهِمْ، وَلَا وَجْهَ لِأَنْ يَخْلُوَ مِنْهَا.

---

[1] سورة ، الآية .
[2] سورة ، الآية .
[3] سورة ، الآية .
[4] سورة ، الآية .
[5] سورة ، الآية .
[6] سورة ، الآية .
[7] سورة ، الآية .

وَمِثْلُهُ قَوْلُهُ –تَعَالَى–: ﴿أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ آمَنْتُمْ بِهِ﴾[1]، أَيْ: لَا بُدَّ لِوَقْتِ وُقُوعِهِ مِنْ أَنْ يَكُونَ وَقْتَ إِيمَانِهِمْ بِهِ شَهَادَةُ الْجُلُودِ بِالْمُلَامَسَةِ لِلْحَرَامِ، وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ مِمَّا يُفْضِي إِلَيْهَا مِنَ الْمُحَرَّمَاتِ.

فَإِنْ قُلْتَ: كَيْفَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَعْضَاؤُهُمْ وَكَيْفَ تَنْطِقُ؟

قُلْتُ: اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ يَنْطِقُهَا كَمَا أَنْطَقَ الشَّجَرَةَ بِأَنْ يَخْلُقَ فيها كَلَامًا. وَقِيلَ: الْمُرَادُ بِالْجُلُودِ: الْجَوَارِحُ. وَقِيلَ: هِيَ كِنَايَةٌ عَنِ الْفُرُوجِ، أَرَادَ بِكُلِّ شَيْءٍ: كُلُّ شَيْءٍ مِنَ الْحَيَوَانِ، كَمَا أَرَادَ بِهِ فِي قَوْلِهِ –تَعَالَى–: ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[2]: كُلُّ شَيْءٍ مِنَ الْمَقْدُورَاتِ.

وَالْمَعْنَى: أَنَّ نُطْقَنَا لَيْسَ بِعَجَبٍ مِنْ قُدْرَةِ اللَّهِ الَّذِي قَدَرَ عَلَى إِنْطَاقِ كُلِّ حَيَوَانٍ، وَعَلَى خَلْقِكُمْ وَإِنْشَائِكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ، وَعَلَى إِعَادَتِكُمْ وَرَجْعِكُمْ إِلَى جَزَائِهِ وَإِنَّمَا قَالُوا لَهُمْ: ﴿لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا﴾[3] لَمَّا تَعَاظَمَهُمْ مِنْ شَهَادَتِهَا وَكَبُرَ عَلَيْهِمْ مِنَ الِافْتِضَاحِ عَلَى أَلْسِنَةِ جَوَارِحِهِمْ.

﴿وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلا أَبْصَارُكُمْ وَلا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾[4]

وَالْمَعْنَى: أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ بِالْحِيطَانِ وَالْحَجْبُ عِنْدَ ارْتِكَابِ الْفَوَاحِشِ، وَمَا كَانَ اسْتِتَارُكُمْ ذَلِكَ خِيفَةَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ جَوَارِحُكُمْ، لِأَنَّكُمْ كُنْتُمْ غَيْرَ عَامِلِينَ بِشَهَادَتِهَا عَلَيْكُمْ، بَلْ كُنْتُمْ جَاحِدِينَ بِالْبَعْثِ وَالْجَزَاءِ أَصْلًا، وَلَكِنَّكُمْ إِنَّمَا اسْتَتَرْتُمْ لِظَنِّكُمْ ﴿أَنَّ اللَّهَ لا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا﴾[5] كُنْتُمْ ﴿تَعْمَلُونَ﴾[6]، وَهُوَ الْخِفِيَاتُ مِنْ أَعْمَالِكُمْ، وَذَلِكَ الظَّنُّ هُوَ الَّذِي أَهْلَكَكُمْ.

وَفِي هَذَا تَنْبِيهٌ عَلَى أَنَّ مِنْ حَقِّ الْمُؤْمِنِ أَنْ لَا يَذْهَبَ عَنْهُ، وَلَا يَزَلْ عَنْ ذِهْنِهِ أَنَّ عَلَيْهِ مِنَ اللَّهِ عَيْنًا كَالِئَةً وَرَقِيبًا مُهَيْمِنًا، حَتَّى يَكُونَ فِي أَوْقَاتِ خَلَوَاتِهِ مِنْ رَبِّهِ أَهْيَبُ وَأَحْسَنُ

---

[1] سورة يُونُسُ، الآية 51.

[2] سورة الْبَقَرَةُ، الآية 284.

[3] سورة فُصِّلَتْ، الآية .

[4] سورة فُصِّلَتْ، الآية .

[5] سورة فُصِّلَتْ، الآية .

[6] سورة فُصِّلَتْ، الآية .

احْتِشَامًا وَأَوْفَرُ تَحَفُّظًا وَتَصَوُّنًا مِنْهُ مَعَ الْمَلَإِ، وَلَا يَتَبَسَّطُ فِي سِرِّهِ مُرَاقَبَةً مِنَ التَّشَبُّهِ بِهَؤُلَاءِ الظَّانِّينَ.

وَقُرِئَ: (وَلَكِنْ زَعَمْتُمْ) ﴿وَذَلِكُمْ﴾[1] رَفْعٌ بِالِابْتِدَاءِ، و﴿ظَنُّكُمُ﴾[2] وَ﴿أَرْدَاكُمْ﴾[3] خَبَرَانِ؛ وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ ﴿ظَنُّكُمُ﴾[4] بَدَلًا مِنْ ﴿وَذَلِكُمْ﴾ وَ﴿أَرَادَكُمْ﴾[5] الْخَبَرُ.

﴿فَإِنْ يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ وَإِنْ يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ﴾[6]

﴿فَإِنْ يَصْبِرُوا﴾[7] لَمْ يَنْفَعْهُمُ الصَّبْرُ، وَلَمْ يَنْفَكُّوا بِهِ مِنَ الثَّوَاءِ فِي النَّارِ.

﴿وَإِنْ يَسْتَعْتِبُوا﴾[8]: وَإِنْ يَسْأَلُوا الْعُتْبَى وَهِيَ الرُّجُوعُ لَهُمْ إِلَى مَا يُحِبُّونَ جَزَعًا مِمَّا هُمْ فِيهِ: لَمْ يَعْتِبُوا: لَمْ يُعْطُوا الْعُتْبَى وَلَمْ يُجَابُوا إِلَيْهَا، وَنَحْوُهُ قَوْلُهُ –عَزَّ وَعَلَا–: ﴿أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَحِيصٍ﴾[9]، وَقُرِئَ: (وَإِنْ يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ)، أَيْ: إِنْ سَأَلُوا أَنْ يَرْضَوْا رَبَّهُمْ فَمَا هُمْ فَاعِلُونَ، أَيْ: لَا سَبِيلَ لَهُمْ إِلَى ذَلِكَ.

﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ﴾:[10] وَقَدَّرْنَا لَهُمْ، يَعْنِي لِمُشْرِكِي مَكَّةَ، يُقَالُ: هَذَانِ ثَوْبَانِ قَيِّضَانِ: إِذَا كَانَا مُتَكَافِئَيْنِ. وَالْمُقَايَضَةُ: الْمُعَاوَضَةُ.

---

1 سورة فُصِّلَتْ، الآية .
2 سورة فُصِّلَتْ، الآية .
3 سورة فُصِّلَتْ، الآية .
4 سورة فُصِّلَتْ، الآية .
5 سورة فُصِّلَتْ، الآية .
6 سورة فُصِّلَتْ، الآية .
7 سورة فُصِّلَتْ، الآية .
8 سورة فُصِّلَتْ، الآية .
9 سورة إِبْرَاهِيم، الآية 21.
10 سورة فُصِّلَتْ، الآية .

﴿قُرَنَاءَ﴾[1] أَخْدَانًا مِنَ الشَّيَاطِينِ جَمْعُ قَرِينٍ، كَقَوْلِهِ -تَعَالَى-: ﴿وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾[2].

فَإِنْ قُلْتَ: كَيْفَ جَازَ أَنْ يُقَيِّضَ لَهُمُ الْقُرَنَاءُ مِنَ الشَّيَاطِينِ وَهُوَ يَنْهَاهُمْ عَنِ اتِّبَاعِ خُطُوَاتِهِمْ؟

قُلْتُ: مَعْنَاهُ أَنَّهُ خَذَلَهُمْ وَمَنَعَهُمُ التَّوْفِيقُ، لِتَصْمِيمِهِمْ عَلَى الْكُفْرِ، فَلَمْ يَبْقَ لَهُمْ قُرَنَاءُ سِوَى الشَّيَاطِينِ.

وَالدَّلِيلُ عَلَيْهِ: ﴿وَمَنْ يَعْشُ﴾[3] نَقِيضُ.

﴿أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾[4] مَا تَقَدَّمَ مِنْ أَعْمَالِهِمْ وَمَا هُمْ عَازِمُونَ عَلَيْهَا، أَوْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ مِنْ أَمْرِ الدُّنْيَا وَاتِّبَاعِ الشَّهَوَاتِ، وَمَا خَلْفَهُمْ: مِنْ أَمْرِ الْعَاقِبَةِ، وَأَنْ لَا بَعْثَ وَلَا حِسَابَ.

﴿وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ﴾[5]، يَعْنِي كَلِمَةَ الْعَذَابِ ﴿فِي أُمَمٍ﴾[6] فِي جُمْلَةِ أُمَمٍ.

وَمَثَّلَ فِي هَذِهِ مَا فِي قَوْلِهِ:

إِنْ تَكُ عَنْ أَحْسَنِ الصَّنِيعَةِ مَأْ فُوكًا فَفِي آخَرِينَ قَدْ أُفِكُوا

يُرِيدُ: فَأَنْتَ فِي جُمْلَةِ آخَرِينَ، وَأَنْتَ فِي عِدَادِ آخَرِينَ لَسْتَ فِي ذَلِكَ بِأَوْحَدَ.

فَإِنْ قُلْتَ: ﴿فِي أُمَمٍ﴾[7] مَا مَحِلُّهُ؟

قُلْتُ: مَحِلُّهُ النَّصْبُ عَلَى الْحَالِ مِنَ الضَّمِيرِ فِي ﴿عَلَيْهِمْ﴾[8]، أَيْ: حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ كَائِنِينَ فِي جُمْلَةِ أُمَمٍ.

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ﴾[9] تَعْلِيلٌ لِاسْتِحْقَاقِهِمُ الْعَذَابَ. وَالضَّمِيرُ لَهُمْ وَلِلْأُمَمِ.

---

1 سورة فُصِّلَتْ، الآية .

2 سورة الزُّخْرُفُ، الآية 36.

3 سورة فُصِّلَتْ، الآية .

4 سورة فُصِّلَتْ، الآية .

5 سورة فُصِّلَتْ، الآية .

6 سورة فُصِّلَتْ، الآية .

7 سورة فُصِّلَتْ، الآية .

8 سورة فُصِّلَتْ، الآية .

9 سورة فُصِّلَتْ، الآية .

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ذَلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ جَزَاءً بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾[1]

قُرِئَ: (وَالْغُوَا فيهِ) بِفَتْحِ الْغَيْنِ وَضَمِّهَا. وَيُقَالُ: لَغَى يَلْغَى، وَلَغَا يَلْغُو: السَّاقِطُ مِنَ الْكَلَامِ الَّذِي لَا طَائِلَ تَحْتَهُ. قَالَ: مِنَ اللَّغَا وَرَفْثِ التَّكَلُّمِ.

وَالْمَعْنَى: لَا تَسْمَعُوا لَهُ إِذَا قُرِئَ، وَتَشَاغَلُوا عِنْدَ قِرَاءَتِهِ بِرَفْعِ الْأَصْوَاتِ بِالْخُرَافَاتِ وَالْهَذَيَانِ وَالزَّمْلِ، وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، حَتَّى تَخْلِطُوا عَلَى الْقَارِئِ وَتُشَوِّشُوا عَلَيْهِ وَتَغْلِبُوهُ عَلَى قِرَاءَتِهِ. كَانَتْ قُرَيْشٌ يُوصِي بِذَلِكَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا.

﴿فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾[2] يَجُوزُ أَنْ يُرِيدَ بِالَّذِينِ كَفَرُوا: هَؤُلَاءِ اللَّاغِينَ وَالْآمِرِينَ لَهُمْ بِاللَّغْوِ خَاصَّةً، وَأَنْ يَذْكُرَ الَّذِينَ كَفَرُوا عَامَّةً لِيَنْطَوُوا تَحْتَ ذِكْرِهِمْ. قَدْ ذَكَرْنَا إِضَافَةَ أَسْوَأَ بِمَا أَغْنَى عَنْ إِعَادَتِهِ.

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: ﴿عَذَابًا شَدِيدًا﴾[3] يَوْمَ بَدْرٍ.

وَ﴿أَسْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[4] فِي الْآخِرَةِ.

﴿ذَلِكَ﴾[5] إِشَارَةٌ إِلَى الْأَسْوَأِ، وَيَجِبُ أَنْ يَكُونَ التَّقْدِيرُ: أَسْوَأُ جَزَاءِ الَّذِينَ كَانُوا يَعْمَلُونَ، حَتَّى تَسْتَقِيمَ هَذِهِ الْإِشَارَةُ.

وَ﴿النَّارِ﴾[6] عَطْفُ بَيَانٍ لِلْجَزَاءِ، أَوْ خَبَرُ مُبْتَدَأٍ مَحْذُوفٍ.

فَإِنْ قُلْتَ: مَا مَعْنَى قَوْلِهِ -تَعَالَى-: ﴿لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ﴾[7]؟

قُلْتُ: مَعْنَاهُ أَنَّ النَّارَ فِي نَفْسِهَا دَارُ الْخُلْدِ، كَقَوْلِهِ -تَعَالَى-: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾[8].

---

1 سورة فُصِّلَتْ، الآية .

2 سورة فُصِّلَتْ، الآية .

3 سورة فُصِّلَتْ، الآية .

4 سورة فُصِّلَتْ، الآية .

5 سورة فُصِّلَتْ، الآية .

6 سورة فُصِّلَتْ، الآية .

7 سورة فُصِّلَتْ، الآية .

8 سورة الْأَحْزَابُ، الآية 21.

وَالْمَعْنَى: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ، وَتَقُولُ: لَكَ فِي هَذِهِ الدَّارِ دَارُ السُّرُورِ. وَأَنْتَ تَعْنِي الدَّارَ بِعَيْنِهَا ﴿جَزَاءً بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾[1]، أَيْ: جَزَاءٌ بِمَا كَانُوا يَلْغُونَ فِيهَا، فَذَكَرَ الْجَحُودَ الَّذِي سَبَّبَ اللَّغْوَ.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا اللَّذَيْنِ أَضَلانَا مِنَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الأَسْفَلِينَ﴾[2]

﴿اللَّذَيْنِ أَضَلانَا﴾[3]، أَيِ: الشَّيْطَانَيْنِ اللَّذَيْنِ أَضَلَّانَا ﴿مِنَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ﴾[4]، لِأَنَّ الشَّيْطَانَ عَلَى ضَرْبَيْنِ: جَنِّيٌّ وَإِنْسِيٌّ.

قَالَ اللَّهُ –تَعَالَى–: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإِنْسِ وَالْجِنِّ﴾[5]، وَقَالَ –تَعَالَى–: ﴿الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾[6].

وَقِيلَ: هُمَا إِبْلِيسُ وَقَابِيلُ، لِأَنَّهُمَا سَنَّا الْكُفْرَ وَالْقَتْلَ بِغَيْرِ حَقٍّ. وَقُرِئَ: (أَرِنَا) بِسُكُونِ الرَّاءِ لِثِقَلِ الْكَسْرَةِ، كَمَا قَالُوا فِي فَخْذٌ: فَخِذٌ.

وَقِيلَ: مَعْنَاهُ أَعْطِنَا اللَّذَيْنِ أَضَلَّانَا.

وَحَكَوْا عَنِ الْخَلِيلِ: أَنَّكَ إِذَا قُلْتَ: أَرِنِي ثَوْبَكَ بِالْكَسْرِ، فَالْمَعْنَى: بَصِّرْنِيهِ. وَإِذَا قُلْتَهُ بِالسُّكُونِ، فَهُوَ اسْتِعْطَاءٌ، مَعْنَاهُ: أَعْطِنِي ثَوْبَكَ، وَنَظِيرُهُ: اشْتِهَارُ الْإِيتَاءِ فِي مَعْنَى الْإِعْطَاءِ، وَأَصْلُهُ: الْإِحْضَارُ.

﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلا تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ نُزُلًا مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ﴾[7]

---

1 سورة فُصِّلَتْ، الآية .

2 سورة فُصِّلَتْ، الآية .

3 سورة فُصِّلَتْ، الآية .

4 سورة فُصِّلَتْ، الآية .

5 سورة الْأَنْعَامُ، الآية 112.

6 سورة النَّاسُ، الآيتان 5–6.

7 سورة فُصِّلَتْ، الآية .

﴿ثُمَّ﴾[1] لِتَرَاخِي الِاسْتِقَامَةِ عَنِ الْإِقْرَارِ فِي الْمَرْتَبَةِ. وَفَضَّلَهَا عَلَيْهِ، لِأَنَّ الِاسْتِقَامَةَ لَهَا الشَّأْنُ كُلُّهُ.

وَنَحْوُهُ قَوْلُهُ –تَعَالَى–: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا﴾[2].

وَالْمَعْنَى: ثُمَّ ثَبَتُوا عَلَى الْإِقْرَارِ وَمُقْتَضَيَاتِهِ.

وَعَنْ أَبِي بَكْرٍ الصَّدِيقِ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ–: اسْتَقَامُوا فِعْلًا كَمَا اسْتَقَامُوا قَوْلًا. وَعَنْهُ: أَنَّهُ تَلَاهَا ثُمَّ قَالَ: مَا تَقُولُونَ فيها؟ قَالُوا: لَمْ يُذْنِبُوا. قَالَ: حَمَلْتُمُ الْأَمْرَ عَلَى أَشُدِّهِ. قَالُوا: فَمَا تَقُولُ؟ قَالَ: لَمْ يَرْجِعُوا إِلَى عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ.

وَعَنْ عُمَرَ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ–: اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَمْ يَرُوغُوا رَوَغَانَ الثَّعَالِبِ.

وَعَنْ عُثْمَانَ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ–: أَخْلَصُوا الْعَمَلَ.

وَعَنْ عَلِيٍّ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ–: أَدُّوا الْفَرَائِضَ.

وَقَالَ سُفْيانُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الثَّقَفِي –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ–: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَخْبِرْنِي بِأَمْرٍ أَعْتَصِمُ بِهِ. قَالَ: "قُلْ رَبِّيَ اللَّهُ، ثُمَّ اسْتَقِمْ" قَالَ: فَقُلْتُ: مَا أَخْوَفُ مَا تَخَافُ عَلَيَّ؟ فَأَخَذَ رَسُولُ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– بِلِسَانِ نَفْسِهِ فَقَالَ: "هَذَا ﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ﴾[3] عِنْدَ الْمَوْتِ بِالْبُشْرَى".

وَقِيلَ: الْبُشْرَى فِي ثَلَاثَةِ مَوَاطِنَ: عِنْدَ الْمَوْتِ، وَفِي الْقَبْرِ، وَإِذَا قَامُوا مِنْ قُبُورِهِمْ.

﴿أَلَّا تَخَافُوا﴾[4]، "أَنْ" بِمَعْنَى أَيْ، أَوْ مُخَفَّفَةً مِنَ الثَّقِيلَةِ. وَأَصْلُهُ: بِأَنَّهُ لَا تَخَافُوا، وَالْهَاءُ ضَمِيرُ الشَّأْنِ.

وَفِي قِرَاءَةِ ابْنِ مَسْعُودٍ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ–: لَا تَخَافُوا، أَيْ: يَقُولُونَ: لَا تَخَافُوا، وَالْخَوْفُ: غَمٌّ يَلْحَقُ لِتَوَقُّعِ الْمَكْرُوهِ، وَالْحُزْنِ: غَمٌّ يَلْحَقُ لِوُقُوعِهِ، مِنْ فَوَاتِ نَافِعٍ أَوْ حُصُولِ ضَارٍّ.

---

[1] سورة فُصِّلَتْ، الآية .

[2] سورة الْحُجُرَاتُ، الآية 15.

[3] سورة فُصِّلَتْ، الآية .

[4] سورة فُصِّلَتْ، الآية .

وَالْمَعْنَى: أَنَّ اللَّهَ كَتَبَ لَكُمُ الْأَمْنَ مِنْ كُلِّ غَمٍّ، فَلَنْ تَذُوقُوهُ أَبَدًا. وَقِيلَ: لَا تَخَافُوا مَا تُقْدِمُونَ عَلَيْهِ، وَلَا تَحْزَنُوا عَلَى مَا خُلِّفْتُمْ. كَمَا أَنَّ الشَّيَاطِينَ قُرَنَاءُ الْعُصَاةِ وَإِخْوَانُهُمْ، فَكَذَلِكَ الْمَلَائِكَةُ أَوْلِيَاءُ الْمُتَّقِينَ وَأَحِبَّاؤُهُمْ فِي الدَّارَيْنِ.

﴿تَدْعُونَ﴾[1] تَتَمَنَّوْنَ: وَالنُّزُلُ: رِزْقُ التَّنْزِيلِ وَهُوَ الضَّيْفُ، وَانْتِصَابُهُ عَلَى الْحَالِ.

## ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾[2]

﴿مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ﴾[3] عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا-: هُوَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- دَعَا إِلَى الْإِسْلَامِ.

﴿وَعَمِلَ صَالِحًا﴾[4] فِيمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ رَبِّهِ، وَجَعَلَ الْإِسْلَامَ نِحْلَةً لَهُ. وَعَنْهُ: أَنَّهُمْ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-.

وَعَنْ عَائِشَةَ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا-: مَا كُنَّا نَشُكُّ أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ نَزَلَتْ فِي الْمُؤَذِّنِينَ، وَهِيَ عَامَّةٌ فِي كُلِّ مَنْ جَمَعَ بَيْنَ هَذِهِ الثَّلَاثِ: أَنْ يَكُونَ مُوَحِّدًا مُعْتَقِدًا لِدِينِ الْإِسْلَامِ، عَامِلًا بِالْخَيْرِ دَاعِيًا إِلَيْهِ، وَمَا هُمْ إِلَّا طَبَقَةُ الْعَالِمِينَ الْعَامِلِينَ مِنْ أَهْلِ الْعَدْلِ وَالتَّوْحِيدِ، الدُّعَاةُ إِلَى دِينِ اللَّهِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾[5] لَيْسَ الْغَرَضُ أَنَّهُ تَكَلَّمَ بِهَذَا الْكَلَامِ، وَلَكِنْ جَعَلَ دِينَ الْإِسْلَامِ مَذْهَبَهُ وَمُعْتَقَدَهُ، كَمَا تَقُولُ: هَذَا قَوْلُ أَبِي حَنِيفَةَ، تُرِيدُ مَذْهَبَهُ.

---

[1] سورة فُصِّلَتْ، الآية .

[2] سورة فُصِّلَتْ، الآية .

[3] سورة فُصِّلَتْ، الآية .

[4] سورة فُصِّلَتْ، الآية .

[5] سورة فُصِّلَتْ، الآية .

﴿وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾[1]

يَعْنِي: أَنَّ الْحَسَنَةَ وَالسَّيِّئَةَ مُتَفَاوِتَتَانِ فِي أَنْفُسِهِمَا فَخُذِ الْحَسَنَةَ الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ مِنْ أُخْتِهَا –إِذَا اعْتَرَضَتْكَ حَسَنَتَانِ–، فَادْفَعْ بِهَا السَّيِّئَةَ الَّتِي تُرَدُّ عَلَيْكَ مِنْ بَعْضِ أَعْدَائِكَ.

وَمِثَالُ ذَلِكَ: رَجُلٌ أَسَاءَ إِلَيْكَ إِسَاءَةً، فَالْحَسَنَةُ: أَنْ تَعْفُوَ عَنْهُ، وَالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ: أَنْ تُحْسِنَ إِلَيْهِ مَكَانَ إِسَاءَتِهِ إِلَيْكَ، مِثْلَ أَنْ يَذُمَّكَ فَتَمْدَحُهُ وَيَقْتُلُ وَلَدَكَ فَتَفْتَدِي وَلَدَهُ مِنْ يَدِ عَدُوِّهِ، فَإِنَّكَ إِذَا فَعَلْتَ ذَلِكَ انْقَلَبَ عَدُوُّكَ الْمُشَاقُّ مِثْلُ الْوَلِيِّ الْحَمِيمِ مُصَافَاةً لَكَ.

ثُمَّ قَالَ: وَمَا يَلْقَى هَذِهِ الْخَلِيقَةَ أَوِ السَّجِيَّةَ الَّتِي هِيَ مُقَابَلَةُ الْإِسَاءَةِ بِالْإِحْسَانِ إِلَّا أَهْلُ الصَّبْرِ، وَإِلَّا رَجُلُ خَيْرٍ وَفِّقَ لِحَظٍّ عَظِيمٍ مِنَ الْخَيْرِ.

فَإِنْ قُلْتَ: فَهَلَّا قِيلَ: فَادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ؟

قُلْتُ: هُوَ عَلَى تَقْدِيرِ قَائِلٍ قَالَ: فَكَيْفَ أَصْنَعُ؟ فَقِيلَ: ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ. وَقِيلَ: "لَا" مَزِيدَةٌ. وَالْمَعْنَى: وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَالسَّيِّئَةُ.

فَإِنْ قُلْتَ: فَكَانَ الْقِيَاسُ عَلَى هَذَا التَّفْسِيرِ أَنْ يُقَالَ: ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ حَسَنَةٌ، قَالَ: أَجَلْ، وَلَكِنْ وَضَعَ الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ مَوْضِعَ الْحَسَنَةِ، لِيَكُونَ أَبْلَغَ فِي الدَّفْعِ بِالْحَسَنَةِ، لِأَنَّ مَنْ دَفَعَ بِالْحُسْنَى هَانَ عَلَيْهِ الدَّفْعُ بِمَا هُوَ دُونَهَا.

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا–: ﴿بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾[2] الصَّبْرُ عِنْدَ الْغَضَبِ، وَالْحُلْمِ عِنْدَ الْجَهْلِ، وَالْعَفْوِ عِنْدَ الْإِسَاءَةِ، وَفَسَّرَ الْحَظَّ بِالثَّوَابِ.

وَعَنِ الْحَسَنِ –رَحِمَهُ اللَّهُ–: وَاللَّهُ مَا عَظُمَ حَظٌّ دُونَ الْجَنَّةِ، وَقِيلَ: نَزَلَتْ فِي أَبِي سُفْيَانَ بْنِ حَرْبٍ، وَكَانَ عَدُوًّا مُؤْذِيًا لِرَسُولِ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–، فَصَارَ وَلِيًّا مُصَافِيًا.

---

[1] سورة فُصِّلَتْ، الآية .

[2] سورة فُصِّلَتْ، الآية .

﴿وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾[1]

النَّزْغَ وَالنَّسْغَ بِمَعْنًى، وَهُوَ شِبْهُ النَّخْسِ. وَالشَّيْطَانُ يَنْزَغُ الْإِنْسَانَ كَأَنَّهُ يَنْخُسُهُ بِبَعْثِهِ عَلَى مَا لَا يَنْبَغِي. وَجَعَلَ النَّزْغَ نَازِغًا، كَمَا قِيلَ: جَدَّ جَدُّهُ. أَوْ أُرِيدُ: وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ نَازِغٌ وَصْفًا لِلشَّيْطَانِ بِالْمَصْدَرِ، أَوْ لِتَسْوِيلِهِ.

وَالْمَعْنَى: وَإِنْ صَرَفَكَ الشَّيْطَانُ عَمَّا وُصِّيتَ بِهِ مِنَ الدَّفْعِ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ.

﴿فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾[2] مِنْ شَرِّهِ، وَامْضِ عَلَى شَأْنِكَ وَلَا تُطِعْهُ.

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لا يَسْأَمُونَ﴾[3]

الضَّمِيرُ فِي ﴿خَلَقَهُنَّ﴾[4] لِلَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالشَّمْسِ وَالْقَمَرِ، لِأَنَّ حُكْمَ جَمَاعَةِ مَا لَا يَعْقِلُ حُكْمَ الْأُنْثَى أَوِ الْإِنَاثِ. يُقَالُ: الْأَقْلَامُ بَرَيْتُهَا وَبَرَيْتُهُنَّ، أَوْ لَمَّا قَالَ: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ﴾[5] "كُنْ" فِي مَعْنَى الْآيَاتِ، فَقِيلَ: خَلَقَهُنَّ.

فَإِنْ قُلْتَ: أَيْنَ مَوْضِعُ السَّجْدَةِ؟

قُلْتُ: عِنْدَ الشَّافِعِيِّ –رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى–: ﴿تَعْبُدُونَ﴾[6]، وَهِيَ رِوَايَةُ مَسْرُوقٍ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ لِذِكْرِ لَفْظِ السَّجْدَةِ قَبْلَهَا.

وَعِنْدَ أَبِي حَنِيفَةَ –رَحِمَهُ اللَّهُ–: يَسْأَمُونَ، لِأَنَّهَا تَمَامُ الْمَعْنَى، وَهِيَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ وَابْنِ عُمَرَ وَسَعِيدِ بْنِ الْمُسَيِّبِ: لَعَلَّ نَاسًا مِنْهُمْ كَانُوا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ وَالْقَمَرِ

---

1 سورة فُصِّلَتْ ، الآية .
2 سورة فُصِّلَتْ، الآية .
3 سورة فُصِّلَتْ، الآية .
4 سورة فُصِّلَتْ، الآية .
5 سورة فُصِّلَتْ، الآية .
6 سورة فُصِّلَتْ، الآية .

كَالصَّابِئِينَ في عِبَادَتِهِمُ الْكَوَاكِبَ، وَيَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ يَقْصِدُونَ بِالسُّجُودِ لَهُمَا السُّجُودُ لِلَّهِ، فَنُهُوا عَنْ هَذِهِ الْوَاسِطَةِ، وَأُمِرُوا أَنْ يَقْصِدُوا بِسُجُودِهِمْ وَجْهَ اللَّهِ –تَعَالَى– خَالِصًا، وَإِنْ كَانُوا إِيَّاهُ يَعْبُدُونَ وَكَانُوا مُوَحِّدِينَ غَيْرَ مُشْرِكِينَ.

﴿فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا﴾[1] وَلَمْ يَمْتَثِلُوا مَا أُمِرُوا بِهِ وَأَبَوْا إِلَّا الْوَاسِطَةَ فَدَعْهُمْ وَشَأْنَهُمْ، فَإِنَّ اللَّهَ –عَزَّ سُلْطَانُهُ– لَا يَعْدَمُ عَابِدًا وَلَا سَاجِدًا بِالْإِخْلَاصِ، وَلَهُ الْعِبَادُ الْمُقَرَّبُونَ الَّذِينَ يُنَزِّهُونَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ عَنِ الْأَنْدَادِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿عِنْدَ رَبِّكَ﴾[2] عِبَارَةٌ عَنِ الزُّلْفى وَالْمَكَانَةِ وَالْكَرَامَةِ. وَقُرِئَ: (لَا يَسْأَمُونَ) بِكَسْرِ الْيَاءِ.

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[3]

الْخُشُوعُ: التَّذَلُّلُ وَالتَّصَاغُرُ، فَاسْتُعِيرَ لِحَالِ الْأَرْضِ إِذَا كَانَتْ قَحْطَةً لَا نَبَاتَ فيها، كَمَا وَصَفَهَا بِالْهُمُودِ في قَوْلِهِ –تَعَالَى–: ﴿وَتَرَى الأَرْضَ هَامِدَةً﴾[4]، وَهُوَ خِلَافُ وَصْفِهَا بِالِاهْتِزَازِ وَالرُّبُوِّ، وَهُوَ الِانْتِفَاخُ، إِذَا أَخْصَبَتْ وَتَزَخْرَفَتْ بِالنَّبَاتِ كَأَنَّهَا بِمَنْزِلَةِ الْمُخْتَالِ في زِيِّهِ، وَهِيَ قَبْلَ ذَلِكَ كَالذَّلِيلِ الْكَاسِفِ الْبَالِ في الْأَطْمَارِ الرَّثَّةِ. وَقُرِئَ (وَرَبَأَتْ)، أَيْ ارْتَفَعَتْ، لِأَنَّ النَّبْتَ إِذَا هَمَّ أَنْ يَظْهَرَ ارْتَفَعَتْ لَهُ الْأَرْضُ.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا أَفَمَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾[5]

---

1 سورة فُصِّلَتْ، الآية .

2 سورة فُصِّلَتْ، الآية .

3 سورة فُصِّلَتْ، الآية .

4 سورة الْحَجُّ، الآية 55.

5 سورة فُصِّلَتْ، الآية .

يُقَالُ: أَلْحَدَ الْحَافِرُ وَلَحَدَ، إِذَا مَالَ عَنِ الِاسْتِقَامَةِ، فَحَفَرَ فِي شَقٍّ، فَاسْتُعِيرَ لِلِانْحِرَافِ فِي تَأْوِيلِ آيَاتِ الْقُرْآنِ عَنْ جِهَةِ الصِّحَّةِ وَالِاسْتِقَامَةِ، وَقُرِئَ (يُلْحِدُونَ وَيَلْحَدُونَ) عَلَى اللُّغَتَيْنِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿لا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا﴾[1] وَعِيدٌ لَهُمْ عَلَى التَّحْرِيفِ.

## ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾[2]

فَإِنْ قُلْتَ: بِمَ اتَّصَلَ قَوْلُهُ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ﴾[3]؟

قُلْتُ: هُوَ بَدَلٌ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا﴾[4]، وَالذِّكْرُ: الْقُرْآنُ، لِأَنَّهُمْ لِكُفْرِهِمْ بِهِ طَعَنُوا فِيهِ وَحَرَّفُوا تَأْوِيلَهُ.

﴿وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ﴾[5]، أَيْ: مَنِيعٌ مُحْمَى بِحِمَايَةِ اللَّهِ -تَعَالَى-، ﴿لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ﴾[6]، مَثَلٌ كَأَنَّ الْبَاطِلَ لَا يَتَطَرَّقُ إِلَيْهِ وَلَا يَجِدُ إِلَيْهِ سَبِيلًا مِنْ جِهَةٍ مِنَ الْجِهَاتِ حَتَّى يَصِلَ إِلَيْهِ وَيَتَعَلَّقَ بِهِ.

فَإِنْ قُلْتَ: أَمَا طَعَنَ فِيهِ الطَّاعِنُونَ، وَتَأَوَّلَهُ الْمُبْطِلُونَ؟

قُلْتُ: بَلَى، وَلَكِنَّ اللَّهَ قَدْ تَقَدَّمَ فِي حِمَايَتِهِ عَنْ تَعَلُّقِ الْبَاطِلِ بِهِ بِأَنْ قَيَّضَ قَوْمًا عَارَضُوهُمْ بِإِبْطَالِ تَأْوِيلِهِمْ وَإِفْسَادِ أَقَاوِيلِهِمْ، فَلَمْ يَخْلُوا طَعْنُ طَاعِنٍ إِلَّا مَمْحُوقًا، وَلَا قَوْلَ مُبْطِلٍ إِلَّا مُضْمَحِلًّا.

وَنَحْوُهُ قَوْلُهُ -تَعَالَى-: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾[7].

---

1 سورة فُصِّلَتْ، الآية .

2 سورة فُصِّلَتْ، الآية .

3 سورة فُصِّلَتْ، الآية .

4 سورة فَصِّلَتْ، الآية 40.

5 سورة فُصِّلَتْ، الآية .

6 سورة فُصِّلَتْ، الآية .

7 سورة الْحِجْرُ، الآية 9.

﴿مَا يُقَالُ لَكَ إِلا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ﴾[1]

﴿مَا يُقَالُ لَكَ﴾[2]، أَيْ: مَا يَقُولُ لَكَ كُفَّارُ قَوْمِكَ إِلَّا مِثْلُ مَا قَالَ لِلرُّسُلِ كُفَّارُ قَوْمِهِمْ مِنَ الْكَلِمَاتِ الْمُؤْذِيَةِ وَالْمَطَاعِنِ فِي الْكُتُبِ الْمُنَزَّلَةِ.

﴿إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ﴾[3] وَرَحْمَةً لِأَنْبِيَائِهِ ﴿وَذُو عِقَابٍ﴾[4] لِأَعْدَائِهِمْ.

وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ: مَا يَقُولُ لَكَ اللَّهُ إِلَّا مِثْلُ مَا قَالَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ، وَالْمَقُولُ: هُوَ قَوْلُهُ –تَعَالَى–: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ﴾[5]، فَمِنْ حَقِّهِ أَنْ يَرْجُوَهُ أَهْلُ طَاعَتِهِ وَيَخَافَهُ أَهْلُ مَعْصِيَتِهِ، وَالْغَرَضُ: تَخْوِيفُ الْعُصَاةِ.

﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾[6]

كَانُوا لِتَعَنُّتِهِمْ يَقُولُونَ: هَلَّا نَزَلَ الْقُرْآنُ بِلُغَةِ الْعَجَمِ، فَقِيلَ: لَوْ كَانَ كَمَا يَقْتَرِحُونَ لَمْ يَتْرُكُوا الِاعْتِرَاضَ وَالتَّعَنُّتَ.

وَقَالُوا: ﴿لَوْلا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ﴾[7]، أَيْ: بُيِّنَتْ وَلُخِّصَتْ بِلِسَانٍ تَفْقَهُهُ.

﴿أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ﴾[8] الْهَمْزَةُ هَمْزَةُ الْإِنْكَارِ، يَعْنِي: لَأَنْكَرُوا وَقَالُوا: أَقُرْآنٌ أَعْجَمِيٌّ وَرَسُولٌ عَرَبِيٌّ، أَوْ مُرْسَلٌ إِلَيْهِ عَرَبِيٌّ.

---

1 سورة فُصِّلَتْ، الآية .
2 سورة فُصِّلَتْ، الآية .
3 سورة فُصِّلَتْ، الآية .
4 سورة فُصِّلَتْ، الآية .
5 سورة فُصِّلَتْ، الآية .
6 سورة فُصِّلَتْ، الآية .
7 سورة فُصِّلَتْ، الآية .
8 سورة فُصِّلَتْ، الآية .

وَقُرِئَ (أَعْجَمِيٌّ) وَالْأَعْجَمِيُّ: الَّذِي لَا يُفْصِحُ وَلَا يُفْهَمُ كَلَامُهُ مِنْ أَيِّ جِنْسٍ كَانَ، وَالْعَجَمِيُّ: مَنْسُوبٌ إِلَى أُمَّةِ الْعَجَمِ.

وَفِي قِرَاءَةِ الْحَسَنِ: (أَعْجَمِيٌّ) بِغَيْرِ هَمْزَةِ الِاسْتِفْهَامِ عَلَى الْإِخْبَارِ بِأَنَّ الْقُرْآنَ أَعْجَمِيٌّ، وَالْمُرْسَلُ أَوِ الْمُرْسَلُ إِلَيْهِ عَرَبِيٌّ.

وَالْمَعْنَى: أَنَّ آيَاتِ اللَّهِ عَلَى أَيِّ طَرِيقَةٍ جَاءَتْهُمْ وَجَدُوا فِيهَا مُتَعَنَّتًا، لِأَنَّ الْقَوْمَ غَيْرُ طَالِبِينَ لِلْحَقِّ وَإِنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ.

وَيَجُوزُ فِي قِرَاءَةِ الْحَسَنِ: هَلَّا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ تَفْصِيلًا، فَجَعَلَ بَعْضَهَا بَيَانًا لِلْعَجَمِ، وَبَعْضَهَا بَيَانًا لِلْعَرَبِ.

فَإِنْ قُلْتَ: كَيْفَ يَصِحُّ أَنْ يُرَادَ بِالْعَرَبِيِّ الْمُرْسَلِ إِلَيْهِمْ وَهُمْ أُمَّةُ الْعَرَبِ؟ قُلْتُ: هُوَ عَلَى مَا يَجِبُ أَنْ يَقَعَ فِي إِنْكَارِ الْمُنْكَرِ لَوْ رَأَى كِتَابًا أَعْجَمِيًّا كُتِبَ إِلَى قَوْمٍ مِنَ الْعَرَبِ يَقُولُ: كِتَابٌ أَعْجَمِيٌّ وَمَكْتُوبٌ إِلَيْهِ عَرَبِيٌّ، وَذَلِكَ لِأَنَّ مَبْنَى الْإِنْكَارِ عَلَى تَنَافُرِ حَالَتَيِ الْكِتَابِ وَالْمَكْتُوبِ إِلَيْهِ، لَا عَلَى أَنَّ الْمَكْتُوبَ إِلَيْهِ وَاحِدٌ أَوْ جَمَاعَةٌ، فَوَجَبَ أَنْ يُجَرَّدَ لِمَا سِيقَ إِلَيْهِ مِنَ الْغَرَضِ، وَلَا يُوصَلُ بِهِ مَا يُخِلُّ غَرَضًا آخَرَ.

أَلَا تَرَاكَ تَقُولُ -وَقَدْ رَأَيْتُ لِبَاسًا طَوِيلًا عَلَى امْرَأَةٍ قَصِيرَةٍ-: اللِّبَاسُ طَوِيلٌ وَاللَّابِسُ قَصِيرٌ؟

وَلَوْ قُلْتَ: وَاللَّابِسَةُ قَصِيرَةٌ، جِئْتَ بِمَا هُوَ، لُكَنَةً وَفُضُولُ قَوْلٍ، لِأَنَّ الْكَلَامَ لَمْ يَقَعْ فِي ذُكُورَةِ اللَّابِسِ وَأُنُوثَتِهِ، إِنَّمَا وَقَعَ فِي غَرَضٍ وَرَاءَهُ.

﴿هُوَ﴾[1]، أَيِ: الْقُرْآنُ، ﴿هُدًى وَشِفَاءٌ﴾[2]: إِرْشَادٌ إِلَى الْحَقِّ وَشِفَاءٌ، ﴿لِمَا فِي الصُّدُورِ﴾[3] مِنَ الظَّنِّ وَالشَّكِّ.

فَإِنْ قُلْتَ: ﴿وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ﴾[4] مُنْقَطِعٌ عَنْ ذِكْرِ الْقُرْآنِ، فَمَا وَجْهُ اتِّصَالِهِ بِهِ؟

قُلْتُ: لَا يَخْلُو إِمَّا أَنْ يَكُونَ (الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ) فِي مَوْضِعِ الْجَرِّ مَعْطُوفًا عَلَى قَوْلِهِ -تَعَالَى-: ﴿لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾[5] عَلَى مَعْنَى قَوْلِكَ: هُوَ لِلَّذِينِ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ، وَهُوَ لِلَّذِينِ لَا

---

[1] سورة فُصِّلَتْ، الآية .

[2] سورة فُصِّلَتْ، الآية .

[3] سورة فُصِّلَتْ، الآية .

[4] سورة فُصِّلَتْ، الآية .

[5] سورة فُصِّلَتْ، الآية .

يُؤْمِنُونَ في آذَانِهِمْ وَقْرٌ، إِلَّا أَنَّ فيهِ عَطْفًا عَلَى عَامِلِينَ وَإِنْ كَانَ الْأَخْفَشُ يُجِيزُهُ. وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ مَرْفُوعًا عَلَى تَقْدِيرِ: وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ هُوَ في آذَانِهِمْ وَقْرٌ عَلَى حَذْفِ الْمُتَبَدَأِ، أَوْ في آذَانِهِمْ مِنْهُ وَقْرٌ، وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى.

وَقُرِئَ: (وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمٌّ) (وَعَمًى)، كَقَوْلِهِ –تَعَالَى–: ﴿فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ﴾[1]، ﴿يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾[2]، يَعْنِي: أَنَّهُمْ لَا يَقْبَلُونَهُ وَلَا يَرْعَوْنَهُ أَسْمَاعَهُمْ، فَمَثَلُهُمْ في ذَلِكَ مِثْلُ مَنْ يَصِيحُ بِهِ مِنْ مَسَافَةٍ شَاطَّةٍ لَا يَسْمَعُ مِنْ مِثْلِهَا الصَّوْتُ، فَلَا يَسْمَعُ النِّدَاءَ.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ﴾[3]

﴿فَاخْتُلِفَ فِيهِ﴾[4]، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: هُوَ حَقٌّ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: هُوَ بَاطِلٌ. وَالْكَلِمَةُ السَّابِقَةُ: هِيَ الْعُدَّةُ بِالْقِيَامَةِ، وَأَنَّ الْخُصُومَاتِ تَفْصِلُ في ذَلِكَ الْيَوْمِ، وَلَوْلَا ذَلِكَ لَقَضَى بَيْنَهُمْ في الدُّنْيَا.

قَالَ اللَّهُ –تَعَالَى–: ﴿بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ﴾[5]، وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى.

﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾[6]

﴿فَلِنَفْسِهِ﴾[7]: فَنَفْسُهُ نَفْعٌ.

﴿فَعَلَيْهَا﴾[8]: فَنَفْسُهُ ضُرٌّ.

---

1 سورة هُودٌ، الآية 28.
2 سورة فُصِّلَتْ، الآية .
3 سورة فُصِّلَتْ، الآية .
4 سورة فُصِّلَتْ، الآية .
5 سورة الْقَمَرُ، الآية 46.
6 سورة فُصِّلَتْ، الآية .
7 سورة فُصِّلَتْ، الآية .
8 سورة فُصِّلَتْ، الآية .

﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَامٍ﴾[1]، فيعَذِّبُ غَيْرَ الْمُسِيءِ.

﴿إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِنْ ثَمَرَاتٍ مِنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلا تَضَعُ إِلا بِعِلْمِهِ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَائِي قَالُوا آذَنَّاكَ مَا مِنَّا مِنْ شَهِيدٍ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَدْعُونَ مِنْ قَبْلُ وَظَنُّوا مَا لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ﴾[2]

﴿إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾[3]، أَيْ: إِذَا سُئِلَ عَنْهَا قِيلَ: اللَّهُ يَعْلَمُ، أَوْ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا اللَّهُ. وَقُرِئَ (مِنْ ثَمَرَاتٍ مِنْ أَكْمَامِهِنَّ). وَالْكَمُّ -بِكَسْرِ الْكَافِ- وِعَاءُ الثَّمَرَةِ، كَجَفِّ الطَّلْعَةِ، أَيْ: وَمَا يَحْدُثُ شَيْءٌ مِنْ خُرُوجِ ثَمَرَةٍ وَلَا حَمْلَ حَامِلٍ وَلَا وَضْعَ وَاضِعٍ إِلَّا وَهُوَ عَالِمٌ بِهِ. يَعْلَمُ عَدَدَ أَيَّامِ الْحَمْلِ وَسَاعَاتِهِ وَأَحْوَالِهِ: مِنَ الْخِدَاجِ وَالتَّمَامِ، وَالذُّكُورَةِ وَالْأُنُوثَةِ، وَالْحُسْنِ وَالْقُبْحِ وَغَيْرِ ذَلِكَ.

﴿أَيْنَ شُرَكَائِي﴾[4] أَضَافَهُمْ إِلَيْهِ -تَعَالَى- عَلَى زَعْمِهِمْ، وَبَيَانِهِ فِي قَوْلِهِ -تَعَالَى-: ﴿أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾[5]، وَفِيهِ تَهَكُّمٌ وَتَقْرِيعٌ.

﴿آذَنَّاكَ﴾: أَعْلَمْنَاكَ ﴿مَا مِنَّا مِنْ شَهِيدٍ﴾[6]، أَيْ: مَا مِنَّا أَحَدٌ الْيَوْمَ -وَقَدْ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا- يَشْهَدُ بِأَنَّهُمْ شُرَكَاؤُكَ، أَيْ: مَا مِنَّا إِلَّا مَنْ هُوَ مُوَحِّدٌ لَكَ، أَوْ مَا مِنَّا مِنْ أَحَدٍ يُشَاهِدُهُمْ، لِأَنَّهُمْ ضَلُّوا عَنْهُمْ وَضَلَّتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمْ، لَا يُبْصِرُونَهَا فِي سَاعَةِ التَّوْبِيخِ، وَقِيلَ: هُوَ كَلَامُ الشُّرَكَاءِ، أَيْ: مَا مِنَّا مِنْ شَهِيدٍ يَشْهَدُ بِمَا أَضَافُوا إِلَيْنَا مِنَ الشَّرِكَةِ.

وَمَعْنَى ضَلَالِهِمْ عَنْهُمْ عَلَى هَذَا التَّفْسِيرِ: أَنَّهُمْ لَا يَنْفَعُونَهُمْ، فَكَأَنَّهُمْ ضَلُّوا عَنْهُمْ ﴿وَظَنُّوا﴾[7] وَأَيْقَنُوا.

وَالْمَحِيصُ: الْمَهْرَبُ.

---

1 سورة فُصِّلَتْ، الآية .

2 سورة فُصِّلَتْ، الآية .

3 سورة فُصِّلَتْ، الآية .

4 سورة فُصِّلَتْ، الآية .

5 سورة الْقَصَصُ، الآية 62.

6 سورة فُصِّلَتْ، الآية .

7 سورة فُصِّلَتْ، الآية .

فَإِنْ قُلْتَ: ﴿آذَنَّاكَ﴾[1] إِخْبَارٌ بِإِيذَانٍ كَانَ مِنْهُمْ، فَإِذْ قَدْ آذَنُوا فَلِمَ سُئِلُوا؟

قُلْتُ: يَجُوزُ أَنْ يُعَادَ عَلَيْهِمْ: ﴿أَيْنَ شُرَكَائِي﴾[2]؟ إِعَادَةً لِلتَّوْبِيخِ، وَإِعَادَتُهُ فِي الْقُرْآنِ عَلَى سَبِيلِ الْحِكَايَةِ: دَلِيلٌ عَلَى إِعَادَةِ الْمُحْكَى.

وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الْمَعْنَى: أَنَّكَ عَلِمْتَ مِنْ قُلُوبِنَا وَعَقَائِدِنَا الْآنَ أَنَّا لَا نَشْهَدُ تِلْكَ الشَّهَادَةَ الْبَاطِلَةَ، لِأَنَّهُ إِذَا عَلِمَهُ مِنْ نُفُوسِهِمْ فَكَأَنَّهُمْ أَعْلَمُوهُ.

وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ إِنْشَاءً لِلْإِيذَانِ وَلَا يَكُونُ إِخْبَارًا بِإِيذَانٍ قَدْ كَانَ، كَمَا تَقُولُ: أَعْلَمُ الْمُلْكَ أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْأَمْرِ كَيْتُ وَكَيْتُ.

﴿لا يَسْأَمُ الإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَى فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾[3]

﴿مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ﴾[4] مِنْ طَلَبِ السِّعَةِ فِي الْمَالِ وَالنِّعْمَةِ. وَقَرَأَ ابْنُ مَسْعُودٍ: مِنْ دُعَاءٍ بِالْخَيْرِ.

﴿وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ﴾[5]، أَيِ: الضَّيِّقَةُ وَالْفَقْرُ.

﴿فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ﴾[6] بُولِغَ فِيهِ مِنْ طَرِيقَيْنِ: مِنْ طَرِيقِ بِنَاءِ فَعَوَّلٍ، وَمِنْ طَرِيقِ التَّكْرِيرِ وَالْقُنُوطُ أَنْ يَظْهَرَ عَلَيْهِ أَثَرُ الْيَأْسِ فيتَضَاءَلُ وَيَنْكَسِرُ، أَيْ: يَقْطَعُ الرَّجَاءَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَرَوْحِهِ.

وَهَذِهِ صِفَةُ الْكَافِرِ بِدَلِيلِ قَوْلِهِ -تَعَالَى-: ﴿إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾[7].

---

1 سورة فُصِّلَتْ، الآية .

2 سورة فُصِّلَتْ، الآية .

3 سورة فُصِّلَتْ، الآية .

4 سورة فُصِّلَتْ، الآية .

5 سورة فُصِّلَتْ، الآية .

6 سورة فُصِّلَتْ، الآية .

7 سورة يُوسُفُ، الآية 87.

وَإِذَا فَرَّجْنَا عَنْهُ بِصِحَّةٍ بَعْدَ مَرَضٍ أَوْ سِعَةٍ بَعْدَ ضِيقٍ قَالَ: ﴿هَذَا لِي﴾[1]، أَيْ: هَذَا حَقٌّ وَصَلَ إِلَيَّ، لِأَنِّي اسْتَوْجَبْتُهُ بِمَا عِنْدِي مِنْ خَيْرٍ وَفَضْلٍ وَأَعْمَالِ بِرٍّ، أَوْ هَذَا لِي لَا يَزُولُ عَنِّي، وَنَحْوُهُ قَوْلُهُ –تَعَالَى–: ﴿فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ﴾[2].

وَنَحْوُهُ قَوْلُهُ –تَعَالَى–: ﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً إِنْ نَظُنُّ إِلا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ﴾[3]، يُرِيدُ: وَمَا أَظُنُّهَا تَكُونُ، فَإِنْ كَانَتْ عَلَى طَرِيقِ التَّوَهُّمِ "إِنَّ لِي" عِنْدَ اللَّهِ الْحَالَةُ الْحُسْنَى مِنَ الْكَرَامَةِ وَالنِّعْمَةِ، قَائِسًا أَمْرَ الْآخِرَةِ عَلَى أَمْرِ الدُّنْيَا.

وَعَنْ بَعْضِهِمْ: لِلْكَافِرِ أُمْنِيَّتَانِ، يَقُولُ فِي الدُّنْيَا: ﴿وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَى﴾[4]. وَيَقُولُ فِي الْآخِرَةِ: ﴿يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا﴾[5].

وَقِيلَ: نَزَلَتْ فِي الْوَلِيدِ بْنِ الْمُغِيرَةِ. فَلَنُخْبِرَنَّهُمْ بِحَقِيقَةِ مَا عَمِلُوا مِنَ الْأَعْمَالِ الْمُوجِبَةِ لِلْعَذَابِ، وَلَنُبْصِرَنَّهُمْ عَكْسَ مَا اعْتَقَدُوا فِيهَا أَنَّهُمْ يَسْتَوْجِبُونَ عَلَيْهَا كَرَامَةً وَقُرْبَةً عِنْدَ اللَّهِ.

﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾[6]، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ كَانُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ وَطَلَبًا لِلافْتِخَارِ وَالِاسْتِكْبَارِ لَا غَيْرُ، وَكَانُوا يَحْسَبُونَ أَنَّ مَا هُمْ عَلَيْهِ سَبَبُ الْغِنَى وَالصِّحَّةِ، وَأَنَّهُمْ مَحْقُوقُونَ بِذَلِكَ.

## ﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ﴾[7]

---

1 سورة فُصِّلَتْ، الآية .

2 سورة الْأَعْرَافُ، الآية 131.

3 سورة الْجَاثِيَةُ، الآية 32.

4 سورة فُصِّلَتْ، الآية .

5 سورة فُصِّلَتْ، الآية .

6 سورة الْفُرْقَانُ، الآية 23.

7 سورة فُصِّلَتْ، الآية .

هَذَا أَيْضًا ضَرْبٌ آخَرُ مِنْ طُغْيَانِ الْإِنْسَانِ إِذَا أَصَابَهُ اللَّهُ بِنِعْمَةٍ أَبْطَرَتْهُ النِّعْمَةُ، وَكَأَنَّهُ لَمْ يَلْقَ بُؤْسًا قَطُّ، فَنَسِيَ الْمُنْعِمَ وَأَعْرَضَ عَنْ شُكْرِهِ، ﴿وَنَأَى بِجَانِبِهِ﴾[1]، أَيْ: ذَهَبَ بِنَفْسِهِ وَتَكَبَّرَ وَتَعَظَّمَ. وَإِنَّ مَسَّهُ الضُّرُّ وَالْفَقْرُ: أَقْبَلَ عَلَى دَوَامِ الدُّعَاءِ وَأَخَذَ فِي الِابْتِهَالِ وَالتَّضَرُّعِ.

وَقَدِ اسْتُعِيرَ الْعَرَضُ لِكَثْرَةِ الدُّعَاءِ وَدَوَامِهِ، وَهُوَ مِنْ صِفَةِ الْأَجْرَامِ وَيُسْتَعَارُ لَهُ الطَّوِيلُ أَيْضًا كَمَا اسْتُعِيرَ الْغِلَظُ بِشِدَّةِ الْعَذَابِ.

وَقُرِئَ (وَنَأَى بِجَانِبِهِ) بِإِمَالَةِ الْأَلِفِ وَكَسْرِ النُّونِ لِلْإِتْبَاعِ. وَنَاءَ عَلَى الْقَلْبِ، كَمَا قَالُوا: رَاءٍ فِي رَأْيٍ.

فَإِنْ قُلْتَ: حَقَّقَ لِي مَعْنَى قَوْلِهِ -تَعَالَى-: ﴿وَنَأَى بِجَانِبِهِ﴾[2].

قُلْتُ: فِيهِ وَجْهَانِ: أَنْ يُوضَعَ جَانِبُهُ مَوْضِعَ نَفْسِهِ كَمَا ذَكَرْنَا فِي قَوْلِهِ -تَعَالَى-: ﴿عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ﴾[3] أَنَّ مَكَانَ الشَّيْءِ وَجِهَتَهُ يَنْزِلُ مَنْزِلَةَ الشَّيْءِ نَفْسِهِ.

وَمِنْهُ قَوْلُهُ:

.....وَتَقَيْتُ عَنْهُ مَقَامَ الذِّئْبِ

.. .. .. ..

يُرِيدُ: وَنَفيتُ عَنْهُ الذِّئْبُ.

وَمِنْهُ: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ﴾[4].

وَمِنْهُ قَوْلُ الْكِتَابِ: حَضَرَتْ فُلَانٌ وَمَجْلِسَهُ، وَكَتَبَتْ إِلَى جِهَتِهِ وَإِلَى جَانِبِهِ الْعَزِيزُ، يُرِيدُونَ نَفْسَهُ وَذَاتَهُ، فَكَأَنَّهُ قَالَ: وَنَأَى بِنَفْسِهِ، كَقَوْلِهِمْ فِي الْمُتَكَبِّرِ: ذَهَبَ بِنَفْسِهِ، وَذَهَبَتْ بِهِ الْخُيَلَاءُ كُلَّ مَذْهَبٍ، وَعَصَفَتْ بِهِ الْخُيَلَاءُ، وَأَنْ يُرَادَ بِجَانِبِهِ: عَطْفُهُ، وَيَكُونُ عِبَارَةً عَنِ الِانْحِرَافِ وَالِازْوِرَارِ، كَمَا قَالُوا: ثَنَى عِطْفِهِ، وَتَوَلَّى بِرُكْنِهِ.

## ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ مِنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾[5]

---

[1] سورة فُصِّلَتْ، الآية .

[2] سورة فُصِّلَتْ، الآية .

[3]

[4] سورة الرَّحْمَنُ، الآية 46.

[5] سورة فُصِّلَتْ، الآية .

﴿أَرَأَيْتُمْ﴾[1] أَخْبَرُونِي ﴿إِنْ كَانَ﴾[2] الْقُرْآنُ ﴿مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾[3]، يَعْنِي أَنَّ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ إِنْكَارِ الْقُرْآنِ وَتَكْذِيبِهِ لَيْسَ بِأَمْرٍ صَادِرٍ عَنْ حُجَّةٍ قَاطِعَةٍ حَصَلْتُمْ مِنْهَا عَلَى الْيَقِينِ وَثَلْجِ الصُّدُورِ؛ وَإِنَّمَا هُوَ قَبْلَ النَّظَرِ وَاتِّبَاعُ الدَّلِيلِ أَمْرٌ مُتَحَمِّلٌ، يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، وَأَنْ لَا يَكُونُ مِنْ عِنْدِهِ، وَأَنْتُمْ لَمْ تَنْظُرُوا وَلَمْ تَفْحَصُوا، فَمَا أَنْكَرْتُمْ أَنْ يَكُونَ حَقًّا، وَقَدْ كَفَرْتُمْ بِهِ.

فَأَخْبِرُونِي مَنْ أَضَلُّ مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ أَبْعَدْتُمُ الشَّوْطَ فِي مُشَاقَّتِهِ وَمُنَاصَبَتِهِ، وَلَعَلَّهُ حَقٌّ فَأَهْلَكْتُمْ أَنْفُسَكُمْ؟

وَقَوْلُهُ –تَعَالَى–: ﴿مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾[4] مَوْضُوعٌ مَوْضِعَ مِنْكُمْ، بَيَانًا لِحَالِهِمْ وَصِفَتِهِمْ.

﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ أَلا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَاءِ رَبِّهِمْ أَلا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ﴾[5]

﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ﴾[6]، يَعْنِي: مَا يَسُرُّ اللَّهَ –عَزَّ وَجَلَّ– لِرَسُولِهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– وَلِلْخُلَفَاءِ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْصَارِ دِينِهِ فِي آفَاقِ الدُّنْيَا وَبِلَادِ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ عُمُومًا وَفِي بَاحَةِ الْعَرَبِ خُصُوصًا: مِنَ الْفُتُوحِ الَّتِي لَمْ يَتَيَسَّرْ أَمْثَالُهَا لِأَحَدٍ مِنْ خُلَفَاءِ الْأَرْضِ قَبْلَهُمْ، وَمِنَ الْإِظْهَارِ عَلَى الْجَبَابِرَةِ وَالْأَكَاسِرَةِ، وَتَغْلِيبُ قَلِيلِهِمْ عَلَى كَثِيرِهِمْ، وَتَسْلِيطُ ضِعَافِهِمْ عَلَى أَقْوِيَائِهِمْ، وَإِجْرَائِهِ عَلَى أَيْدِيهِمْ أُمُورًا خَارِجَةً مِنَ الْمَعْهُودِ خَارِقَةً لِلْعَادَاتِ، وَنَشْرِ دَعْوَةِ الْإِسْلَامِ فِي أَقْطَارِ الْمَعْمُورَةِ، وَبَسْطِ دَوْلَتِهِ فِي أَقَاصِيهَا، وَالِاسْتِقْرَاءُ يُطْلِعُكَ –فِي التَّوَارِيخِ وَالْكُتُبِ الْمُدَوَّنَةِ فِي مَشَاهِدِ أَهْلِهِ وَأَيَّامِهِمْ– عَلَى عَجَائِبَ لَا تَرَى

---

1 سورة فُصِّلَتْ، الآية .
2 سورة فُصِّلَتْ، الآية .
3 سورة فُصِّلَتْ، الآية .
4 سورة فُصِّلَتْ، الآية .
5 سورة فُصِّلَتْ، الآية .
6 سورة فُصِّلَتْ، الآية .

وَقْعَةً مَنْ وَقَائِعِهِمْ إِلَّا عَلَمًا مِنْ أَعْلَامِ اللَّهِ وَآيَةً مِنْ آيَاتِهِ، يَقْوَى مَعَهَا الْيَقِينُ، وَيَزْدَادُ بِهَا الْإِيمَانُ، وَيَتَبَيَّنُ أَنَّ دِينَ الْإِسْلَامِ هُوَ دِينُ الْحَقِّ الَّذِي لَا يَحِيدُ عَنْهُ إِلَّا مُكَابِرٌ حِسُّهُ مُغَالِطٌ نَفْسُهُ؛ وَمَا الثَّبَاتُ وَالِاسْتِقَامَةُ إِلَّا صِفَةُ الْحَقِّ وَالصِّدْقِ، كَمَا أَنَّ الْإِضْرَابَ وَالتَّزَلْزُلَ صِفَةُ الْفِرْيَةِ وَالزُّورِ، وَأَنَّ لِلْبَاطِلِ رِيحًا تَخْفَقُ ثُمَّ تَسْكُنُ، وَدَوْلَةٌ تَظْهَرُ ثُمَّ تَضْمَحِلُّ.

﴿بِرَبِّكَ﴾[1] في مَوْضِعِ الرَّفْعِ عَلَى أَنَّهُ فَاعِلُ كَفى.

وَ﴿أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾[2] بَدَلٌ مِنْهُ، تَقْدِيرُهُ: أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّ رَبَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ. وَمَعْنَاهُ: أَنَّ هَذَا الْمَوْعُودَ مِنْ إِظْهَارِ آيَاتِ اللَّهِ في الْآفَاقِ وَفى أَنْفُسِهِمْ سَيَرُونَهُ وَيُشَاهِدُونَهُ، فيتَبَيَّنُونَ عِنْدَ ذَلِكَ أَنَّ الْقُرْآنَ تَنْزِيلُ عَالِمِ الْغَيْبِ الَّذِي هُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ، أَيْ: مُطَّلِعٌ مُهَيْمِنٌ يَسْتَوِي عِنْدَهُ غَيْبُهُ وَشَهَادَتُهُ، فيكْفيهِمْ ذَلِكَ دَلِيلًا عَلَى أَنَّهُ حَقٌّ وَأَنَّهُ مِنْ عِنْدِهِ، وَلَوْ لَمْ يَكُنْ كَذَلِكَ لَمَا قَوِيَ هَذِهِ الْقُوَّةَ، وَلَمَا نَصَرَ حَامِلُوهُ هَذِهِ النُّصْرَةَ.

وَقُرِئَ (فى مِرْيَةٍ) بِالضَّمِّ، وَهِيَ الشَّكُّ.

﴿مُحِيطٌ﴾[3]: عَالِمٌ بِجُمَلِ الْأَشْيَاءِ وَتَفَاصِيلُهَا وَظَوَاهِرُهَا وَبَوَاطِنُهَا، فَلَا تَخْفى عَلَيْهِ خَافِيَةٌ مِنْهُمْ، وَهُوَ مُجَازِيهِمْ عَلَى كُفْرِهِمْ وَمَرِيَّتِهِمْ في لِقَاءِ رَبِّهِمْ.

عَنْ رَسُولِ اللَّهِ –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: "مَنْ قَرَأَ سُورَةَ السَّجْدَةِ أَعْطَاهُ اللَّهُ بِكُلِّ حَرْفٍ عَشْرَ حَسَنَاتٍ".

---

[1] سورة فُصِّلَتْ، الآية .

[2] سورة فُصِّلَتْ، الآية .

[3] سورة فُصِّلَتْ، الآية .

# بانكّ ـ ايونحَ

| | | |
|---|---|---|
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |

| | | |
|---|---|---|
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |

| | | |
|---|---|---|
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |

| | | |
|---|---|---|
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |

| | | |
|---|---|---|
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |

| | | |
|---|---|---|
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |

| | | |
|---|---|---|
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |

| | | |
|---|---|---|
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |

| | | |
|---|---|---|
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |

| | | |
|---|---|---|
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |

| | | |
|---|---|---|
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |

| | | |
|---|---|---|
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |

| | | |
|---|---|---|
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |

| | | |
|---|---|---|
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |

| | | |
|---|---|---|
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |

| | | |
|---|---|---|
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |
| | | |

محتويات الكتاب 61 – 64

**النّاشر: شركة كيرانيس للطّباعة والنّشر والتّوزيع**
**العنوان: إقامة الزّيتونة – III/2 – المنار 2 – تونس – الجمهوريّة التّونسيّة**
**الهاتف: 71886914 216+**
**الفاكس: 71886872 216+**
**العنوان الالكتروني: JomaaAssaad@yahoo.fr**
**معرّف النّاشر: 02-9938**
**عدد الطّبعة: الأولى**
**ت د م ك: 978-9938-02-070-6**

**© جميع الحقوق محفوظة لشركة كيرانيس للطّباعة والنّشر والتّوزيع**